

رواية

العاصفة المعدنية

أوركون أوشار

براق تورنا

ترجمة

محمد مولود فاقي

نينوى

١٢٤٤٩٢

العاصفة المعدنية

الحرب الأمريكية - التركية

اسم الكتاب: العاصفة المعدنية

الحرب الأمريكية- التركية

اسم المؤلفان: أوركون أوشار- براق تورنا

حقوق الطبع محفوظة

٢٠٠٦/١٠٠٠

نينوى

للدراسات والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص ب ٧٩١٧

تلفاكس: ٥١٣٦٥٢٦ ١١ ٩٦٣+

ninawa@scs-net.orgE-mail:

لا يجوز نقل، أو اقتباس، أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلةٍ كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

العمليّات الفنية التنضيد والإخراج والطباعة

دار نينوى – دمشق

أوركون أوشار-   براق تورنا

العاصفة المعدنية

الحرب الأمريكية-   التركية

ترجمة : محمد مولود فاقي

رواية

القســم الأول

الحرب تبدأ

٢٣ أيار ٢٠٠٧ — الساعة ١٢,١٠ الثانية عشرةَ وعشر دقائق ليلاً
شمال شرق كركوك

كان الظلام قد تحوّل إلى غطاء للطبيعة. حتى أصوات الحشرات الليلية لم تكن تُسمع داخل هذا الصمت المطبق. كان هذا المكان يقع على حدود المنطقة الجبلية من شمال العراق. مكان تنتهي فيه الصحراء وتبدأ الأراضي السهلة الممزوجة ببعض الهضاب. كانت منطقة الجبال على خط الأفق يتراءى على شكل أخيلة داخل الظلام.. والسهول المترامية الأطراف كانت تقطعها بين مسافة وأخرى بعض التلال الصغيرة.. كانت منطقة جغرافية صعبة بالنسبة للتراب والإنسان. وكأنها لوحة حُبلى بكثير من الأشياء لم تكن تظهر، ولكنها كانت تستر المشاكل المستقبلية التي كانت تُغذّيها في أعماقها.

هذه اللحظة الجامدة.. انتهكت بداية من رجفة مجهولة. ثم سُمعت أصوات بعض الصخور تتدحرج فوق التربة من بين تلك الصخور الضخمة التي كانت على حدود الصحراء والمنطقة الجبلية.. ثم سمعت أصوات الأحذية العسكرية. خرج الجنود بسرعة من التجويف الصخري الذي كانوا فيه.

ونزلوا بسرعة أيضاً من التلة نحو الأسفل. كانت وجوههم وأيديهم مغطاة بالوحل الأسود.. كانوا مرهقين.. لأنهم منذ يومين لم يتناولوا إلا النذر اليسير من الطعام. كانوا يحاولون البقاء على قيد الحياة. والآن كانوا مجبرين على الجري السريع. وكل واحد منهم يحمل على ظهره أكثر من أربعين كيلو غراماً من الأشياء والأغراض. وحظهم الوحيد كان جريهم نحو الأسفل. ودون أن يظهروا

أنفسهم للجنود الغرباء الذين كانوا على بعد كيلو مترين اثنين.

كان الملازم الأول /ألبر/ قد نزل جرياً نحو الأسفل. والذي كان يرأس فصلاً من الاستطلاع يتكون من اثني عشر جندياً. ومن خلفه نزل الجنود قافزين نحو الأسفل. كانوا لا يرون حتى من مئة متر وليس من كيلو مترين – انزلقت الأخيلة داخل الظلام من رأس التلة نحو الأسفل بسرعة كبيرة. وتم الجري بعض الوقت على السهل أيضاً كانوا قد راقبوا من بين الصخور مركز القيادة لإحدى القطع العسكرية القوية. إذ كانوا قد أحسوا بهم حتماً سيتم ضربهم ولا شك في ذلك أبداً. وبعد جري على مدى عشرين دقيقة اصطفوا خلف بعضهم بعضاً وستروا أنفسهم خلف صخرة كبيرة. وكان حامل الرشاش، وهو أضخمهم قد سدد رشاشه نحو الجهة التي قدموا منها.

كان الملازم الأول /ألبر/ قد نزل وركّز نفسه فوق إحدى ركبتيه اقترب منه الجندي الذي يحمل جهاز اللاسلكي وفتح خط الرسائل "من النسر إلى البوم.. تمام".

كان الملازم الأول قد بدأ فقدان صبره:

- "من البوم إلى النسر... أكملوا.. تمام"
- "نفيدكم علماً.. بأنه قد ظهرت لنا إحداثيات مركز قيادة الوحدة العسكرية على بعد خمسة عشر كيلو متراً شمال شرق كركوك.
- وإنه قد تمّت ملاحظة بعض التحركات العسكرية داخل هذه الوحدة"
- من البوم.. إلى النسر.. أدامكم الله... تمام"
- فهمنا الأمر.. تمام".

انتقل /ألبر/ زحفاً إلى مكان وجود الجندي المغاوير /أويغار/. الذي كان يراقب مركز القيادة بالمنظار.. عندما مدَّ /أويغار/ المنظار إلى قائده أشار بيده إلى نقطتين. كانت ثمة شاحنة بيضاء صغيرة قد مرت من باب مركز القيادة دون تأخير.. وكانت تتجه نحو الخيمة.

وقبل أن تدخل إليها صعدت إلى الشاحنة مجموعة من المسلحين المغطين رؤوسهم.

قال أويغار: ""أقطع رأسي إذا لم يكونوا من /البشمرغة/"".

لم يجبه /ألبر/. كانت الهجمات قد زادت كثيراً على العناصر غير الكردية في كركوك في الآونة الأخيرة. ولم تكن التحذيرات الصادرة من /أنقرة/ تلاقي صدى لا ضمن الحكومة الكردية ولا الحكومة الأميركية. وكأن الحكومة الأمريكية قد وقعت كلياً بيد اللوبي اليهودي واليوناني والأرمني. والتوتر كان يتصاعد حول موضوع قبرص الشمالية أيضاً.

كان ابتداء التوتر في شمال العراق وظهور بوادر خطر تفريغ التركمان من مضمونهم كلياً هناك كانت تُصعِّد وتحقق من اشتراك الأتراك في العملية العسكرية التي رفضوا الدخول فيها سابقاً جبراً وقسراً. إلى جانب كل هذه التطورات كانت التقارير الاستخبارتية تؤكد بأن الجيش الأمريكي قد تهيأت تماماً في الدخول إلى سوريا.. حيث كانت حكومة الأسد في موقف صعب جداً. ولأجل هذا السبب. كان المعلقون السياسيون والعسكريون يرون في صمت الأمريكيين عندما دخلت القوات التركية إلى شمال العراق نابعاً من هذا السبب.

كانت أُذن الجنود المعتادة على الصمت قد لقطت أصداء أصوات قادمة من الأعماق. كانت هذه عبارة عن هزات وارتجاجات تزداد قوتها بشكل نظامي. فهم الملازم الأول /ألبر/ ماهية الصوت بعد ثوانٍ قليلة. كانت طائرة مُروحية /هيلوكبتر/ وكان من الواضح جداً أنها كانت تحوم على شكل دائري في نقطة لا تبعد كثيراً من مكان وجودهم. ولكنهم لم يروا شيئاً لا بريقاً من الضوء ولا لمعة من شرارة. راقبوا الظلام على مدى دقائق. كانوا قد أخذوا وضعية (التخندق) الدفاع تماماً. ولكن لم يكن ثمة هدف في الأطراف حتى يسددوا بنادقهم نحوه. ابتعد الصوت بعد وقت قصير. ولكن ثمة أصوات أخرى بدأت أكثر بعداً تصطدم في أذنهم. أيقظ الملازم الأول (ألبر) حامل الرشاش كي يأخذ مكاناً مناسباً للإطلاق.

حيث تحرك _سردار) سريعاً وابتعد عن زملائه عشرة أمتار تقريباً وركزَّ نفسه خلف صخرة أقل ارتفاعاً. كانا على وشك أن يتبادلا الإشارات بالأيدي. وإذا بضوء قوي يظهر بين (الخندقين) وكأنها لمعة برق قوية. كان جنود فصيل المشاة للبحرية

التركية قد دهشوا من الذي حصل لهم.

كانت عيونهم قد عُميت. والأصوات التي كانت تصل إلى أُذنهم كأنها صادرة من قطعة معدن مخروطي الشكل. لم يعد أحد منهم يعرف ما الذي حصل لهم. كان ثمة انفجار قوي قد حدث بين (سردار) حامل الرشاش والجنود الآخرين. بعد الانفجار مباشرة بدأت القذائف تهطل فوقهم من على بعد مئات الأمتار ومن عدة جهات. وكانت القذائف أو الرصاصات التي تترك أثراً كانت تمزق ستارة الصمت في ظلام الليل.

فتح (ألبر) عينيه.. كان على بعد عدة أمتار من النقطة التي يجب أن يكون فيها. الثياب التي كان يرتديها احترقت وتمزقت إلى أشلاء. كان يَحسُّ بأن ثمة دماءً تنزف من جسده. ولم يكن يحس بأي شيء غير ذلك. على بعد أمتار منه لاحظ عدداً من الأخيلة.. بعضها كانت لا تتحرك والبقية كانت تعطي ردّات فعل عن أجسادهم.. حاول التحرك في مكانه ولكنه لم يقدر كانت رؤية الأطراف من حوله صعبةً جداً الآن ولكنه كان يستطيع رؤية مكان خروج القذائف. فكرّ قليلاً:

"يجب أن تكون الحوّامة التي جاءت قبل قليل قد أحضرت جنوداً ويبدو أنهم كثيرون جداً."

كانت أصوات الحوّامات قد عاودت هديرها ثانيةً. في هذه المرة كانت الأصوات أكثر من المرة الأولى. ارتج الملازم الأول فجأة.

كان ثمة هدير مخيف قد حدث على بعد أمتار منه. تقلّب على نفسه وتحرك من مكانه.. كان (سردار) الذي يستر نفسه خلف الصخرة. قد بدأ الإطلاق من رشاشه، كانت يده تضغط على الزناد دون توقف. كان يرسل بعشرات القذائف نحو المناطق التي تصدر منها القذائف المضاءة. نظر (سردار) نحوه فجأة.. تقابلت عيونهما ونظراتهما.. ابتسما!.

عيَّر (ألبر) رشاشه (G –٣) على الرش وأفرغ عدة مخازن نحو الجهة المُقابلة.. وانبطح على الأرض.. كانت نيران العدو قد انقطعت لفترة وجيزة.. استفاد من هذه اللحظات، وانتقل زحفاً إلى العنصر الذي يحمل جهاز اللاسلكي.. نظر إلى هذا

العنصر.. ولمست يداه شيئاً ما.. انسحب ثانية. كان وضعه سيئاً إلى حد كبير. حيث كانت الشظايا قد قطعت عنقه.. ولم يكن يعرف هل هو على قيد الحياة أم لا؟.

أخذ جهاز اللاسلكي وابتعد من هناك.. في هذه الحال.. كانت النيران العادية تتجه نحو سردار كي تقتله.. احتار الملازم الأول ولم يدر ماذا يفعل وبما أن خندق (سردار) كان سليماً. لم تصبه لا رصاصة ولا شظية. ولكن الرصاصات المعادية كانت تحوّل المكان إلى جهنم. حاول تشغيل اللاسلكي.. لم يكن فيه أي عطل.. ولكن الأصوات الإنكليزية كانت تمتزج بالحزازات الصوتية الصادرة عنه، كان الملازم الأول قد عرف أن عناصر القوات الأمريكية في حالة من الانفعال الشديد كانوا على الدوام يصرخون عبر اللاسلكي.

Takenout – Takenout

حاول الملازم (ألبر) الاتصال بالمركز.. بعد فترة قصيرة وصله جواب ضعيف من الأعماق.

"من البوم إلى النسر أعلمونا بحالكم"

من النسر إلى البوم نحن الآن على بعد كيلو مترين اثنين إلى الجنوب الشرقي من الإحداثيات التي أعطيتها لكم قبل قليل ونواجه بنيران كثيفة جداً. إن الأمريكيين يطلقون النار من كل الجهات.. ومعظم جنودي قد استشهدوا يا سيدي.. نسمع أصوات حوّامات. وفي كل لحظة أترقب هجوماً بالصواريخ.. نحاول أن نتماسك.

كان صوت الملازم الأول (ألبر) يخرج من جهاز اللاسلكي في الطرف الآخر محبطاً وينعكس على شكل أصداء مزينة بقلة الأمل. كان قوّاد لواء المشاة البحرية التركية المتمركزة بالقرب من (كركوك) قد وقفوا على أقدامهم بحدّة وغضب.. كانوا يحاولون فهم الذي حصل مع فصيل الاستطلاع المتقدم. ما هو السبب الذي دعا الأميركيين بالتصوف الهمجي مع هذا الفصيل المتقدم ودون أن تصدر منهم أية حركة عدائية نحوهم. حيث كان وجود القوات التركية في شمال العراق يشكل منعاً للتوتر القائم وخاصة بعد الاحتلال الأمريكي للعراق. حتى إن

الحادثة التي تعرف بفضيحة الشوالات (الأكياس) حيث قبضت القوات الأمريكية على مجموعة كبيرة من قوة الاستخبارات العسكرية التركية وألبست رؤوسهم أكياساً كي لا يروا شيئاً (هذه الحادثة حقيقية وجرت في عام ٢٠٠٣ بعد الاحتلال الأمريكي للعراق وتركت لها أصداء كبيرة بين الأتراك وما تزال صداها تتواصل حتى العام ٢٠٠٥ (المترجم).

كانت هذه الحادثة قد صعّدت من التوتر الشديد بين الطرفين ولكن لم تكن قد وصلت بعد إلى مثل هذا المستوى من التشنج بين الطرفين.

كان الطرفان يتصرفان بحذر شديد. والآن لماذا حصل هذا الاعتداء السافر؟

كانت السيطرة على قادة الطابور في اللواء صعبةً جداً. كانوا عقداء وعمداء وكان كل واحد منهم يحمل بندقية (كلانشينكوف) وكانوا يودّون الذهاب إلى تلك النقطة شخصياً وبمفردهم وكان قائد اللواء الفريق (إحسان أر) يحاول الاتصال مع قيادة الأركان العامة.

كانت الاختلاطات الإلكترونية تتسبب بقطع الاتصال بين وقت وآخر. وبعد فترة قصيرة يعود الاتصال ثانيةً. كان جو الخيمة مشحوناً بدخان السجائر كان الضباط الصغار قد أخرجوا من الخيمة. بعد أن أخذوا أمر الاستعداد (استعدّ) وكان لواء مشاة البحرية التركية بمثابة بؤبؤ عين الجيش التركي ومن أهم القطع الجاهزة للحرب والتي تضم عشرين ألف عسكري وتساندها الحوّامات من طراز (آباتشي).

قال الفريق: (إحسان باشا) إنهم يقتلون جنودنا.. ماذا سنفعل؟

أجابه أحد الضباط وهو قائد لإحدى الكتائب برتبة نقيب:

لنسرع إلى نجدتهم يا سيدي.

قال العميد معاون قائد اللواء: "نعم.. يجب الا نُضيّع الوقت"

- ورئيس الأركان؟

كان قائد اللواء (الجنرال إحسان) مضطرباً وقلقاً إلى حدٍ كبير وحذراً في إصدار أوامره لأنها من الممكن أن تتسبب بسلسلة من الأحداث لا يمكن معرفة عواقبها فيما بعد. وكان الأمريكيون قد اقتربوا منهم كثيراً وكأنهم يريدون

هذا التوتر قصداً عندما تقترب القوات الكبيرة من بعضها يكون عدم التناوش أمر مستحيلاً وبهذا التصرف العادي تكون هذه الفرقة الأمريكية قد تصرفت بشكل أثيم مظهرة العداوة والبغضاء.

تحدث النقيب (حقي سويان) بحدّة وهو قائد الكتيبة الأولى.

"نحن الذين تحت الاعتداء أو الهجمات وليس رئيس الأركان يا سيدي" قال ذلك ونظراته كأنها تثقب الأشياء من حوله. وكانت إفادة مخيفة قد تركزت على وجهه من جرّاء الوحل الذي غطى به وجهه. في الوقت الذي كانت فيه المحادثات تجري داخل الخيمة. كان قد أعطى أمراً لتجهيز وحدة مكونة من عشرين جندياً يرأسهم ملازم وصف ضابط. بسرعة مع رشاشات وقاذفات صواريخ حيث أصبحت جاهزة أمام الخيمة بعد خمس دقائق فقط.

اسمح لي يا سيدي أن أقود هذه الوحدة. إن تجهيز اللواء أو الكتيبة يأخذ وقتاً طويلاً.. وتتضاعف خسائرنا.. أنا أفكر أن ينتقل اللواء إلى وضعية الدفاع مباشرة.. ويظل معنا على اتصال دائم. والإحداثيات معروفة.

ربما يطلبون تغطية جوية لكامل المنطقة:

كان الجنرال إحسان يُحسُّ بالفخر والغرور بهذا النقيب. كان مهووساً ومفكراً مثل أي جنرال.

تمام يا نقيب.. هيا تحركوا مباشرة وخلصوا جنودنا الباقين. أريد منك أن ترد الأمريكيين من هناك. ونحن سنأخذ وضعية الدفاع وننتظر أوامر رئاسة الأركان العامة. وإذا احتاج الامر سنهجم عليهم بكل طاقتنا.

سمعاً وطاعة يا سيدي.

كان صوت النقيب (حقي سويان) قد رجَّ غشاء طبل أذن كل الموجودين داخل الخيمة. وعندما أنهى كلامه خرج بسرعة واتجه جرياً نحو الشاحنة التي كانت تنتظره. والجنود أيضاً صعدوا إلى شاحنتين بسرعة البرق واتجهوا إلى منتصف المعركة. كان مركز المعركة يبعد عنهم حوالي خمساً وأربعين دقيقة كان مركز قيادة اللواء قد بنيت بين التلال. وفي الوقت الذي كانوا فيه يسيرون نحو المعركة. لاحظوا أن جنود الكتائب والسرايا تنتشر هنا وهناك آخذين وضعية

الدفاع. وهم يحفرون الخنادق ويغطون وجوههم بالوحل.

كان النقيب (حقي) في الشاحنة يجلس إلى جانب السائق.

وكانت يده على الزناد دائماً. وبسبب هذا الانفعال المسيطر على الأجواء.. كان الضابط الشاب والجنود لم يدركوا كيف وصل الموقف إلى هذا الحد. كانوا يفكرون بأنهم ذاهبون إلى طرد مجموعة من الإرهابين ورد الاعتداء الأثيم عليهم.

بعد أن مرت ثلاثون دقيقة بدأوا بسماع صوت الرشاشات والانفجارات. كانت ثمة إفادة غريبة مركزة في وجه النقيب. إفادة لا معنى لها تماماً. كانت شفتاه تتحركان كانت الأصوات قد جعلت من الجنود مضطربين.. كان ثمة أصوات كثيرة في الأجواء إلى أي نوع من المعركة كانوا يذهبون؟

والحقيقة كان الملازم الأول (ألبر) في حيرة من أمرهم كيف بقوا على قيد الحياة حتى الآن. كان ثلاثة من عناصره قد وعوا إلى أنفسهم وبدأوا بإطلاق النار وكلهم غاطسون في بحر من الدماء. ولكنهم كانوا يرسلون حمم بنادقهم نحو مصادر النيران المقابلة ودون أن يتحدثوا مع بعضهم كانوا في حالة وكأنهم خارج الزمن. كان جهاز اللاسلكي مفتوحاً لم يكن ثمة كلمات يقولونها للآخرين. القوات المعادية قوية ومن غير الممكن أن يقفوا في وجهها.. بعد قليل ستنتهي مراميهم وسيسقطون شهيداً تلو الآخر. وكان قد اتضح كلياً أنهم لن يدعونهم إلى الاستسلام لأن هجومهم حصل دون إنذار بهذا الإحساس أو بهذه الفكرة أحس الملازم الأول (ألبر) بالراحة. تذكر ابنه وزوجته.. وفكّر بأمه التي كانت تعيش بمفردها في المدينة. كل هذه الوجوه كانت تتحول إلى صور غير مرئية في عقله.. يا ترى هل هم كانوا يغنون أم هو الذي كان يغني. لم يستطع أن يحدد جواب هذا السؤال. نظر إلى يديه.. اللتين لمستا عائلته. هاتان اليدان اللتان كانتا تلمساهم بحب ورأفة. هما الآن غارقتان في الدم والتراب. هاتان اليدان لن تستطيعا أن تلمسهما بعد الآن. كان يعرف أنه لا فائدة ولا معنى من إطلاق النار ولكنهم كانوا يقاتلون وكأنهم سيربحون هذه المعركة.

- "كيف الوضع معك يا جيم؟"

تحدث مع العسكري الذي كان يبتعد عنه بضعة أمتار وهو من إستانبول.

كان صوته قد خرج على شكل صراخ نصفي ومخرخر.

إننا نُخسِّرهم يا سيدي.

كان الجندي الإستانبولي مشحوناً بجو المعركة. كان يظّن أن الرصاصات التي كان يرميها رشاً ودون (نيشان) تصل إلى أهدافها ولكن الرصاصات المخططة التي كانت تظهر في سماء المنطقة.. كان تأثيرها أقل بكثير من تأثير حشرات الليل. نظر الملازم الأول (ألبر) ذو الوجه المقطع إلى جماد الحجارة نظر إلى وجه الجندي الجميل الذي كان يضغط على الزناد بقوة. من يدري كم هم عدد الذين ينتظرون عودته إلى البيت؟ حبيبته وجْهها الندي يشبه وجهه الطفولي وأمه المبتسمة ووالده وآخرون غيرهم. أما هو.. على هاوية الموت.. غائب عن نفسهُ يحاول البقاء حياً دون أمل.

حدث انفجار قوي آخر.. كانت القنبلة قد أصدرت ضوءاً سماوياً لامعاً. الجنديان اللذان كانا قد عادا إلى وعيهما قبل فترة بدآا بالصراخ والعويل.. كان أحدهما (أويفار) أما اسم الثاني كان قد نسيه. كان ذهن (ألبر) يعطي ردّات فعل غريبة. كان قد بدأ بنسيان تفاصيل بعض جوانب حياته.. كانت الشظايا قد ملأت أجساد الجنود الراقدين على الأرض. لم يستطع أن يفعل شيئاً غير النظر إليهم.. لم يستطع أن يتحرك. كان الملازم الأول يتلوى على الأرض وبدأت أذناه (تطنطنان) وربما سيكون عندهم بعد عدة دقائق.. هو بعد الآن جندي شهيد. أحسَّ بأمن المكان الذي تمر منه الحياة قبل أن تحيا عليها. وتتفاعل مع الموت دفعة واحدة. ربما يكون الموت آلة أو فزاعة للخوف ليس إلا مع العلم إذا ما تم فتح بابه سيلاقي أمناً وسكينة بلا نهاية. أحسَّ (ألبر) بأن الدماء تنزف من أذنيه.

كان الطنين الذي يحسُ به قبل قليل.. قد ازداد قوة. كان صوتاً آخر.. كالنضاوي (النضوة) التي تضرب الأرض وكأن مجموعة من الفرسان قد خُلعت من الصخور قادمةً نحوه.

أعطي النقيب (حقي) إيمازاً كي يُوقف سائق الشاحنة "قف" كانوا قد مرّوا لتوّهم من زاوية إحدى الصخور العالية. فوق الصخور ثمة نباتات ضعيفة. أما السهل.. كان متعرجاً ولم يحسّ بالحيرة والدهشة لتحمُّل مجموعة صغيرة من

الجنود كل هذا الوقت وضمن معركة قوية. (لتضاريس المكان) لم يكن يشاهد بعد أرض المعركة ولكنه كان يعرف أنه خلف هذه الصخور (أو هذه المنطقة الصخرية). قفز من الشاحنة.. وأشار بيده إلى الجنود كي ينزلوا.. بسرعة البرق غادر الجنود العشرون الشاحنة طلب النقيب نزول السائقين أيضاً كان يظن بأنهم لن يحتاجوا ثانية إلى هاتين الشاحنتين بعد ذلك. ركض بسرعة ووقف خلف الصخرة ومدّ رأسه كان الجنود الأخرون قد إصطفوا خلفه على خط واحد.

فتح النقيب عينيه بدهشة كبيرة.. ارتجف جسده.. أصابته رعشة.. عند ذلك اقترب منه الجنود وشدوا أيديهم على الأسلحة بشكل غير عادي.

أخرج النقيب خرخرة من حنجرته وهو يقول: ""يا إلهي"" جاء الملازم قائد الفصيل الآخر واقترب منه ومدّ رأسه. هو الأخر كان وجهه قد صار مثل لباسه.

صعب على الإنسان أن يصف منظر اللوحة التي كانت تجري أمامهم، مئات من الأحزمة الضوئية كانت تهطل فوق مكان ضيق جداً.. وتختفي هناك كانت هذه البقعة المستهدفة تُذكرهم بمراحل إذابة الحديد. عندما تقترب الأحزمة الضوئية من بعضها كانت تأخذ شكل نار مستعرة على الدوام. عندما شاهد النقيب والملازم بعض الرصاصات المخططة تخرج من مكان تسعُر النار بدأت الدموع تسيل من عينيهما بغزارة مازال هناك بعض الجنود الأحياء وربما يستشهدون في أية لحظة كان مكان تواجدهم يوازي نقطة المعركة كانوا على مسافة واحدة من الطرفين. جمع النقيب جنوده حوله وقال لهم:

- أولادي الأعزاء.. نحن لا نستطيع الخروج من هنا أحياء. إذا كان بينكم من يريد العودة ليقفز إلى الشاحنة ويعود إلى المركز. أنا لا أستطيع أن أتحمَّل هذه المسؤولية.

- كانت عيون الجنود قد امتلأت بالدموع. لا أحد يتحدث.

كانت أصوات هدير الحوّامات بينما بدأ بالازدياد. كانوا سيرسلون الصواريخ إلى ذلك الجيب الدفاعي الصغير وينهوا العملية.

صرخ أحد الجنود بحدة: ""مستحيل يا سيدي أو غير ممكن يا سيدي واشترك الآخرون معه. كانت عيونهم فارغةً من الأمل ولكنهم كانوا ينظرون إلى قائدهم

مثل الحديد، فتحوا جميعاً زر الآمان وعيّروا بنادقهم على وضعية الرش.

كان معهم خمسة رشاشات آلية.. وجنديان كانا سيستعملان راجمات الصواريخ.

سنطلق قذائفنا إلى منبع الرصاصات المخططة دفعة واحدة. أما الصواريخ أرسلوها نحو مصدر صوت الحوّامات. وإذا ما رأيتم أي خيال أو حركة أطلقوا نحوه.. وأنتم أحرار بعد ذلك.. وسأحاول جاهداً بكل ما أتاني الله من قوة أن أسرع لمساعدة أي واحد منكم. افتحوا النار نحو هؤلاء القذرين.

أجابوه دفعة واحدة: "سمعاً وطاعة يا سيدي".

حمل النقيب جهاز اللاسلكي وفتح الخط مع مركز قيادة اللواء.

إلى اليوم.. هذه رسالتنا الأخيرة لكم. نحن الآن قرب جنودنا المدافعين عن أنفسهم ونحن على أهبة الاستعداد لمهاجمة عناصر الأعداء.. النيران كثيفة جداً.. عودتنا أحياء معجزة كبيرة.

احموا أنفسكم! هذه القوة الجبارة ربما نهاجمكم بعد قليل.. ليكن الله في عونكم.

وأغلق الجهاز دون انتظار الجواب. تنفس الجميع الصعداء.

كانوا يعرفون ما الذي سيفعلونه. ولكن لم تكن عندهم أية فكرة عن النهاية. لكن اليقين الوحيد أن هذا المكان سيتحول بعد قليل إلى بحيرة من الدم. كانوا مجبورين لخداع العدو وتنزيل أكبر الخسائر في صفوفهم. إذا فعلوا هذا الشيء ربما يخلّصون أنفسهم أيضاً.

تفحص النقيب الأطراف بمنظار سلاحه /٨٨- ١٦/، هو الذي كان سيبدأ بإطلاق النار قبل الجميع. ثم ستقوم المعمعة الكبرى كان يستطيع رؤية جنود الأمريكيين من منظار سلاحه. بكل وضوح. كانوا قد (تخندقوا) بشكل جيد. المعركة الآن بالنسبة لهم نوع من التسلية.. هذه السمة كانت مزروعة في وجوههم. وكأنهم لا يخافون من النيران التي كانت ستنصب على رؤوسهم بعد قليل. لم تكن طلقات الجنود الأتراك المجروحين تزرع الخوف في الأمريكيين، ركّز النقيب الرشاش تماماً كانت أكثرية الطلقات المخططة تخرج من رشاشه وكان

ثمة جنديان آخران إلى جانب رامي الرشاش.. كانا يطلقان النيران نحو الأعداء.. بين وقت وآخر. وأغمض النقيب حقي إحدى عينيه وقال (بسم الله): وضغط على الزناد. مع انفجار (٨٨- ١٦). قامت القيامة. كانت أُذن الجنود قد صُمّت. وكأنهم قد دخلوا أو نزلوا إلى داخل بئر أو جُب عميق. كانوا قد طرحوا ذلك الجو النفسي المقيت أرضاً.. فلا معنى بعد الآن لا للأصوات ولا لغيرها. وكأن كل واحد منهم بمفرده.. الطلقات التي أرسلها النقيب هطلت كالأمطار فوق الجنود الأمريكيين.. وسكت الرشاش الآلي مباشرة.. كان النقيب حقي يشاهد الجنود الأمريكيين المطروحين على الأرض يتلوّون من الألم وإذا لم يكونوا مخطئين.. فقد هذه الصراخات تأتي من عندهم.. وكان ثلاثة منهم من الذين كانوا يتخندقون خلف إحدى الصخور.. قد أصيبوا ولكنهم لم يموتوا.. على الأقل أخرجوهم من المعركة.

سمع النقيب جنوده يطلقون النعرات عبر أفواههم والنيران عبر أسلمتهم.. التفت ونظر إليهم. منظر مرعب جداً.. حتى إنه لا يقاس بأي شكل من الأشكال بأفلام الرعب. وكان جنوده العشرون يطلقون النار وبغزارة نحو المنطقة الصخرية التي كانت تبعد عنهم مئة متر تقريباً.. بعض الأحيان (ينشنون) وبعض الأحيان يمشطون المنطقة كلها. أما رماة الرشاشات كانوا قد حضنوا رشاشاتهم البلجيكية من ماركة (PN) كان هذا السلاح سريعاً ومخيفاً إلى حد كبير.. كانوا الآن يصبون الحمم على القوات الأمريكية من مكان تواجدهم بين الصخور. كانت الصراخات قد بدأت تتعالى من الأراضي النائمة تحت الظلام. كانت النيران المرسلة نحو الجنود المجروحين قد انقطعت يجب أن يكون الجنود التابعون للفرقة (١٠١) للإنزال الجوي قد حصّنوا أنفسهم خلف الصخور تجنباً للخسائر. في هذه الأثناء أرسلت الصواريخ تاركة خلفها دخاناً كثيفاً ملأ حلكة الليل، واتجهت نحو الأعداء ثم اختفت عن الأنظار.

كانوا يرون تفتت الصخور وتبعثرها هنا وهناك. في مكان سقوط كل صاروخ كانت أشعة القمر تظهر الأخيلة البشرية براقة. يجب أن تكون الصواريخ من ماركة RPG قد جرحت الكثيرين من الجنود الأمريكيين. كانت الصراخات

قد صارت أكثر حدة.

عندما كان الجنود يغيّرون مخازنهم خفّت وطأة النيران بعض الشيء، اختفى النقيب داخل الظلمة قافزاً مثل الغزال بين أنظار جنده، كانوا يستطيعون سماع صوت أقدامه، بدأوا ثانية بإرسال النار نحو نقط تواجد الأمريكيين.

كانت الصواريخ قد أرسلت ثانية نحو تلك المنطقة. كان الموقف بالنسبة لجنود الفرقة (١٠١) قد أخذت منحى أكثر جدّية وخطورة كانت الصراخات المتصاعدة تذكرهم بالسمفونية كانوا قد أخذوا على حين غرة من أمرهم وبشكل سيء جداً.

ظنّ الملازم الأول (البر) انه يشاهد حلماً.. يجب أن يكون على وشك الموت.. كانت دماغه ترسل له مشاهد مغممة بالأمل. كانت النيران المنصبة فوقهم قد انقطعت كلياً أما الآن فالصراخات تتعالى من جهتهم ومن أماكن تواجدهم. للحظة أو لوهلة قصيرة تبرعمت حبة أمل في روحه. إلا أنه ردّها مباشرة.. هو منذ الآن فصاعداً يُجهّز نفسه إلى المكان الذي صار يتبع إليه (عائد إليه) لم يكن عنده وقت لمثل هذه الأكاذيب. نظر نحو أطرافه.. كانت أجساد الجنود الذين استشهدوا للوهلة الأولى.. عبارة عن أشلاء مبعثرة هنا وهناك.. كانت القذائف المتساقطة على الدوام.. تجدهم كيفما تحركوا. فجأة رأى خيالاً ضخماً يقترب منه.. تبرّعمت ابتسامة في وجهه.

يجب أن يكون هذا أحد الأعداء (الجسورين).. يريد أن يقبض أرواح المتبقين منهم. مدّ يده نحو سلاحه.. كانت ساعده ضعيفة جداً، كان يفكر على أخذ هذا الشجاع معه قبل أن يموت.

أنا تركي.. النقيب حقي.. لا تطلقوا النار يا أولادي.

وصل الصوت إلى آذانهم في الوقت المحدد تماماً. عندما كانت يده على الزناد.. تمدد (البر) طولاً وعرضاً.. جثم الظل فوقه. وانحنى أمامه.. وبما أن عينيه كانتا مملوءتين بالدماء.. لم يكن يرى بما فيه الكفاية. ولكنه فهم أن الوافد صديق من حرارة يده التي لمسته.. ما معنى هذا وما الذي سيتغير؟

صدر صوت قوي من مكان تواجد الأمريكيين.. كان قوياً جداً، وكأنه قد

خرج من فم أفعى. طارت حزمة كبيرة من الضوء واتجهت نحو الصخور التي غادرها النقيب حقي.. وانفجرت.. تناثرت الشظايا والشرارات نحو كل الاتجاهات.. صدر صوت قوي من فم النقيب (يا الله).

كان الصاروخ قد انفجر على الصخور التي ترك فيها جنوده كانت النيران قد انقطعت من هناك. النيران الأمريكية التي كانت قد توقفت بدأت ثانيةً كان الأمريكيون قد رموا عن كاهلهم الحيرة والدهشة.

وبدأوا بإرسال النيران إلى النقطتين دفعة واحدة. في هذه اللحظة تماماً، ظهرت حوّامة من خلف الصخور التي كانت تبعد عنهم عدة مئات من الأمتار. كانت الحوّامة قد ظهرت بسرعة من خلف الصخور وبدأت تمطر النيران – إلى مكان تواجد الأتراك وذلك برشاش (٣٠ م م) كانت مساحة المعركة ضيقة بحيث أن نيران الحوّامة كانت قد أضاءت أرض المعركة كلها. تقابلت نظرات النقيب مع نظرات بعض الجنود الأمريكيين الذين كانوا لا يبعدون عنه كثيراً.

تصادمت النظرات التي لا معنى لها.. توقفت نيران الحوّامة.. ومباشرة بدأت الحزم الضوئية الكبيرة تخرج من أسفل جناحيها.. قذيفة خلف أخرى.. كانت المنطقة الصخرية التي غادرها السيد حقي قبل قليل قد تحولت إلى جهنم.. لم يكن يريد أن يصدق أذنيه.. ولكن أصوات الجنود الأتراك المحروقين.. كانت تصل إلى أذنيه.

لم يكن قد تحدث بعد مع الملازم الأول (ألبر)، عندما رأى تلك الفسحة القصيرة من الراحة على وجهه.. عرف النقيب (حقي) أنه قد قام بأداء واجبه خير قيام. كانا يسمعان أصوات الحركات الميكانيكية الصادرة من الحوّامة. هذه الآلة الحربية القاتلة كانت قد تحركت بسرعة واتجهت صوب النقطة التي هم فيها وكانت على وشك أن تفتح النيران.. وإذا بصاروخ يخرج من بين الصخور التي كانت تشتعل قبل قليل وتصيب الطائرة من أسفل ذنبها. وبدأت تدور وتدور وهي تخرج دخاناً أسوداً. وبعد لحظات كانت قد تحولت إلى كرة نارية ضخمة يستطيع المشاهد البعيد جداً أن يراها. وكانت في الوقت نفسه ضربة حاسمة للجنود الأمريكيين.

كان السيد حقي قد عاد من الموت. وهذا يعني إنه سيعيش بضعة دقائق أخرى. بدأ جنود (١٠١) بإطلاق النار ثانية.. كانت الرصاصات تمر فوق رؤوسهم مصدرة أزيزاً مزعجاً. كانا قد التصقا بالأرض تماماً.. وبعد قليل كانت الرصاصات المخططة ستجدهما.

كان ألبر قد أغمض عينيه ينصت إلى الطنين الذي يؤلم رأسه، أما وجهه فكان يضحك كان يحس بأنه محشور ضمن علبة معدنية ضخمة وفي عالم آخر. كانت الأصوات تقترب وتزداد مع كل تقدم كانت الصرخات تختلف عن الصرخات التي قبلها. ثمة رؤية تشكلت أمام عيني (ألبر).. سواد يقترب نحوه من بعيد.. كان يكبر باضطراد وثمة انفجارات تُسمع. ولكن السواد يتسع دون أن يُظهر تغييراً فيه ويقترب منه أكثر.. كان قد بدأ على تمييز الأصوات.. يسمع أصوات خيول. الآن كان يستمع إلى سمفونية ضخمة تعزفها آلاف من أصوات النضاوي إحساس الوحدة الذي كان في أعماقه ترك سيول النشوة تتفجر من وجه السماء وتهطل فوقه كالأمطار. تزرع الأفراح في روحه. الآن يستطيع أن يُميّز الخيول. وكأنها تجتاز الحواجز بأجنحتها.

صدر صوت من حلقومه (يا إلهي...) كان يراهم، نزلت الدموع من عينيه.. صرخ (هم!..) كان الجنود الأتراك يمتطون الخيول الطائرة.. يتقدمون.. نظراتهم نحو الأمام. كان الملازم أول (ألبر) قد شُلَّ — لم يكن يقدر على الحراك. لم يكن يستطيع أن يُعرّف السعادة التي في أعماقه.. كان يعلم بأن الإحساس الذي يعيشه خاص به فقط، لم يعشه إنسان قبله في هذا العالم. فجأة أصبح وجهه مشاءً.. جفَّ حلقومه.. ثمة لمعة برق خرجت من ذهنه. وثمة صوت ملأ المكان كصدى الرعد. وقبل أن يعم الظلام في كل مكان.. التفت ونظر خلفه.

كان الصاروخ الذي انفجر.. قد قتل الجميع.. نظر السيد حقي إلى ساقيه الممزقتين.. كلاهما ليس في مكانه.. ابتسم. سحب سلاحه وأطلق بعض الرصاصات نحو الجنود الذين كانوا يقتربون منه. اصطدمت بكتلة ضخمة من الحديد.. وبعد ذلك سرى في جسده خدر عميق لفَّ جسده.. كانت عيناه تنظران إلى التراب، وكان فمه قد مُلئ به.. كان يحسُ بهم.. تجمعوا حولهما. يراقبون المكان بدقة متناهية.. كانوا يطلقون النار على أجساد جنود الأتراك المستشهدين وعندما وصل الدور إلى النقيب توقفوا. كانوا قد أحسوا بأنه على قيد الحياة.. ثم سُمع صوت انفجار واحد.

٢٣ أيار ٢٠٠٧ الساعة ١,٤٠

مركز قيادة لواء المشاة البحرية المؤقت

شمال شرق كركوك

كانت الأصوات الصادرة من جهاز اللاسلكي لا تتحمل أبداً قائد اللواء والضباط الذين اجتمعوا حول طاولة المقر.. كانوا في حالةٍ من اليأس المطبق.. لا يدرون ماذا سيفعلون. يستمعون إلى صوت المعركة التي تدور رحاها قريباً منهم كل الجنود الذين ذهبوا إلى هناك لم يطلبوا عوناً من المركز وإنما كانوا قد فتحوا هذا الجهاز لغاية أخرى وكانوا يعرفون أن كل واحد منهم (أي كل جندي دخل إلى المعركة) سيقف وجهاً لوجه مع قدره. كانوا يموتون رويداً رويداً أمام شهادة عناصر مركز القيادة.

كانت الأصوات قد بدأت بالتناقص. وفي كل الأحوال كانت بعض الطلقات تسمع بين حين وآخر عبر جهاز اللاسلكي الذي ظل مفتوحاً. كان جميع الضباط في مركز القيادة، حتى الفريق (إحسان) قائد اللواء، يبكون. كانت الدموع تنزل بغزارة من عيونهم. لم يكن باستطاعتهم فعل أي شيء كانت هيئة الأركان العامة قد سُرّت كثيراً لعدم دخول اللواء بأكمله إلى المعركة. كانوا لا يريدون أن تكون هذه الحادثة سبباً لحرب طاحنة بين الطرفين ولكن تحليل هذا الموقف كان سيأخذ وقتاً طويلاً.

"أعلمنا بالموقف الأخير للمعركة يا بوم تمام."

كانت كلمات رئيس الأركان العامة الجنرال (حكمت بارس) حادةً وآمرة.

انتهت المعركة يا نسر.. جنودنا استشهدوا.. تمام.

كانت كلمات (إحسان أر) تفيد وتعطي معاني كثيرة.. كان صوته قد ضاع بين حشرجات اللاسلكي.

- فهمنا يا بوم خذوا حذركم تماماً وحاولوا البقاء على قيد الحياة بكل

السبل والوسائل.. سنعمل كل شيء حتى نخرجكم من تلك الجهنم.. تمام.

- نسر.. ما هي أوضاع الوحدات الأخرى المتمركزة في شمال العراق؟ تمام..

- بوم.. الأمور ليست على ما يرام.. لواءان اثنان (محشوكان حشكاً). لا يقدرا على المناورة. إذا حاولا التحرك سيكون وضعهما كوضعكم تماماً.. تمام.

- ماذا نفعل؟

ابقوا في مجال الدفاع.. اتركوا الجنود ينتشرون بين الأراضي وليحفروا خنادق لأنفسهم.. دققوا على المضادات الجوية.. وإذا ما حاولت أية وحدة الاقتراب حاولوا بقدر المستطاع إبعادها عنكم. إننا نناقش إذا كان في مقدورنا إخراجكم من هناك بالحوّامات.

- لا ضرورة لذلك.. إذا أمرتنا بالعودة إلى الوطن.. نعود.. لا ضرورة أو لا داعي لتعريض الحوّامات للخطر.. لا أحد يعرف كيف يتصرف هؤلاء الأوغاد. تمام.

- أنت محق يا باشا.. في هذه الحالة ابقوا حيث أنتم.. وتخندقوا على أكمل وجه.. انشروا الكتائب.. سرية.. سرية.. وجهزوا أنفسكم لمعركة (كوماندو) حقيقية.. تمام.

- فهمنا يا سيدي.. تمام.

اتجه الفريق (إحسان أر) نحو قادة الكتائب والسرايا. كان الخوف قد بدا جلياً في وجوه الجميع.. كان الموقف يسوء مع مرور كل دقيقة وثانية.. كانت خسائرهم استشهاد خمسة وثلاثين جندياً.. ولم يكن باستطاعتهم فعل أي شيء.

- اذهبوا يا أولادي على رأس وحداتكم.. وتخندقوا في الأمكنة التي خططت لكم.. خذوا حذركم جيداً وتخندقوا على أكمل وجه. وزعوا السرايا.. واتركوا مسافة ثلاثين متراً بين كل سرية وأخرى.. ولتحفروا الخنادق.. ودعموها ضد الهجمات الجوية. ربما سنبقى هنا بعض الوقت.

- هل دخلنا المعركة يا سيدي؟

كان في صوت النقيب قائد السرية نوعٌ من الحزن والكدر.

هذا الإحساس ناتج من ترك أشياء ما في الخلف.

قال قائد اللواء الجنرال (إحسان أر) هازاً كتفه:

لا نعرف يا بني.. ولكن أعتقد أن معرفتنا لن تطول لحظات.

غادر الضباط الخيمة بسرعة وركبوا سياراتهم (الجيب). لأنهم مسؤولون عن جنودهم.. كانوا لا يقدرون على تسمية العدو الذي أمامهم.. أعداء.. وليس من شك في قوتهم.. وكانوا يستعملون هذه القوة دون تردد.

CNN انترشيونال – معركة في شمال العراق مات ١٣ جندياً أمريكياً وجرح ٣٠ جندياً.. وقد صرح المسؤول العسكري الأمريكي بأن القوات الأمريكية قد قتلت ٣٥ جندياً تركية لأنهم هجموا على قواتنا.

أعلن المتحدث الرسمي باسم البيت الأبيض بأن الحكومة الأمريكية قد أبطلت المحادثات الثنائية التي كانت قد قررت سابقاً بسبب التصرفات العدائية.

قال الرئيس: إننا ندين وبكل شدة تصرفات الجيش التركي العدائي. لأنها جاءت في مرحلة كنا نود فيها حل مشاكلنا مع الحكومة السورية وسنقوم بكل ما هو مطلوب.

واعتباراً من هذا اليوم تحركت القوات الأمريكية ودخلت من الحدود ولا زالت تتقدم نحو العمق السوري.. وقالت وزيرة الخارجية كونداليزارايس: إن مرحلة الأسد على وشك أن تنتهي، والشرق الأوسط تأخذ شكله النهائي بسرعة كبيرة.

كانت الحكومة الأمريكية قد نددت بالحكومة التركية لأنها قد زادت من تواجدها العسكري في شمال قبرص إلى أكثر من ستين ألف جندي وقال المتحدث الرسمي باسم حكومة الولايات المتحدة الأمريكية:

منذ أن قطعت الحكومة التركية علاقتها مع الاتحاد الأوروبي. بدأت تنزلق نحو المعسكر الآخر.. ضد المدينة والحضارة.

وكانت الحكومة التركية قد سحبت سفيرها من واشنطن لإجراء المشاورات.. بعد مناقشة الكونجرس الأمريكي لقانون إبادة الأرض في تركية.

٢٣ أيار ٢٠٠٧ على ساعة السرق الأوسط ٠٢,٠٠
على ساعة أمريكا – بنراسكا ٢٢ أيار ١٤,٤٠
أوفوت – نبراسكا – الجيش الأمريكي
مقر القيادة الإستراتيجية

كان مجموعة من القادة العسكريين المتميزين الأمريكان يعملون في رسم الخطوط الأولية للعملية التي ذكرناها آنفاً. ويتصلون مباشرة بـ CENTCOM القيادة المركزية ويجتمعون مع بعضهم اجتماعات قصيرة. يقع هذا المقر قريباً من أوفوت في ولاية بنرلاسكا الواقعة في منتصف الولايات المتحدة الأمريكية.

كان أربعة من الضباط الكبار وكلهم جنرالات قد اجتمعوا في غرفة صغيرة من الطابق الأرضي من البناية التي فيها مقر القيادة الاستراتيجية.. كانوا يتناقشون وبحرارة فوق مجموعة من المخططات (الخرائط) المنشورة فوق إحدى الطاولات.

بالأصل هذا المكان يُستخدم لتحليل العمليات الحاصلة بنظرة ثاقبة.. وكان هؤلاء الجنرالات الأربعة من أبرز الجنرالات في الجيش الأمريكي ومن أكثرهم استشارة في المواضيع السياسية.

- "في الوقت الذي ندخل فيه إلى الأراضي السورية يجب ألا نتوقف أبداً هذه حركة صاعقة.. وتوقيتها مهم جداً. يجب أن نبدأ بداية حسنة.. في الوقت الذي نبدأ فيه بالحركة يجب أن تُصفّى شمال العراق من كل العناصر الغريبة. في هذا الوقت بالذات يجب أن تدخل الوحدات إلى سوريا.. وتتقدم دون أن تقطع من سرعتها في هذه الأثناء يجب أن تتجهز القوات الجوية والبحرية والطائرات البحرية.. لتطلع طلعاتها المسليّة."

- "كم من الوقت نحتاجه كي نُصفي شمال العراق من العناصر الغريبة؟

- خلال يوم أو يومين.. ننظف تلك المنطقة في هذه الأثناء تتقدم القوات الرئيسة نحو أهدافها. في الوقت نفسه تكون قوات الاستطلاع قد وصلت إلى الحدود.

والاحتمال الأكبر لن يجدوا مقاومة هناك.

- وماذا ستفعل سوريا؟

- طبعاً.. لا شيء. تم الاتفاق مع الأسد حول كل الامور ستنسحب القوات السورية لفترة من الوقت إلى ثكناتها أصلاً إذا لم يقبلوا هذه الخطة.. سيحفرون قبورهم مكان الثكنات.

- نعم يا جنرال.. يجب أن نطبق عملية (العاصفة المعدنية) بشكل سريع حتى تكون عملية الضغط الخاصة (CENTCOM) مؤثرة بشكل كبير.

- يجب ألا يبقى أمامنا قطعة عسكرية نظامية واحدة.

- جنرال.. هل قلت قطعة عسكرية نظامية؟ إذا وضعنا نصب أعيننا القنابل التي سنرميها.. بأعدادها وقوتها أعدك بأنه لن يظل أمامنا حتى كلمة النظام بمفردها.

- لن يبقى أي شيء على الإطلاق.

- هذه عملية تاريخية.

وكما قال الجنرال ستريك. يجب أن نحارب كل منهم على حدة وغير ذلك لن نربح المعركة. يجب أن نهدم كل الصور والمخططات القابعة في أذهانهم حتى لا يفكروا بالمقاومة.

- بدأ الجيش التركي يفقد صبره.. إنهم يحسون بشيء ما.

- نعم إنهم يحسّون وسيعمدون إلى مقاومتنا.. يا إلهي. كم هو جميل أن يظل في هذا العالم جيش مثل جيشنا.. وليس عندنا أقل شك بأنهم سيحاولون الدفاع عن أنفسهم.

- سنستطيع رؤية قوتنا الحقيقية.. فكروا .. جيش لن يتقهقر لن يتراجع ولن يستسلم.. ويعرف ماهية المعركة سيكون أمامنا جيش من الأبطال.. منذ وقت طويل وأنا أتخيل ذلك.

- لا تظنوا أن من السهل القبض على مركز التوازنات العملية. هناك سنتقابل مع أشياء لا نعرفها. والحقيقة إن ما يقلل من راحتي أو يزعجني هو أن نرى أنفسنا مرتاحين على الدوام.

- هل نعرف أحداً لا يعرف قوة قنابل slaye R؟

- يا إلهي.. إن مجرد التفكير به مخيف. عندما تتفجر هذه القنبلة تحس بضغطها من على بعد كيلو مترات.. لا تترك شيئاً أبداً على مساحة كيلو متر واحد.. ثم فكروا بالجنود المستهدفين.

- و بـ BO2 وB2؟

- كل شيء جاهز كل شيء.

- تماماً عشرة أيام نعم عشرة أيام لن يتوقف القذف أبداً سنقذف كل مكان حتى الأمكنة التي لا تخطر على بالكم.. لن تتوقف الطائرات أبداً.. لا أحد يفكر بتخفيف الضربات بأي شكل من الأشكال.

- عندما تتوقف الغارات.. ماذا سيفعل البشر. اترك حمل السلام إنهم لن يتحملوا حتى انفجار كيس من البلاستيك. يجب أن نهدم نفسية الشعب التركي من أساسه.

أثناء الاجتماع طُرق الباب.. ودخل جندي ووضع ظرفاً فوق الطاولة دون أن يقول للموجودين شيئاً، ثم ضرب تحية وخرج من الغرفة بسرعة.. قام أحد الجنرالات.. وفتح الطرف ودقق ما بداخله. وابتسم.. وألقى الملف الأسود فوق الطاولة وقال:

- إن حركتنا قد بدأت أيها الزملاء أعطيناهم الخسائر الأولى.. وكل وسائل الإعلام العالمية صار لديها علم بذلك. والأتراك هجموا على قواتنا بشكل سافر في شمال العراق. ولكنهم لم يصلوا إلى النهاية التي كانوا يتوقعونها.. ثم قتل خمسةٌ وثلاثون جندياً من المعتدين.. لقد بدأت عملية العاصفة المعدنية.

٢٣ أيار ٢٠٠٧ الشرق الأوسط ٠٢،٣٠

الولايات المتحدة الأمريكية الشاطئ الشرقي ٢٢ أيار ١٤،٥٠

البيت الأبيض – واشنطن

كان الرئيس وأحد مستشاريه ويدعى (جاك أرغوسيان) يدققان التقارير الأولية الصادرة حول العملية. وعلى التلفاز المفتوح ذي الصوت الضعيف كان المتحدث الرسمي باسم البيت الأبيض السيد (سيتوراث موغان) يقرأ المتن المجهز قبل ساعات من الآن بصوته المؤثر ذي (الطوناج) العالي. كان يندد بالعملية العدائية التي نفّذها الجيش التركي ضد الجيش الأمريكي دون مراعاة الصداقة الموجودة بين حكومتي أنقرة وواشنطن.

دخل وزير الدفاع السيد (رونالد رامسفيلد) إلى الغرفة.. كان مضطرباً وحائراً. وكان ثمة أشياء يجب أن يتحدث عنها مع الرئيس. وضع الرئيس يديه على رقبته من الخلف وتراجع نحو الوراء وقال:

- كيف حال الموقف الآن.. هيا اشرح ما عندك؟
- سيدي الرئيس إن (هوارد) في طريقه إلينا. سيعطيكم شرحاً خاصاً Prifing.

أشار (رامسفيلد) بيده إلى الشخص الواقف على الباب.. وهو من قوات الأمن المدينة. أدخل الموظفون الآلة التي تسمى barkovizyon وجهزوها مباشرة.. الظاهر أن رئيس الأركان السيد (هوارد ستريك) سيعطي شرحاً ملخصاً وسريعاً لبعض التطورات.. راقب الرئيس ومستشاره (أرغوسيان) التجهيزات الحاصلة أمامه بحركات لا معنى لها.. بعد أن أنهى الموظفون المدنيون أعمالهم غادروا الغرفة سريعاً كانت ثمة خطوات قوية تسمع في الكوريدور.. صاحب هذه الخطوات يجب أن يكون قوي البنية والقلب.. ظهر هوارد ستريك على الباب كان على وجهه إفادة

حالكة.. وبعد أن حيّا الموجودين تحية عسكرية قوية برأسه. انتقل إلى أمام الشاشة.. وقام بتشغيل الجهاز. لم يكن في الغرفة سوى أربعتهم:

- سيدي الرئيس إن عملية (العاصفة المعدنية) قد بدأت اعتباراً من هذه اللحظة.

ثمة ابتسامة خفيفة ظهرت على وجه الرئيس.. الأمور تسير على ما يرام. إن ابتداء هذه العملية معناه نهايتها أيضاً والموقف الدولي والعالمي لن يكون أحسن مما عليه الآن. الاتحاد الأوروبي يحاول تمزيق نفسه. والروس منشغلون بالأحداث الجارية في أوكرانيا وقفقاسيا. الشيء الوحيد الذي كان يخشاه هو المعارضة الداخلية.. ولكن ها هي الحواجز قد رفعت تماماً..

ليس أمامه الآن سوى الأتراك.

- إن فرقة الخيالة الأولى قد دخلت وبكل عناصرها إلى الأراضي السورية وخلال يومين ستقطع نهر الفرات وتتوجه نحو الحدود التركية.

- وأعتقد أنها ستصل غداً على محاذاة (لواء إسكندرون) هاتاي.

اتجهت نظراته نحو الموجودين في الغرفة. لكنها أُقفلت في عيون الرئيس الذي ينتظر منه المستحيل. كان سيقوم بمهمته. ودون أن يفكر بنتائجها.

- سيدي الرئيس.. هذه الفرقة ليس الوحيدة التي ستتحرك نحو الحدود.. سيتم إنزال عناصر الفرقة الخاصة بالإنزال الجوي ٨٢ بالحوّامات والطائرات قريباً من لواء إسكندرون وسيعمدون إلى تركيز أنفسهم خلال يومين ثم بعد ذلك سيتحركون نحو الأهداف الأخرى يا سيدي.

- يعني؟

- هدفهم الوحيد هو إستانبول.

كان (هوارد ستريك) يتحدث وكأنه لا يتنفس أبداً..

- ثم إن فوج الخيّالة الثالث المدرع سينشر مدرعاته إلى يمين الفرقة الخيالة الأولى.. المقابلة للحدود التركية على شكل قوس ثم سيعمد إلى التقدم نحو الأراضي التركية.. أي أنهم سيحمون أجنحة الوحدات الأخرى يجب ألا ننسى تاريخ الجيش التركي.. أي فراغ سيحصل في الأجنحة.. معناه نهاية أولادنا هناك.

- اترك الآن هذه النغمة السوداوية وأخبرنا.. ماذا سيحصل في العراق.

والحقيقة كان الرئيس يتحدث مازحاً. ولكن ثمة تعابير أخرى أكثر جدّية كانت ترتسم على وجهه الوسيم. الرأي العام لم يره إلا مبتسماً حتى في أسوأ الأوقات.. عندما كان يبتسم كان يذكر الإنسان بوجه متهور خطير.

أكمل هوارد ستريك كلامه دون أن يصدر منه رد فعل لهذه المزحة:

- العمل في العراق، ستحله (الفرقة ١٠١) للإنزال الجوي. وطبعاً...

- نعم احببت هذه النقطة.

- ستعمد الطائرات من طراز ١٣٠ – C إلى رمي قنابل (سلايلر) ذات الخمسة عشر طناً. هذه القنابل تنفجر فوق سطح الأرض بقليل هذه القنابل سترمى فوق الألوية والقيادات. ولا ننتظر أن يظل شيء ما هناك.

- والموقف في البحر الأبيض المتوسط؟

يتدخل (رامسفيلد) بالحديث وكأن الخطة المرعبة التي سمعها قبل قليل لم تؤثر عليه:

- خمس حاملات طائرات وعشرون (داستورير) وفرقاطة وثمة غواصتان حاملتان صواريخ نووية.. تدوران على شكل دورية.

- وهل ننتظر رداً نووياً؟

- بالأصل.. أحضرنا تلك الرؤوس النووية بعد انتهاء الحرب الباردة، وفككناها والرؤوس الموجودة بيد الأتراك أعتقد أنهم قد سيطروا على الموقف قبل شهور وأفنوها. ولكن إذا كانوا يملكون رؤوساً دون علمنا وإذا أعطونا رداً بهذه الرؤوس فهم يعرفون أننا سنخاطبهم باللغة نفسها.. ولا يملكون صواريخ عابرة للقارات والمحيطات.

- وإذا بقينا في موضوع العراق؟

بعد قليل ستتحرك الحوّامات الضاربة. وستضرب لواء البحرية المشاة التركي. في هذه الأثناء ستتحرك الدبابات التابعة لفرقة المشاة الرابعة وستهاجم مركز قيادة اللواء الخاص والكتائب المنتشرة حولها في منطقة (هكاري) وستعمد إلى بعثرتهم في الأراضي. والاحتمال الاكبر أنهم يتبعثرون الآن هنا وهناك. أما دبابات

فوج المدرع الثالث فستهاجم اللواء العشرين المدرع التركي وستبيد كل دباباته.. طبعاً بإسناد من الحوّامات.

- وماذا عن عملية الشفق المقدس؟

هذا السؤال جاءه من (ارغوشيان) مستشار الرئيس لأنهم كانوا في نهاية مرحلة التحقق diasporas من المشكلة الأرمنية. أكمل هوارد ستريك دون أن يبالي بكلمات مستشار الرئيس: هذا الشيء نفعله لأول مرة. إننا نفرق بين حروب البر والجو والقذف الجوي ستبدأ أيضاً مع بداية التحركات والمعارك البرية ولكن القذف الجوي ستكون داعمة للحرب النفسية أكثر.

توقف وأخذ نفساً طويلاً. الآن كان يجمع بعض المعطيات الأخرى في ساحة أخرى من ساحات دماغه.. عاد ثانية والتحم مع خريطة تركية التي كانت أمامه.

- كل الذي تحدثنا عنه حتى الآن خاص بالمناطق الغربية والوسطى والشرقية. ولكن الهدف الأكبر. مدينة واحدة وهي الشريان الحياتي للدولة.

نظر رئيس الأركان وبدقة شديدة إلى وجوه الموجودين في الغرفة: هذه المدينة نستطيع أن نسميها أيضاً /قلب العالم النابض/ وهي إستانبول.

أحسَّ (رونالد رامسفيلد) بتحرك شعرات جسده. وكأنهم يتحدثون عن مكان مقدس والحقيقة لم يكن يعرف سبب هذا الإحساس الذي انتابه.

وكأن شعوراً سرياً مرتبطاً بنقطة ما في ذاكرته ونائماً في أعماق جينات جسده. جعل من ذلك الإحساس يعيش في داخله.. وهو أن إستانبول عائدة له.. وملكٌ له وكلمة إستانبول بمفردها تعني له الكثير. وأكثر من كل شيء تذّكر (روما) ورموزها والهيئات الرسمية لدولته. كان يشعر الذي كان يحس به كان بتقارب طبيعي بينه وبين إستانبول.

- عند ضربنا لهذه المدينة يجب أن نتصرف بدقة شديدة يجب ألا تقابلنا أية قوة على الإطلاق.. نحن مجبورون على قصف هذه المدينة بكل ما نملكه من الأسلحة.. حتى /الإنزال الجوي ٨٢/ هدفه إستانبول أيضاً والفرقة ١٠١ وبعد أن تنهي عملها في أنقرة يجب أن تتجه نحو إستانبول أيضاً. في هذه الأثناء نريد أن نرسل المشاة البحرية إلى هناك عن طريق البحر.. ولكن لا أدري.. وكما تعرفون أنتم مضيق

(جنق قلعة)*

وقف الرئيس على قدميه وقال: لقد تمَّ تجهيز مكان خاص لمراقبة هذه العملية في CENTCOM الآن سنذهب إلى ذلك المركز.. ما في نوم حتى انتهاء هذه العملية يا (دون). (يقصد رونالد رامسفيلد) وكأنه لا يريد أن يسمع المزيد من هوارد ستريك. وفي الوقت الذي كان يأخذ فيه الملف من فوق الطاولة.. قال موجهاً كلامه لمستشارة (أرغوسيان):

- ليبقَ ديك في واشنطن بعد عودته من أستراليا.

كان يريد مراقبة المعركة من مركز CENTCOM الموجود في ولاية فلوريدا.

اتصل الرئيس من (ايرفورس أون) إلى (أدريان الثالث ليناما) في شيكاغو. كان هذا الشخص غير المعروف من قبل الرأي العام. يُعد من أقوى الشخصيات العالمية. وهو أحد الشركاء الأربعة السريين للشركة التي تعمل في مجال الطاقة والمعادن وهي شركة متوسطة.. فاعليتها في هذه الأيام قليلة وتسمى Orincon أورينكون كما وأنه من أكبر المتبرعين للكنيسة التي ينتمي إليها الرئيس وهي كنيسة (آفان غاليست) Evangalist.

ويُعدُّ هذا الشخص أيضاً أي (ليناما) من أهم المخططين السريين للحرب على تركية.. ويجب أن تصل إليه الأخبار أولاً بأول ولا ننسى أن هذا الشخص هو من أكبر الداعمين للرئيس من الناحية المادية. ثم إنه كان ينتظر هذه المعركة منذ أكثر من أربع سنوات.. ويقال إنه أقسم أو حلف بأنه سيعمد إلى بناء كنيسة ضخمة في إستانبول من كنائس Evangalist.

وكان يردد دائماً هذه الكلمات:

"لا تنسى نحن نريد هذه الأراضي وليس الذين يعيشون فوقها."

---

* يعبّر عن خشيته من تلك النقطة وربما تذكر معركة جنق قلعة المشهور بين الأتراك والإنكليز — المترجم.

٢٣ أيار ٢٠٠٧ – الساعة ٠٣,٣٠

رئاسة الأركان العامة – أنقرة

كان رئيس الأركان العامة لا يفارق جهاز اللاسلكي المفتوح في مقر القيادة أبداً.. كانت الأخبار تأتيه تباعاً من قيادة لواء المشاة البحري المتمركز في شمال العراق. حول العمليات والمعارك التي كانت تدار الآن هناك.. كانت القيادة قد أعطت (الإنذار الأحمر) حتى تجتمع الحكومة لتوّها. كان رئيس الوزراء (طيب أردوغان) وأعضاء المجلس الوزاري المتواجدون في أنقرة. كانوا سيحضرون إلى مقر القيادة العامة. حتى إن وزير الخارجية (عبد الله غول) كان قد توّجه فوراً إلى واشنطن مع هيئة مكونة من ستة أشخاص. كانت الأخبار قد انقطعت في الدقائق القليلة الماضية. آخر الأخبار كانت تشير إلى استشهاد خمسةٍ وثلاثين جندياً.. كانت الأخبار تتوارد من الوحدات المتقدمة إلى القيادة الأولية ومنها إلى مقر القيادة العامة في أنقرة. الأجواء مضطربة ولكن الأمور على أرض الواقع تُشير إلى عكس ذلك. لأن المعلومات التي كانت تأتي من عموم أنحاء تركية عن طريق (شبكات الخطوط العدسية الفيبرية) تهطل على الشاشات ومحطة التحليل المباشرة.

انتقل حكمت باشا من الغرفة المخصصة للاجتماعات إلى غرفة صغيرة مجاورة. في هذه الغرفة ثمة طاولة وعليها خرائط كل من سوريا والعراق وتركيا.

وقف أمام الطاولة وركزّ نظراته على الخرائط.. بدأت الأضواء تضرُب على الخرائط كانت المعلومات تنتقل وتتجمع على الخرائط عن طريق بعض الترتيبات الإلكترونية كانت الوحدات التركية والأمريكية قد حددت على الخريطة.. نظر إلى العراق.. كان المشهد مخيفاً بالنسبة إلى رئيس الأركان الجنرال (حكمت بارس). كانت الوحدات قريبة من بعضها كثيراً.. وقبل فترة قصيرة كانت قد حصلت معركة شديدة بين الطرفين وكانت من نتيجتها موت عدد كبير من

الجنود الأتراك. كان يستطيع الرؤية بأن هذه المنطقة ستتحول خلال فترة قصيرة إلى إطار من الدم.

مرت الدقائق بسرعة.. كانت ثمة معطيات متواترة كثيرة تسيل أو تتدفق من المنطقة. القوات الأمريكية المستحكمة على الحدود السورية.. قد اجتازته وصارت ضمن الأراضي السورية وتتقدم بشكل سريع دون أية مقاومة والحوّامات التابعة للإنزال الجوي ٨٢ كانت تنقل آلاف الجنود إلى داخل الأراضي السورية. الجيش الأمريكي قوي جداً. وليس من المستحيل أن تقوم القوات الأمريكية بالهجوم على تركيا وسوريا في وقت واحد. ولكن ذلك صعب جداً. لم يكن حكمت باشا يفهم حتى الآن. لماذا هذا التصرف الغريب من قبل صديق قديم وعلى مدى عشرات الأعوام وبشكل لا يرحم أبداً.. هذه الأفكار ربما لن يُصرح بها إلى أحد.. ولكن ربما يتحول الأمر إلى وضع أسوأ. إذا تطورت الأمور إلى معركة شاملة.. فهذا يعني أن كل الإنجازات التي حققتها الجمهورية طارت هكذا وصارت هباءً منثوراً.

وهذا الشيء لن يأذن به حكمت باشا.. ولكن كيف؟ كانت القنوات التلفازية العالمية قد قطعت برامجها.. كانوا يعرضون تفاصيل هذه الحادثة.. وموجة من الانفعالات قد لفّت العالم والأتراك الذين كانوا يعيشون في كل مكان من العالم قد خرجوا لى الشوارع لا يقدرون الصبر على هذا الظلم. لا أحد يفعل شيئاً ولكن الخطوط الهاتفية الدولية كانت قد أقفلت.

كانت وكالات الأنباء العالمية قد بدأت تنقل خبراً مفاده أن روسيا قدْ دعت الأمم المتحدة كي تعقد اجتماعاً استثنائياً ومستعجلاً. في الوقت الذي كان فيه الجميع يظنون أن العملية العسكرية الأمريكية ستكون ضمن نطاق الأراضي السورية فقط.. ومع تواتر الأنباء عن التدخل التركي، قد تحركت وبقوة مراكز القوى العالمية الأخرى. لم يكن أحد ينتظر مثل هذه التطورات.. عنصر المفاجأة قد استعمل بشكل حاد جداً. وكانت الاجتماعات تعقد على الدوام وفي أية ساعة. كان الوضع في العواصم السياسية الأخرى خطراً إلى أبعد الحدود.

كان قادة القوات العسكرية قد اجتمعوا في مقر القيادة العامة. كان وارتدى الجميع ألبستهم العسكرية الحربية.. كلهم جدّيون وديناميكيون (أو هكذا

كانوا يتراءون) ومعنوياتهم عالية جداً وكل واحد منهم جهّز نفسه وكأنه سيدخل المعركة في أية لحظة. كانوا يحاولون إعطاء بعض الراحة لأنفسهم في غرفة الخرائط مع الثنائي: الشاي والسيجارة! حتى الذين كانوا أعداءً مع السجائر في حياتهم الطبيعية (العادية) قد اشعلوا سيجارة.. قال حكمت باشا وهو ينْظر إلى قادة القوات:

- وأنتم بماذا تفكرون؟

- الوضع سيءٌ يا سيدي.. أنا شخصياً أقترح سحب قواتنا من العراق وبأسرع وقت..

- عند ذلك نكون نحن من بدأ بالحرب.

- إذا لم نبدأ بالإنسحاب.. وإذا لم نخترق القوات الأمريكية من وسطها فمعنى ذلك أن ألويتنا الثلاثة ستباد عن بكرة أبيها.

- هذا كمين خائن هذه الألوية من أفضل ما عندنا.

وربما لا تنجح في الانسحاب.. لأن القوات الأمريكية قوية ومتحركة في المنطقة.

- الا تستطيع القوات الجوية المساعدة؟

- تستطيع المساعدة.. ولكن هذه أيضاً تفجر المعركة.

- لنترك هذا الشيء الآن.. ماذا نستطيع أن نفعل بالقوات الجوية؟

نستطيع أن نفتح لنا طريقاً بضرب العناصر الأرضية. وإما..؟

- نعم.

- إذا كان هذا العمل ذاهباً إلى المعركة.. يجب أن نتحرك مباشرة مع القوات الجوية ونحن مجبورون على ذلك.. إذا تأخرنا فقواتنا الجوية ستخسر كثيراً.

- يعني تتحدث عن ضربة جوية شاملة؟

نعم يا سيدي.. نهجم على تلك المنطقة بكل طاقتنا. وتعقبها هجوم بالقوات البرية.. وبفضل هذه الحركة تنتشر القوات الأمريكية ويُصيبها الضعف ونحن ننسحب إلى حدودنا.. ونقابل هجماتهم هناك.

- هل تعرف معنى هذا يا باشا؟

أعرف يا سيدي.. وأعرف ما يدور في عقلكم وذهنكم من إفادة وجهكم.. الوضع سيءٌ جداً.. هذه هي الخطوات الأولى لنكون أو لا نكون.

نظر حكمت باشا إلى قادة قواته. كلهم يعرفون أن ابن قائدهم (أركان) موجود على رأس الألوية الموجودة في العراق.

- هذا القرار لا نعطيه نحن. بل الاقتدار السياسي.. الحادثة هي مسألة بقاء النظام أو عدمه.

- يجب أن نكون سريعين يا سيدي.

اشتعل ضوء جديد على الطرف اليساري للطاولة. الأخبار الواردة كانت تفيد وتظهر بأن الوحدات التابعة للفرقة ٨٢ للإنزال الجوي قد تم إنزالها على منطقة الحدود القريبة من لواء إسكندرون. وعشرات من الحوّامات من طراز (آباتشي) ٦٤ – AH قد بدأت تحوم في سماء تلك المنطقة، هذا تقدم سريع لا يصدقه العقل.. وبعد المناوشات التي حصلت بين الأتراك والأمريكيين كانت ثمة قوة كبيرة تنزل قريباً من الحدود.

والفرقة الخيّالة الأولى. فعلت الحركة نفسها. وتقدمت بأقصى سرعتها كانت هذه الفرقة ستتوقف للتزويد بالوقود إلا أنها لم تفعل ذلك وبقيت مئات الدبابات والعربات المدرعة من طراز M1A2 تتقدم بشكل سريع داخل الأراضي السورية وهي تقيم الدنيا ولا تقعدها.

- ثمة إحساس في أعماقي.بأن هذه الحرب ليست من الحروب العادية التي نعرفها.

نظر قادة القوات إلى وجه رئيس الأركان نظرات فيها حدة ودهشة.. المنظر الذي تشكل في رؤوسهم لم يكن جميلاً دخل نقيب إلى الغرفة وهمس بأذن حكمت باشا الخبر الذي كان ينتظره.

- يقولون إن السيد رئيس الوزراء قادم إلى هنا.

عندما أخذ كل من رئيس الوزراء (رجب طيب أروغان) ووزير الدفاع ووزير

الداخلية أماكنهم. وقف حكمت بارس وأخذ وضعية وكأنه يريد أن يخاطب لهذه المجموعة الصغيرة.. كانت حركاته سريعة وعلى الدوام يراقب وجوه الجالسين أمامه.. أما الإفادة التي كانت مرسومة في وجوههم فكانت تشرح ماهية الأخبار السريعة التي كانت تصل إليهم لحظة بعد لحظة.

الاجتماع مقابل طاولة الاجتماع.. ثمة شاشة عملاقة معلقة على الجدار.. حمل (حكمت بارس) مشيراً من الليزر ووقف على قدميه وأشار برأسه إلى الضابط الذي كان يعمل على الحاسوب. كي يُشغل الألوية المرتبطة به. وإذا بخارطة عملاقة للشرق الأوسط قد ظهرت على الشاشة.. كانت خريطة مفصلة تفصيلاً دقيقاً تظهر حتى الأنهار الصغيرة والشقوق الأرضية.. جاء باشا مفكراً ووقف أمام الخريطة وأشار إلى بعض المناطق القريبة من الحدود في كل من سوريا والعراق.. العسكري الذي يختار الكرافيكات في الحاسوب.. ضغط على زر وإذا بمربعات حمراء قد ظهرت على هذه النقاط.

- هذه هي الوحدات التابعة للجيش الأمريكي.

سمع صوت آخر في الآلة، وفي هذه المرة ظهرت مربعات خضراء.

- وهذه وحداتنا المتمركزة بين بغداد وشمال العراق.

في الوقت الذي كان فيه أعضاء الحكومة يراقبون الخطوط البيانية على الشاشة العملاقة بدهشة وحيرة كانت وجوه العساكر عادية لم تتغير أبداً.. كانوا يظهرون وكأن لهم علماً بكل شيء.

- وكما ترون إن القوات الأمريكية قد تمركزت قريباً جداً من ألويتنا الموجودة في شمال العراق.. على بعد عدة كيلومترات من اللواء المشاة البحري.. تمركزت فرقة الإنزال الجوي ١٠١ وقريباً من اللواء الجبلي للوحدات الخاصة المتمركزة قرب هكاري.. تتمركز الفرقة الرابعة للمشاة التابعة للجيش الأمريكي.. وقريباً من اللواء المدرع ٢٠ تتمركز فرقة الفوج المدرع الثالث. توقف رئيس الأركان وأغمض عينيه وكأنه يريد تجميع أفكاره ثم نظر ثانية إلى الخريطة وقال:

- هذا المشهد العسكري يعطي معنين أو مغزيين إما نبني خطاً دفاعياً

مشتركاً مع الوحدات الأمريكية.. وبكل صراحة ليس عندنا مثل هذه الخطة وإمّا إن وحداتنا تُحاصر.

لوهلة قصيرة فكر (حكمت بارس) بالجنود الخمسة والثلاثين الذين ماتوا أثناء القتال الذي حصل قبل فترة يشير إلى أن الأمر ليس محصوراً بالحصار فحسب يا سيد رئيس الوزراء.. وإن قناعتنا المشتركة هي: إن الهجمات التي تقوم بها الولايات المتحدة نحونا تشكل تهديداً مباشراً لنا. ونحن بالأصل كنا ننتظر هذا الشيء نظرياً منذ وقت طويل ولكن الشيء الذي أخطأنا فيه هو تحديد الوقت إنهم خدعونا تماماً. وقواتنا الموجودة الآن في العراق تحت تهديد كبير وإذا ما عاد القتال ثانية كما حصل قبل فترة فإن خسائرنا ستكون كبيرة ضمن ألويتنا الثلاثة.

- من وجهة نظرك. ماذا نفعل يا باشا؟

- أنا شخصياً اقترح سحب قواتنا من هناك.. وتبقى طائرتنا في تلك الأجواء.. تحمي قواتنا عند الانسحاب.

- إذا كنت تسمح لنا يا باشا فإننا سنطرق أولاً أبواب الديبلوماسية لأن وزير الخارجية في طريقه إليهم وأنا أيضاً هدفي سحب قواتنا ولكن في الوقت الذي نفعل فيه هذا الشيء يجب أن نبقى بعيدين عن كل حركة تشعل فتيل الأزمة والمعركة.

كان (حكمت بارس) ينظر الآن مباشرة في عيون رئيس الوزراء كان على عتبة إعطاء قرار مهم جداً. كل تجارب السنين الطويلة والتعلم والبحث والتدقيق كانت من أجل هذه اللحظة الحاسمة. والجميع يعرفون أنه قد اختير رئيساً للأركان لدهائه وعلمه في الأمور الاستراتيجية كانت تلك اللحظة قد جاءت كي يضع دهاءه الاستراتيجي في صلب هذا الموضوع.

- السيد رئيس الوزارء.. أعتقد أنكم على حق.. إذا اشعلنا فتيل الأزمة في هذا الظرف سنكون محقوقين.. ونصبح في موقف صعب أفضل شيء انتظار عودة السيد (عبد الله غول). قال رئيس الوزراء: وربما يكون أفضل إذا تحدثت مع الرئيس مباشرة.

ولكن الأمور أو العلاقات لم تكن بخير بين الدولتين بسبب المسألة الأرمنية

والقبرصية. كان الرئيس يقود ضد تركيا، ومن عام مضى سياسة باردة.

في هذه الأثناء وقف أحد الضباط الموجودين في الاجتماع، على رجليه وكان يستمع إلى الحديث الدائر بصمت. كان هذا الضابط قوي البنية مهيب الطلعة.. يتراءى وكأنه شاب صغير. وبقامته الطويلة كان يملأ مكان الاجتماع. كان يضع على رأسه سيدارة حمراء. ولم يكن في جسده غرام من الشحم هو الجنرال (سلامي ديك باش) قائد العمليات الخاصة في العراق. جاء ووقف أمام الخريطة وقال:

- هناك نقطة مهمة يا سيدي لم نتطرق إليها حتى الآن وأعتقد أنها ستزيد من همّنا وغمّنا.

- أكمل.

- إذا كان علينا أن نفكر بالأسوأ.. ليس من زاوية قواتنا الموجودة في العراق فإنه يجب أن ننظر إلى المسألة من زاوية قواتنا الموجودة في شمال قبرص أيضاً.. لدينا قوة ضاربة كبيرة هناك: أكثر من ستين ألف عسكري والمنطقة بين البر والجزيرة تعجّ بالسفن الأمريكية. وكما تعرفون.. حصلت سياسات خيالية سلبية بالنسبة لقبرص في الأيام الأخيرة. وكأن القتال والسياسة تظهران على شكل متوازٍ تقريباً يظهرون على الدوام أن تركيا غير محقة بالنسبة للمسألة القبرصية وهذه صارت قاعدة أساسية للضغط على الرأي العام الدولي من الناحية النفسية.

هزّ كل الموجودين رؤوسهم: الباشوات (الجنرالات) وأعضاء الحكومة. كان (السلامي ديك باشا) محّقاً في كل ما قاله. نعم كانت تركيا قد وضعت أكثر من ستين ألف من خيرة مقاتليها في قبرص.. وبسبب الموقع الاستراتيجي لمكان تواجد هذه القوات.. نحن محاصرون بشكل مرعب. حيث وقف الأميرال البحري (تحسين يوجا سون) وجاء أمام الخريطة وسند يده إلى الطاولة وأشار إلى البحر الأبيض المتوسط.

- هنا بين الجزيرة ومدينة أنطاليا (مدمرتان) تستطيع قذف صاروخ (توماهوك).

وسأله رئيس الأركان: "وحاملات الطائرات؟".

- نعم يا سيدي.. حاملات الطائرات إلى الجنوب من الجزيرة. الساحة السورية والتركية ضمن مجال ضربها وتستطيع أن تركز قوتها الرئيسة حول أنقرة وشرقها أما الحاملتان الموجودتان على المياه الكريتية هي (أندبندنس وكيتي) صواريخ هاتين الحاملتين تصل إلى مدينة أزمير وضواحيها.

- وهل هناك تغيير في تحركاتها؟

- إننا نراقبها على الدوام. وجواباً لسؤالك نعم.. إنها تتحرك على الدوام.

- في هذه الحالة معناه أننا أمام قذف جوي قوي ومن عدة اتجاهات وعدة مجالات؟

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الطائرات الموجودة في العراق تصل عدد الطائرات الأمريكية الموجودة في المنطقة إلى ألف طائرة، أما القوات الموجودة في (أذربيجان) لن يستعملوها كيلا تصير أية حساسية مع روسيا وعلى جانب ذلك ست حاملات طائرات ومعها السفن وفرقاطة كبيرة موجودة وجاهزة في عرض البحر؛ تنتظر المعركة وعدد الطائرات الموجودة على الحاملات تصل إلى أربعمئة وخمسين طائرة.. وإلى جانب ذلك كله ثمة أنباء تتوارد إلينا ثمة أعداد كبيرة من الغواصات في البحر الأبيض المتوسط وقريباً من مدينة أزمير لقد زدنا من بحثنا ولكن هذه أيضاً تشكل خطورة.

تمتم رئيس الوزراء: خمس فرق قوية. كان عقله قد ظلّ في قبرص. كان يفكر بالفخ ويتفهم نتائجه وتأثيره وكبره يعني أن خمس فرق تركية أو ما يعادل خمسة عشر لواءً من خيرة جنودهم قد بقيت محاصرة في قبرص والعراق وإذا لم يقوموا بفعل شيء ما في هذه اللحظات فإنهم سيفنون عن بكرة أبيهم.

قال (حكمت بارس) السيد رئيس الوزراء محق. ثمة نقاط كثيرة يجب أن يفكروا بها ويستغلّوا الوقت على أكمل وجه.. إذا ما أخطأوا في التوقيت فهذا يعني أن الآلاف من الجنود سيموتون.

تدّخل قائد القوات البرية الجنرال (فخري سرت) بالحديث كانت نظراته تشبه نظرات النمر الذي يجهز نفسه للانقضاض على عنق فريسته:

- هل قررنا انتظار نتائج مباحثات السيد وزير الخارجية يا سيدي؟

- نحن مجبورون على ذلك.. وهذا هو الصواب. وإذا كان لابد من الحرب.. يجب أن نبدأ بها ونحن على حق.. إذا قبضوا على ساعدنا هذا يُظهر كوننا معتدين.

- يعني يا سيدي.. حتى إذا خسرنا هذه الفرق الخمس أليس كذلك؟

يا سيادة الجنرال لم يقل لنا أحد إننا عملنا شيئاً حسناً إذا كانت مصلحة الوطن تقتضي هذا الشي.. معناه (نعمل اللي علينا) أو نقدم أفضل ما عندنا.

كان الجنرال سلامي ديك باشا قد بدأ بالحديث: إذا كنت تأذن لي يا سيدي سأنزل بقوة صاعقة إلى قلب الجيش الأمريكي.. عند هذه المعمعة تعمد قواتنا إلى الانسحاب نحو حدودنا بسرعة وفي هذه الحالة. تتخلص قواتنا الثقيلة من المخطر.

تجمعت الدموع في عيني حكمت باشا وقال:

- هذا اقتراح يتحلى بالبطولة.. ولكن ربما تحتاجك هنا يا جنرال! لمعت عينا قائد القوات الخاصة الجنرال (سلامي ديك باش) لم ينبسْ حتى بكلمة واحدة كان قد فهم تماماً ما تنطوي عليه كلمات رئيس الأركان.. ولم يعد هناك مجال للمناقشة.. وكانت مهمته قد حُددت إلى حد ما لأول مرة ومنذ تأسيس هذه القوة تعطي أنقرة حمايتها لها.

كان رئيس الوزراء قد بدأ يفقد صبره. لم يجدوا مخرجاً لأزمتهم هذه وربما الانتظار هو الشيء الوحيد الذي يجب أن يفعلوه.. يجب أن يدافع الجيش عن نفسه في مكانه وإذا لم يتم اي اعتداء يجب أن لا يتحرك أبداً وربما تكون القوات الأمريكية تحاصرهم حتى يقوموا بعمل ما أو حتى يجعلوهم يقعون في الخطأ.

- أيها الزملاء أنا شخصياً أقترح الانتظار ولنتهرب من كل الحركات غير الضرورية. إذا لم نستعن بالصبر نفتح لأنفسنا كثيراً من المشاكل.

- أنا معك في كل ما تقوله يا سيد رئيس الوزراء.

هذا ما قاله (حكمت بارس) مؤيداً رئيس الوزراء لم يكن قادة القوات مسرورين من هذا القرار، أو هكذا كانوا يظهرون وخاصة بأنهم سينزعجون كثيراً عندما يعطون جنودهم أمر الانتظار. وكانوا يعرفون نفسية الجنود المحاصرين خلف الخطوط الأمريكية.. ويجب أن يكونوا في حالة نفسية سيئة جداً

كي يتخلصوا من الحصار والكمين الذي وقعوا فيه مع إن القرار الذي صدر من الاجتماع هو أمر الانتظار.

ولكن عندما ينتظرون يجب أن يقوموا بأشياء كثيرة.. كانوا سيعمدون إلى التعليم والتدريب سراً من الأعداء ولكن كم كانت ستدوم؟ لا أحد يدري ولكن كل ثانية بالنسبة إليهم. هي نوع من الحياة.

كان الاجتماع قد انتهى. خرج رئيس الوزراء والأعضاء الذين معه من رئاسة الأركان واتجهوا إلى رئاسة مجلس الوزراء كي يوجهوا أعضاء الحكومة الآخرين.. إلى جانب التجهيزات العسكرية يجب أن تكون التجهيزات المدنية في أعلى مراتبها. كانت ثمة مخازن أسلحة سرية كثيرة منتشرة في عموم أنحاء تركيا. تحسباً لكل اعتداء خارجي وكانت هذه الأسلحة ستوزع للجيش الشعبي والمدنيين الآخرين. كان رئيس الوزراء سيخبر الوزراء الآخرين عن هذه المعلومات كي يتصرفوا على الواقع العملي. وكان من الصعب جداً جعل السرية قائمة بين الفئات المدينة. المعلومات ترشح مباشرة إلى الأمريكيين حيث يسرعون في العمل الذي يفكرون فيه قبل فوات الأوان.

نظر (حكمت باريس) إلى الخريطة وأغمض عينيه بقوة وهو يقول: نحن حزينون جداً من أجل قبرص وشمال العراق. ولكن إذا ما بدأ هؤلاء الأوغاد بالعملية لن يبقوا هناك كان ثمة ظل أسود قد سقط على وجهه.

٢٣ أيار ٢٠٠٧ الساعة ٠٣,٣٠

- مطار بغداد-

كانت الحركة في مطار بغداد على أشدها. كانت الطائرات الموجودة على الساحة تقلع من المطار محملة بالقنابل والصواريخ FA- 18 سوبر هورنات – F 16 و F 15 كلها كانت تقلع من المطار والقنابل والصورايخ الموجهة قد عُلقت أسفل جناحيها.. واحدة إثر أخرى وتتوجه نحو المجهول.. على الطرف الشمالي من المطار.. التي وصلت إلى المطار في الآونة الأخيرة كانت تقبع طائرات ١٢٠ C– المعدّلة.

وبعد أن تم تعديلها صار اسمها (القاتل) كانت تدخل إلى المدرج بالدور.. وكانت تقلع بشكل ثقيل جداً.. كانت هذه الطائرات تذكر الإنسان بالطائرات الروسية العملاقة الثقيلة.. مظهرها الخارجي كانت تومئ على انها تحمل حملاً ثقيلاً.

سيعطي الظلام الحماية الكافية لهذه الطائرات. الهدف الأول هو الوحدات البرية المتمركزة على أطراف شمال العراق. لم يكن أحد يتوقع أن هذه الوحدات الأرضية ستخلق أية مشاكل لهذه الطائرات. ولكن مقابل كل الاحتمالات كانت الطائرات من طراز F- 16 تشارك الأسراب الأخرى كي تقفل شبكات الرادار عن الوحدات الأرضية. ولم تكن الطائرات C-130 بحاجة إلى حماية لأنها صارت وبعد تعديلها ترمي حمولتها من ارتفاعات خيالية.

كانت الأخبار قد بدأت تصل إلى المطار. وبعد مضّي وقت قصير كان العراق يشتعل. كانت السموات والأرض تهتز بقوة وكان الناس قد رموا بأنفسهم إلى الملاجئ وهم يتحدثون عن أن القوات الأمريكية قد دخلت الأراضي السورية وأنها تشتبك مع القوات التركية في شمال العراق.

كان المسؤولون العراقيون قد اجتمعوا في مكان واحد يأخذون الأخبار من

الإذاعات والتلفازات كان صوت معلق إذاعة بغداد يرتجف. وكأن المعارك للشديدة التي تقام على أرضهم قد هزّته من أعماقه.. والتصريحات الشديدة كانت تأتي تباعاً من واشنطن.

كان المسؤولون العراقيون يدعون الله من أعماقهم كي تعمد القوات التركية إلى ضرب القوات التي تحتل أرضهم، وكانت الوحدات التركية قد طُمرت بالصمت. فقط ضوء القنابل المنفجرة، والتي تصبح جهنم من بعيد، كان يمنحهم شيئاً من الضياء. صمت هادر، كاسح وهادم!.

٢٣ أيار ٢٠٠٧ — الساعة ٠٤،٤٥

شمال العراق- مركز قيادة اللواء التركي

كان مركز قيادة لواء مشاة البحرية التركي يسبح في الظلام كلياً. وكان عناصر مشاة البحرية، قد انتشروا على أرض مساحتها أربعة كيلو مترات.. على شكل مناقل.. وحفروا خنادق عميقة جداً وستروا أنفسهم فيها كما أمروا الأسلحة المضادة للطائرات التي كانت جاهزة على أتم استعداد أن تمشط الجو على الدوام الجنود لا يتحدثون إلا حول موضوع واحد. وهو المعركة التي حصلت قبل فترة قصيرة كلهم كانوا يعرفون بأن ثمة شيئاً ما سيحصل.

كانت رياح الربيع الباردة تلفُّ الجنود قبل بزوغ الفجر بوقت طويل، كان عناصر المشاة البحرية قد ارتدوا الواقيات المطرية السميكة.

كان الجو غائماً. ولكن سرعة الرياح كانت تزيح الغيوم من فوقهم ويظهر القمر والنجوم بين وقت وآخر.. وفي ثلاث نقاط من الخندق كان بعض العناصر يراقبون سماء الأفق البعيد بأشعة تحت الحمراء وذلك بكاميرات خاصة.. ويخبرون المركز بكل ما يرونه.

هذه المعلومات.. كانت تصل إلى رئاسة الأركان العامة.. حيث يراها الضباط الكبار على الشاشة.

أما المدرعات العائدة للمشاة البحرية من طراز **ZMA** تمت تغطيتها بشباك خاصة لعدم وجود إمكانية أخرى للحفاظ عليها أما عناصرها لم يخرجوا منها. كانوا جاهزين للمعركة، في كل لحظة ينظرون إلى الخارج عبر نقطة التسديد. كانت ثمة رؤية غامضة أمامهم وبوساطة مناظر الأشعة تحت الحمراء كانوا يستطيعون رؤية الخنادق المنتشرة على الأرض الواسعة. آلاف من الجنود كأنهم صاروا قطعة من الأرض.

مع مرور كل دقيقة كان اضطراب الجنود وقلقهم داخل الخنادق يزداد رويداً

رويداً كان ثمة إحساسٌ غريب قد غطّى الجميع. كانوا على علم بالذي سيحصل لهم.. وكان هذا الانتظار يزيد الثقل على اكتافهم - أكثرية الجنود كانوا قد أسندوا أنفسهم على أسلحتهم، وعيونهم النصف الناعسة كانت تراقب خارج الخندق.. شفاه بعضهم تتحرك وبعضهم قد راح في نوم عميق عناداً لهذا الموقف الذي وقعوا فيه.. في وجوههم أقنعة من التراب والدهان يمزحون مع بعضهم كي يغلبوا الزمن ولكنهم كانوا على علم بقيمة كل ثانية تمر من عمرهم.

الوضع في المركز أو القيادة لم يكن يختلف كثيراً عن وضع الجنود كان الفريق (إحسان آر) على اتصال دائم مع رئيس الأركان حيث يتبادل معه الأفكار حول المسألة ولكن بعد وقت قصير كان عليهم أن يقطعوا الاتصال غصباً عنهم. كانت الأوامر الصادرة تمنعهم من استعمال اللاسلكي إلاّ للحالات الطارئة جداً.

خرج الفريق (إحسان آر) من الخيمة.. العساكر الموجودون على الباب وقفوا باستعداد.. أشرّ لهم الباشا بيده للراحة. كان يلبس بلوزة حديدية. وكان قد علّق بارودته الرشاشة من طراز ١٦ -٨٨ على كتفه الأيسر وعلى ظهره مسدسه ومجموعة كبيرة من المخازن والشيء الذي كان يجذب الانتباه إليه هو سكينه المعلقة على ساقه الأيسر، وعلى رأسه خوذة، ورتبته لا تظهر على كتفه، هو الآخر كان محارباً، بدأ يسير بين الخنادق، كان الجنود يسرعون بالوقوف تحية له.. مرّ بينهم وهو يبتسم للجميع. كان ثمة جنديان يسيران خلفه.. وهما ضابطان أحدهما برتبة نقيب والآخر صف ضابط.. ومهمتهما حماية الفريق كانت ثيابهما رماديةً قريبةً من الأسود ومسلحين على أكمل وجه.. وكل واحد كان يعلق على رقبته منظاراً للرؤية في الظلمة. وإلى جانب رشاشيهما المعلقين على ظهرهما كانا يحملان بارودتين صغيرتين للقتال القريب من طراز **MP10** والمسدس على ظهريهما أيضاً والسكينان معلقتان على ساقيهما.

كان رئيس الأركان قد أعطى الفريق أمراً بالانتظار قبل قطع الاتصال اللاسلكي وكان قد أخذ معلومات عن كل من اللوائين الموجودين في شمال العراق، لواء المدرعات ٢٠ ولواء الكوماندو الجبلية والخاصة في (هكاري) كان هذا اللواء يقع على بعد ثلاثين كيلو متراً من الناحية الغربية أما لواء المدرعات ٢٠

فكان متمركزاً على بعد خمسةٍ وعشرين كيلو متراً من الناحية الجنوبية الشرقية كان الفريق قد عمد إلى البحث والتقيب لموقف هذين اللوائين في حال وقوع معركة.. وكانت نتيجة البحث قد أظهرت أن الوضع أسوأ كثيراً مما كانوا يتوقعونه.. ثم إذا ما بدأت المعركة.. ستمد القوات الأمريكية للدخول بين هذه الألوية الثلاثة.. هذه الأراضي الفارغة الواقعة بين الألوية.. ربما تتحول إلى منشرة للموت. بالأصل لم يكن وضع تلك الوحدات يختلف كثيراً عن وضع لواء المشاة البحرية.. كان اللواء الجبلي الخاص (الكوماندو) قد انتشر على الأراضي كلياً.. ولكنهم لم يدخلوا الخنادق كي يدافعوا بقوة عن أنفسهم، أما لواء المدرعات ٢٠ لم يكن في يدهم أي شيء عند بدء المعركة كانت الحوّامات المعادية ستهاجمهم بقوة.

كان القائد يفكر بالليل. كانت أحاسيس المحارب تُحذره كي يبقى على الحذر. كان ثمة إحساس قد ملأ أعماقه بأن هذا الليل مملوءٌ بالعجائب والغرائب. وكان عليه أن يصدق هذا الإحساس الذي أشرق في أعماقه كان الأمريكيون قد بدأوا حركتهم ضد سورية وكان على يقين تام بأنهم لن يتركوا تلك المعركة التي حصلت قبل ساعات في حال سبيلها وكأنها حركات قد خُططت مسبقاً وبكل دقة. كان الهواء مزعجاً وضاغطاً وثمة طاقة قد لفّت الأجواء. كان الجنود في الخنادق ينظرون إلى الشفق كي ينتهوا من هذه الليلة الطويلة. ماذا كانوا يفعلون ضمن هذه الأتربة الرمادية؟

دون أية حركة؟

- تعال ولك ابني صباح الدين
- لا يا أبتي.. أنا بدي نام
- تعالى ولك لأقدم سيجارة
- يسلموا يا حضرة الرقيب.. أنا نعسان.. ما جاي عبالي أطلع من هون.
- آه لو تشوفك أمك يا تنبل.
- الله يرضى عليك لا تذكرني بأمي
- شو بدك تساوي ولك عندما ترجع إلى (ملاطيا) (مدينة في وسط تركيا)؟

- والله أول شي يا حضرة الرقيب بدي نام أسبوع.. وأنت شوبدك تساوي يا حضرة الرقيب؟

- بدي أصعد على تلة يا صباح الدين.. وسأصرخ وأصرخ وأصرخ أنا جيت أنا جيت. كل المدينة ستسمع بعودتي.

- إن شاء الله يا حضرة الرقيب إن شاء الله

- أيه وبعد ما تشبع نوم شو بدو يصير؟

- شو عرفني.. أبدأ العمل في مكان ما شو يا حضرة الرقيب هل تنتهي العسكرية عندما تأخذ ورقة التسريح مرة أخرى نحن جنود.. نحن جنود.

كان الجنود الواقفون على المناوبة يُعوّدون عيونهم على الظلام وعلى المشاهد الخضراء التي كانت تأتيهم تباعاً عبر جهاز أشعة تحت الحمراء كانت أعصابهم قد شُدّت تماماً من الانتظار ولكن أي انتظار؟ وانتظار من؟ كانوا قد أصبحوا أشباحاً غير مرئية داخل الظلام وبقوا بأنفسهم بمفردهم. وكان جنود لواء مشاة البحرية جاهزين.. وجامدين. حتى أيديهم كانت جامدة على زناد الأسلحة من كثرة الأوامر التي جاءتهم للاستعداد والحذر والتيقظ.. ودون أن يتحدثوا مع بعضهم. الشيء الوحيد الذي يعرفونه هو أنهم سيبقون في هذه الخنادق مدة من الوقت.. ثم عودتهم إلى الوطن بعد انتهاء التوترات في (كركوك) الأكثرية منهم لم يسمعوا بالمعركة التي حصلت في منتصف هذه الليلة.

بدأت الغيوم تشارك الظلمة.. هذه الغيوم كانت سوداء.. يجب أن تأتي بالأمطار حتماً.. تحدث الجنود مع بعضهم بعضاً وهم ينظرون نحو السماء كي يُعبّروا عن عدم سعادتهم.. اللوحة التي أمامهم سوداء وضبابية. وبين وقت وأخر تتحول اللوحة إلى مشاهد (مزارية) (قبرية).

سمع الجنود المتخندقون في أقصى الشمال أصواتاً بين واضحة وغير واضحة فتحركوا مباشرة كي يعرفوا ماهية هذا الصوت الذي يسمعونه، كأن هذا صوتاً بسيطاً ودون تفاصيل لم يكونوا واثقين من ماهيته فيما إذا كان طبيعياً أم غير ذلك. ربما هي أصوات الغيوم السوداء وهي تتحدث مع بعضها وقفوا صامتين

وأنصتوا للسماء كان هذا الصوت يزداد قوة وبشكل مضطرد ولكنهم لم يعرفوا كنهه وماهيته.. وخاصة أنه كان قد انقطع بعد فترة قصيرة.

تنفس الجنود الصعداء ولكن بقوا في مراقبة الأفق المشدود من الجهة التي جاءت منها الأصوات.

مرت فترة مع هذا القلق.. كانت القطرات المتجمعة على الغيوم السوداء قد بدأت تنزل فوق وجوه الجنود.. كانت تزعجهم ولكنها لم تكن تتحول إلى أمطار غزيرة.. وسُمعت الأصوات ثانية هذه المرة كانت مختلفةً.. المعدن الذي يخرج من الصوت (كلانك.. كلانك) أحسوا بهذا الاختلاف بسهولة تامة.. اسرعوا إلى أسلحتهم ومشطوا الأفق عبر التسديد. ومع أنهم كانوا لا يرون شيئاً ولكنهم كانوا يحسون بأن ثمة شيئاً في عمق هذه الظلمة.

كان عليهم أن يخبروا القيادة باللاسلكي:

- مركز.. نسمع أصواتاً؟
- ما هي هذه الأصوات؟
- أصوات معدنية يا سيدي
- هل ترون شيئاً؟
- لا يا سيدي
- ظلوا في المراقبة
- سمعاً وطاعة يا سيدي

أخذ العساكر وضعية الرمي داخل خنادقهم والعسكري الذي كان يستخدم الرشاش الأتوماتيكي من طراز ٥٠ كاريرليك سحب مقبض الأمان ووقف فأشار الملازم الموجود إلى الجنود الآخرين كي ينتبهوا إلى أنفسهم. وخرج من داخل الخندق وتقدم بضع خطوات فلحق به عسكريان.

- لا تذهب يا سيدي.. يحفظكم الله.
- شو بدو يصير ولك؟ في شي قذارة.. شوف يا محمد... كأن الظلام يتحرك والأصوات تزداد باضطراد؟

اسرع الملازم الأول والجنود ودخلوا إلى الخندق. وجددوا إعطاء الخبر للقيادة بأنهم يرون حركات مشبوهة على الأرض وطلبوا أن يفتحوا النار دفعة واحدة.. فجاء الجواب بالموافقة.

أعطى الملازم الأول التعليمات إلى الجنود كي يجهزوا أنفسهم لفتح النار: نار!!

في لحظة واحدة بدأت الرصاصات الخطاطة تتجه نحو عمق الظلام من جميع أشكال الأسلحة. تمزق الليل دون هدف وتجمَّع في نقطة واحدة أما صوت الرشاش من طراز (٥٠ كاربرليك) كان قد جعل من الجنود الذين في أقصى طرف الخنادق.. يرمون بأنفسهم نحو الخارج من شدة الصوت.. بدت تحركات هنا وهناك بين الخنادق وانتقل الجنود إلى أماكن جديدة لضرورة المعركة.. كانت أصوات تبادل الأشياء داخل الخنادق تُسمع بوضوح. كانوا يطلبون ما يلزمهم من الخنادق الأخرى.. إذا كان معهم يركضون كي يأخذوا طلباتهم ويرجعون إلى خنادقهم ثانية.

صرخ الملازم الأول:

- أوقف إطلاق النار:

صمتت الأسلحة وتوجهت الآذان نحو الظلام.. وكما أن الأصوات المعدنية (الميكانيكية) لم تخف كانت التحركات قد زادت أيضاً.. انقطعت الأصوات فجأة مشّط الملازم الأول الأفق بكاميرا الأشعة تحت الحمراء وأخبر العساكر الذين كانوا إلى جانبه عن الأشياء السوداء التي رآها.

ثمة عربات ضخمة تصطدم بنظراتي بين تلك الهضاب الصغيرة والكبيرة. كان الضابط الشاب قد تحوّل إلى آلة من الدقة الشديدة ولكنه لا يعرف ما الذي سيفعله من شدة الهيجان، ولكنه تحدث مع العسكري إلى جانبه:

أخبر المركز بأنه ثمة دبابات أمامنا...

لم يُصدق العسكري أذنيه.. ونقل المعلومة فوراً إلى القيادة. في هذه الأثناء سمع صوت يشبه صوت الرعد.. ظهرت كرة من النار من الجهة التي كانوا يرمون نحوها.. كانت قذيفة كبيرة تاركة خلفها ذيلاً ضخماً من الأدخنة والنار.. أصابت النقطة التي خرج منها القذف أول مرة.. من منتصف الخندق. كانت القذيفة قد

(ذرتْ) الجنود نحو الفضاء ومعهم الملازم الأول.. الذي لم يسمع له حتى صوت خفيف. كانت رؤية كرة النار وانفجارها كأنها حصلت في لحظة واحدة.. ضغط مرعب وموجة من الحرارة.. حملت الجنود من داخل الخنادق إلى أماكن بعيدة أحس الملازم الأول وهو يطير في الهواء بأنه تتقى من أحاسيسه كلها.. كان قد أحس بأن جسمه لم يعد قطعة واحدة.. لم يكن يحس بالألم ولكن ثمةْ حرارة كاوية كانت تقلي كل جسده.. كانت ملايين من الألوان قد امتزجت في عينيه.

- إنهم يهاجمون يا سيدي.. إنهم يهاجمون.

خرج صوت العسكري في اللاسلكي على شكل صدى داخل القيادة خرج الباشا حكمت من خيمته بسرعة البرق.. ومن خلفه خرج مرافقاه والعسكري الذي يحمل جهاز اللاسلكي، كانوا يستطيعون رؤية الانفجارات في الأفق البعيد. كانت الخنادق الموجودة في الشمال والشمال الغربي.. قد تحولت إلى مايشبه جهنم نظر حكمت باشا بمنظاره إلى الخنادق الأمامية.. كان يستطيع رؤية الجنود وهم يخرجون من خنادقهم ويفرّون نحو كل الاتجاهات كانت نيران الدبابات قوية إلى أبعد الحدود.. ودون أي توقف. في لحظة واحدة سكت كل شيء وقبل أن تبتعد أصوات القنابل.. بدأ القذف ثانية.. كانت النيران تأتي من الأعلى، في هذه اللحظات فهم حكمت باشا أن الحوّامات قد تدخلت أيضاً في المعركة.

كانوا يعيشون الدقائق الأولى من هجوم كبير وكاسح. صعدت دقات قلوبهم إلى ضعف ما كانت عليه. أسرع مباشرة إلى داخل الخيمة. كان بعض قادة الكتائب والسرايا موجودين هناك أيضاً. كان الجري السريع بين الموت والحياة قد بدأ والعالم الخارجي صار أكثر غرية، لم يكن أحد يستطيع أن يستقبل هذه الأحداث بهدوء وروية.. كما كان الحال قبل دقائق من الآن. صرخ إحسان باشا:

- أسرعوا.. أسرعوا يا أولادي لتبدأ المدافع بإطلاق النار.. ليكن الله في عوننا جميعاً.

وفي الوقت نفسه كانوا يحاولون الاتصال مع رئيس الأركان باللاسلكي كانت الرصاصات (الهوجائية) قد بدأت بالمرور من فوق الخيمة ويجب أن تكون

هذه القذائف من الحوّامات من طراز (آباتشي) ٦٤ – AH ومن رشاش ٣٠ مم.

كان إحسان باشا قد استطاع الوصول أو الاتصال برئيس الأركان. ولكنه لم يكن اتصالاً واضحاً من كثرة الاختلاطات الهوائية وأصوات المدافع والرشاشات أخبر العسكري هناك بتفصيلات الهجوم وطلب دعماً جوياً. وبهذا الصدد لم يكن عنده قناعة بمجيء هذا الدعم بأي شكل من الأشكال. هذا الشيء الذي بدأ كان شيئاً مختلفاً كانت أصوات النيران الهاطلة كالمطر قد تباينت وتنوّعت أكثر كانت قوات فرقة الإنزال الجوي ١٠١ تستعمل جميع أنواع الأسلحة لضرب الخنادق. نيران الدبابات لا تتوقف أبداً.. وكانت الحوّامات تخرج من خلف التلل الموجودة هناك.. تقذف ثم تعود إلى الاختفاء والتستر آلاف من الطلقات كانت تتطاير فوق مكان تواجد لواء المشاة البحري التركي.

عناصر هذا اللواء لم يقعدوا مكتوفي الأيدي أمام هذه الهجمة القوية كانوا يردون على النيران بكل استطاعتهم. كانوا يطلقون النار وبكل راحة من داخل الخنادق العميقة. ولهذا السبب كانت الحوّامات لا تستطيع الاقتراب منهم. وإلا لكان الوضع قد صار أكثر خطراً وخسارة. اهتزت أجسام الجنود على وقع الانفجارات الضخمة.. كانت مدافع الهاون والمدافع المتحركة من عيار ١٠٥ مم قد بدأت بإطلاق النار قريباً من خيمة القيادة حيث بدأت الانفجارات تتوالى فوق التلل المقابلة. ولكن النيران المعادية لم تكن تخف بأي شكل من الأشكال.

كانت النيران المعادية تتغير في كل ثانية من جهة أخرى وبشكل كثيف وكانت فرقة المشاة الرابعة التابعة للجيش الأمريكي.. قد وصلت لدعم فرقة الإنزال الجوي ١٠١ وبسبب نيران الدبابات من طراز M1A2 الكثيفة على الخنادق الأمامية.. كانت قد تحولت إلى مقابر جماعية.

- يا باشا أعلمونا عن حالكم الأصوات الواصلة من عندكم.. مصيبة؟ كان صوت رئيس الأركان مشوشاً ولكنه قوياً هو الأخر كان يتحدث وكأنه قد غرق في بحر من الانفعالات.

- إنها مصيبة يا سيدي مصيبة بكل معنى الكلمة.. إنهم يهاجموننا من عدة اتجاهات وبشكل كامل.

إلى جانب أصوات الانفجارات كانت الأصوات الأخرى من أجهزة أخرى تختلط بحديث رئيس الأركان عبر اللاسلكي.. وبشكل مزعج جداً لا يستطيع المرء أن يتحملها. كان يصرخ طالباً الدعم والمساعدة وأن العناصر يحترقون تحت نيران قوية واستشهد منهم الكثير وكانت طلبات النجدة تنهال إلى القيادة من الخنادق الأمامية التابعة للواء.

- ماذا نفعل يا سيدي هل نعود؟

من المستحيل أن يظل رئيس الأركان مكتوف الأيدي أمام هذه الطلبات الملحة للنجدة. كان سيرمي جانباً كل الحسابات الديبلوماسية التي كانوا يناقشونها قبل فترة.

- أعرف يا سيدي.. سنحاول التحمّل أكثر ولكنهم يهاجموننا بأسلحة ثقيلة هذه الليلة نستطيع أن نقضيها ولكن لا أدري ماذا سنفعل غداً.
- إذا أردت يا سيدي لنحرقهم.
- هل بدأت الحرب يا سيدي؟
- لا أردي يا إحسان باشا لا أدري.. من الظاهر هكذا.
- انتظروا الصباح يا سيدي.. لأرد على هذه الهجمة الصاّع صاعين.
- كيف حال بقية الألوية؟

لم يكن حال الآخرين جيداً أيضاً.. وربما كان وضعهم أسوأ كان اللواء الجبلي الخاص (كوماندو).. قد انتشر على الأراضي بعد أن توزع إلى سرايا وفصائل. العناصر التي بقيت على الأراضي السهلة.. حصلت بينهم وبين الأمريكيين معارك دراماتيكية ، وكان الآخرون قد هربوا نحو الجبال حيث خلصوا انفسهم من الموت المحقق والإبادة الكاملة. ولكن الاتصالات قد قطعت بينهم. كانت كل سرية وكتيبة تدافع عن نفسها بإكتفاء ذاتي وإذا كان الحظ قد حالفهم في الدفاع عن انفسهم. كانوا يحاولون البقاء على قيد الحياة, فوق تلك الأراضي الصعبة والمليئة بالعصابات وكل انواع السوء. متوزعين إلى مجموعات صغيرة عشرة... عشرة أو أقل.

أما الاخبار لم تكن تصل عن لواء المدرعات ٢٠ يجب أن تكون دبابة القيادة

قد ضُربت حيث انتهت مناقشاتهم اللاسلكية نهاية سيئة.

انقطع الخط اللاسلكي بين رئاسة الأركان ولواء المشاة البحري، كان على إحسان باشا أن يرد هذا الهجوم حتى صباح الغد وبعد ذلك تتدخل السياسة في حل هذه المشكلة.

كان الجيش التركي لا يريد تصديق دخول الجيش الأمريكي إلى هذه الحرب. من غير المستحيل أن تقوم هذه القوات بعملية لا منطقية هكذا.

كانت النيران الأمريكية تغيّر من مراكزها على الدوام وكأنهم يجربون حظهم. كانوا قد بدأوا بإرسال النيران إلى ما بعد خطوط اللواء من الخلف.. ربما كانوا يريدون ضرب القيادة أو إسكات المدافع.

خرجت قذيفة من إحدى الدبابات المعادية مزّقت المساء ووقعت على بعد مئة متر من القيادة ومن خلفها جاءت قذائف أخرى وكأنهم قد عرفوا مكان تواجد المدافع.. فهم إحسان باشا الموقف مباشرة حيث أمر بوقف النار وأعطى أمراً آخر:

- لتغير مدافع الهاون أماكنها وتبدأ بالقذف.

حمل الجنود العاملين على مدافع الهاون عددهم وغيّروا أماكنهم وبدأوا ثانية بالقذف في تلك اللحظة تماماً سقطت قذيفة دبابة فوق بطارية المدفع تماماً حيث حصل انفجار مرعب في الوقت الذي كانت فيه الشظايا المعدنية تتوزع على الأطراف. كانت الصراخات الصادرة من الجنود قد لفت كل مكان. وفي الوقت الذي خرج فيه الجنود لمساعدة زملائهم الجرحى.. وإذا بعدة انفجارات تحصل خلف بعضها بعضاً داخل طابور المدفعية. كان مستودع المهمات قد بدأ الإحتراق. وانتشرت آلاف الشظايا بسرعة الرصاص على الأطراف. وأصيب نتيجة لذلك الجنود الذين كانوا قد خرجوا من خنادقهم لمساعدة إخوانهم الجرحى. وبعضهم سقط صريعاً على الأرض.. كان الأمريكيون قد فهموا قيمة هذا المكان أو أهميته.. والقذائف التي كانت تنزل واحدة إثر أخرى تدل على ذلك كانت قذائف الدبابات قد تركزت على تلك المنطقة، وتحول مكان وجود بطارية المدافع إلى حفرة من النيران. كان الجنود الموجودون قريباً من البطارية لا يرفعون رؤسهم من الخنادق خوفاً من الشظايا المتناثرة.. كانت رائحة الدم والدخان والبارود قد غطت

الأجواء هناك كان الجرحى لا يعرفون أين سيتجهون وأين سيذهبون. امتلأ سواد الليل بالصراخات التي كانت تمزق القلوب والأعماق. ثمة ظل كان يحاول الوقوف على رجليه كانت أعضاؤه الداخلية قد فرغت من أعماقه لم يكن أحد يقترب من الجرحى.

في هذه الأثناء كان القتال قد اندلع ثانية في الخنادق الأمامية كانت الحوّامات من طراز (اباتشي).قد تشجعت أكثر وبدأت تضرب بقوة ولكن بدل هذا الشيء كانت إحدى الحوّامات قد غطست فوق اللواء.. وبدأت ترمي صواريخها نحو مجموعة من الجنود الفارين.. مجموعة كبيرة من الجنود استشهدوا في تلك الهجمة. أما الحوّامة فقد تحطمت في الهواء إثر إطلاق صاروخ مجهول الهوية والمكان. هذه العملية كانت تشبه عملية انتحارية. ولكنها أعطت خسائر كبيرة.

سُمع نداء من إحدى الأجهزة اللاسلكية من الخنادق الأمامية.. كان المتحدث لا يذكر اسمه.

- الدبابات تحاول الاقتراب.. سنبدأ بالقتال الغريب مع طاقمي.

بعد فترة قصيرة سُمع انفجار كبير قريباً من ذلك الخندق. كان قائد تلك الوحدة أو السرية الملازم الأول.. قد وزّع على عناصره قذائف أو صواريخ مضادة للدبابات.. وكانت العناصر قد استفادت من تعرج الأرض وأخذت أماكن لها. كان الجنود قد أطلقوا صواريخهم واحداً إثر آخر حيث أصابوا دبابة عملاقة من طراز M1A2.

كانت في المقدمة ولكن أماكنهم كانت قد كُشفت.. حيث بدأت الرشاشات من عيار ١٢,٧ مم الموجودة على الدبابات ترمي الطاقم بسيل عارم من النيران. فاستشهدوا جميعاً.. كانت الدبابات قد تراجعت ثانية. خوفاً من الإصابات.. لو تقدموا لم يكن أمامهم حاجز على الإطلاق.

كان أكثر من عشرة جنود يلتفون حول إحسان باشا الآن. يد وكل واحد منهم يذكر الإنسان بمخزن الأسلحة. كانوا يتراؤون على شكل وحوش داخل الظلمة.. كان الفريق ينتقل من خندق إلى آخر يحاول رفع معنويات عناصره.. كان الجنود

في الخنادق الأمامية لم ينتشروا بعد ولكن خطهم كان ضعيفاً لأن نار الأعداء كانت أقوى مما ترقبوه وأكثر إصابة للأهداف. وبين وقت وآخر كان صوت الأمريكيين يختلط بالجهاز اللاسلكي كانت المحادثات الجارية بينهم منفعلة وذات حرارة عالية على الأقل كما هي لدى الأتراك الآن.

كانت خنادق اللواء قد تهدمت إلى حد ما كان الجنود قد استخدموا قطع الحديد الناجمة عن الانفجارات أغطية لرؤوسهم، كان طابور المدفعية الأمريكية التي جاءت تدعم الفرقة ١٠١ لا توقف قذف مدافعها حتى تجعل المعركة حامية على الدوام ولكن الشدة كانت قد ضعفت.

- إنهم يتوقفون يا سيدي؟

كان النقيب (أوميت) قد قال هذه الكلمات بصوت قوي إلى حد ما. هزّ إحسان باشا رأسه. هذا الخبر جيد في هذا الوقت. إذن كانوا قد ردوا الهجمة الأولى.. ولكن لم يربحوا شيئاً.. سوى تدمير دبابة وإسقاط مروحية.. لم يكن إحسان باشا يعلم شيئاً عمّا دار في الطرف المقابل، كانت عشرات من الطائرات المروحية قد أُصيبت بالرشاشات والصواريخ المضادة للدبابات وكلها كانت بحاجة إلى تصليح وتعمير لم يكن أحد قد عرف شدة المعارك التي حصلت غير الشهداء والجرحى.

تحدث إحسان باشا بصوت لا قرار فيه:

- ربما يعودون بعد قليل.. ما رأيكم لو نضع ألغاماً على الخنادق؟

- إن مجال حركتنا يضيق يا سيدي.. الألغام توقفنا أيضاً.

قال ذلك قائد إحدى الكتائب.

هزّ إحسان باشا رأسه وكأنه يقول: أنت محق.. كان عليه أن يجمع جنوده ويدعم الخنادق عندما تشرق الشمس.

قال العقيد البحري (هاشم آر ألب) وهو قائد كتيبة: أعطني إذناً يا سيدي.

- ولماذا يا ابني؟

الآن نملك خمسة وعشرين مدرعةً يا سيدي وتسع دبابات كي نقوم بهجمة

مضادة.

كان إحسان باشا قد احتار في أمره. ولكن بعض الأحيان يتطلب جو المعركة مثل هذه البطولات، حيث قال له:

- هذا نوع من الانتحار يا ولدي!.

- حتى إذا لم نفعل ذلك يا سيدي. ستُضرب هذه العربات في الهجمة القادمة..

فكر إحسان باشا بعض الشيء.. كان العقيد يقول الصواب. لأن كل سلاح يملكونه ولا يستعملونه في أقرب فرصة.. معناه أنهم لن يستعملوه أبداً كان على دراية جيدة بالجيش الأمريكي.. بكل تأكيد عرفوا مكان هذه الدبابات.. وفي أية غارة جوية يستطيعون إبادتها كلياً.

- طيب يا ابني.. استغلوا هذه الراحة.. ابدأ الهجوم مباشرة! هذه عملية بطولية بكل معنى الكلمة. ليرضَ الله عنكم جميعاً.

امتلأت عينا العقيد بالدموع.. حيّا قائده وغادر الخيمة.

طيب.. نحن أيضاً يجب أن ندعم هذا الهجوم حتى يأخذ مدى أكبر ويكون تأثيره مباشراً.. هيا أحضروا مدافع الهاون وضعوها في الصفوف الأمامية.. عندما تبدأ الدبابات بالتقدم.. سنعمد على قذف خنادقهم بالهاون والمدافع المضادة للطائرات.

صرخ الضابط: سمعاً وطاعة يا سيدي ثم خرجوا من الخيمة وذهبوا إلى وحداتهم.. كان الجنود قد انطمروا داخل الخنادق.. ومن غير المستحيل أن يراهم أحد في هذه الظلمة. تقدمت العربات المدرعة رويداً رويداً نحو الصفوف الامامية.. كانت ثمة أرض متعرجة تعريجة خفيفة أمامهم.. تعد هذه الأراضي سهلة بالنسبة للعربات المدرعة.

كانوا سيهجمون وهم منتشرون.. وكانوا يفكرون بإزاحة الصف الأمامي نحو الخلف.

العربات المدرعة التي بدأت بالتحرك.. قد وقعت فوراً على شبكة رادار طائرات جستار الأمريكية.. وكان من الصعب التخلص من شبكة هذه الطائرات التي كانت تلتقط حتى العربات الصغيرة.

ولم يكن للدبابات علم بهذه الطائرات.. حتى ولو علموا كانوا لا يستطيعون فعل أي شيء على الإطلاق.. كانت المعلومات تنتقل فوراً إلى العناصر الموجودة في البر والجو. كان الأمريكيون يخبرون بعضهم بهذا الهجوم وهم منفعلون كانوا قد شاهدوا مثل هذه الحركات المضادة والمقاومة القوية أثناء الحرب العراقية. كان الجنود الذين هم في مواقف صعبة يطبقون الأوامر عن ظهر قلب.. ولكن النتجية تكون دراماتيكية.

كان العقيد (هاشم آر آلب) في مقدمة الدبابات.. أعطى أمراً باللاسلكي تقدمت المدرعات بسرعة نحو الأمام ومروا من فوق الخنادق المقذوفة أو المضروبة.. كما تقفز الأحصنة فوق الحواجز والدبابات من خلفها.. تقدموا حوالي مئة متر دون أن تقع أية مشكلة. عندما تقدمت المدرعات إلى مسافة معنية بدأ القذفْ بمدافع الهاون والمدافع المضادة للطائرات إلى جانب ذلك بدأت المدرعات والدبابات بالقذف ايضاً.. أُضيئت التلل المقابلة.. كانت مدرعات لواء المشاة البحري.. تضرب كل شيء أمامها بالمدافع.. لكن الجهة المقابلة كانت صامتة.

بعد وقت قصير وإذا بأشعة على شكل خط مستقيم تصطدم بالمدرعة التي فيها العقيد.. تبعثرت العربة إلى أشلاء.. بدأت الصراخات تعلو بألم من خطوط الأجهزة اللاسلكية التي كانت في العربات الأخرى. كان قائد اللواء إحسان باشا في الخطوط الأمامية. وهو يحمل بندقيته الأتوماتيكية لا يختلف شيئاً عن الجنود الآخرين.. أحاطه الجنود من كل طرف إلاّ أنه بإشارة من يده فرّق الجميع.. كانوا يشكلون هدفاً وهذا غير ضروري الآن.. كانوا يستطيعون مشاهدة الأهداف في الطرف الأخر والنيران الشديدة من المدرعات والدبابات تصوب عليها. بدأت عربات ZMA تقترب نحو الطرف الآخر وهي ترسم (الزيكزاك) بحركاتها السرْيعة. أما دبابات M 60 كانت تخفف من حركتها عندما تطلق النار.. ثم تتقدم كانت هذه هجمة مضادة كلاسيكية. ولكنها كانت تقدم الوقت. لهم وهذا كل ما يستطيعون فعله. أما مدافع الهاون.. فالظاهر أن تأثيرها كان قوياً إلى حد ما لأن الطلقات التي كانت تخرج من الطرف الأخر ضعيفةً. أحس إحسان باشا ببعض الأمل: ونادى قادة الكتائب والسرايا:

- يا ترى هل نستطيع صدهم وردهم إذا دعمناهم بعناصر اللواء؟

نظر الضابط في عيون بعضهم.. كانت عيونهم قد تحولت إلى طبق من الدم من التعب الشديد والبرد. كانوا لا يعرفون شيئاً. كان صعباً عليهم وهم الشباب الصغار قراءة هذه المعركة قراءة حكيمة. لو كان أمامهم عدوٌ بسيط.. لربما ولكن الاعداء هم الأمريكيون.. لا يفكرون بالرجوع حتى ولو بمثابة تكتيك عادي وكان صعباً على هذه المدرعات إجبارهم على التقهقر نحو الخلف.

تدّخل النقيب فوزي بالموضوع حيث قال: أريد إذناً كي أهاجمهم بطاقمي إذا لحقنا بالدبابات يزداد حظنا بالنصر. دار إحسان باشا ونظر ثانية نحو الطرف الآخر. كانت الدبابات قد اقتربت كثيراً ومن مكان تواجد الأمريكيين أو من الخط الأمامي ودون مقاومة تذكر.

- تماماً يا بني.. كن حذراً.

كانت الكتيبة التي يرأسها النقيب فوزي قد اجتمعت خلال خمس دقائق وعددها مئتان وثلاثة وأربعون جندياً.. وكأن الجميع يشبهون بعضهم بعضاً كانوا عبارة عن ظلال داخل الظلام وأو هكذا كانوا يتراءون حتى لو كانت هناك أشعة شمس لا يختلف شيئاً كانوا الآن يحّسون بالفخ الذي وقعوا فيه وفهموا أنهم لا يستطيعون الخروج من هنا بسهولة كانت ثمة دخان كثيف يتعالى فوق الجزر النارية الملتهبة الناتجة عن الانفجارات الشديدة قد حولت المكان إلى قطعة من جهنم.. وربما كانوا يحسون بالغضب الشديد لما يحصل. أحسوا بأنهم جاهزون لكل شيء للانتقام وتخريب نشوة أيامهم

وقف النقيب فوزي أمام الكتيبة.. كان عليهم أن يتحركوا بسرعة شديدة.. الفصائل يجب أن تفترق عن بعضها بعضاً. أعطيت الأوامر لقادة السرايا فاستعدوا جميعاً في هذه الأثناء كانت المدرعات تتلقى المزيد من القذف. كان ثمة شيء غريب يتحكم في دوزان المدرعات وكأنهم لا يسددون.. كانت القذائف تطير نحو الأعلى.. وليس على الأهداف. بعد دقيقة كانوا سيعرفون سبب هذاالشيء.

تقدم النقيب فوزي دون أن يقول شيئاً قفز من فوق الخنادق واختفى داخل الظلام.. وعناصره من خلفه.

راقب إحسان باشا جنوده الذين كانوا يرمون بأنفسهم إلى بحر الظلام والدموع تملأ عينيه. أمر رماة الهاون. حيث بدأوا بالقذف ثانية كانوا يرمون القذائف دون أن يفكروا هل كانت ستكفيهم أم لا.

ليسوا بحاجة للتفكير. بدأت قنابل الهاون تنزل على التلل المقابلة وتضيئها.

كانوا يستطيعون رؤية الظلام على أضواء الانفجارات التي كانت تحدث في الطرف الثاني.. الأمريكيون كانوا هناك ولكنهم لا يجابهون النار بالنار.. ماذا كانوا سيفعلون يا ترى؟

في الوقت الذي كان فيه هذا السؤال يخربشُ الرؤوس.. جاء الجواب سريعاً جداً كان سبب الفوضى الحاصلة في المدرعات وقذائفها التي كانت تذهب سدى هنا وهناك. كانت المدرعات التركية قد لاحظت المروحيات التي كانت تهاجم ولهذا السبب كانوا قد بدأوا بالدفاع عن أنفسهم ضدها. إلى الغرب من الطريق الذي كانت تسير فيه المدرعات وعلى بعد ثلاثة كيلو مترات.. كانت بعض الإشعاعات قد بدأت بالهطول فوق المدرعات وذلك من منبع لا يبعد عنهم كثيراً، بعد عدة ثوانٍ فقط.. بدأت الانفجارات تتوالى في المدرعات والدبابات التي تحولت إلى كتلة ملتهبة من النيران. والأصوات التي كانت تملأ جهاز إحسان باشا كانت تخطئ أبداً.. كانت هذه الأصوات هي أصوات الجنود تصدر من الدبابات والمدرعات المحروقة. كانت الشهادة تأخذهم رويداً رويداً.

كانت المدرعات قد غُرزت في أماكنها ولا تصدر منها نيران نحو الأعداء.

كان المشهد الأخضر الذي كان يظهر على كاميرا التسديد في المدرعات. يفلج الإنسان ثمة أسطول ضخم في البعيد وفي مكان مرتفع إلى حد ما كان يبث الموت دون توقف. وثمة نقاط سوداء كانت تظهر على السماء.. هذا المشهد أو المنظر لا يراه سوى الموجودين داخل المدرعات والدبابات.. كانت عشرات المروحيات من طراز (آباتشي) تصداهم بسهولة.. في كل دقيقة كانت تُضرب عدة عربات دفعة واحدة.

كانت الهجمة المضادة قد انتهت منذ وقت طويل.. بدأ الجنود بمغادرة عرباتهم. لا يستطيعون فعل أي شيء كان عليهم ترك العربات والرجوع إلى الخنادق فوراً

عندما شاهد الجنود الذين نزلوا من المدرعات زملاءهم جنود المشاة على بعد عدة امتار منهم. ذُهلوا واحتاروا.

كان اكثر من مئتين وثلاثة وأربعين جندياً من المشاة قد انتشروا في الأراضي يقتربون منهم رويداً رويداً.. في بداية الأمر لم يصدقوا عيونهم ولكن عندما اقترب الجنود منهم. عرفوا الحقيقة.

ماذا تفعلون هنا هل جننتم؟

تقدم من بين عساكر المشاة ملازمٌ وصرخ في وجه ذاك العسكري الذي سألهم قبل قليل.

- أنتم ماذا تفعلون.. هيا اصعدوا إلى دباباتكم.. هذه هجمة مضادة.
- ماذا تقول يا سيدي؟ على رأس الهضبة المقابلة عشرات المروحيات. إنهم قادمون بشكل كثيف وربما يصلون الآن.

قبل أن تنتهي هذه المناقشة امتلأت الأطراف بالشرارات. كانت القذائف من طراز ٣٠مم قد امتلأت داخل الدبابات وتسبب في احتراقها نظر الجنود بقلق إلى الدبابة المحترقة. وقبل أن يفكروا في عمل شيء ما.. انفجرت بقوة.. وتناثرت الشظايا نحو كل الجهات فجرح العديد منهم.. كان المشاة البحرية يفرون بسرعة من أطراف الدبابة المنفجرة – عندما رفعوا رؤوسهم وهم يفرون شاهدوا مجموعة من اللهب تتطاير فوق رؤوسهم على ارتفاع عدة أمتار فقط. وبعد ثانية واحدة بدأت هذه القطع اللهبية تتساقط فوق رؤوسهم كانت المروحيات ترسم خطاً واسعاً حول الساحة تفتح النار على الأهداف الأرضية وهي ترسم هذا الإطار الدائري. كان الجنود الأتراك قد بقوا داخل جبهتين من النار دون وقاية ولا حماية. ورفعوا بنادقهم من طراز (G-3) دون أمل وأطلقوا النار على المروحيات.. ومن جهة أخرى بدأت الدبابات الأمريكية بفتح نيرانها عليهم. وبدأت الدبابات العملاقة من طراز (MaA2) تهجم وبقوة على القوات التركية التي كانت تقوم بالهجمة المضادة. كانت هذه الدبابات قد بدأت على صعيد المدرعات التركية التي لم ترها المروحيات. كان الجو قد تحوّل إلى جهنم بكل معنى الكلمة.

كان إحسان باشا يراقب المعركة وهو على الخطوط التركية.. وصرخ بقوة:

ماذا فعلنا لك يا رب؟ كانت آذانهم تئن بقوة من صوت الدبابات العملاقة – التي تذكر الإنسان بصوت الرعد رموا أنفسهم على الأرض – ينظرون إلى أطرافهم.. كانوا لا يرون سوى أجساد زملائهم المستشهدين وعلى ضوء الانفجارات المتتالية كانت المدرعات تحترق قريباً منهم.

أسرع المشاة البحرية ورموا بأنفسهم إلى الخنادق.. في هذه الأثناء كانت المروحيات قد اقتربت منهم كثيراً. والفوضى تعيث فساداً وموتاً بين عناصر لواء مشاة البحرية. كانوا يرمون المروحيات والدبابات بكل الأسلحة التي كانت معهم والحقيقة كان عملاً لا يفيد شيئاً. وفي النهاية.. هذا ليس سوى لواء مشاة خفيف لم يكن أحد يفكر بالظفر أو النصر أمام فرقة كبيرة ومدعومة إلى حد كبير.

كان إحسان باشا يقرأ الموقف تماماً. وأن الأمور تسير نحو الأسوأ كان البقاء في الخنادق الأمامية قد صار خطراً.

وبالأصل فإن الخطوط الأمامية للواء ضعيف.. كانت قد اختلطت ببعضها من ضراوة النيران وانهارت إلى حد كبير.

كان الضباط الذين معه يريدونه أن يتراجع إلى الخلف. ولكن من الصعوبة بمكان أن يجعلوه يتراجع. كان في حالة هسيترية وكأنه قد ضيّع نفسه.. كان الضباط يخشون من أن يقوم برمي بنفسه إلى وسط المعركة.

والحقيقة لم يكونوا مخطئين في تقديرهم.. كانت أعماقه تغلي من الألم. وكان على وشك أن يفقد عقله. كان الجنود الذين أمرهم بالقتال قد وقعوا تحت مخالب الموت.. نظر إلى الجنود الذين كانوا يجرون نحوه. كانت الرصاصات تمزقهم.. كل هذا ولا يستطيع أن يفعل شيئاً كان من غير الممكن أو هكذا يتراءى.. فتح النار من اللواء.. وإنزال الخسائر بالقوات الأمريكية ولو إلى حد خفيف.. أمام هذه الهجمات الثقيلة التي كانوا يتعرضون لها. لأن الدعم لن يأتيهم والعلاقات مقطوعة بينهم وبين اللوائين الآخرين ولا يعرف شيئاً عنهم وفي أي وضع هم.

فكّر إحسان باشا في نفسه: إننا نموت رويداً رويداً يا إلهي. تحوّل شعر جسده إلى ما يشبه الأشواك ولكن إذا أظهر أحاسيسه لعناصره تكون السيطرة عليهم

مستحيلةً. لم يكن ينظر إلى مشاهد المنطقة التي قتل فيها عناصر الهجمة المضادة.. الساحة كلها مليئة بأجساد الشهداء. كانت الرياح الباردة.. تجلب إلى أذنيه صراخهم وأنين جرحاهم.. كانت بعض الجيوب الصغيرة ما زالت تفتح النار على الأعداء هنا وهناك من أرجاء تلك الساحة. لم يكن إحسان باشا يريد أن يفكر بهذا الشيء. كان الجنود هناك يقدمون أرواحهم فداء لزملائهم.. كان يعرف ماهية البطولات التي قدموها. كانوا يجابهون الدبابات والمروحيات بأجسادهم.

في هذه الأثناء انفجرت دبابة ضخمة من طراز (M1A2) بصوت مدوي في وسط الساحة عندما شاهد إحسان باشا هذا المنظر لم يستطع أن يتمالك نفسه حيث بدأ بالبكاء كان هذا أكبر دليل يقدمه لبسالة الجنود وتضحيتهم.

- امسك الجرح يا صباح الدين امسك الجرح.. إنه ينزف كثيراً.
- وقف.. وقف اهدأ يا حضرة الرقيب إبراهيم لا تخف! كل شيء سيكون بخير.

نظر صباح الدين إلى الدم الذي كان يسيل من بطن الرقيب. كان المكان الذي وطأت فيه قدمه قد تحوّل إلى وحل من الدماء. وكأن رصاصة كبيرة قد أخذت قطعة من بطنه وراحت. كان الرقيب إبراهيم على وشك الموت من نزيف الدم. كان هو وزملاؤه الأربعة الآخرون يقاومون العدو بعد أن شكلوا لأنفسهم جيباً صغيراً داخل حفرة عميقة بين صخرتين مغروزتين بالأرض. كانوا بعيدين عن خطهم. ويعلمون أنهم لن يعودوا أبداً، كانت الدبابات الأمريكية تدور في الساحة وتطلق النار بالرشاش ١٢٠مم إلى كل جيب تصدر منه مقاومة ويطيرونه في الهواء وبعض الأحيان تمر من فوقهم.

في هذه الأثناء يعمد الجنود على إطلاق النار على الدبابة المارة من فوقهم فتصطدم الرصاصة بالحديد السميك وتعود إليهم وتجرحهم.. ثم أصوات تحطم العظام.. وصمت دائم.

كانت الصواريخ من طراز RPG على وشك أن تنفذ من صباح الدين.. ومن جهة أخرى كان يشد على جرح الرقيب إبراهيم ومن طرف يحاول عد الرصاصات المتبقية معه. كان معه أربعة صواريخ ورصاصات (G-3) كانت قد انتهت. لكن

المسدس الذي كان على ظهره مليء بالرصاص.

كان قد خبأه للوهلة الأخيرة.. ولم يكن قد قرر بعد كيفية استعماله. لم يكن عنده نية للوقوع أسيراً للأعداء.. كان قد بدأ يرى نفسه شهيداً منذ الآن. سكت الجنود الآخرون، فجأة نظروا إليه وإلى الرقيب إبراهيم. قال أحدهم: (انتهى). لم يكن بالإمكان فهم أحاسيسه.

هزّ صباح الدين رأسه.. كانت الرصاصات قد انتهت.. لم يفكروا بانتظار إحدى دبابات الأعداء لتقضي عليهم. ولم يكن أحد يفكر بتسليم نفسه.. هذا هو السؤال الوحيد الذي كانوا يذكرونه. إلى متى كانوا سيظلون يتحمّلون هذا المنظر الذي أمامهم؟ ومتى سيستشهدون إذن، الإنسان يتحوّل إلى مخلوق آخر عندما يكون الموت حتمياً. ثمة سعادة أبدية تملأ أعماقه. الخوف من الموت الذي هو الجرح العميق لوجود الإنسان.. يغادر البدن في تلك اللحظة. ويجد الإنسان نفسه في ساحة للمرور بين العالمين.. وعند ذلك لا يهمه شيء على الإطلاق. حتى لا أهمية لشكل الموت أيضاً.

بقي الجنود ينظرون في عيون بعضهم.. كانت عينا الرقيب إبراهيم تنظران إلى نقطة مجهولة. في البداية كان ثمة كلمات لا معنى لها تخرج من بين شفتيه المرتجفتين ثم بدأ يوازن نفسه وكلماته. كان يردد كلمات الشهادة. وفي لحظة واحدة ارتسم الضياء في وجهه.

وبدأ ينظر نحو السماء شُدَّ جسده. وكأنه يريد التحرك من مكانه لم يفهم صباح الدين ما حصل له. رأى ردة الفعل التي لا معنى لها من إنسان يموت.

كانت إحدى الدبابات التي تقترب منهم قد بدأت تمطر الأطراف بالرشاش الأتوماتيكي. لم يكن باستطاعتهم إخراج رؤوسهم من الحفرة إذا أرادت الدبابة، كان بمقدورها إبادتهم بقذيفة مدفع واحد – ولكنها لم تكن تفعل ذلك.

ففهموا أنها ستجتاز من فوق الحفرة. نظروا إلى بعضهم بنشوة. كان الرقيب إبراهيم قد مدّ ساعديه نحو السماء.. كان يستعمل طاقته الأخيرة. لم يكن أحد قد فهم معنى حركته هذه.. وما الذي كان يريده كان إبراهيم يحاول مدّ يديه لأحد ما.. كانت دموعه قد رسمت خطأ أثراً في وجهه الضبابي.. مسح صباح الدين

الوحل الذي كان يغطي وجهه. لم يكن الرقيب ينظر نحوه.. وكأنه قد قطع علاقته مع الدنيا. مرت ثوانٍ.. وترك نفسه وقد ارتسمت السعادة والغرور على وجهه.

نظر صباح الدين إلى العساكر الذين معه.. كانوا ينتظرون هكذا. فهم أنهم لم يضيّقوا أنفسهم بفضل الأدعية التي كانت تتسكب من شفاهم وإلاّ من غير الممكن أن يبقوا هناك بهذا الشكل. كانوا في حالة صممٍ كامل من هدير وضوضاء الدبابة التي كانت تقترب منعهم. اهتز صباح الدين من تمازج صوت غريب بصوت (زنجير) الدبابة. ثمة طنين قادم من بعيد.. بدأ يعلو ويعلو.. وضوء غريب معلق فوق الساحة قد جاء لتوه أيضاً... ربط الصواريخ الأربعة التيٍ كانت معه على ظهره بعد أن وضع إبرتها للتفجير. كان الجنود الآخرون قد فهموا ما الذي يفعله صباح الدين.. وبعجالة ربطوا القنابل اليدوية على أجسامهم وعلقوا أصابعهم على حلقاتها..

كانوا قد صاروا كميناً.. لغماً ونظروا بشفقة إلى الدبابة التي كانت تقترب منهم. كانوا قد تحوّلوا إلى (آنتي دبابة) بأربعة صواريخ وعشرين قنبلة يدوية.

كان صباح الدين ينظر مرة إلى الدبابة المقتربة، ومرة نحو السماء كان الجنود الآخرون يفعلون الحركة نفسها. عندما فهموا ذلك تشابكت أيديهم ببعضها وكانوا يعرفون أن الصوت نفسه كان في آذانهم والضوء نفسه في عيونهم. زاد الطنين باضطراد.. كان صوت الدبابة قد بدأ يعلو على صوت (زناجيرها) تمددوا داخل الحفرة. كانت أنفاسهم قد سكنت ولكن ماضيهم لم يكن يُغادر عيونهم كان بحر من الخيّالة يسيل من الأعلى.. همس أحدهم (يا الله) شدوا علىٍ أيديهم بقوة.. صعدت الدبابة على المرتفع الصغير أو البسيط أمام الحفرة. وفي الوقت الذي سقطت فيه بقوة فوق العساكر.. حصل انفجار قوي. في لحظة واحدة تحولت الدبابة إلى كتلة من اللهب من أثر الثقب الذي سببه الانفجار الشديد من أسفلها هذه هي اللوحة التي رآها إحسان باشا.

كانت الشمس على وشك أن تشرق. والمعركة تدور بكل شدتها كان جميع الجنود الموجودين بالساحة قد استشهدوا وكانت ثمة طلقات فردية خفيفة تصعد من هنا وهناك في الخطوط الأمامية للواء. كانت المناورة التي تطبقها فرقة الإنزال

الجوي (١٠١) قد بدأت بالاتساع والانتشار. كانت المروحيات تجلب المزيد من الجنود وتنزلهم إلى جنوب تواجد اللواء. كانوا يتحركون بحرية تامة.. كانوا قد فهموا أن الوحدة الموجودة أمامهم لم تكن تملك من القوة كي توقفهم عند حدهم: بالأصل كانوا قد خسروا كل شيء.. مدرعاتهم ووحداتهم ولكن مازالوا خطيرين.. يقابلهم آلاف الجنود. كانوا يريدون إنهاء هذه المهمة بعد شروق الشمس مباشرة وكانوا قلقين من ردة فعل الأتراك إذا ما تم حصارهم تماماً.

كانت الحركة الالتفافية التي طبّقها الأمريكيون قد اقلقت اللواء فضيّقوا من ساحة انتشارهم كي يسهل لهم الدفاع عن أنفسهم عندما رأى الأمريكيون هذه الحركة أرسلوا وحدة صغيرة من المدرعات حتى تتم هذه الحركة بسرعة. كانوا يريدون حصار اللواء التركي في مكان ضيق. والذي أرادوه كان على وشك أن يتحقق، كانوا يطبقون الاستراتيجية نفسها التي طبقوها مع الوحدات الأخرى. وبما أنهم قد بدأوا الحرب أولاً يجب أن يكون النصر الأول لهم أيضاً. كانت الفرقة الرابعة للمشاة الميكانيكية الأمريكية الملقبة (بالحصان الحديدي) قد نظّمت هجوماً قوياً على اللواء الجبلي للقوة الخاصة. كان هذا اللواء التركي قد دافع عن نفسه بعض الوقت ولكنهم عندما عرفوا أنهم لن يقدروا على وقف هجومهم. صعدوا إلى الجبال. كانت الفرقة الأمريكية الرابعة قد لاقت مقاومة لم تترقبها فخسرت تسع دبابات وخمس عشرة عربة مدرعة. كان غضب القادة الأمريكيين يظهر عبر الخطوط اللاسلكية. لم يستطيعوا فهم مغزى هذه الخسائر الكبيرة ومن هجمة صغيرة. تقع المسؤولية الكبرى على عاتق القوات الخاصة التي كانت تتوحد مع الطبيعة بشكل رائع وتضع الكمائن المتفجرة على الأراضي في هذه الأثناء كانت القوات الخاصة التركية تتعرض على الدوام لهجمات جوية عبر المروحيات الأمريكية، ولكنها لم تكن تخسر كثيراً. ولكن قابلية تحركاتهم كانت قد نزلت إلى الصفر لأنه في الوقت الذي يبدأون فيه بالمناورة والحركة كانت المروحيات تهاجمهم بقوة بالصواريخ التي كانت تهطل عليهم كالمطر. ولهذا السبب كان الآلاف منهم محاصرين في مكان ضيق بين الجبال والتجاويف التي فتحوها بأيدهم.. يمطرون النار لكل عدو يحاول الاقتراب

منهم.

والحقيقة لم يكن أحد يعرف مقدار الزمن الذي ستدوم فيه هذه الحالة كان اللواء التركي الميكانيكي في أسوأ وضع بين الألوية التركية الأخرى مدرعات وأخرى مشاة.. وقد تم الهجوم عليه من قبل الفرقة الخيّالة الأمريكية الثالثة. حيث حصلت معارك طاحنة بالدبابات والمدرعات. وأن اللواء قد خسر كل قواته.

وأن قائده قد وقع شهيداً.. هذه المعلومات لم تكن موثوقة. وربما مع شروق الشمس تتضح كل تفاصيلها.. وكان السبب الرئيس في القضاء عليه وجوده في مكان ضيق غير قابل للمناورة والتحرك. كانت هذه الوحدات قد وقعت تحت نيران المروحيات الحديثة من طراز أباتشي AH- 64E كانت القوات الأمريكية تستعمل هذه المروحيات أول مرة وأن من السهل جداً قذف الدبابات أثناء الليل. كانت المروحيات قد انتهت مهمتها ومهمات الدبابات الأمريكية في آن واحد. وكان من أسباب هذه الخسائر السريعة هو استعمال الأتراك الدبابات القديمة من طراز M – 60 كان هذا السبب قد سهّل من مهمة الأمريكيين كثيراً كانت الصواريخ الأمريكية تطلق من الدبابات مدعومة باليورانيوم، ولهذا السبب؛ كانت المدرعات التركية تُصاب بعدة قذائف وتحترق فوراً.

جمع الفريق إحسان باشا ضباطه إلى أطرافه، كانت الشمس قد أظهرت نفسها تماماً.. كان الجو هادئاً ولكنهم كانوا يستطيعون رؤية تحركات الفرقة ١٠١ للإنزال الجوي إلى الجنوب منهم. لم تكن إفادة النصر قد رسمت بعد على الإطلاق. هكذا فكّر إحسان باشا.. كان مصمماً على المقاومة حتى آخر عسكري في وحدته. وكانوا يخططون لإنزال أشد الخسائر بالقوات المعادية، كان الجنود سيعمدون قبل موتهم إلى تقديم كل ما يمكن تقديمه للوطن وعزة الوطن.

- قراري هذا قطعي يا أولاد. إذا هجم الأعداء علينا بشكل كثيف سنعمد إلى ربط كل المتفجرات التي نملكها على أجسادنا. وسندخل داخل كل ثقب وتجويف وحفرة وننزل بهم أقسى الخسائر. لن نعطي إذناً للعالم كي يقولوا إن الأمريكيين قد انتصروا بسهولة أليس كذلك؟ لن نخون مجدنا الغابر لأن الجيش

التركي وعلى مدى مئات الأعوام. قد كتب عزته وغروره بالدم.

- أنت محق يا سيدي.. لتحرم علينا الحياة إذا لم نقتل على ا لأقل فرداً واحداً من الأعداء ولتحرم علينا التخلص من هذا الفخ أيضاً.

تمتم الضباط الآخرون دفعة واحدة: آمين.

دخل أحد الجنود الذي كان يعمل بالاستخبارات من باب الخيمة بسرعة.. كان منفعلاً جداً.. كان يقف وكأنه سيقول شيئاً مهماً:

- إنهم ينسحبون يا سيدي.

فتحت عيون الجنود من الدهشة والحيرة. هذا الخبر ليس صحيحاً بل مستحيلاً.. لماذا تنسحب هذه القوة الكبيرة من أمام لواء صغير.. هذا مستحيل خرج إحسان باشا من الخيمة وأسرع جرياً يبحث عن نقطة مرتفعة ليراقب القوات الأمريكية. ومن خلفه الضباط الآخرون.. في هذه اللحظة بالذات شاهدوا الوجه الحقيقي للمعركة التي صارت في الليل ومن خلال عيون الضوء والنهار. كانت وجوه جنودهم مُلبدة بالغبار والوحل. وثياب بعضهم كانت مغطاة بدماء زملائهم.. وحال الخنادق كانت سيئة جداً لا تستطيع أن تسميها خنادق، أما الساحة التي صارت فيها المعركة الليلية. تذكر الإنسان بالمقابر. الدبابات والعربات المدرعة والجنود المحروقون.. كانت قد دامت على مدى ساعات طويلة.. كانت الكتيبة قد قاتلت حتى نفسها الأخير.. ولم تتراجع.. وأفنت نفسها بنفسها.

كان إحسان باشا يحاول أن يمسك نفسه والدموع الغزيرة قد بدأت تسيل من عينيه.. لم يكن يريد النظر إلى وجوه جنوده الذين كانوا يتخندقون.. متعبين.. منتهين. كان يحس أن الابتسامة التي على وجهه لن تعطيهم المعنوية. وليس من الضرورة أن ينظر المرء إلى المرآة كي يعرف ذلك. كان قد أعطى أمراً واحداً.. ونتيجة لهذا الأمر كانت أجساد مئتين وثلاثة وأربعين جندياً متمددين على الأرض.. محروقين كان قد أرسلهم بيديه إلى هناك ولا يدري كيف كان سيتحمل كل هذا العذاب. كانت الكتيبة قد منعت تمزق خطوط اللواء. وإذا كان الخبر الذي جاءه صحيحاً الآن – كان عليهم أن يقيموا نصباً تذكارياً لشهداء الكتيبة في تلك الساحة.

بدأ إحسان باشا والضباط الآخرون بمراقبة القوات المعادية وتحركاتها من موقع متقدم إلى حد كبير. أما الجنود الأمريكيون الذين تم انزالهم في ساعات الصباح.. فكانوا يذهبون ثانية وبالمروحيات نفسها. كانت الجهة الجنوبية قد صارت مكشوفة إلى حد ما. إذا كانوا قد أرادوا الفرار من هنا.. كان باستطاعتهم ذلك وبسهولة كبيرة.

حتى القوات الرئيسة الموجودة في الشمال.. كانت قد بدأت بالتحرك أيضاً وكانت بعض المدرعات الأمريكية قد بدأت تخلي جثث جنودهم من داخل الدبابات التي احترقت في الليل.. وبسرعة كبيرة. وكان بعض الجنود الذين جاؤوا بسيارة إسعاف مدرعة.. قد بدأوا بنشل جثث الطيارين من داخل المروحية التي سقطت.

ماذا يحصل يا إلهي! لم يكن إحسان باشا يستطيع تأويل وفهم كل هذه التحركات التي كانت تجري أمامه.. لماذا يا تُرى فجرّوا هذه الحرب القذرة؟ وربما استطاع السياسيون توقيفها، تراءى هذا الشيء أمام عينيه كاحتمال صغير. لو صار على عكس ذلك.. لصدقها.. من غير المعقول أن ينجح السياسيون في توقيف وإطفاء هذه النيران المتأججة.. احتمال ضعيف جداً.. جداً.

وإذا قلنا إن الأمريكيين قد انسحبوا من شدة المقاومة.. هذا يكون نوعاً من التفاؤل الشديد. طيب.. لماذا؟ لم يكن إحسان باشا قد أحبّ هذه العملية أبداً أبداً.. بالنسبة لمنطقه العسكري. يجب أن يبدأ القذف الجوي.. ومع هذا القذف تدخل القوات تزامناً مع الدعم الجوي. ربما هكذا، ولكن لم يكن عنده علم بأنواع كثيرة من الأسلحة وربما هذه اللامعرفة قد جعلته يغير من منطقه العسكري. وهذا ما سيظهره الزمن القادم.

٢٣ أيار ٢٠٠٧ — الساعة ٠٨,٠٠

رئاسة الأركان العامة

كان مركز القيادة في رئاسة الأركان مزدحماً جداً.. والعساكر الذين كانوا ينتقلون من هنا إلى هناك.. يوّصلون لقيادتهم التقارير أولاً بأول والعاملون أمام شاشات الحاسوب.. يأخذون المعطيات الواردة إليهم من مصادر الأخبار المنصبة عليهم من الحواسيب وخطوط اللاسلكي ويحوّلونها على شكل تقارير.. كانت هذه العملية تدوم وتوصل الأخبار والمعطيات والمعلومات إلى القادة الكبار. وكان بعض أعضاء الحكومة قد اجتمعوا في إحدى غرف مركز القيادة يتحدثون بالهاتف دون توقف.

كان الإعلاميون يبحثون عن رئيس الوزراء، ومراسلو **CNN**. يبحثون عن مئات الأجوبة للأسئلة التي كانوا قد جهزّوها حتى يكشفوا عن الوجه الحقيقي للتحركات والهمسات التي كانت تخرج من هنا وهناك لم يكن الناس يعرفون شيئاً عن العاصفة التي ظهرت في العراق. كانت بعض المعلومات الغريبة ترد إليهم من المنابع الموجودة هناك. ولكن عندما تضع الأخبار والمعلومات إلى جانب بعضها لا تستطيع الوصول إلى نتيجة واضحة..

كانت السفارة الأمريكية في تركيا قد ركنت إلى صمت مريب وغريب والمعلومات الواردة إليهم من بعض المدنيين القادمين من العراق. كانت تؤكد للإعلاميين بأن هناك قتالاً عنيفاً يدور رحاه بين الأمريكيين والأتراك. ولكن المصادر لم تكن موثوقة.. وهذا الشيء لا يستطيعون الوصول إليه إلا من رئيس الوزراء نفسه.. طبعاً كان عليهم أن يجدوه قبل كل شيء ولكن هذا الأمر كان يتراءى من رابع المستحيلات وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته كان الصحفيون جاهزين على الدوام لمثل هذه المواقف إذا أرادوا سماع كلامه وحديثه.. عليهم أن يحاصروه في نقطة ما عن طريق (المانشيتات) في الإذاعات والصحف. عندها يرسل

رئيس الوزراء من خلفهم ويعطي لهم كل المعلومات التي يبحثون عنها.

عندما وصلت عقارب الساعة إلى التاسعة من صباح ذلك اليوم كان احتياج الصحفيين لرئيس الوزراء قد تلاشى من تلقاء ذاته. كانت قناة الجزيرة الفضائية قد ذكرت في خبر عاجل لها بأنه ثمة معارك طاحنة تدور الآن بين القوات الأمريكية والتركية في العراق. هذا الخبر لم يتم تفهمه كلياً في وكالات الأنباء العالمية. وفُسّر الخبر على أنه نوع من المناورات المشتركة بين البلدين.. لم تكن المعلومات الواردة. تنسج ضمن إطار منطقي، ولهذا السبب كان الصحفيون ينتقلون من هنا إلى هناك والانفعالات والتوترات تشلهم.. وينتظرون الخبر الصحيح ثانية بعد أخرى. كانت الأخبار التي ترشح من الطرف الأمريكي تؤيد خبر قناة الجزيرة إلى حد كبير.

وحقيقة كانت ثمة أشياء جدّية تحصل في العراق.. واحتمال أن يكون قتالاً عنيفاً تزداد مع مرور كل دقيقة وثانية.

أما الصحف التركية فكانت لا تريد إذاعة هذه الأخبار إلا بعد أن ينطق بها أحد الرسميين في الحكومة. ولكن التوصل إليهم كان بعيد المنال. الأخبارُ الواردة من خارج الوطن.. كانت ستنتشر بين الناس بسرعة كبيرة. وكان المسؤولون عن الخطوط الهاتفية يؤكدون بأن استعمال الهاتف قد زاد أضعافاً مضاعفة.. وكانت هذه أهم مرآة لانتشار (جريدة الهمسات) وكان على مسؤولي القنوات الفضائية إيراد هذا الخبر فوراً في نشرات الأخبار. وإلاّ فإن فوضى كبيرة تعم البلد بكل معنى الكلمة. وربما إخفاء هذا الخبر يكون أكثر خطراً من الإعلان عنه ونشره.

كان رئيس الوزراء قد عاد إلى مقر القيادة بعد حدوث القتال في العراق. وبمجرد دخوله إلى المقر.. خلع سترته وربطة عنقه ورماها إلى إحدى الزوايا. وكان القادة العسكريون قد اجتمعوا حول طاولة كبيرة عليها خريطة الشرق الأوسط يتناقشون بحرارة ذهب رئيس الوزراء والوزراء إلى عندهم، حيًّا حكمت باشا وباقي أركان القيادة رئيس الحكومة وعادوا إلى عملهم ثانية ومن الطبيعي أن يكون رئيس الوزراء فرداً أصيلاً من أفراد طاقم الاجتماع أشار حكمت باشا إلى رئيس الوزراء إلى مناطق القتال التي كانت تدور في العراق:

- هذه النقطة.. وهذه النقطة وهـذه النقطـة.. هـي منـاطق القتـال الجـاري.. دام القتال الضاري طيلة الليلة الماضية. الوضع ربما يكون أسوأ مما نظن. الأخبار والمعلومات الواصلة إلينا ليست موثوقة.. والاتصالات الحاصلة مع ألويتنا ضعيفة. ولهذا لا تردنا الأخبار بشكل دائم.

كان طيب أردوغان ينظر إلى وجه حكمت باشا أكثر من الخريطة وكان ثمة عدم تصديق مرسوم في علامات وجهه:

لم يستطع أن يقول سوى: هل دخلنا الحرب يا باشا؟

ارتسمت علامة سوداء على وجه حكمت باشا. هو كان عسكرياً وجيء به إلى هذا المنصب لمثل هذه الأيام.. الحياة بالنسبة إليه لا تشكل أهمية ولكنه كان يحُسُّ بالمسؤولية الملقاة على عاتقه.

التفت (حكمت باشا) نحو الضباط وأعضاء الحكومة. كان قد ابتعد عدة خطوات عن الطاولة وقال:

- إذا كنا مسؤولين عن استشهاد الآلاف من جنودنا في ليلة الأمس فنحن قد دخلنا المعركة.

لم يدر أعضاء الحكومة بالذي أصابهم بعد كلام رئيس الأركان أو كانت الصدمة قد أصابت أعضاء الحكومة مما سمعوه من رئيس الأركان. أحسوا كأنهم قد ضُربوا في وجوههم.

تخدّرت وجوه بعضهم وبدأت قلوبهم تنبض كالمجانين.. وبدأ العرق البارد يسيل من ظهورهم.. فظهر أن الجميع لم يكونوا على دراية بالأمور الحاصلة ولا بضخامتها. في الوقت الذي كانوا ينظرون في وجوه بعضهم.. كانت علائم الذيول قد لفّتها.

قال رئيس الوزراء وهو يحبس الألم في أعماقه: هل تقول بالآلاف باشا. تحدثوا.. قولوا شيئاً من أجل عزة الله. ماذا حصل هناك؟ سحب حكمت باشا نفساً طويلاً وقال: هجموا على لواء المدرعات، لم يبق لنا دبابة واحدة، يقولون: إن المروحيات قد أغارت عليهم طوال الليل.. وبالأصل ليس عندهم طاقة تحمل لكل هذا. وإن اللواء قد أبيد تقريباً.. ولا نملك معلومات عن الجنود الذين نجوا بأنفسهم. والآن لا

نستطيع الاتصال مع أحد.

تحدث رئيس الوزراء وكأنه قد أحس بالمصيبة قد دخلت إلى دماغه وأحس بأن دمه قد نَشَف من جسده:

- يعني لا تستطيعون الاتصال مع أي أحد؟

- والآخرون كذلك.. الشيء نفسه.

- كلهم يا باشا..؟

- لا.. لواء مشاة البحرية حارب وقاوم طوال الليل.. وصار عندهم شهداء.. ولكنهم متمسكون بخطوطهم.. يُخبروننا بأن القوات الأمريكية قد انسحبت.. ولا أحد يعلم سبب هذه الحركة. ويقولون: إن اللواء الجبلي للوحدات الخاصة قد حارب وبعد ذلك انهزم نحو الجبال.. ويستر نفسه في مكان ضيق. ربما هذا يُشكل خطراً عليهم في المستقبل.

- لا نقدر أن نتوقف بعد الآن يا باشا.

- طبعاً لا نستطيع أن نتوقف. الجيش مستنفر الآن. ولكن يجب أن نحسب حساب كل خطوة قبل أن نخطوها لئلا تحصل مصيبة كبيرة.

يجب أن تكون أحاسيس حكمت باشا قاسية كالصخرة مقابل الألم الذي يقطع أعماقه. نعم استشهد الآلاف.. ولكن الآن يجب التفكير بمصير أمة كاملة.

قال طيب أردوغان: وصل السيد عبد الله غول وزير الخارجية إلى واشنطن هذا اليوم وسيعقد اجتماعاً مع نائب الرئيس (ديك تشيني) ونأمل أن نحل هذه المشكلة على الطاولة.

قال ذلك ولم يكن يعرف إن كان يصدق ما صدر منه.

- سيدي رئيس الوزراء "خرجت هذه الكلمات من (حكمت باشا) وعروق وجهه كانت على وشك أن تنفجر من الغضب والانفعال الشديدين وأضاف دون أن يفهم الذي حصل: تفضلوا يا سيدي.

- اطلبوا وزير الحكومة الخارجية ليعود فوراً.

فهم الأعضاء مغزى كلماته مباشرة.. هل من المعقول أن يتحقق هذا الشيء؟ هل من المعقول أن يتعامل وزير خارجية دولة كبيرة مثل تركيا معاملة سيئة وفي

داخل أراضي الولايات المتحدة الأمريكية؟ بعد الذي صار في الآونة الأخيرة.. ربما يحدث كل شيء.

- في هذه الأثناء يا سيدي رئيس الوزراء وردتنا أخبار أن المدنيين (الروم) اليونانيين في قبرص بدؤوا بخلق توترات بين الجهتين وأن الكثيرين منهم قد أمطروا الجنود الأتراك بوابل من الأحجار، وأعطيناهم أمراً كي يكونوا حذرين وألا يفتحوا النار عليهم. وأرسلنا إلى الحدود الشبّان اليمينيين واليساريين. وهكذا نتدارك الأمر بعض الشيء.. قتال صغير هناك يجعل النيران تستعر مباشرة. وشكنا بما يقوم به الأمريكيون يتزايد ويُصبح حقيقة.

- عندنا في قبرص ستون ألف عسكري يا باشا إذا حصل شيء.

- لا تفكر في هذا الموضوع يا سيدي.. وحداتنا هناك منتشرة بشكل خيالي وإذا حصل هجوم أمريكي عليهم.. يستطيعون التحمل إلى حدٍ كبير. وإلى جانب ذلك جاهزون لصد أي هجوم من قبل الروم.

- كم من القوت يتحملون؟ هذا السؤال المنطقي سأله وزير الداخلية كان عليهم التفكير جدّياً في هذا الموضوع.. كيف على قوة كبيرة أن تدافع عن نفسها فوق جزيرة صغيرة.. ودائماً في حرب الجزر.. تكون نسبة نجاح الموجودين في الجزيرة حتى أقل من صفر إذا جاز الكلام. قال حكمت باشا لا أعرف. والحقيقة من غير الممكن أني أعرف جواب هذا السؤال.

في هذه الأثناء تماماً رنّ جرس هاتف رئيس الوزراء. استمع لبعض الوقت وسأل الجميع!!؟ كان الآخرون ينظرون إليه بفضول. عندما أغلق الهاتف.. كانت علائم القلق تقرأ في وجهه وقال: لقد أفرغوا السفارة الأمريكية كلها ليس السفارة بل كل مكان يتواجد فيه أمريكيون ولم يتركوا في كل دائرة سوى خادمٍ تركيٍ واحدٍ.

رفع رئيس الوزراء يديه نحو السماء بهذه الحركة أظهر ضعفه كلياً وقال:

- أعتقد حان الوقت كي أفتح قلبي للصحفيين.

- نعم ولكن يجب أن نكون حذرين من الأسلوب.. يجب ألا نظهر وكأننا نحن الذين بدأنا بالحرب.

خرج رئيس الوزراء دون أن يقول شيئاً.. وأسرع الوزراء من خلفه أيضاً.. كان السيد طيب أردوغان يسبح في بحر من العرق. كانت في رأسه آلاف الأشياء.. كيف يجب عليه أن يتحدث؟ ما الذي كان سيفعله الآن؟ كانت أجوبة هذه الأسئلة تخرّش رأسه بقوة عندما كان يخرج من الغرفة قال له حكمت باشا:

- إننا نتحرك بعد الآن يا سيدي وكأننا في حرب، في الساعة الرابعة من مساء هذا اليوم سيجتمع مجلس الأمن القومي في مقر القيادة، هزّ رئيس الوزراء رأسه، يجب عليه أن يجمع حكومته.. وبعد اجتماع (مجلس الأمن القومي) مباشرة.. يجب أن يخبر المجلس بكل هذه التطورات.

عندما خرج رئيس الوزراء من باب رئاسة الأركان العامة. هجم عليه الصحفيون مباشرة. ولكن خففوا من سرعتهم وحركتهم عندما أحسوا بأنه سيتحدث معهم.. وبدؤوا بالتدافع فيما بينهم كي يأخذوا أماكن في الصفوف الأمامية.

- "الأخوة الصحفيون الأعزاء.. لن أقول لكم الشيء الكثير. ولكن أستطيع أن أقول لكم: بأنه حصل في ليلة الأمس معارك شديدة بين قواتنا والقوات الأمريكية – ومازلنا نتحقق في أسبابها نحن نريد أن نفكر بأن الحادثة قد بدأت على إثر سوء فهم، ووزير خارجيتنا الآن في واشنطن، وسيعقد لقاء مع نائب الرئيس الأمريكي. وأرجو أن يساعد هذا الاجتماع على وقف كل المشاكل المعقدة بين الطرفين.. أرجو من شعبي أن يكون واعياً ولا يقوم بأية فوضى ويكون ملائماً لتاريخ أمته. هذا ما أريد أن أقوله الآن..

حاول رئيس الوزراء التقدم نحو الأمام إلا أن قطع السد الذي بناه الصحفيون لم يكن سهلاً.

- سيدي رئيس الوزراء.. هل عندنا خسائر؟

- يتحدثون عن وجود خسائر في الطرفين.. ولكن مازال الوقت مبكّراً لإعطاء كل التفصيلات.

هل صحيح أن السفير الأمريكي قد ذهب إلى بلده يا سيدي؟

- لا يوجد تعليق.

- هل دخلنا المعركة يا سيدي؟

- لا.. لسنا في المعركة.. مجلس الأمة سيجتمع هذا اليوم اجتماعاً مغلقاً وسيقرر أو سيعلن ما الذي سنفعله وما الذي سنقوم به مقابل هذه الأحداث.

- هل سيكون هذا الرد عسكرياً يا سيدي الرئيس؟

- أيها الزملاء.. إن الكلام الكثير عن هذه الأحداث وفي هذا الوقت بالذات لا معنى له ولا مغزى ورجائي الحار لكم أن تكونوا حذرين وتتحملوا أعباء المسؤولية الملقاة على عاتقكم ولنبتعد عن كل شيء يطرح القلق والفوضى والخوف لدى شعبنا.

اجتاز السيد طيب السد بقوة. وبدأ النزول بسرعة على الدرج، كان قد صمّ أذنيه عن الأسئلة. كان يحاول رسم إفادة مريحة على وجهه ولكن عبثاً.

كان الصحفيون قد قرؤوا في وجهه علائم تفكير عميق. كان الناس قد أجبروا أنفسهم على الصمت. أسرع الصحفيون إلى مراكزهم وجلسوا أمام الهاتف ليخبروا جرائدهم ومحطاتهم التلفزيونية وأرسلوا إلى مراكز الأخبار الأخرى التعليقات والأخبار الضرورية.

كان التأثير مخيفاً في الوقت الذي أعلن فيه رئيس الوزراء عن صدق خبر القتال.. كانت موجة من الانفعالات الشديدة قد بدأت لدى أتراك العالم كله. لم يكن أحد يستطيع الوقوف في مكانه لم يكن الجميع قد توصلوا بعد إلى فهم البعد الحقيقي لهذه الأحداث لو عرفوا نتائج القتال كيف كان سيكون الرد لدى الشعب التركي.

كان الأتراك الموجودون في الخارج قد جلسوا حول هواتفهم.. يتصلون بأهلهم وأقربائهم.. وكانت الخطوط قد أقفلت تماماً.

كانت عقول الجميع قد صارت بين حانا ومانا.. اختلطت المشاعر والأحاسيس منذ وقت طويل كانت الأخبار تتوارد إليهم بشأن أمريكا وما تفعله للأتراك. كانوا قد استمعوا إلى هذه الأفكار كما يستمعون إلى سيناريو رواية ولكنهم لم يصدقوها.. وكانوا قد مسحوها من ذاكرتهم ولكن هذه الأفكار التي كانت غاطسة في أعماق وجدانهم وضمائرهم وذاكرتهم. كانت قد بدأت بالظهور ثانية مثل شروق الشمس. وكانت تتسبب في تأسيس خوف حقيقي في أعماقهم موجة

غريبة من الانفعالات كانت قد لفّت البشر والناس في كل مكان لم يكن أحد يريد العمل في المحلات والمخازن.. كانوا يحسون بأن ثمة شيئاً ما سيحصل. كانوا يريدون العودة إلى بيوتهم والبقاء مع أولادهم وعائلاتهم.. لم تكن المخازن (الماركيتات) قد بدأت تتعرض لهجمات من الشراء الكثيف. ولكن كانت ثمة حركة خفيفة في الأسواق – البيع والشراء كان منصباً على المواد الغذائية فقط. لم يكن أحد يريد أن يظهر قلقه وخوفه للخارج.

٢٣ أيار ٢٠٠٧ – الساعة ١٦,٠٠

- شمال العراق-

الذي حصل أن أصوات المدافع التي كانت تُرمى من على بعد كيلو مترات بعيدة هي التي كانت تمزق الفضاء وتنتهك الصمت المطبق. كانت شظايا القذائف التي تقذف من مدفع عيار (١٥٥ مم) تهطل فوق الخنادق التي يتخندق بها لواء مشاة البحرية التركي وفي مساحة ضيقة جداً. ومع الانفجارات الجديدة كانت أجساد الجنود الشهداء تظهر ثانية.. وتصل حتى الخنادق – والحقيقة كانت مقاومة لواء المشاة البحري رائعة بكل معنى الكلمة وهذه المقاومة كانت مدينة للانتشار والتخندق الرائعين وإلى عناصر الطابور الذي قام بالهجوم المضاد ضد القوات الأمريكية ونجاحهم ومقاومتهم الشديدة.

كانت الريح تزيد من سرعتها باضطراد.. وكانت ثمة غيوم تتجمع وتتكاثف فوق الآفاق البعيدة. وعناصر مغاوير مشاة البحرية التركية.. كانوا قد بدؤوا بالخروج من خنادقهم وراحوا ينتقلون بين الخنادق على شكل سير سريع ويحمون رؤوسهم بالخوذات والقطع الحديدية الأخرى.

وكان فريق إحسان باشا واحداً منهم. لم تكن ثمة إشارة أو شيء يدل على رتبته الآن، كان قد خلفها وألقى بها.

وبندقيته الأتوماتيكية على كتفه. كان يحاول رفع معنويات جنوده منتقلاً بين الخنادق. والحقيقة أنهم كانوا بحاجة ماسة إلى هذه اللفتة كان الجنود الذين يشاهدون الفريق يُلملمون أنفسهم وثيابهم ومظهرهم. وتبدأ وجوههم بالضحك. كان الوحل يغطي أجساد الجميع. وكان كل الجنود تقريباً قد اشتركوا بالمعركة.

كانت قذائف المدافع لا تُخوّف إحسان باشا وخاصة أنها كانت لا تسقط داخل الخنادق. كان يفكر على الدوام! أن في هذا الأمر سراً غريباً.. كان قد

جعل خط دماغه فوق مساحة ضيقة جداً. وكان قد طلب من عناصره أن يركزوا الأسلحة الثقيلة التي يملكونها في الصفوف الأمامية. كان معهم مدفع مضاد للطائرات من عيار ٣٥ مم. وكانوا قد استعملوا معظم القذائف التي كانت معهم في معركة ليلة الأمس. أما مدرعاتهم فكانت قد أبيدت عن بكرة أبيها والصواريخ المضادة للدبابات كانت على وشك الانتهاء إذا هجموا عليهم ثانية يكون خلاصهم بمثابة معجزة. أمسك مسدسه بيديه كان سيستعمله كآخر شيء يمكن استعماله، وكان قد خبأ الرصاصة الأخيرة لنفسه، لا يريد الاستسلام. لا يريد أن يمنح مثل هذا الشرف للجنود الأمريكيين.

أبعد إحسان باشا مرافقيه عنه وجلس فوق إحدى الصخور.. صخرة باردة ورطبة. أشعل سيجارة.. كانت الحرارة على طرفها قد أدفأت أعماقه.. عقله كان مضطرباً.. لماذا صاروا طرفاً في داخل هذه المعمعة القتالية؟ ماذا كان يريد الأمريكيون من تركيا؟ فكّر بالوطن الأم. من يدري كيف كانت أحاسيس البشر هناك؟ وكيف كانوا يفكرون؟ ربما سمعوا أخبار القتال؟ فكّر ليقهر الله هذا الزمن؟! الجيش مستنفر وربما يخططون في تخليصهم من هنا.. تبرعمت بادرة أمل في أعماقه.. ولكن هذا الإحساس قد ابتعد عنه بسرعة. هذه الفكرة كانت تشبه السراب في الصحراء.. لأنه شخصياً كان قد طلب بعدم إرسال أية مساعدات لهم.

كان في حالة من التفكير الشديد. رفع رأسه.. كان ثمة جنود أمامه.. ضباط وأفراد.. كانت عيونهم تلمع كالنار. وكأنهم على أهبة الاستعداد ليفعلوا شيئاً ما.

اقترب منه أحد الضباط وهو يقول له:

- سيدي القائد.. نحن تناقشنا مع بعضنا وقررنا أن نخلصك من هذا الجهنم الذي أنتم فيه.

لم يستطع إحسان باشا التحمّل أكثر فامتلأت عيناه بالدموع.. فشد على يده وجعل منها قبضة محاولاً السيطرة على نفسه. لم يكن يتحدث، هزّ رأسه بمعنى: لا.

- أنتم يا سيدي مهمون جداً بالنسبة لتركيا.. وإذا ما صارت حرب شاملة

تركية ستحتاج لأمثالكم.

- هل تعرف ما الذي تقوله يا بني؟ إذا تركتكم هنا وذهبت بمفردي. لا أستطيع أن أنظر بعد الآن إلى وجه أحد.

- سيدي القائد...

أسكت إحسان باشا الضابط بإشارة من يده.

- إمّا الجميع وإما لا.. وإذا كنا سنموت.. سنموت معاً بإذن الله.

حنى الجنود رؤوسهم نحو الأسفل.. وتفرقوا بصمت.. لم تكن قنابل المدفعية تسقط فوقهم في هذه الدقائق.. كانت هذه عبارة عن قذف لشد أعصاب اللواء التركي وفتح ثغرة بين الخطوط. ثمة ساعات عصيبة كانت تنتظرهم.

كان بعض الجنود قد وضعوا أيديهم فوق عيونهم.. ينظرون نحو البعيد.. هذه الحركة جذبت انتباه إحسان باشا.. وذهب إليهم مباشرة. كانت ثمة نقطة صغيرة في السماء.. هذه النقطة تقترب منهم رويداً رويداً. بدأ إحسان باشا بمراقبة هذه النقطة بمنظاره.. هذه طائرة.. ولكنها طائرة غير حربية.

كانت هذه الطائرة من طراز (١٣٠ C–) تحلق على ارتفاع شاهق.. وتتجه نحو اللواء. لم يأبه إحسان باشا بها.. هذه طائرة نقل عادية حتى إنها لم تكن تطير من أجلهم ومع هذا أعطى أمراً للمدفع المضاد كي يكون جاهزاً.

لفَّ أعماق إحسان باشا قلق وحزن شديدان. كانت الطائرة تكبر باضطراد في الأفق. ولأي سبب كان مشهد هذه الطائرة قد بدأت تضغط عليه وأحس بامتعاض شديد لرؤيتها. وكلما اقتربت أكثر كان الاختلاف يظهر عليها.. هذه ليست من طراز (١٣٠ – C) هذه طائرة معدّلة. كان إحسان باشا على اطلاع تام أن طائرات النقل العملاقة قد جُهِّزت على حمل قنابل ضخمة.. وإغارة طائرة واحدة من هذا النوع على اللواء هو نوع من العبث والسخرية. لأن اصطيادها يكون سهلاً لأنها كانت ستنزل على ارتفاع مناسب وكأن الطائرة التي كانت تأتي نحوهم قد عرفت هذا الشيء، ولهذا السبب كانت تطير على ارتفاع كبير. خارج مدى مدافع المضادة للطائرات.

بدأ إحسان باشا والضباط الذين كانوا معه بتعقب الطائرة. عمدت إلى تطبيق

مناورة عندما أنزلت طرفها الأمامي نحو الأسفل... وبعد هذا الفطس مباشرة لاحظوا أن كتلة سوداء كبيرة قد افترقت عنها. وبعد أن تركت الطائرة هذه الكتلة الضخمة لفت نحو اليمين.. على شكل مناورة قاسية.. وأخذت اتجاهاً عكسياً وبدأت بالابتعاد عنهم. في هذه الأثناء تماماً لاحظوا طائرات أخرى كثيرة.. كانت تقترب نحو الخنادق رويداً رويداً. كان الإحساس بالتشاؤم الذي أحس به إحسان باشا على وشك أن يتحقق.. كان يرى المكروه على قاب قوسين منهم. لم يكن أميناً من رؤية أحد غيره لهذا الشيء!.

تحوّل شعر جسد إحسان باشا إلى أشواك. في الوقت الذي كانت فيها الكتلة السوداء المنفصلة عن الطائرة. تمزق الفضاء وهي تنزل نحو الأسفل. بدأت تصدر أصواتاً مخيفة. ولاحظ أنها تتجه نحو الساحة التي تنتشر فيها عناصر اللواء. كانت هذه الكتلة السوداء وكأنها تُقاد من الأمريكيين من قبل جهاز تحكم بعيد. كانت تتقدم وهي تغير من زاوية حركتها وقبل أن تسير على استقامة واحدة.. جاءت نحو اللواء وهي تنزلق من الفضاء. في لحظة واحدة فتحت أجنحتها الخلفية.. كان هذا الجسم يأخذ شكلاً مرعباً باضطراد.. عندما خففت من سرعتها زادت عندها قابلية الحركة. وبعد أن رسمت زاوية حادة تركت نفسها تنزل على الأرض.

في الوقت الذي صارت فيه الكتلة السوداء على ارتفاع عشرين متراً عن الأرض كشفت عن وجهها الحقيقي بالنسبة لوزنها وحجمها. ولكن بعد فوات الأوان. كان حجمها تقريباً مثل حجم حافلة سوداء على شكل كونيك مخروطي حيث انفجرت انفجاراً أزاحت الأسماع والأبصار عن الوجود، كانت موجة الصوت التي أصدرتها قوية وثقيلة بحيث تستطيع صمّ جميع الموجودين في اللواء. والعساكر الموجودون داخل الخنادق وعلى أطراف المكان الذي انفجرت فيه القنبلة.. كانوا قد فتحوا أجنحتهم للرحيل الأبدي. أما العساكر الآخرون الذين كانوا خارج تأثيرها فقد جرحوا أو استشهدوا من جراء القطع والشظايا التي نتجت من الانفجار الكابوس.. لقد تهدمت كلياً الخنادق الموجودة على ساحة الانفجارات وأجساد الجنود والخنادق وكل شيء موجود هناك تحولوا إلى قطعة واحدة.

كان إحسان باشا والضباط الذين معه على الأرض في حالة شديدة من الغبن وعلى شكل سكارى من الدرجة الأولى. مدهوشين.. محتارين.. لا يعرفون ماذا يفعلون.. ولا يستطيعون الحراك. وبكلمة واحدة كان هذا السلاح إخلالاً بقوانين الحرب. لم يكن أحد في حالة تسمح له بالتفكير في هذا الأمر. يجب أن يكون هذا الانفجار الرهيب قد خرّب، وبقساوة، نفسية الجنود الذين لم يؤثر عليهم. حاول إحسان باشا أن يُلملم نفسه. فتح عينيه.. ووقف على رجليه لم يكُن يرى شيئاً، كانت القنبلة قد سقطت على بعد سبعمئة متر عنهم.. والقطع المعدنية التي نشرتها قد وصلت إليهم وسببت الكثير من الجروح القانية على أجسام الجنود. أمر إحسان باشا الجنود القريبين منه بمساعدة الجرحى.. لم يكن أحد يستطيع التحرك بشكل منطقي.. وكان واضحاً أن هذه القنبلة لم تصمم فقط للتخريب الفيزيائي والجسدي.. كان صوتها يجعل الإنسان في شوق واندهاش ولا مبالاة. وتسبب في جذب انتباهه لنقطة واحدة فقط. وتجعله يسقط دفعة واحدة جسدياً ونفسياً.

كان إحسان باشا يحاول لملمة نفسه ولكن عبثاً.. كان العرق البارد قد تفصَّد من جسده.. ورأسه يدور.. ويُحسّ بالغثيان.. في لحظة واحدة عادت إليه ذاكرته. وتذكّر النقط السوداء التي رآها قبل قليل ونظر سريعاً إلى الجهة التي جاءت منها الطائرات.. كان يشاهد على الأقل ست نقاط سوداء، اثنتان منهما، قد وصُلتا إلى المسافة نفسها التي رمت فيها الطائرة الأولى قنبلتها.

يجب أن يجد ميكروفوناً.. إذا بقوا في أماكنهم سيموتون. عندما فهم هذا الشيء هجمت مادة (الأندريالين) على جسده المشدود.. خلال لحظة واحدة صار القوس وبدأ يصرخ للجنود:

- انتشروا.. روحوا من هون.. روحوا..

كان الجنود في حالة وكأنهم لم يفهموا منه شيئاً.. كانوا يديرون أسلحتهم بلا مغزى نحو كل الأطراف ولكنهم لم يكونوا يطلقون النار.. لو بدؤوا بفتح النار.. كانوا سيصيبون بعضهم.

فُتحت عينا إحسان باشا بخوف.. كانت الطائرتان اللتان وصلتا إلى المسافة

نفسها قد تركتا كتلتين سوداوين أيضاً. ففهم أنهم وجهاً لوجه أمام سلاح لا علاقة لها بالإنسانية.

كانت القوات الأمريكية تستعمل سلاحاً وحشياً لأول مرة بمواجهة الجيش التركي.. وذلك بعد استعمالهم للقنبلة النووية. فانسحبت الدماء من جسده بعد أن بقي مع هذه الحقيقة وجهاً لوجة.

ولأنه عسكري.. عرف السياسة من داخلها وخارجها وفهم الأمور كما ينبغي أن يفهمها، وعندما نظر إلى المعركة بينهم وبين الأمريكيين من هذه الزاوية، اتضح له أنه كان مخطئاً في كل الحروف التي وضع فوقها النقاط.. لم يكن اقترابه من الأمريكيين عسكرياً. بل اقترب منهم من الناحية السياسية فقط.. كان عليه الا يُبقي وحدته محاصرةً في هذه الساحة الضيقة.. أحسً أنً حالته سيئة جداً. وفكّر بأن شرفه العسكري وغروره الشخصي تلاشيا كلياً لأنه كان على رأس قوة برية معتبرة. الآلام التي كانت تنخر دماغه.. كانت قد انتقلت إلى جسده.. تنغرز فيه كالسهام.. وبدأ الطنين يغزو أذنيه فجأة.. كانت ثمة اهتزازات قد بدأت على الأرض لم يفهم ماهيتها. أحس كأن الأرض تهتز.. الطنين الذي زاد مْن قوته.. كان قد ملأ أذنيه. وخرّ فوق ركبتيه.. وفي اللحظة نفسها بالذات حصل انفجاران قويان خلف بعضهما بعضاً.. وبعد عدة ثوانٍ من الانفجارين السابقين. كانت الشظايا تمر من فوق رأس إحسان باشا بعدة سنتمرات فقط. أحسّ بهذا الشيء ولكن دماغه كانت مثل الجامد عن الحركة، كان قد توصل إلى حالة يفكر بأنه محاصر داخل غرفة مغلقة.. خارج الدنيا. وعلى أطرافه مشاهد الشهداء والراقدين فوق الأرض وأنين الجرحى والجنود الذين يجرون من هنا إلى هناك..

كأن كل شيء قد ضيّع فحواه ومغزاه ومعناه، فكّر كم هو قريب من الموت، وأذناه قد تحولتا إلى الصمم تقريباً وكان يفكر بأن حالة جنوده مثل حالته تماماً كان قد حصل ثلاثة انفجارات حتى الآن وكان يخمن بأن قوة هذه الانفجارات الثلاثة قد تخطت مساحة اللواء.

في تلك اللحظة حصل انفجار آخر.. يجب أن يكون في مكان أكثر قْرباً لأن قوته رمت إحسان باشا عدة أمتار نحو الخلف. وكان يحس بالشظايا المغروزة في

جسده، رأى ضباطه الآخرين قادة الكتائب والسرايا على بعدٍ قريب منه متمددين على الأرض والدماء تنزف منهم. اهتز من الأصوات التي جاءته من بعيد ومع أن أذنيه كانتا لا تسمعان فكيف بالإمكان سماع هذه الأصوات ثمة أنوار غريبة ظهرت ناحية قدوم الطائرات كانت تقترب نحوه.

- جماعتنا قادمون. انكبت هذه الكلمات من بين شفتيه. كان يراهم قادمين لمساعدتهم.

الحرارة التي انتشرت على جسده أدفأت أعماقه، كانت الأدخنة السوداء قد غطت كل الأطراف ومع أن عيونهم كانت عمياء.. كانوا يرونهم، ثم إن الخنادق والأشياء الأخرى كانت قد اختفت. في الوقت الذي رآه فيه سمع صوتاً.. ثمة انفجار عملاق آخر قد حصل.. وقبل اقتراب موجاته المملوءة بالموت كان إحسان باشا قد التحق بأفواج الخيّالة.. الخيالة الذين لا يعرف أحد من أين يأتون وإلى أين يذهبون. المحاربون الذين يرجون الأرض بحوافر خيولهم: محاربو الحرية الأبطال. إنهم المدافعون الأشاوس عن الأمة التركية الحرة.

كان قليل من الجنود الأمريكيين الذين تخندقوا فوق التلال المقابلة وداخل خنادق عميقة، وكأنهم يراقبون تفجير قنبلة نووية تجريبية يحتفلون أمام هذا المنظر والقنابل الضخمة تنفجر في الأعداء.. هذه القنابل التي لم يروها أبداً على مدى خدمتهم في الجيش الأمريكي، وخاصة أن هذه الانفجارات تحصل أمامهم في آلاف من الجنود.. كانت مساحة عدة كيلو مترات من الأرض قد تغطت بالدخان الأسود الكثيف..

في هذه الأثناء كان ثمة شيء قد قرض عيونهم.. كانت ثمة حزم كبيرة من الأضواء قد سالت فوق الساحة وتلاشت ثانية. دُهش الجنود الأمريكيون من هذا الشيء الذي تعرضوا له.. بدأت أجسادهم بالرجفان.. كانوا يسمعون أصواتاً.. لم يكونوا على درجة من فهم ماهية هذا الشيء. وكان جيشٌ كبيرٌ من الفرسان يتجه نحوهم. غيّرت حزم الضوء اتجاهها وبدأت تقترب منهم، كانت الأحزمة الضوئية الملازمة لأصوات النضاوي قد أرعبتهم وبما أنهم لم يدروا ماذا يفعلون فقد بدؤوا بإطلاق نار ببنادقهم نحو السماء. وللحظة واحدة عميت عيونهم من لمعة ضوء

مخيفة. ثم بعد قليل.. عادوا ثانية للرؤية. كانت قوة ركابهم قد تلاشت.. فتراجعوا بسرعة واتجهوا نحو الخطوط الخلفية. كانوا لا يعرفون ماهية هذا الشيء ولا شك في أنه شيء غريب، شيء فوق قوة البشر.

بعد فترة قصيرة تحركت العربة المدرعة التركية من طراز M2 نحو خنادق الأتراك ومن وسط الخنادق بدأت تتحرك رويداً رويداً نحو مقر القيادة.. في هذه الأثناء كان لسان الجندي الذي يراقب المنظر الذي أمامه من كوة الدبابة قد جمد تماماً. لم يكن يستطيع التحدث ولا الإجابة عن الأسئلة.. كان هذا الجندي الذي ينظر من بردسكوب الدبابة والذي كان قد شعر بالغثيان قد توقف عن النظر إلى هذا المنظر. كان تأثير السلاح أكبر مما توقعوه.

كانت ثمة قنابل كثيرة قد رُميت إلى هنا.. وقفت العربة في مكان ما ونزل من داخلها عدد من الجنود كي يروا إذا كان بين الجثث أحياء يرزقون، كانت أحاسيسهم تؤكد أنه لا وجود لأحياء بين هؤلاء وبعد أن ألقوا نظراتهم هنا وهناك ركبوا دبابتهم وساروا من فوق الأشلاء المبعثرة.. راجعين نحو أماكنهم.. وعلائم الظلمة غشيت وجوههم.. كانت الكلمات أو الأصوات الصادرة من اللاسلكي. تؤكد لهم أن الوحدات الأخرى أيضاً قد أصابها ما أصاب هذا اللواء. وأن الألوية الثلاثة التي كانت متمركزة في شمال العراق لم تعد موجودة جنود قليلون كانوا قد بقوا من هذه الإبادة الجماعية ولا أحد يعرف مكانهم أيضاً. كانت الأمور قد وصلت إلى النقطة التي لا رجعة عنها ولا أحد كان يدري ماذا سيحصل بعد الآن.

٢٣ أيار ٢٠٠٧ – الساعة ١٩,٠٠

- تركيا -

كانت أخبار الإبادة الجماعية قد وصلت إلى الوطن منذ وقت طويل.. العالم كله كان ينتظر التصريحات التي ستأتي من تركيا ، كان عموم الشعب التركي من سابعهم إلى سبعينهم، من رجالهم إلى نسائهم، من كهلهم إلى طفلهم كان الجميع قد تجمعوا حول شاشات التلفاز كي يعلموا بالذي حصل للجيش التركي. كانت بعض المجموعات قد بدأت بالتظاهر والتنديد بالأمريكيين أمام السفارة الأمريكية التي كانت قد فُرغت منذ وقت طويل.

أما الأتراك الموجودون في الخارج.. فقد بدؤوا بالحركة عندما ظهر رئيس الوزراء على درجات (مجلس الأمة) وتحولت المحطات التلفازية إلى النقل المباشر.

- ايها الأخوة الأعزاء.. أيها الشعب التركي العظيم.. أعتقد أنكم تحاولون معرفة المزيد عن هذه الأحداث التي عصفت بجيشنا.. وأعتقد أنكم سمعتم أشياء كثيرة عبر الإشاعات والهمس.. والشيء الظاهر أن الولايات المتحدة الأمريكية.. تحمل في نيتها السيئة آمالاً خائبة في بلدنا والمنطقة بشكل عام. منذ فترة وهي تحاول الهجوم علينا, وأخيراً حققت هذا الشيء بهجوم عاصف وخائن ضد قواتنا.. و بالغدر فقط. وقد تعرضت ألويتنا الثلاثة لهذا الهجوم الغادر وتمت إبادتها إبادة كاملة.

في هذه النقطة تماماً توقف رئيس الوزراء عن التصريح وبلع ريقه بصعوبة. وكأن شيئاً ما قد وقف في حلقومه.. كانت عيناه قد امتلأتا بالدموع. لم يكن يستطيع ستر أحاسيسه ومشاعره، كان يتذكر الصور التي أرسلت له من هناك كانت المربعات التي تتشكل في دماغه تشكل عواصف في أعماقه.

- نحن كأمة تركية.. دفعنا المصائب والبلاء عنا على الدوام.

كان صوته قد بدأ بالارتفاع وكانت الدموع قد بدأت تتلألأ في عيون بعض

أعضاء الحكومة الواقفين في خلفه.. وكان بعض الصحفيين المسنين قد بدؤوا بالبكاء لأنهم لم يقدروا أن يتمالكوا نفسهم:

هذه المرة أيضاً سندفع هذه المصيبة.. جيشنا الآن في تمام جاهزيته وقيقظه.. ويجهز نفسه لكي يعطي لهذا العدو الخائن الجواب الذي يستحقه.. هذه الأراضي صارت مقبرة لكثير من الغزاة. وستكون مقبرة للجيش الأمريكي.. ورجائي منكم.. مهما حصل..

سمعت أصوات صفارات الإنذار تدوي. كانت هذه الإنذارات تقول أن ثمة غارة جوية كبيرة قد بدأت على جميع المراكز في تركيا، كان الصحفيون الذين يتعقبون حديث رئيس الوزراء قد دبت بينهم بعض الحركات.. كان الجميع قد بدأ النظر نحو السماء. ورئيس الوزراء أكمل حديثه.. وكأنه لم يحصل أي شيء.

- الأخبار التي جاءتنا أن الطائرات الأمريكية تتجه الآن نحونا وأنهم على وشك أن يقصفوا أراضينا، كونوا أقوياء ولا تنسوا شكر الله على مدى بقائنا على قيد الحياة.. لن يبقى عسكري واحد من الأعداء على قيد الحياة.

كانت ثمة حركة كبيرة قد بدأت هنا وهناك رفع رئيس الوزراء يديه نحو الأعلى وصرّح بالكلمات التي كان الجميع ينتظرونها.

- إن الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا قد دخلتا الحرب.. وتستطيع أمريكا أن تحتل تركيا. ولكنها ستفهم أننا لن نكون لقمة سائغة.

بعد انتهاء التصريح.. كانت ثمة فوضى عارمة على مدرجات مبنى رئاسة الوزراء. في الوقت الذي ركب فيه رئيس الوزراء سيارته المصفحّة.. وجد رئيس الاستخبارات العامة **Mit** جالساً داخل السيارة وهو السيد (جتين قوتلو).

- خير إن شاء الله يا سيد جتين؟ قال ذلك وهو يضحك بمرارة: بس لا تكون جاي تخبرنا أن الولايات المتحدة الأمريكية ستهاجمنا. كان (جتين قوتلو) هذا سفيراً عادياً ولم يكن له وقت طويل معيّناً كمستشار للاستخبارات التركية.

- أنتم على حق يا سيدي رئيس الوزراء.. وكما تعلمون أنا جديد في منصبي ولم أستطع حتى الآن أن أسيطر على كل الأمور الاستخبارتية ولكن وجدت ملفاً مهماً جداً. كانوا قد أهملوه ورموه في إحدى الزوايا. تفضلوا يا سيدي.

حمل رئيس الوزراء الملف ذا اللون الكريم ووزنه بيديه.

- ما هذا؟

قال (جتين قوتلو) ساحباً أنفاسه:

- إنه ملف مهم جداً يا سيدي.. ورجائي منك أن تقرأه بتمعن.

فتح رئيس الوزراء الملف وبعد أن قرأ منه سطرين احمرّ وجهه وكان هذا تقريراً يؤكد هجوم الولايات المتحدة على تركيا.

ومع أن شخصية رئيس الوزراء كانت شخصية متوازنة.. وقوية من الصعب جداً أن يفقد توازنه إلا أن جتين قوتلو أحسَّ بأنه قد ضيّع توازنه الشخصي عندما قبض على يديه بقوة تاركاً آثار أظافره على يده.

كان الصمت المتوتر يسود جو السيارة المصفحة.. أغلق رئيس الوزراء الملف فجأة ونظر نحو السماء من الزجاج الخلفي للسيارة وقال:

- سأدقق الملف جيداً يا سيد جتين والذي أرجوه منك أن تفعل المستحيل وتتوصل إلى الشخص أو الأشخاص الذين أهملوا هذا الملف والمسؤولين عنه.

لم يقل السيد جتين سوى: أمرك يا سيدي.

القسم الثاني : الطاقم الرمادي

قبل أربعة شهور..

الثلاثاء في ٢٣ كانون الثاني ٢٠٠٧
منطقة فوازيه القريبة من باريس – فرنسا

كان ذلك اليوم قد بدأ سيئاً بالنسبة (لـ فرانك جونسال) عندما استيقظ على صوت المنبه.. نظر من نافذة غرفته إلى الحديقة وإذا بغطاء أبيض قد غطى أرضها. وهذا ما كان يشير أيضاً إلى أن طريق الكراج مغطى أيضاً.

نظر إلى جسد زوجته (هيلين) الذي كان يكبر يوماً بعد يوم. كانت الحياة تتحول إلى جحيم في ذلك البيت الصغير الذي كانا يعيشان فيه. وذلك بسبب الفواتير التي كانت تأتي وراء بعضها بعضاً. كانت المرأة قد تركت ومنذ سنوات طويلة تجهيز طعام الإفطار. كانت رقبتها الضخمة تهتز على أنغام شخيرها الآن.

كانت (هيلين) سويدية.. وقد تعرف إليها فرانك في (نيبال) حيث كان يحب السياحة كثيراً. وتعلّق بها بسبب عينيها اللتين كانتا تشبهان قطرة الماء التي لا لون لها. أما الآن فإن عينيها تذكرانه بعيون فرس البحر القميئة – البشعة- التي يشمئز منها الإنسان. ومع إنهما كانا يعيشان في فرنسا – فوازية وعلى مدى خمسة عشر عاماً فكانت لا تستطيع التحدث بالفرنسية إلا نادراً. كان فرانك يقول عنها مازحاً، وذلك في الدعوات التي كانا يذهبان إليها نادراً جداً:

إن هيلين قد خرّبت طريقة نطقي للكلام.

قلبت زوجته- التي لم تكن تعرف أنها مراقبة- على جنبها. أحس فرانك بفرح عارم كونها لم تنجبْ له ولداً.

في الوقت الذي كان يلبس فيه ثيابه.. فكر ملياً إنه يعيش حياة لا يستسيغها

ولا يريدها. فكرّ ثانية.. إن التفكير بهذا الشيء وفي هذا الوقت بالذات وفي هذه الساعة الصباحية الباكرة.. ونصف المظلمة غير مواتية وليس في مكانه. بيت لا يريده، عائلة لا يريدها، عمل لا يريده. كان ثمة إنسان آخر قد حُبس داخل هذا الجسد وهذه الحياة. في الأيام الأخيرة كان لا يجد نفسه إلا عندما يجلس من دون حركة. ينظر إلى نقطة في الفراغ.. حتى الزمن كان يريد الانهزام منه.

خرج من بيته دون أن يأخذ دوش حمّام. وبدأ بفتح طريق الكراج المغطى بالثلوج. كان عليه الا يتأخر وخاصة في هذا اليوم.

كان عنده امتحان في الحصة الأولى وفي (الكوليج) الداخلي.

كان (الكوليج) صغيراً ولكنه كان يضم مجموعة كبيرة من أولاد السياسين والبيروقراطيين الساكنين في باريس.. كل هؤلاء الأطفال كانوا مدللين وشياطين من الدرجة الاولى. كان المدير (فارسيه) لا يحمي المعلمين من الضغوطات التي كانت تأتيهم من أولياء الأمور. ولهذا السبب كان أقدم المدرسين لا تتجاوز خدمته في الكوليج سبعة أعوام. ولكن تصرفات فرانك الخاصة كانت تساعده بعض الشي لأنه كان يحافظ على بقاء الطبة مسروين منه على الدوام.

عندما ترك سيارته في حديقة المدرسة لاحظ أن الوقت مازال مبكراً كان معه نصف ساعة على الأقل لبدء الدوام. ولهذا السبب فرح كثيراً ومشى نحو غرفته بعد أن أخذ فنجاناً من القهوة وكعكعة ساخنة.

على عكس كل المعلمين الآخرين كانت غرفة (فرانك جونسال) لا تحوي أية إكسسوارات أو لوحات أو أي شيء آخر. حتى الأشياء الشخصية. وكان ثمة كرسي واحد إلى جانب كرسيه الشخصي وكانت رجله على وشك أن تتكسر أي أنها كانت عرجاء كان يعرف أن الأولاد لا يحبون الضيوف ولهذا السبب كانت غرفته فارغة على عكس غرف المعلمين الآخرين.

في الوقت الذي كان فيه يقرض كعكته ألقى نظرة إلى عنوان **Mail** كانت قد جاءته **e- card** من صديقه الموجود في (بون) واسمه **otto**كان قد أرسل له منظراً جميلاً من مناظر مدينة (روتردام) الهولندية: عزيزي فرانك. أتمنى ألا تكون قد نسيت عيد ميلاد صديقك (توماس) في ٢٦ كانون الثاني. وتستطيع أن تحصل

على المعلومات التي جهزناها لك من ذلك المكان نفسه.

وفي الوقت الذي كان سيأخذ فيه مخرج الرسالة وإذ بباب غرفته يفتح دون طرق وإذا كان بالداخل هو المدير (أنطون فارسيه)الذي قال له دون أن يلقي عليه التحية الصباحية: أراك هنا.. يجب أن أتحدث معك بسرعة يا مسيو جونسال.. هل تستطيع المجيء إلى غرفتي؟

إن تصرفْ المدير وطلبه له للمناقشة ليست إشارة لشيء فيه خير. كان بإمكانه أن يطلبه عن طريق سكرتيرته المدام (ماريا) لو كان غاضباً. وقدومه شخصياً يدل على أن للأمر أهمية أكبر.

بقي فرانك هادئاً لم يضطرب أبداً وبعد أن دفع طرف نظارته البلاستيكية بشكل أتوماتيكي بيده قال: في الحصة الأولى سأعمل امتحاناً يا مسيو فارسيه بعد ذلك أستطيع الذهاب إلى غرفتك.

فكّر المدير لحظة.. ودار بجسده نحو الخلف قليلاً. كان فرانك بجسمه الأحدب وببذته القديمة التي كانت قد صارت لوحة للمزاج والسخرية هذه الصفات كانت توقظ لدى الإنسان إحساساً وكأنه يلمس غباراً ولهذا السبب عندما كان يتحدث لا ينظرون إليه.

- كويس إذن تعال بعد الامتحان مباشرة. سأنتظرك! الموضوع مهم جداً. وحتى ذلك الحين يكون السيد (رافارين بريفوست) وهو والد الطالبة (شانتال بريفوست) مستشار كبير في وزارة العدل.. قد جاء أيضاً. توجد شكوى مهمة بحقكم يا سيد (مسيو جونسال).

- عندما خرج المدير مغلقاً الباب خلفه بهدوء. أنهى فرانك كعكته بروية وارتشف آخر جرعة من قهوته.. كانت شاشة الحاسوب مازالت مفتوحة.. شدّ على حاجبيه ونظر إلى السماء ثم أعطى قراراً.. حيث تناول (الكلاسور) المسمى Fouinaur (الذي يدخل أنفه في كل شيء) وفتحه.

- كانت ثمة ثلاثة أسطر في الكلاسور المسمى (شانتال) في السطر الأخير ١٨ كانون الثاني الساعة ١٢,٤٥ CC3A هذا ما كان مسجلاً في نهاية السطر الثالث. ثم اتجه نحو خزانة الملفات.. ومن داخل الرف المسجل C تناول ظرفاً مسجل

عليه C3A ووضعه في جيب سترته واتجه نحو الصف.

بعد مرور ساعة ونصف تقريباً.. كان فرانك يجلس براحة على الكنبة في مكتب المدير.. كان المدير قد أشار إليه بالجلوس عندما دخل إلى مكتبه. وكان قد قال له وهو يحضر جداول الدورات الليلية: لننتظر بعد عدة دقائق سيأتي مسيو رافارين والآنسة شانتال

كانت قد مرت أكثر من عشرين دقيقة بعد هذه المناقشة الأخيرة وكان لا يُخرب الصمت سوى صوت عقارب الساعة وتنفس (فرانك وفارسيه) وبين وقت وآخر كانت مدام ماريا تأتي ببعض الأوراق والملفات للتوقيع وفي كل مرة كانت تنظر إلى فرانك بنظرات الشفقة والاستهزاء.

وأخيراً سُمعت ضجة في الخارج عندها فهم فرانك بأن المستشار قد جاء وقبل أن تفتح مدام ماريا الباب دخل الغرفة رجل طويل عريض استقبل المدير المستشار مبتسماً ومادّاً يده للحفاوة به. لم يكن الرجل قد اهتم بوجود فرانك.. ولكن عندما رآه.. لاحظ فرانك الرجل. شدّ قبضته بقوة وأدخل يده في جيبه... كان منظر كاريكاتورياً بالحدبة التي على ظهره ونظارته المنزلقة عن عينيه.. دفع النظارة بيده كي تجلس مكانها. ربما كان يُخمن التهمة التي ستوجه إليه. كانت شانتال قد كشفت أنوثتها باكراً بأسلحتها الإيجابية والسلبية.

ولكن عندما جاءت شانتال من صفها كانت تتراءى معصومة وتنظر إليهم بهذه النظرات الآمنة والهادئة ثم ادّعت إنها إذا لم تلبي طلبات السيد فرانك فإنه سيعطيها الصفر وينزل من علامتها.

سألها المدير: وما هي هذه الطلبات يا ابنتي؟

كان وجهه قد احمر من الانفعال. كان يحاول جاهداً الظهور أمام هذا البيروقراطي الكبير أكثر غضباً وقسوة كي يخلص نفسه ومدرسته من هذه الفضيحة بخير وسلام.. عندما نظر إليها وهي تنظر إلى فرانك نظرات غاضبة وخائفة.. قام من مكانه واقترب منها ووضع يده على كتفها وقال:

- لا تخافي يا شانتال نحن هنا. لا يستطيع أحد أن يرسّبك هيا اشرحي لنا الأمور بالتفصيل.. ماذا حصل وكيف حصل؟

قدّر فرانك طور الفتاة اللعوب كان شعرها المجعد الأحمر المتموج والذي أخذته من أمها الإيرلندية وعيناها الخضروان وخداها المرقطان تخلق فيها نوعاً من الجاذبية. بدأت شانتال تشرح وعيناها مركزتان في المكان الذي اتحدث فيه يداها وركبتاها.

- في الدرس الصباحي من يوم الجمعة قال لي مسيو فرانك. تعالي وقابليني بعد تناولك طعام الغداء وعندما ذهبت إلى غرفته قال لي: إن كبر علامتك أو صغرها مرتبط بما أقوله لك. وما يمكن أن تلبيه من أجلي.. لم أفهم ما الذي قصده.. كنت أفكر بأنني أدرس على ما يرام وامتحاناتي على ما يرام وعندما سألته ماذا يعني؟ عند ذلك قام من مكانه وانزل بنطاله. أوه.. لا أستطيع أن أكملْ... ما كنت أفكر بشيء كهذا...

في هذه اللحظة حضنت الفتاة والدها وهي ترتجف.. في الوقت الذي كان فيه مسيو (رافارين) يسلي ابنته ومن جهة أخرى كان يتحدث مع المدير:

- هل هناك ضرورة أكثر من هذا يا سيادة المدير؟ بالأصل ابنتي قد اهتزت من أعماقها.

ثم التفت نحو فرانك وقال:

- أما أنت ادعِ ربك. أنا أعمل في مكان يجب أن أكون فيه قدوة كي أطبق القانون وإلا كنت أعرف ما الذي سأفعله وأقولها قطعياً أيضاً. أنسَ العمل في أية مدرسة من المدارس.

كان فرانك يُفكر بأنه قد تحمّل أكثر مما يجب هذه الكوميديا التي تُمثل أمامه. قام بهدوء ووضع الظرف الذي أخرجه من جيبه فوق الطاولة كانتْ وقفته أمام المدير وقفة غير عادية وكأن المدير يراه أول مرة. وكأن ثمة رجل غريب غير فرانك موجود داخل الغرفة.. كان فرانك المحدودب الذي ينظر إلى أمامه على الدوامِ قد راح وجاء محله رجل آخر.

عندما فتح المدير الظرف.. سقط منه CD.

رجاءً افتحوه وشغلوه.. وافتحوا الشاشة.. وليشاهده مسيو رافارين وشانتال أيضاً.

عندما عمل الجهاز.. ظهر باب من خلف رجل جالس فوق الطاولة كان التاريخ

مسجلاً على المشهد ١٩ gan ٢٠٠٧ الساعة ١٢,٥٠ دُق الباب وسُمع صوت فرانك وهو يقول: (ادخل).

دخلت شانتال إلى الغرفة مبتسمة. وأغلقت الباب بهدوء لم تكن لها علاقة بهذه الفتاة التي تحضن والدها وتخاف من مدرّسها. وتظهر معصومة الوجه والجسم.. حيث جلست بكل جرأة فوق طاولة فرانك وفتحت ساقيها.

- مسيو فرانك لقد جئت إليك راجية منك تعديل علاماتي.

لوحظ أن فرانك قد تراجع نحو الخلف بكرسيه.

- لا تقدري أن تحصلي على شيء يا شانتال بهذه التصرفات إن عقلك في كل مكان عدا الدروس.. ومع الأسف سأعطيك علامة صغيرة. و اتمنى أن تشدي على نفسك في باقي المواد حتى تعدلي من متوسط علامتك.

رمت شانتال نفسها فجأة بحضن فرانك.

- هيا يا مسيو فرانك.. أنت أيضاً رجل.. لا يستطيع أي ذكر أن يقول: لا لهذا العرض.وخاصة في هذا العمر. والشيء الذي ستفعله أن نرفع العلامة فقط.

آخذ عرضك حتى هذا الوقت بنية حسنة يا شانتال وأنت بالنسبة إليَّ لست سوى فتاة صغيرة طالبة للعلم.

كان فرانك يلاحظ أن حديثه وكلامه ليس إلا نوعاً من الغباء والسخرية ولكنه كان يعرف أنه يتحدث إليها وهو يعلم بالتسجيل.

كان المدير والمستشار قد جلسا على مقعدهما مثل عمودين جامدين . أما (شانتال) فكانت تنظر إلى فرانك نظرات قاتلة لأنه أزال القناع عن وجهها.

شانتال التي في التسجيل وضعت يديها على خصرها وقالت بغضب: ماذا تظن نفسك؟ أستطيع أن أمسحك عن سطح الأرض إذا ذكرت أنك حاولت اغتصابي.. يطردك أبي من هنا مباشرة عادت الابتسامة ثانية إلى وجهها وصار وجهاً نسائياً صغيراً. شوهد أن فرانك قد أبقى المسافة بينه وبينها واسعاً.

- رجاء يا شانتال.. اخرجي من هنا.. سأنسى هذه المقابلة. علاقتك لن تتغيَّر.. ادرسي واجتهدي في الفصل الثاني وعدلي من موقفك.

الآن كان يدفعها نحو الخارج.. خرجت شانتال من الغرفة وهي تكرز بكلمات

لا يمكن لأي إنسان تلفظها.

عندما انتهت المشاهد. كان الصمت يطبق على الغرفة.

- قالت شانتال هذا فخ.. هذه المشاهد مزيفة. قالت ذلك مدافعة عن نفسها إلا أإن والدها أشار لها بالسكوت.

كان فرانك يعرف أنه لا معنى ولا مغزى للشكوى بعد الآن. قال: إذا ذهبت من هنا سيكون خيراً يا مسيو (فارسيه) وأعتقد أنكم ستتحدثون فيما بينكم. وفي الوقت الذي كان يخرج فيه من الباب التفت ثانية وأشار إلى المشهد الجامد على الحاسوب لتبقَ هذه النسخ معكم.. أنا معي نسخة ثانية.

كان يُخمّن أن هذه الحادثة ستنطوي من أساسها.. وسيكون موقفه أمام المدير قوياً بعد الآن طبعاً هو الآخر كان سيفكر ملياً كيف بمعلم يقوم بهذا الشيء حتى يخلص نفسه. عندما وصل إلى غرفته. أخذ مخرج الرسالة التي جاءته من (أوتوو).

الجمعة في كانون الثاني ٢٠٠٧
روتردام – هولاندا

كانت السيارة ذات النمرة الفرنسية الزرقاء من طراز Renault Magane تسير بين مجموعة كبيرة من السيارات التي ازدحمت على الطريق العام بمناسبة العطلة الأسبوعية دون أن تجذب الأنظار إليها. وعندما وجدت مكاناً مناسباً إلى جانب الشارع توقفت.

تناول (فرانك) الظرف المفتوح من فوق المقعد اليميني الفارغ. كان يريد التحقق للمرة الثانية من تعريف الهدف والمهمة. كان قد وصل إلى صندوق البريد الموضوع على اسم شخصية مزورة وهي (جان بول بافاي). كان قد مرَّ إلى باريس قبل مجيئه إلى روتردام لأخذه منذ الصباح كان يسير في الطريق وكان قد أخبر المدرسة أنه مريض.

نظر فرانك من خلال مرآة المراقبة إلى عينيه. لم تكن نظارته ذات العدسات السميكة على عينيه وبالأصل كان يضع عدسة لأن النظارة كانت تخرب عليه الرؤية.. أما الآن لا العدسة كانت موجودة ولا النظارة.. وكانت رؤيته جيدة جداً.

كان قد خلع ذلك الطقم الذي يلبسه على الدوام. ولبس بنطالاً مريحاً وكنزة كشميرية وصدارة من الجلد. وحَدَبَتهُ كانت قد اختفت أيضاً. ولم يكن ينتعل ذلك الحذاء الذي يجعله يمشي مشية خاصة به. ولم يكن قد سرّح شعره من الجانب كان قد سرّحه نحو الخلف.

عندما فتح الظرف وقعت عدة صور بحضنه.. صورة رجل بدين. أصلع الرأس من الأعلى ومسن إلى حدٍ ما.. وصورة مأخوذة من نقطة بعيدة إلى حدٍ ما.. وصورةٌ أخرى وهو جالس في مكتبه. وصور أخرى وهو يتناول طعامه في المطعم الذي يتناول فيه طعامه على الدوام. وكانت زرقة غامقة تحت عينيه.. ونقاط حمراء في وجهه.

فكّر فرانك: هذا اللون الغامق تحت العين إما من مرض في الكبد أو في

القلب.

وإلى جانب الصور ثمة ورقة ذات لون (كريم) مسجل عليها اسم (آرمان بوغسيان) وهو تاجر سلاح أرمني الأصل.

وإلى جانب تجارته بالأسلحة.. كان يتاجر بالمخدرات والتكنولوجيا ونادراً كان يمارس تجارة النساء البيض. وعمله الظاهر هو (كومسيونجي البترول).

كانت روتردام بالأصل مشهورة بتجارة البترول. واثنان من ثلاثة من كمية البترول الداخل إلى أوروبا كانت تأتي عن طريق البحر وتخرج من هذا المرفأ. وحتى نصف المحاصيل الزراعية كانت تأتي منه أيضاً كانت الأموال الضخمة تتحرك في مكاتب صغيرة ليس فيها سوى طاولة وهاتف.. هذه الأموال بعض الأحيان تكون أكبر من ميزانية بعض الدول.

العمل في الساعة الرابعة تماماً. كانوا يريدون منه أن يلقي نظرة إلى الملفات التي تحمل تواريخ الأيام.

نزل من السيارة وسار نحو جسر (أرسموس) كان مكتب الرجل يقع بين الجسر وبرج (إيروماست) المشهور الذي يبلغ ارتفاعه مئة وخمسة وثمانين متراً.

كان القسم الأكبر من مدينة (روتردام) قد أنشئ ثانية لتعرضه لهجمات جوية ألمانية. في هذه الأثناء أيضاً كانت العمارة التجريبية قد أظهرت بنايات بأشكال غريبة.. كان فرانك قد زار روتردام قبل ذلك مع زوجته (هيلين) وزار فيها البيوت الكأسية ومتحفها المشهور (بواجمانس) الذي يضم بين أجنحتها بعض اللوحات المشهورة لرسامين مشهورين مثل (روبنس وبروغيل) وكان قد صعد إلى برج ايروماست وتناول الطعام في أحد مطاعمه.

في الوقت الذي وصل فيه أمام بناية (جان زويت) وهو العنوان المسجّل على الورقة. كانت الساعة تشير إلى الثالثة وأربعين دقيقة. كان عنده عشرون دقيقة.

أمضى عشر دقائق هنا وهناك وقرر الدخول إلى البناية. في هذه الأثناء لم يلاحظ السائح الألماني ذو الشعر المجعد وقد أسند ظهره إلى عوارض الجسر يراقبه بالمنظار.

رفع الألماني الهاتف النقّال الذي معه وقال: ""ابدؤوا"" في الوقت الذي كان فيه

فرانك ينظر إلى الواجهات اقترب من سيارته (الـ رينو) أربعة من مستخدمي المدينة وهم يلبسون صدارات خضراء في الوقت الذي كان فيه الاثنان يراقبان الأطراف.. كان أحدهم قد فتح غطاء محرك السيارة ليساعد زميله الآخر.

في الوقت الذي كان فيه فرانك يدخل البناية.. كانت العبوة الناسفة من نوع C4 قد تم تركيزها في سيارته. ولم يكن أحد يشك بهذا الشيء من بين المئات الذين كانوا يمرون هناك.

تحدث أحدهم مع الألماني الشائب وذكر أنهم قد أنهوا المرحلة الأولى من مهمتهم وأنهم ينتظرون التعليمات لإتمام المرحلة الثانية عند الساعة الرابعة إلا عشر دقائق كان فرانك قد دخل البناية المسماة (جان ايزوت) كان (آرمان بوغسيان) في الطابق الرابع يعني في الطابق الأخير كانت الشقة المقابلة له فارغة. أما المكاتب الموجودة في الطوابق السفلية كانت قد أغلقت في ذلك اليوم باكراً لحسن حظه.

عندما كان فرانك يصعد الدرج لبس قفازيه الجلديين (الكفان) وإذا ما سأله أحدهم عن سبب وجوده هناك.. كان قد أعدّ الكذبة منذ وقت طويل. كانت عيناه المجريتان تضخ حتى أصغر التفصيلات على عقله أو ذهنه جلس القرفصاء أو على رجليه تحت السلم الحجري الضيق بعد أن فكّ المصباحين الأتوماتيكيين في الطابق الثالث والرابع.

ثمة ساحة ضيقة كانت موجودة بعد باب مكتب (أرومان بوغسيان) ثم كان الدرج يلف نحو الشمال. لم يكن هناك فراغ للمصعد الكهربائي. بدأ فرانك ينتظر خروج (أرومان بوغسيان) من باب مكتبه بصمت يشبه صمت الأموات. لم يكن يحمل أي سلاح وفي الوقت الذي يقرأ فيه كل المعلومات المتصلة بالرجل كان قد قرر ما الذي سيفعله.

في الساعة الرابعة تماماً فُتح باب (بوغسيان) تنورت الساحة الصغيرة أمام المكتب من جراء ضوء النهار القادم من نافذة غرفته. والرجل كما هو المتوقع، كان وحيداً.. كان يتنفس على شكل شخير. كان فرانك يتخيل أن الرجل سيكبس على زر الكهرباء قبل إغلاقه الباب سمع كلاماً على شكل لُغز أو شتيمة.. كانت هذه الشتيمة والسباب للزر الكهربائي والبناية القديمة.

أُغلق الباب.. كان ثمة خط رفيع من الضياء يرشح من أسفل الباب تقدم أرمان نحو الدرج مثل الكفيف وهو يضع يده اليسرى على الدرج تحرك فرانك بسرعة من مكانه.. صرخ (أرمان بوغسيالن) بصوت خفيف بعد أن شاهد الظل الذي خلق أمامه فجأة في اللحظة نفسها أنزل فرانك عدة ضربيات قوية أو قاسية علىع صدره وعندما أحس أن صدر الرجل قد ضاق.. قذفه بقوة نحو الدرج.

الذي حصل تم في ثانيتين أو ثلاث.. وبقي فرانك جامداً كان لا يسمع سوى أنفاسه المنتظمة.. فانكب على جسد الرجل، كان الرجل قد مات كأنه مات بذبحة صدرية.

أخذ المفاتيح من جيب الرجل وفتح باب المكتب.

وكما هي غرفة فرانك في المدرسة.. كانت هذه الغرفة أيضاً فارغة وخاوية من كل شيء. طاولة ومصباح ذو رأس أخضر. وخزانات خشبية وثلاث كراسٍ.

اتجه نحو الخزائن ليلقي نظرة إلى الملفات. كانت الخزائن من حيث الظاهر مليئة بالاتفاقات المعصومة. لم يكن عنده وقت لا للبحث فيها وتدقيقها ولا تصويرها. ولكن لم يصدق أو يشاهد ملفاً أو عقداً يهتم (يخص) به رئيسه بشكل مباشر.

تذكر فجأة المحفظة التي كانت موجودة تحت إبط (أرمان بوغسيان) أسرع إلى الجسد المتمدد على الدرج وأخذ المحفظة السوداء التي كانت قد بقيت تحته وعاد إلى المكتب ثانية.

إذا كان ثمة عقد مربوط أو تسويق جارٍ الآن.. يجب أن يكون العقد أو الملف معه أي في هذه المحفظة.

لم يخرج من المحفظة سوى ملف واحد. وعدة نصوص بالإنكليزية كان في أحد النصوص أسماء بعض المعادن. و عندما رأى كلمة (Turkey) فكّر يجب أن يكون هذا هو الملف المقصود أو المطلوب فأخذه وأدخله في جيبه ثم أخذ من الخزينة ملفاً آخر عليه تاريخ قريب من تاريخ الملف السابق ووضعه داخل المحفظة.

في الوقت الذي كان يغلق فيه الباب كان أميناً على أنه لم يترك أي أثر هنا وهناك. شد لوحة الكهرباء في الطابق الرابع ثانية.. وجربّها إذا كانت تعمل أم لا.

في الوقت الذي كان ينزل عن الدرج وضع المحفظة تحت الجسد ثانية والمفاتيح في جيبه وخرج (أرمان بوغسيان) سيبقى هنا على مدى يومين كاملين.

تقدم فرانك عشرة أمتار عند خروجه من البناية مغطياً وجهه بشكل من الأشكال حتى لا يُعرف شكله إذا ما كانت ثمة كاميرات تصوره.

كان السائح الألماني المسن مازال ينتظر فوق الجسر. عندما رأى خروج فرانك يخرج من البناية، رفع النقال الذي معه وقال: لقد خرج الرجل.. تشاهدونه بعد خمس دقائق.

وعندما أخذ الجواب من الطرف الثاني.. مشى نحو الجهة التي سيمشي فيها فرانك.

وكان ثمة أناس يروحون ويجيئون فوق الجسر وعلى كلا الاتجاهين. عندما كان السائح الألماني يمر من أمام شابين يعزفان على (الغيتار) وضع بعض النقود الصغيرة داخل الصندوق الموجود أمام العازفين.

لم يكن فرانك قد أحس بأي ضيق عندما جاء إلى (روتردام) بعربته الخاصة كان الناس هناك قد اعتادوا على رؤية السيارات ذات النمر الفرنسية ابتداء من يوم الجمعة وخاصة السائحين الذين كانوا يأتون إلى امستردام بسبب حرية المخدرات والتسليات المشهورة فيها وكانوا يسمونهم: ""سيَّاح نهاية الأسبوع"". طبعاً كان بعض الهولنديين لا يعجبهم هذا الشيء.

كانت سياسة اليمين قد بدأت بالارتفاع منذ عدة سنوات في (امستردام) وكان السيد (بيم فوريتون) المشهور بأحاديثه اليمينية المتطرفة قد فاز في الانتخابات التي جرت في عام ٢٠٠٢.. كانت هذه الحركة قد اجتمعت على مضمون ادعاءات (بيم فوريتون) ولكنها كانت في المرتبة الثانية من حيث الكبر في هولاندا. كانت هذه الحركة هي المسؤولة عن الهجمات التي بدأت بضرب المسلمين والجوامع في هولاندا. وكانت بعض المجموعات التابعة لهذه الحركة تهاجم السيارات الفرنسية القادمة من أجل المخدرات والجنس.

في الوقت الذي كان فيه فرانك قد وصل إلى منتصف جسر (اراسموس) كانت مجموعة من الشباب قد بدأت بالاقتراب من سيارته.. أول من شاهد النمرة الفرنسية

هو الشاب الهولاندي الذي كان يعلق على أذنه وأنفه حلقة معدنية واسمه (رينه فان در) وكان الشبان الآخرون وعددهم أربعة قد علقوا على ظهورهم عصاً غليظة قصيرة. وكانوا يستعملون هذه العصي في قتال الشوارع والهجوم على السيارات.

في الوقت الذي كانوا يريدون أكبر الضرر والخسائر لسيارة فرانك. كانت صديقاتهم أو حبيباتهم يقفن على بعد عدة أمتار يراقبن الوضع.

كان (جرارد ويرشتمان) في تلك اللحظة قد لفَّ الزاوية التي يستطيع من خلالها مشاهدة السيارة بشكل جيد. وقال دون أن يعطي أهمية للكلمات القادمة إليه من الطرف الآخر: "ماذا يفعل هؤلاء الشباب؟".

فأجابه (ألك): "هؤلاء من جماعة (بيم فوريتون) يا سيدي.

- شباب هولنديون تافهون.

فكّر جيرارد ويرشتمان ثانيتين فقط وقال آمراً: بعد أن يلف الرجل الزاوية انتظر عدة ثوانٍ وفجر السيارة. ثم انتقل إلى الطرف الآخر للشارع ووقف في مكان يستطيع مشاهدة الوضع كما ينبغي.

في الوقت الذي دخل فيه فرانك إلى الشارع الذي أوقف سيارته كان (رماريت فان رد) يُنزل الضربة الأولى للزجاج الأمامي للسيارة وفي الوقت الذي كان يحاول معرفة الذي كان يحصل كانت الضربات قد بدأت تنزل فوق غطاء وزجاج السيارة، لم يستطع أن يقرر ما الذي سيفعله.. هل يذهب لمنع الشباب؟ أو ينتقل إلى الطرف الثاني للشارع؟

الاحتمال الأكبر أن التأمين يدفع ضرر السيارة. ولكن كذبته ستظهر في المدرسة لأنه كان قد قال لهم بأنه مريض.. وعندما يسمعون أن سيارته قد تعرضت للضرب.. معناه مشكلة كبيرة.

في هذه اللحظة تماماً انفجرت السيارة وأنهت فكرته التي لم يقررها بعد.

كان لدى فرانك معرفة كافية بأن هذا الانفجار ناتج عن قنبلة. دار نحو الخلف ومشى على عكس اتجاه الشارع.لم يعد يفكر بعد الآن لا بالمدرسة ولا بالتأمين. لم تعد مشاكله تشكل له أية أهمية على الإطلاق ثمة شخصية كانت نائمة في الأعماق قد استيقظت من جديد.. وكانت هذه القنبلة تحمل عنه كل

علله ومشاكله.. كانت قد أُعدت من أجله. هذه كانت مشكلة كبيرة.. كانوا قد تعرفوا إلى شخصيته القديمة وحاولوا قتله.

وبناء على التعليمات الواردة إليه كان عليه أن يسافر إلى (بون) مباشرة. وهناك سيسحب مقداراً من المال إضافة إلى هوية جديدة.. ثم يتجه نحو تركيا مباشرة.

كان قد ظل أكثر من ستة عشر عاماً يعيش تحت اسم (فرانك جونسال) وتزوج تحت هذا الاسم وقضى على كل اسم أو شخصية يحارب المصالح التركية سراً أو علناً أو يشكل خطراً على الدولة التركية.

أوقف أول سيارة فارغة:

فسأل السائق: ""كم تريد أجرة حتى توصلني إلى بون؟"".

نظر السائق نحو الخلف ليقول لهذا الزبون المجنون انزل من السيارة إلا أنه عندما رأى عينيه لم يقل شيئاً.. وقال الرقم الذي أراده.

- ثلاثمئة يورو.

أخرج (كوكهان) من جيبه رزمة كبيرة من المال وأعطى السائق ما طلبه.

- خذ هذه ثلاثمئة يورو. وإذا بقيت صامتاً على مدى الطريق ستأخذ ثلاثمئة يورو أخرى عندما نصل إلى بون.. هيا لنذهب.

كان اسم سائق التاكسي: (جووز ماسكنت) ففتح الهاتف وأخبر كراجه بأنه يأخذ أحد مشتريه إلى بون. وطلب منهم أن يخبروا زوجته بأنه لن يعود هذا المساء.

كان (جيرارد ويرشتمان) قد شاهد كل ما فعله (كوكهان) حتى صعوده إلى السيارة. لم يكن عنده أية خطة لقتله بأي شكل من الأشكال. حتى لو لم يأتي أولئك التافهون. كان سيفجر السيارة قبل وصوله إليها وطلبه الوحيد كان الكشف عن شخصيته وعودته إلى تركيا بأسرع وقت والأهم من ذلك كان جيرارد ويرشتمان وهو رئيس مكتب الأمريكي في الاستخبارات الألمانية BND يريد أن يحمل معه الملف الذي أخذه من أرمان يوغسيان إلى تركيا.

كان قد خطط لهذه الحركة خارج معرفة قيادته. لو كان عندهم علم بذلك لكانوا قد اعترضوا ولكنه رجل مسن ولم يكن يخشى من العقوبات التي ستناله. وهذا الشيء فعله من أجل مصلحة ألمانيا فقط.. يجب أن يكون لدى الأتراك علم

بذلك.

كانت الرحلة من (إمستردام) إلى (بون) تسير سيراً حسناً وبشكل مريح بالنسبة (لكوكهان).

كان (كوكهان) قد أسند رأسه إلى مقعد السيارة.. كان يقوم برحلة نحو الماضي...

كان قد كبر وترعرع في قرية ساحلية صغيرة تابعة لمدينة (زونقلداق) كانت هذه القرية مكان استراحة لكثير من أهل (أنقرة)... وكانت ثمة قاعدة عسكرية بحرية موجودة هناك كان والده الذي تقاعد وهو برتبة صف ضابط من هذه القاعدة البحرية.. قد فتح مطعماً صغيراً في القرية أو البلدة وكان (كوكهان) يساعد والده عندما تتعطل المدارس وتعرّف إلى عمه (تيومان) هناك.

والمعلومات التي يعرفها عنه (كوكهان) كانت مقتصرة على أنه كان محامياً مشهوراً في (أنقرة) وأنه ترك المحاماة فجأة واستقر في هذه البلدة الصغيرة التي كان يأتي إليها لقضاء العطلات ومنذ سنوات طويلة. ولكنه مثقفٌ كبيرٌ واسع الاطلاع والمعرفة. وعنده معارف كثيرون ومهمون جداً وبين وقت وآخر كان يستقبل ضيوفاً مشهورين جداً في مطعم والده.

لم يكن قد تزوج وعندما كان يثمل بعض الأحيان.. يتنعم بحبه المجروح في فتوته والذي انتهى على شكل مأساة وكان يضع (كوكهان الصغير) في مكان ابنه الذي لم يُنجبه بعد.. كانا يجلسان معاً على مدى ساعات طويلة.. يعطيه دروساً عن العالم والتاريخ والسياسة والإيديولوجيات وفي الوقت الذي كان فيه زملاء (كوكهان) في المرحلة الإعدادية لا يعرفون أن منبع الشيوعية هي الاتحاد السوفيتي. كان هو يتعلم مشكلة كوبا.. وانتفاضة المجرتين وربيع براغ والخطط التي كانت تقام بين القوتين الكبيرتين باتجاه العالم.

في اليوم الذي أتى بجلائه (كازنيه) ومعه شهادة تقدير وقد أنهى المرحلة الإعدادية، شاهد عمه (تيومان) يسحب والده إلى زاوية يتحدث معه بحرارة كبيرة، كان كوكهان قد أحسَّ أن هذه المناقشة من أجله، ولكن عندما شاهداه قطعا الحديث.

بعد أسبوع واحد جاء رجل يلبس بذةً سوداء إلى المطعم وجلس على طاولة العم تيومان.. واضح أنه رجل مهم قادم من أنقرة كان ثمة رجلان يحملان السلاح تحت إبطيهما ينتظرانه في الخارج. عندما كان (كوكهان) يخدم الطاولات الأخرى. أحس بأن نظرات الرجل موجهة إليه.

وأخيراً عندما ناداه العم (تيومان) إلى طاولتهما.. ذهب وقلبه ينبض بسرعة من الانفعال قال له العم تيومان:

هذا عمك صالح يا كوكهان.. ناديته لأجلك من أنقرة. لم يكن كوكهان يعرف ما الذي سيقوله. كان للرجل شاربٌ كثيفٌ ووجهٌ جدّيٌ بكل معنى الكلمة.. كانت نظاراته السوداء قد أرعبت الولد الصغير:

إن السيد (تيومان) يقول بأنك ولد ذكي جداً وأنك مغرم بالتاريخ والسياسة.

هذا لم يكن سؤالاً.. مرة أخرى بقي كوكهان صامتاً.. هذه كانت من توصيات العم تيومان.

بدأ السيد صالح يطرح على كوكهان أسئلة.. كي يعرف مقدار علمه وذكائه في البداية سأل أسئلة بسيطة مثلاً: في أية قارة تقع انغولا؟ ومن كان رئيس فيتنام الشمالية في أثناء الحرب الفيتنامية؟.

ثم بدأت الأسئلة المعقدة والتي تحتاج إلى تعليق: مثلاً: لماذا طرد الرئيس (ترومان) ماك أرتور.. بعد تغلب أميركا على اليابان؟

ولماذا عمدت أميركا وكيف إلى وقف الهجوم الإنكليزي على مصر بعد أن أممَّ جمال عبد الناصر قناة السويس؟ وكيف تمَّ ذكر اسم تركيا أثناء المفاوضات المتعلقة بالمشكلة الكوبية؟

كانت أسئلة من هذا النوع.

كان كوكهان قد حاول وبقدر المستطاع أن يجيب الرجل أجوبة قصيرة وواضحة. لم يكن رد فعل السيد صالح يرتسم على وجهه، ولكن كان وجه العم تيومان يضحك.

بعد ساعة تقريباً وعندما كان السيد صالح يرتشف آخر جرعة من فنجانه أو

كأسه أبعد العم تيومان كوكهان عن الطاولة ونادى والده إليها.

كانا يحاولان إقناع والده بشيء ما.

في ذلك المساء.. ركب كوكهان سيارة السيد صالح بعد أن جهزت له أمه حقيبة صغيرة.

وفي اليوم التالي أُخذ إلى معكسر مغلق في (أبانتا) التابعة لمدينة (بولو).

كان المعسكر قد ضم في ثناياه أكثر من مئة شاب كانت أعمارهم تتراوح بين ١٢ و ١٦ عاماً وكانوا قد قدموا من جميع أنحاء تركيا. الشروط صعبة والتدريبات كانت قاسية كان قد بقي في المعسكر بعد انتهاء الأسبوع الأول ستة وعشرون ولداً فقط.

كان قائد المعسكر سيخطب فيهم لأول مرة. كان اسمه (الذئب) أما المدرب الرئيس فاسمه (الثعلب). فأمرهم بالوقوف على استقامة واحدة.. وقفوا في وضعية الراحة وأيديهم متشابكة خلف ظهورهم. وفتحوا سيقانهم بعض الشيء كانوا ينظرون إلى قائد المعسكر وأجسامهم كالعمود، قال الذئب:

- بقيتم بهذا القدر.. عددكم ستة وعشرون.. وهذا، هذا الرقم كبير بالنسبة لنا. لن نترككم قبل دورة مدتها ثلاثة أسابيع. ولكن إذا أحسّ أحدكم بتعب أو بصعوبة وأحس بأنه لن يستطيع التحمل وذلك بعد الانتهاء من الأسبوع الأول من الدورة.. ليخطو خطوة نحو الأمام.. ويغادر هذا المكان فوراً. نعم إن الأسبوع الأول من الدورة ستكون مثل جلوسكم بأحضان أمهاتكم (أي سهلة جداً) نعم إذا كان منكم من يريد الذهاب فليخطو خطوة نحو الأمام.. ولكن انظروا من سيقول بعد ذلك لا أستطيع الاستمرار، سيكون مكانه حفرة (الغائط).

في لحظات قليلة بحث عن القلق والخوف في عيونهم.

وأخرج سيجاراً وأشعله ثم قال:

- نعم لآخر مرة أسأل هل من أحد يريد الذهاب؟

لم يتقدم أحد نحو الأمام.

نظر الذئب إلى الثعلب وابتسم وهو يقول:

- وأنت ماذا تقول؟ ليس من أحد يريد الذهاب.

لم يقل الثعلب شيئاً، اكتفى بهز كتفه.. لم يكن (كوكهان) قد رأى ابتسامة الرجل على مدى زمن الدورة. كان رجلاً طويلاً ورفيعاً، أما الذئب فكان أقصر من كل المدربين هناك ولكن أقواهم.

- إذن نحن عائلة واحدة هنا. وكما لا يكون للأسرار مكانٌ ضمن العائلة فهنا أيضاً لن تكون ثمة أسرار بيننا.؟. الشيء الأول الذي يجب أن تعرفوه هو أنكم لا تملكون شيئاً بعد الآن إن لحومكم وعظامكم وقلوبكم ورئتيكم ودماغكم وشخصياتكم حتى أمعاءكم وحتى روحكم إذا ما كانت موجودة كلها لنا يعني لتركيا.. وأنا شكلها الواقف أمامكم. وقد وجدت روحاً ودماً وجسماً (يعني تركيا متجسدة في شخصه) كان كوكهان.. قد بدأ فهم مضمون كلامه رويداً ورويداً، وكلما زاد في الفهم، كانت ثمة قشعريرة تلف أعماقه.

حتى إنه لاحظ اهتزاز جميل أثناء وقوفه وهو من أقوى الشبان الموجودين في المعسكر فأكمل الذئب حديثه المرعب:

لن تخرجوا من هذا المعسكر إلاّ كما نريد نحن. وإلا ستكونون (زبلاً) في أقرب حقل. إلى هنا مرَّ الأسبوع الأول من الدورة على التدريبات الجسدية القوية كي تتعود أجسادكم على الصعوبات والتحمل وبعد الآن ستتعلمون استعمال السلاح والمتفجرات وصنع القنابل والقتل بالأيدي وستتعلمون ترتيبات إلكترونية أيضاً وسيبدأ تعليم اللغات. والذي ينجح منكم في تعلم اللغة.. سيداوم على تعلمه، يعني أنا ومدربوكم نجارون وأنتم الأخشاب التي نريد تسويتها وصقلها.. الآن جاء دور.....

وبحركة خفيفة من يده أتى المدربان المسميان الفأر والقندس بصندوقٍ كبير.

قال الذئب: ليخترْ كل واحد منكم واحداً.

وعندما بقي الأولاد دون حراك صرخ فيهم بقوة (هيا).

عندما وصل كوكهان أمام الصندوق الذي فُتح غطاؤه شاهد مجموعة كبيرة من الجراء (صغار الكلب) كانت حيوانات رائعة ومحببة واختار كلباً صغيراً على ذنبه قطعة سوداء.

كان الأولاد قد وقفوا على الصف وكل واحد منهم.. يحمل جرواً صغيراً في

وقت قصير.

ولأول مرة صرخ الذئب: كما يُؤمر الرمادي.. يجب عليه أن يأمر الآخرين ويجذبهم إليه. عند ذلك عرف (كوكهان) أن أسمهم (هو الطاقم الرمادي).

في نهاية الدورة التدريبية.. ستكون هذه الكلاب مدربة تدريباً أفضل منكم. وبقدر نجاحكم في دروسنا وتدريباتنا.. يجب أن تُسَمِّعوا كلامكم وأوامركم على هذه الكلاب.. هذا مهم جداً لا تنسوا هذا الشيء.

بعد نهاية هذا الخطاب لم يظهر الذئب أبداً أمامهم حتى انتهاء الدورة. وكان ذلك اليوم يوماً لا ينس بالنسبة لكوكهان.

كان ألبرنامج قد قُسِّم إلى ثلاثة أقسام من الناحية التعليمية والتدريبية الفيزيائية والثقافية والنفسية كان كوكهان قد اختار القسم الفيزيائي يعني: استعمال - السلاح - الدفاع عن النفس - المتفجرات (والجيمنستيك).. كانت هذه التدريبات صعبة بالنسبة لكوكهان ولكن لعدة أيام فقط.. وتعوّد بعد ذلك.

أما بالنسبة للتعليم الثقافي كان أهم شيء فيه.. اللغات وتربية اللسان والجغرافيا والتاريخ والرياضيات والفيزياء والكيمياء وكان درس الموسيقى من أجمل الدروس على الإطلاق.. (كانت الكناريا) تريد أن يتعلم كل واحد منهم العزف على آلة ما. كانت كناريا هي المرأة الوحيدة بين المدربين والمعلمين.. ولكنها كانت قوية وقاسية كانت تقول لهم:

- حاولوا ربط كل شيء في حياتكم بالموسيقى. اختموه وتحركوا بالتوازن والموسيقا.. إذا نسيتم الموسيقى التي في أعماقكم تموتون يا أولاد.

أصعب الساعات كانت تمر في الدروس النفسية. كان (الخفاش) و(أم الأربع والأربعين) يواجهان خوفهم وضعفهم مع ذاتهم ليس بالجسد فقط ولكن حتى بالروح.. كانت عيونهم المجنونة لا يهرب منها أي شيء على الإطلاق كانا يظهران كل ما خبآه لنفسهما.. ويخرجان أتفه الأشياء ويحطمانه.

كان أم الأربع والأربعين يقول لهم: عملنا محصور في إذابة الضعف الكامن في أعماقكم.. وتحويله إلى طاقة لصالحكم.

وكانت إحدى اللحظات الحرجة التي بقيت ترشح إلى أحلامه على شكل

كوابيس مزعجة.. أحد الامتحانات في الدروس النفسية. بقي هذا الشيء يصيبه على مدى سنوات طويلة بعد انتهائه من الدورة كان الخفّاش وأم الأربع والأربعين قد أعطوهما دروساً من كتاب للكاتب (جورج أورويل) واسم الكتاب "١٩٨٤"وكانا يسميان الامتحان عطفاً على ذلك الاسم (الغرفة ١٠١) كان كل واحد يتجابه مع خوفه. وكان خوفه من الظلام والأماكن المظلمة.

أخذه الخفّاش على رأس حفرة وقال له:

- ستدخل هنا.

أما أم الأربع والأربعين فقد أشار إلى علم على بعد مئة متر تقريباً، وقال: المخرج هناك، عندك نصف ساعة إذا لم تخرج سنصب (بيتوناً) على المدخل والمخرج.

بدأت ركبتا كوكهان بالرجفان.. كان على وشك أن يبكي ويترجاهما كي يرسلاه إلى منزله لأنه مازال طفلاً صغيراً. كان قد اشتاق إلى أبيه وأمه. أما اللذان أمامه هما الخفاش وأم الأربع والأربعين. إذا فعل هذا الشيء كان سيلقي السخرية والتهكم.

قال أم الأربع والأربعين: هيا.. لقد بدأ الوقت. لقد ضيعت ثلاث دقائق ورمى بنفسه إلى الحفرة.

لا تستطيع التقدم إلاّ زحفاً.. كان هذا نفقاً سعته بقدر جسده نفقاً مظلماً ورطباً.. بدأ بالتقدم في داخل ذلك النفق الخانق. كان حاراً. وكان يعرف إذا أحسَّ بالاضطراب مرة فإنه لن يستطيع موازنة نفسه ثانية ولهذا السبب كان يفكر بالتقدم نحو الأمام فقط. وكان يحس بوجود الحشرات التي كانت تمشي أمامه وتدخل داخل لباسه وتزحف على وجهه. في وسط الطريق تقريباً أحسَّ بأن ثمة غرابة قد حصلت أمامه داخل الظلمة. كان قد صار أمامه نفقان.. « مفترق طريق » كان يعرف مثل اسمه أن أحدهما بلا مخرج.

أنَّ بخوف. إذا أمسك الطريق الخطأ معناه الكارثة ليس بالإمكان الرجوع على عكس الاتجاه. توقّف لحظة. وتحكّم بعقله بدلاً من أحاسيسه.. أدخل إصبعيه إلى داخل فمه وأخرجهما ووضعهما أمام طريق النفق، كانت ثمة نسمة خفيفة تأتي من النفق الأيمن.. مجرى هواء.

هذه العملية أعطته طاقة جديدة لأنه استعمل عقله فحسب وأنهى طريقه المتبقي مفكراً بالخلاص والنجاح. عندما كان يخرج من الحفرة دفعه الخفّاش بقدمه وقال له ضاحكاً: ازحف بعض الشيء لقد تعوّدت على ذلك. أما أم الأربع الأربعين قال له: كان قد بقي لك دقيقتان فقط. هل ارتحت في الطريق وأكلت بعض الحلزون. أيها الولد القذر؟

راقب (كوكهان) إغلاق الحفرة. لو تأخر بعض الشيء.. لدُفن حياً تحت ذلك التراب (حضن كلبه _كاشار) في تلك الليلة ونام نوماً لذيذاً.. كان قد سمى كلبه بهذا الاسم.. للونه، كانا قد ارتبطا ببعضهما كثيراً. كان سنده الرئيس والقوي هذا الكلب.

في اليوم الأخير من المعسكر بقوا تسعة عشر ولداً. أما السبعة الآخرون فكانوا قد ضاعوا. كان كوكهان لا يعرف ما الذي فعلوه لهم.. كان قد تغيَّر كثيراً ولا يهمه شيء في هذا العالم. لأن كلبه الصغير كان معه. سنده وسعده وقوته.

جاء الذئب إليهم وهو يشعل سيجارة.. مرَّ أمامهم عدة مرات بصمت وهدوء. ونظر إلى عيونهم واحداً واحداً.

صرخ: لقد صرتم كما نريد. الآن ستذهبون إلى بيوتكم.. أنتم الآن جاهزون لتنفيذ المهمات. وعندما نريد ذلك نطلبه منكم.. ستدوم تدريباتكم حتى أخذكم المهمة ولكن.. لن تتركوا مدرستكم.. « ما في عونطة ».. والصيفان القادمان ستأتون إلى هذا المعسكر أنتم بعد الآن (الطاقم الرمادي).

بدأ الثعلب على توزيع القبعات الرمادية.. فلبسوها بغرور.

في هذه اللحظات كان الذئب ينظر إلى الأطفال الذين كانوا ينظرون بدورهم إلى بعضهم ويضحكون، ولكنه شخصياً لم يكن يضحك، رفع يديه الاثنتين نحو الأعلى وصرخ:

- حاجة بقى اسكتوا.. استعد. فوقفوا بصف واحد مباشرة وقال:
- استمعوا إلى الثعلب.

كان الثعلب يقف مقابل الأولاد الواقفين على نسق واحد.

فأشار إلى الكلاب المربوطة على الأوتاد.. كانت تقرض العظام الموجودة

أمامها بأسنانها الصغيرة وقال لهم:

- كما تعرفون بقي عندكم امتحان واحد.. كلكم رماديون ولكن ستطلبون منها المجيء إلى عندكم.. ستأمرونها.. وستسمع أوامركم فك الجرذ والقندس حبال الكلاب.. نادى الأولاد الكلاب التي أطعموها حتى شبعت وأحبّوها وصاحبوها.. جاءت كلها سوى كلب واحد لم يترك عظمته التي كان يتسلى بها.

كانت ستة كلاب قد لبت طلبات أصحابها ومن بينها كلب كوكهان.

كان الثعلب يسجل كل هذه الملاحظات.

عندما انتهى الامتحان ظهر (القندس) وفي يده مجموعة من المسدسات من عيار الـ ٤٥ مم قال الذئب: ليأخذ كل واحد منكم واحداً.. بعد قليل ستحملون حقائبكم وستركبون الحافلة.. وستذهبون إلى عائلاتكم وأحبابكم: ولكن بقي شيء واحد.

لفّ شيء من القلق أعماق كوكهان. وكأن شيئاً سيئاً كان سيحدث.. في الوقت الذي كان فيه الذئب يرفع غليونه عن فمه مشيراً إلى الكلاب.. كان رأسه قد دار نحوها.

ليطلق كل واحد منكم النار على كلبه.

وكأن كلماته هذه قد وصلت إليه من عمق الماء.. وبصوت مبحوح أو مخنوق.. كانوا الأولاد جميعاً لا يصدقون آذانهم.

كانوا قد أحبوا هذه الكلاب.. ووجدوا فيها التسلية والقوة وكانت تخلصهم من أحزان كثيرة.. وبكوا وامتزجت دموعهم بوبر ذقونهم الناعمة.. كانت كلاباً رائعة رعوها وأطعموها وناموا معها. وكانت صغيرة.. وقريبة من القلب.

كانوا ينظرون إلى الذئب بعيون غير مصدقة. كانوا يريدون معرفة ما إذا كان يمزح أم لا. ولكن مستحيل.. وكانوا يعرفون هذه الاستحالة صرخ الذئب بقوة: ماذا حصل لكم.. لقد رجعتم أطفالاً صغاراً.

- قلنا لكم إنكم الطاقم الرمادي وفي الوقت الذي تخرجون فيه من المعسكر. نعطيكم المهمة الأولى.. هل ستقومون بمهماتكم هكذا!!! وسار نحو

الكلاب وقال: نعم إنها كلاب جميلة ومحبوبة ولكن ألن تقتلوا أطفالاً رضَّع من أجل مصلحة بلدكم؟ وربما تقتلون عائلة بأكملها. وربما تقتلون الفتاة التي تحبونها.. أنا أعرف أنكم ارتبطم بهذه الكلاب. ولكن يجب أن تعرفوا شيئاً إن أوطانكم غيورة. لا تريد رباطاً غير الارتباط بها. لا تريد حباً غير حبها. لا تريد أن تتقاسم قلوبكم مع أحد.

كان كوكهان قد بدأ يفهم كلام الذئب..

أكمل الذئب حديثه: بقتل هذا الكلب.. معناه ستقتلون كل شيء تحبونه أكثر من وطنكم وبلدكم.. لن ترتبطوا بأي شيء على الإطلاق؟.

لم يكن الذي يحصل أمامهم لعبة ولد صغير.. كان كل شيء جديّاً الحركة الأولى خرجت من كوكهان.. كان (كاشا) ينظر إلى سيده.. نظرات سيبقى كوكهان يتذكرها على مدى سنوات طويلة.. وستحضر هذه النظرات أمامه في كل مرة يحس فيها أنه يقترب من حب إنسان أو شيء ما.

فتح آمان سلاحه ومسح دموع عينيه كي ينهي الأمر برصاصة واحدة.

- لقد وصلنا يا سيدي. كرر السائق الذي أوصل كوكهان من امستردام إلى بون.. كان كوكهان قد غفا إغفاءة خفيفة.

تحرك للحظة ولم يعرف من وأين هو.. وبدأ بالبحث عن النظارة التي كان يضعها على عينيه عندما كان يمثل درو (فرانك جونسال) وربما صارت عنده عادة.. بعد فترة عاد إلى وعيه أعطى السائق المال الذي وعده دون أن يقول شيئاً وسار في الشارع الهادئ رويداً رويداً، وفي منتصف الليل كان على الأبواب.

كانت مدينة (بون وبرلين) على عكس مدينة هامبروغ.. حياتها الليلية عامرة على الدوام. وخاصة بعد أن انتقلت العاصمة إلى برلين.. فكانت الحياة تتوقف في السابعة أو الثامنة مساءً.

ذهب إلى أحد الفنادق من الدرجة الثالثة.. الذي ينتقل فيه العملاء السريون.. أعطى الكاتب الذي كان يفتح عينيه بصعوبة بخشيشاً كبيراً ولم يجعله يكتب اسمه على السجلات. هو بالأصل كان سيبقى هناك حتى الصباح فقط.

أخذ من الكاتب كرتاً كي يتصل بالهاتف من أمام الفندق فضرب الأرقام

المخزونة في غياهب ذاكرته – فخرج صوت يطيح به النعاس.

- نعم.

- روبوس أنا G9 . كان قد تحدث بالتركي.

- هل تقول G 9 من أين تتصل؟ ماذا حصل؟

كان كوكهان قد فهم أن محدثه لم يكن (روبوس) الذي تحدث معه قبل أربع سنوات وذلك من طوناج صوته.

- قال: لقد تم الكشف عن شخصيتي.. كانوا قد وضعوا قنبلة داخل سيارتي، لكني نجوت.. اتصل معك الآن من بون.. غداً سأكون في المنزل.

كان الطرف الآخر مضطرباً وهو يردد: شو يعني كشفت شخصيتك؟ ربما ظنوك شخصاً آخر؟

سحب كوكهان من أعماق نفسه كلمة أو جملة: يا صبر أيوب.

وبدأ بشرح التفاصيل أولاً بأول.. لو كان (روبوس) القديم مكان هذا الرجل لكان فهمه. وزرع السكين في قلبه.

- مستحيل أن يكون في الأمر خطأ.. في هذا اليوم كنت أنهيت العمل الذي طلبتم مني عمله في امستردام. وإذا بسيارتي تنفجر هناك.. وجئت إلى بون مُباشرة بناء على التعليمات.

في هذه المرة كان (روبوس) كأنه قد استيقظ من نومه. راح صوته يأتي هادئاً وساكناً: نعم لقد كشفوا عنك.. الأسوأ من ذلك إنهم قد دخلوا إلى النظام لأننا لم نعطك مهمة.. والمهمة التي عملتها في امستردام.. أخذتها من شخص آخر وليس منا. من كان هو؟

- آرمان بوغسيان.

- آه تمام أعرفه.. كان في جدول المراقبة.. على الأقل لا توجد مشكلة من هذه الزاوية. الآن يجب علينا أن نُصفّر النظام من أوله إلى آخره. سننتظر بعض الوقت.. حتى نرى هل أنت الوحيد الذي قد كشف أمره. أم كل الطاقم الرمادي.. يجب أن نطلبكم إلى العش.

- هذا عملك.. في هذه الأثناء يجب أن يذهب أحدهم إلى مدرستي في (فوازيه)

حتى يُنظف حاسوبي. ثم هناك بعض المشاهد التي يجب أن تمحى في الخزائن.

- تمام نستطيع أن نحل ذلك. هل يوجد أي شيء في المنزل؟

لا.. البيت نظيف.

أنهى المكالمة وأغلق الهاتف.. كان يفكر بالبوليس الفرنسي وما الذي سيقومون به. وما الذي يفكرون به. وكان يتمنى ألا يربطوا بين انفجار سيارة فرانك جونسال وغيابه عن الأنظار ومقتل أرمان بوغسيان وربما بالأصل كانوا يعرفون كل شيء.

حرب الاستخبارات الدولية كانت تشبه بعض الأحيان لعبة (البوكر المكشوف) أربعة أوراق تكون مكشوفة ولكن ورقة واحدة تريح اليد.

عندما عاد إلى الفندق لم يستطع النوم. وكأن جسمه يحاول طرح بقايا (فرانك جونسال) وكانت هذه المرحلة قد أمدّتهُ بطاقة غريبة. وبعد أن راقب برهة من الوقت الأقنية الفضائية الألمانية التي لا طعم لها ولا رائحة، تذكر الملف الذي أخذه من حقيبة الأرمني.

في البداية قرأ بنود العقد المكتوبة بالإنكليزية. وبعد عشر دقائق كانت عيناه قد خرجتا من مكانيهما من الدهشة.

كانت الحكومة الأمريكية تبيع حقوق استخراج كل من المعادن الموجودة في تركيا مثل (البور) و(التوريوم) و(اليورانيوم) لـ٩٩ عاماً إلى شركة أمريكية تسمى (أورنيكرون) تتعامل بالمعادن والطاقة ومكانها في ولاية تكساس كانت هذه الاتفاقية ستبدأ اعتباراً من شهر كانون الأول من عام ٢٠٠٧.

تزايد الفضول لدى كوكهان.. كيف تعمد الحكومة الأمريكية على بيع معادن ومواد لا نملكها ولا علاقة لها في تركيا. والشيء الذي يعرفه جيداً أن هذين المعدنين وخاصة البور والتوريوم حسّاس جداً بالنسبة للرأي العام التركي.

وإلى جانب ذلك كان ثمة خبر في الملف مأخوذة من إحدى الجرائد ومنشورة في ٢٣ آذار عام ٢٠٠٣ يقول الخبر بأن الحكومة التركية قد ردت العقد الذي أبرمته مع شركة تسمى (التايوم) ولمدة ٩٩ عاماً كي تستخرج معدن البور من الأراضي التركية.

وطبقاً لهذه المعلومات.. كانت شركة (ألتا بوم) تابعة لشركة (أوينكرون) كانت الجريدة التي أوردت الخبر قد تمت ترجمتها.

أما بقية الملف فكانت مقتصرة على تقارير رجال العلم حول أهمية استعمال (البور) في تصنيع الأسلحة والتكنولوجيا الفضائية وأهداف أخرى مهمة جداً.

والملف بعد ذلك يتحدث عن الكميات والنسب العالمية.. فيقول بأن أكثر من ثمانين بالمئة من معدن البور ذي الصفة الجيدة موجود في تركيا وخمسين بالمئة من معدن التوريوم أيضاً أما من حيث مادة اليورانيوم فتعد تركيا من أكثر الدول التي توجد على أراضيها من حيث الكم والكيف أو تعد من أغنى دول العالم باليورانيوم.

طبعاً كان كوكهان يستطيع تحليل مضمون هذا الملف وبشكل جيد وعلى إقامة معادلات استراتيجية. وتذكر مباشرة خطاب الرئيس قبل عدة شهور من الآن. حيث أكدّ بأن على الولايات المتحدة الأمريكية أن تخفف من ارتباطها ببترول الشرق الأوسط وأن تبحث عن بدائل جديدة لاستخراج الطاقة كي تلبي احتياجاتها المتزايدة للطاقة.

ولهذا السبب كان عليها أن تغير الخريطة السياسية في الشرق الأوسط وفي أماكن أخرى من العالم. وهو الذي حصل على الدوام.

وبعد رد تكليف شركة (ألتايوم) بقليل طلبت الحكومة الأمريكية من الأتراك أن يسمحوا للقوات الأمريكية الدخول من تركيا وذلك قبل الحرب العراقية. ولكن مجلس الأمة التركي رفض الطلب الأميركي وردّ مساعدة الأمريكيين واستقرار الجيش الأمريكي في تركيا. واعتقد أن هذا التفكير بالبور قد اعتمل في أذهان الموجودين في البنتاغون (وزارة الدفاع الأمريكية) وذلك انتقاماً من الأتراك.

كانت أمريكا تريد المعادن الموجودة في تركيا.. كان البترول مادة استراتيجية ولكنها موجودة في عدد من دول العالم وبنسب متفاوتة.. أما البور والتوريوم فيعدان قوة المستقبل. وتركيا من هذه الزاوية مهمة إلى حد كبير ومنبع لهذه القوة الجديدة.

كانوا يريدون هذه الأراضي. ولكي يتوصلوا إلى هذا.. كانوا يريدون نظاماً وحكومة تابعة لهم.. حكومة يستطيعون من خلالها النفوذ بقدر ما يريدون وتكون الأناضول تابعة بكل معنى الكلمة لشركة (أورنيكورن).

وكانت هناك أسباب أخرى كثيرة في طلبهم لهذه الأراضي. كان يجب عليهم أن يركزوا قواتهم في أماكن إستراتيجية وغنية بسبب تصاعد قوة الصين وهذا كان يؤدي إلى بعض التوترات والتطورات العالمية.. ولهذا السبب.. كانت مصالح الشركات المعدنية الكبرى تتوحد مع الإستراتيجيات السياسية بشكل عام.

الشيء الذي قرأه في هذا الملف.. لم يكن محصوراً بالمعادن فقط كان قد انتظر كل هذا الوقت حتى تتوحد الأسباب حول نقطة واحدة.

وسبب وجود الملف بيد بوغيان ربما هو إدخال الأرمن إلى داخل هذه الخطة. وربما بعد أن تأخذ الولايات المتحدة الأمريكية الأراضي التي تحتاجها توزع الباقي. والشيء الأخر هو توزيع التواجد (البروتستانتي) في العالم.. كان هذا الأمر قد بدأ منذ عام ١٨١٨ وتقريباً مع تشكل الولايات المتحدة الأمريكية نفسها.. وكانت الجمعية التي تشكلت لأجل هذا العمل هي جمعية Amrikan board commissioners For misstons وكانت أرمينيا هي القاعدة الأساسية وبعد ذلك ربما يتم توزيع بقية الأراضي: قسم للدولة الكردية والقسم الثاني لأرمينيا والقسم الثالث للدولة اليونانية.

وكلما زاد في فحص وتدقيق الملف توصل إلى تفاصيل أدق وأصغر. وكانت جماعة فكرية – (تسمى سانتينل) قد قامت بفعاليات كبيرة في جنوب قبرص ربما كانت هذه الجمعية تأخذ دعماً من شركة (أورنيكرون). هذه المجموعات كانت تقوم بفاعليتها ضد تركيا فقط.

وفي اجتماع سري أقيم في الفاتيكان تقرر إرجاع الأناضول وهي أراضي مسيحية مقدسة بالنسبة إليهم.. إلى حاضنة المسيحية ثانية. وكان كوكهان يستخرج هذا الشيء من حادثتين تاريخيتين قرأهما من تقرير: أحدهما طرد كل العناصر غير المسيحية بعد حكم العرب الأمويين لمدة أربعمئة عام للأندلس. ومن الاجتماعات التي كانت تقام في الفاتيكان تحت اسم بيزنطا الجديدة.

كان الملف مليئاً بالاجتماعات التي كانت تقام واحدة إثر الأخرى. ومن عناصر مختلفة من البشر.

كانت الدول والهيئات الدينية واللوبيات متداخلة في هذا الملف وبحركة سريعة وقوية وبهمة كاسحة.. كانت هذه الأراضي ستتخلص من أيدي الأتراك البربر الوحشيين وتعود إلى أصحابها الحقيقيين وهم المسيحيون وفي هذا المجال ألم يقل الرئيس جورج بوش بعد أحداث الحادي عشر من أيلول: سنبدأ بالحروب الصليبية ثانية. أفغانستان والعراق وأخيراً تركيا.

ولكن الفرق الوحيد أن تركيا كانت سترتبط مباشرة بأمريكا.. بقي كوكهان طوال الليل قلقاً يروح ويجيء داخل الغرفة. ولكن عندما أحس بتعب في رجليه تمدد بعض الوقت ونام نومة قلقة وتعبة.

وكان يعرف بأن قدميه ستطآن أرض الوطن بعد غيبة دامت طويلاً حاملاً معه أخبار مستقبلية مدهشة.

السبت في ٢٧ كانون الثاني ٢٠٠٧

- أنقرة-

نزلت الطائرة التي أقلعت من بون إلى مطار (آسن بوغا) في الخامسة والربع من بعد الظهر. تم إنزال كوكهان من الباب الخلفي للطائرة وأخرج من المطار دون أن يمر إلى البحث والتدقيق.

كانوا قد أركبوه تاكسي سوداء من نوع مرسيدس. كان قد جلس بين شخصين قويين أحدهما حلق شعره حلاقة أميركية.

كانت شخصية (فرانك جونسال) قد أثرت على جسمه من حيث الترهل ولكنه كان واثقاً من نفسه أنه يستطيع أن يتغلب على هذين الشخصين دفعة واحدة.

لم يكن هذا الاستقبال كما توقعه استقبالاً بوجوه ضاحكة. كان المرافقان لا يتحدثان أبداً. كانت السيارة تسير على استقامة مدينة (أسكي شهير) وليست نحو أنقرة.

وأخيراً عندما دخلت السيارة طريقاً ترابية أحسَّ كوكهان بأن ثمة حالة غير عادية تجري.. يا ترى هل كانوا سيحققون معه لأنه تم كشف شخصيته؟ كان قد رأى الشيء الكثير بأن الدولة لا تكون وفيّة مع عملائها حتى ولا للطاقم الرمادي وذلك من خلال التجارب التي مرت معه على مدى هذه السنوات الطويلة.

وبالأصل فإن العملاء العاملين خارج البلد.. يعرفون أنهم معرضون للقتل أو الاغتيال في أية لحظة..

بعد سير مدة من الوقت وقفت السيارة أمام بناية وسط منطقة سهلية.. تشاهد عن بعد صومعة لتخزين القمح. أنزل كوكهان من السيارة وأدخل البناية مدفوعاً من الشخصين. وفي الوقت الذي كان يدخل من الباب وإذا بضربة قوية تنزل على رأسه من الخلف.. والشيء الأخير الذي كان يتذكره أنه كان يتدحرج نحو ظلام

عميق.

عندما عاد وعيه لاحظ أنه موجود داخل غرفة مملوءة بآلات معدنية صدئة كانت يداه ورجلاه قد شدتا بقوة إلى كرسي.

فكانت الغرفة ذات السقف العالي قد نوّرت بمصابيح صفراء. أما جدرانها كانت رطبة. ورائحة العفونة قد ملأت الجو. هذه الرطوبة كانت حالة غريبة بالنسبة إليه. لا المنطقة الجغرافيا الموجودة فيها ولا مكان الغرفة. يجب ألا يكون أثر للرطوبة هنا. يجب أن يكونوا تحت الأرض بعدة طبقات.

كان مرافقاه قد وقفا أمامه وكلاهما يضع نظارات سوداء على عينيه، عندما لاحظا أنه قد عاد إلى وعيه اقتربا منه وقلباه مع كرسيه على عكس وضعه وهكذا بقي كوكهان وجهاً لوجه أمام إنسان وجهه يشبه وردة ذابلة.

لم يكن الرجل ينظر إليه بدأ بقراءة ملفه متمتماً.

- "كوكهان بيرادغ" انتحل شخصية فرانك جونسال الفرنسي والذي انتقل من تركيا إلى التيبت وذلك منذ ستة عشر عاماً من الآن وهو في السادسة والثلاثين من عمره عضو في الطاقم الرمادي. وأخيراً رفع رأسه وقال: هل تعرف بأنه لم يبق أحد منكم.

كان الرجل يتحدث وكأنه يبصق. «قال شو... الطاقم الرمادي الم...»

كانت ثمة إفادة حقودة ترتسم على وجهه.. «الذهنية التي أنتجتكم أو أوجدتكم.. كانت عبثاً... لا شيء. ... هل محاربة الأعداء يكون بهذا الشكل.. هذه موضة قديمة جداً. شو يعني.. أقتل واحداً هنا وواحداً هناك. من العناصر الخطرة. وإذا ما تم القبض عليكم ماذا سيحصل؟ هل تعرفون مقدار الأخطار التي ستحدق بتركيا.. إذا ما تم القبض عليكم.. هذه فضيحة. ثم إن شخصيتك قد كشفت. ولكن يجب أن أشكرك. و بفضلك استطعت أن أقنع رؤسائي كي أمسحكم عن وجه الأرض. والآن يجب أن أبحث عن الباقي منكم ونفعل ما يجب أن نفعله.»

نظّف كوكهان حلقومه.

- «على الأغلب سآخذ رصاصة بدلاً من الشكر.. لكل ما قدمته من أجل

وطني».

- ضحك الرجل وقال:

- «على الأقل أنت واقعي».

هزَّ كوكهان كتفه وقال:

- «اعمل اللي بدك. ولكن اسمعني قبل كل شيء. من غير المعقول أن تكون رئيساً لهذه الأسود. كنت تستطيع قتلي دون أن تحضرني إلى هنا. وبما أنك جئت إلى هنا. أوصل معلومة مهمة إلى رؤسائك.»

سكت الرجل حتى إشعال سيجارته وبعد أن سند ساعده إلى الطاولة قال وهو ينفخ الدخان: «أشكرك لأنك فكرت بي... تفضل تحدث.. احكِ.»

في الوقت الذي كان فيه / كوكهان/ يذبل وجهه من الألم الشديد الذي كان يحسُ به على أثر الضربة على رأسه قال: «أنا أفكر بوطني وشعبي. أحضرت معي ملفاً مهماً. إذا دُقق على أكمل وجه ستتوصلون إلى النتيجة نفسها التي توصلت إليها شخصياً.»

- أمريكا ستهاجم تركيا في أقرب وقت

نظر الرجل برهة إلى وجه كوكهان بشكل جدي. ظنَّ كوكهان خلال هذه الفترة القصيرة أن كلامه سيسمع وسيبحث فيه بشكل جدي إلا أنه تفاجأ بقهقهة تخرج من الرجل وهو يقول:

- والحقيقة كنت على شوق مما سأسمعه منك. إلا أنني ما كنت أتصور أن الأمر سيكون بهذا القدر! يا حيف عليك.. «قال الرجل ذلك وضحك.. وكلما زاد في الضحك كان لا يقدر أن يمسك نفسه، قام على رجليه وبدأ بضرب صدر رجاله الذين لم يبتسموا بعد»

قال كوكهان: أنا لا أقول هذه الكلمات كي أُخلص نفسي أو أفوز ببعض الوقت ... إذا أردت اقتلني الآن. ولكن دقق الملف جيداً.

إن للأمريكيين خططاً بالجملة والمفرق من أجل استخراج البور والنوريوم واليورانيوم. وإذا نظرت إلى الاتفاقية بنصها الإنكليزي تجد أنهم باعوا هذه المعادن إلى شركة /أونيكرون/ سلفاً. والاتفاقية أو العقد سارٍ اعتباراً من شهر كانون

الأول.

قال الرجل وهو يضحك: «دع هذا الهراء ولكْ يا رجل.. ولكي ترتاح سأعطي الملف لرؤسائي. ولكن أعتقد أنك قد نسيت بأن الولايات المتحدة الأمريكية حليفتنا منذ وقت طويل... والواضح أنك قد أكلت قسماً من دماغك وأنت تعيش منتحلاً غير شخصيتك وخارج البلد. »

- إذا كان الجماعة يريدون المعدن.. ألا يقدرون على حل هذه المسألة بإعطاء بعض الرشاوى لهذا وذاك؟»

ثم أخذ الوضع الجدي فجأة. وأشار إلى رجاله بيده:

- «المهم... لنختم هذه الكوميديا. كنت تنتظر الشكر لما فعلته من أجل وطنك.. خذ... شكراً يا أسدي »

أخرج أحد الرجال مسدساً من تحت إبطه من طراز روجر ووضعه على رأس كوكهان.. وابتعد الاثنان الآخران كيلا يأخذا نصيبهما من /طراطيش/ الدم.

أغمض كوكهان عينيه وهو يتلو الشهادة... في البداية كان سيسمع صوت انفجار السلاح. يا ترى هل كان سيموت في اللحظة نفسها ؟.

ولكنه سمع صوت تحطم الباب، صوت انفجار السلاح الذي كان سيمزق رأسه. فتح كوكهان عينيه والتفت نحو جهة الباب فتعرف إلى الذئب مباشرة مع إنه كان قد صار مسناً ويحمل بستوناً في يده.

قال الذئب مبتسماً: «كنا على وشك التأخير». وكان خلفه ثلاثة شباب يلبسون الأسود ويحملون الرشاشات الأتوماتيكية من طراز أوزي الإسرائيلية. وعلى وجوههم أقنعة سوداء. الرجل الذي كان يضع السلاح على شدق كوكهان أنزله على الأرض وربط يديه خلف رقبته مباشرة وفعل الآخرون ما فعله الأول ولكن بعد تردد قصير. ولكن رئيسهم بقي جامداً وكأنه يريد أن يسحب سلاحه من خلف ظهره

أشار الذئب إلى سلاحه ببستونه. وقال:

«هل تعرف يا جنكيز.. كل ما أريده وأتمناه أن تسحب سلاحك نحونا وتدافع عن نفسك. وهكذا تعطينا الحق كي نملأ جسمك المليء بالسم إلى أشلاء

مبعثرة!»

كان كوكهان يسمع صوت الرجل لأول مرة. عندما أنهى الذئب كلامه.. ابتسم الرجل... ثم أمسك السلاح من قبضته ووضعه على الأرض وقال: «للمرة الثانية يا أفندم».

أكمل الذئب كلامه: «هل نعرف أنك أكبر خيبة أمل بالنسبة إليّ كان عليّ أن أقتلك في ذلك اليوم وأقطعك إلى أشلاء. وأرمي لحمك للخنازير».

جاء اثنان من طاقم الذئب إلى عند كوكهان.. وفكا /الكلبشة/

من يده، وأمسكا به وأوقفاه وأسنداه عند المشي.

وخرجوا جميعاً من باب البناية. وعندما ركبوا/ الجيب الوكسن/.

أشار الذئب بإيماءة من يده - إن السائق ليس منهم وطلب منه عدم ذكر أي شيء.

دخلت المجموعة إلى إحدى البنايات المؤلفة من طابقين في /ماماق/ (منطقة من مناطق أنقرة)... قريباً من منتصف الليل. وحتى وصولهم إلى هنا كانوا قد غيروا سيارتين.

عندما عاد كوكهان من التواليت وجد أنهما قد بقيا بمفردهما هو والذئب العجوز.

«لقد أرسلت الشباب.. لا تقلق نحن في أمان» في الوقت الذي كان فيه الذئب يجهّز مائدة الطعام كان يستند إلى عكازه من جهة ومن جهة أخرى يضع الصحون والملاعق والشوكات والجبنة والزيتون على المائدة.

رفع عينيه للحظة ونظر إلى كوكهان بنظرات مملوءة بالأفكار. وقال:

- «كنت أُحضر لك طعام الإفطار. ولكن لم أتذكر إذا كنت تحب ذلك أم لا. هل تريد ذلك؟».

ابتسم كوكهان. منذ سنوات طويلة لم يكن قد أفطر فطوراً على النمط التركي. وقال: «من رابع المستحيلات أن أقول لا يا سيدي. الشاي/ إكرك عجم/ كما يحبه. والجبنة والزيتون مناسبان للذوق كان كوكهان يفكر بأن وقت فتح الحديث قد جاء. وفي الوقت الذي كان فيه يرتشف شايه قال:» «ماذا يحصل في

أنقرة يا سيدي. وما هذه الأحداث التي صارت؟».

قال الذئب: «الأمور كما هي يا كوكهان... وكما يحصل في كل مرة يحصل الآن أيضاً.. وبما أنك في مهمة خارج الوطن وعلى مدى سنوات طويلة. فإنك لا تعرف شيئاً.. هذا البلد لا يحكمه /دولة عميقة/ واحدة.. ولا نوع واحد من الاستخبارات. إنهم يتصارعون فيما بينهم على الدوام.. هذا الرجل أبو الوجه / ذبول الزهر/ أقصد/ جنكيز/.. وضع الأمريكيين خلف ظهره.. يستعرض عضلاته ويقويها. صار مخبراً للحكومة بين الاستخبارات. وكما هو الحال.. يظهر واحد مثله في كل مرحلة.»

- أتمنى ألا يصيبك مكروه لأنك خلصتني!.

ضحك الذئب وتذكر الرجل الذي كان في المعسكر وقال:

- "إن ملوك الاستخبارات يشبهون ساحرهم الملك الذي لا يفهم من السحر شيئاً. في الوقت الذي يبدأ فيه السحرة بالصراع فيما بينهم. لا ينظرون إلى صاحب الحق. في صراع الاستخبارات لا تكون الجهة المحقة دائماً على حق عند الكبار. يُسمع الطرف الذي يستعمل المكر والخبث والدهاء ويرمون بالحق خارج الحلبة."

كان كوكهان يفكر بموضوع الملف وخطورة الأمريكيين. كيف سيفتحها للذئب.. فجأة رنَّ الهاتف النقال للرجل العجوز ففتحه.

- «ألو انتظر دقيقة واحدة.» قال ذلك والتفت نحو كوكهان وقال:

- «عندما تنتهي من طعامك.. احمل فنجان شايك وتعال إلى غرفة الجلوس. اترك المائدة كما هي. غداً ستأتي المرأة المنظفة» وأشار برأسه إلى الهاتف وقال:

- «موضوع مهم يجب أن أتحدث بسرعة» عندما دخل كوكهان إلى غرفة الجلوس وهو يحمل فنجان الشاي. كان الرجل العجوز قد أشعل غليونه. وثبَّت نظراته نحو الفراغ.

عندما لاحظ مجيئه ابتسم، وقال:

«أين كنت طيلة هذا الوقت؟ لا أظنك كنت جائعاً بهذا القدر؟.»

«إنها حسرة السنوات الطويلة يا سيدي... كنت متزوجاً من مخلوقة لا تسألني عنها. بقيت في حسرة إلى مثل هذه الأطعمة».

«قلت لك لا تلملم شيئاً عن المائدة وفعلت ذلك أليس كذلك؟ اجلس هنا واشرح لي مسألتك».

كان كوكهان قد رأى الذئب آخر مرة أمام الغرفة التي حُبسَ فيها الفرنسي فرانك جونسال. في ذلك اليوم لم يكن وجهه يضحك. وكان قد قال له في ذلك اليوم. «لن نخرج من هذه الغرفة لمدة ثلاثة شهور». الرجل الذي في الداخل فرنسي. ستعرف كل شيء عنه... وستحفظه عن ظهر قلب.»

- «سمعاً وطاعة يا سيدي.. لكن هل من نقطة يجب أن أحفظها وأتعلمها أكثر من كل شيء؟».

- «شو ولَكْ حبيبي أنت مجنون؟ الم اقل لك كل شيء. أنت ستكون ذلك الرجل يا ابني... هيا لنشوفك.»

كان كوكهان قد تعلم كل شيء.. كانت عائلة الرجل قد أصيبت بحادثة سير وماتت جميعاً في العام الماضي... وبقي له إرثٌ معقولٌ حتى لو لم يكن كثيراً. كان قد أخذ إجازة لمدة عام من المدرسة . وقرر الذهاب إلى /التيبت/. ولكن عندما جاء إلى تركيا وفي ليلته الثانية... اشتراك في شجار ليلي مع بعض الأشخاص.. ووجد نفسه هنا. كان الرجل يظن إنه قد حصل خطأً ما.

بعد مرور ثلاثةِ أشهر.. كانوا قد طلبوا من كوكهان قتل الرجل... منذ وقت طويل لم يكن يتذكر فرانك جونسال الحقيقي... تذكر فجأة الأوقات التي قضوها. كان شاباً ذكياً ومازحاً.

هل نبدأ من فرانك جونسال يا سيدي؟ أم من الحادثة الأخيرة؟

أفرغ الذئب الدخان السماوي من أعماقه.. كان بريق عينيه فقط يلمعُ من داخل ذلك الدخان وقال: «لا داعي لذاك الرجل.. أخبرني عن مهمتك وكيف اكتشفوا شخصيتك؟»

بدأ كوكهان بالرسالة التي جاءته من OTTO أوتو/ وشرح له كل شيء حتى محادثته الهاتفية مع /روبوس/.

بقي الذئب صامتاً لبعض الوقت وأخيراً نطق: "غريب؟ وربما ليست هذه قوة من الخارج.. روبوس الجديد.. هو قريب من مجموعة جنكيز.. والرجل الذي قتلته هو

تحت المراقبة، يا ترى هل فعلوا كل هذا الشيء لتصفية الطاقم الرمادي؟"

أحسَّ ولأول مرة بأنه يصير هدفاً للصراعات الداخلية بين الاستخبارات وقال متعجباً: "العمى... والله معقول.. طيب وماذا يريدون من الطاقم الرمادي؟".

" هدفهم ليس الطاقم الرمادي.. نحن.. المجموعة التي أنشأت هذا الطاقم. إذا ما فشلت هذه المجموعة أو تداخلت مع فضيحة أو شيء من هذا القبيل. معناه.. تظل بلا عون ولا مساعدة.

- «إذا كان الأمر كما تقول يا سيدي.. فقد نجحوا في مسعاهم». والرجل المسمى جنكيز.. يقول بأنه أقنع قادته لمسح الطاقم الرمادي كلياً وجلبهم إلى تركيا واحداً بعد الآخر والقضاء عليهم. يعني هو الذي فجرَّ سيارتي وكشف شخصيتي وأعادني إلى هنا.

ضحك الذئب وقال: "نعم أنت مصيب فيما تقوله ولكننا كشفنا ألاعيبهم. قد نصبوا أفخاخاً لعملائنا نحن سنضرب هذا الفخ على وجوههم وهذا معناه. بأنهم يقضون على أنفسهم.. ومع هذا هناك سؤال آخر...

بقي كوكهان صامتاً حتى يكمل الذئب حديثه أو ما الذي يريد قوله:

- "كما ترى هم حاولوا القضاء أو التخلص منك بشيء من القلق والفوضى"

كان رأسه يعمل كالحاسوب. قام من مكانه وبدأ السير وهو يرفع بستونه نحو الهواء.. "يجب أن يكون معك دليلٌ ضدهم. على أنهم يسيرون خلف عمل ما، وقف لقد وجدته الرسالة..؟

- الرسالة التي أَمَرَتْكَ... ألم تقل الرسالة التي وصلتك من /أوتو/؟"

كان كوكهان قد فهم الرابطة حيث قال: "نعم.. كان روبوس قد تحدث عن الترشح داخل النظام؟"

- "اترك هذا الأمر. ليس سهلاً. هل كنت قد أخذت مخرج رسالة أُوتو"

- " نعم... هذه عملية طبيعية.. نتركها عندنا حتى إتمام المهمة ثم نفنيها... ولكن في هذه المرة بقيت داخل الملف الذي معي".

هذا هو الدليل الذي بأيدينا... المهمة المزورة جاءتك عن طريق النظام أو

المجموعة التي يحركها /روبوس/. لومت لما اكتشفت هذه العملية.. تمام يا ابني .. تمام.."

بدأ الذئب بالاتصالات الهاتفية دون أن يعبأ بالوقت. حيث كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل. كان يتحدث ويشرح بانفعال وصوت قوي... دامت المحادثة أكثر من ساعتين.

وعندما عاد قال له كوكهان: "هناك مسألة أكثر أهمية من كل هذه يا سيدي.. أكثر أهمية بعشرات بل بمئات المرات."

في هذه المرة. دامت محادثة كوكهان أكثر بكثير واستمع إليه الرجل المسن دون أن يقاطعه.

٣ شباط ٢٠٠٧

مكان غير معروف في أنقرة

في الوقت الذي سمع فيه "كوكهان" صوت سيارة تقف بسرعة... تحرك بسرعة وفتح بأمان الرشاش الأوزي.. كان كوكهان داخل "براكة" خشبية مبنية إلى جانب "مزيلة " المدينة...

وقفت السيارة وفتح بابها الأمامي ونزل منها أحدهم.. ثم تحركت ثانية وابتعدت.. كان الظل القادم هو الذئب.. يسير متكئاً على عكازه.

كان الرجل العجوز مضطرباً... على عكس ما كان عليه قبل أيام، كانت ثقته بنفسه كبيرة وكل تصرفاته كانت تدل على ذلك.. عندما أغلق الباب من خلفه... كان ينظر إلى داخل الظلام بشيء من الخوف والاضطراب. وقال:

"أصبحنا وكأننا نحمل الوباء يا كوكهان".

"الملف في يدنا.. ألا يرونه؟"

"نعم إنهم ينظرون إليه ولا يرون شيئاً.. إنهم لا يرون الأشياء كما نراها نحن. الأمريكيون يضغطون علينا في كل مكان... وثمةَ رشاوى ضخمة تدور في الأوساط. يتحدثون. على أنهم قد دفعوا لرئيس الدائرة أكثر من خمسين مليون دولار. وفتحوا لأولاده منحاً للدراسة في أمريكا.. وتحملوا كل المصاريف... يعطون الرشاوي... وإذا لم يحدث أي شيء يبدؤون بالتهديد والتخويف سيخفون الملف يا كوكهان.. ويتحدثون إن مستشار الحكومة سيغير من مضمونه.

جلس كوكهان فوق مصطبة قذرة.. في الليلة الماضية كانوا قد جاؤوا إلى هنا بعد اتصال هاتفي من أحدهم.. نزلت أكتافهم وكأنهم قد خسروا كل شيء.

قال الذئب: "لقد سحبوا طاقمنا إلى /القازاق/ وربا وأحالوهم إلى التقاعد خلال هذين اليومين".

قال كوكهان مستسلماً لضعفه: "نعم إن هدفنا ومرامينا لن تُسمع"

قال الذئب متكئاً على بستونه: "إذا بدك الصراحة عرضوا عليَّ الرشوة فقط..

وتقاعد مريح في الجنوب.. حتى أنهم هددوا بقتل ابنتي وحفيدي.

كان كوكهان قد دهش من كلمات معلمه. لأنه لم يكن يتوقع أن يكون للذئب عائلة.

سأله كوكهان بصوت مرتجف: "وماذا ستفعل؟"

ضحك الذئب: "لا تخف.. لن أبيعك. هل تتذكر ماذا حصل في اليوم الأول من المعسكر

- الكلاب أليس كذلك؟

"نعم إنهم لا يعرفونني عن حق لن أرضخ لتهديداتهم. وبدلاً من أن أبيع وطني وشعبي أقتل ابنتي وحفيدي بيدي هذه.. ولكن يجب أن نجد حلاً.. لا معنى للمقاومة دون حل.

قال كوكهان. "إن مشكلتك مهمة جداً.. أمريكا ستهاجم تركيا.. وفي وقت قصير جداً.. ولكن لا نجد حلاً"

"حتى ولو أقنعناهم بذلك.. ماذا تفعل تركيا أمام أمريكا.؟ مستحيل أن يتحمل جيشنا الحرب التقليدية وبالأسلحة التقليدية.

ومن ناحية الاستخبارات أيضاً.. بالأصل هم في داخلنا. للإعلام والحكومة والجيش والاقتصاد. إنهم متدخلون في كل مكان".

حمل كوكهان الدفتر الذي يكتب عليه أفكاره وملاحظاته وقال:

"بالأصل انا افكر في موضوع ما يا سيدي.. شيء خطر.. الدولة لا تستطيع أن تقوم به ولكن تستطيع أية مجموعة أن تقوم بذلك."

تراجع الذئب نحو الخلف (أي أسند ظهره) وقال:

"هات لنشوف.. ماذا تنتظر؟ يجب أن نخرج من هذه /البراكة/ الخشبية بشيء ما. قبل أن يرمونا بصاروخ"

أشار كوكهان إلى الرسم الذي رسمه على الورقة "هل تستطيع إيجاد هذا الشيء؟"

نظر الذئب داخل هذا الظلام إلى الورقة ثم إلى وجه كوكهان. كانت الرسمة تشبه جسم طفل وفوقها صاروخ وقال:

"أستطيع أن أستعيرها من أحدهم ولكن كيف نستطيع الاستفادة منها ونحن هنا؟ إذا استعملناها... هم أيضاً يستعملونها... وتكون هذه نهايتنا جميعاً".

ابتسم كو كهان بمرارة وقال: "لن تستعملها هنا بقدر الإمكان. وإذا بدك الصراحة.. ارفع الصاروخ أيضاً لا يلزمنا سوى الرأس والآلية التي تفجرها.

بقيا لمدة ساعات طويلة حتى توصلوا إلى خطة. كان وقتهما قصيراً وإذا لم ينجحا بهذه المهمة.. معناه على الدنيا السلام وعلى تركيا السلام وعلى الشعب التركي في الأناضول السلام.

القسم الثالث

القوى الشعبية

٢٣ أيار ٢٠٠٧ الساعة ١٩,٠٠

بيرام باشا . إستانبول

بعد أن أخذ عمر السيجارة الأخيرة من علبة سجائره.. لفها ومزّقها ورماها.. كانت ثمة سلة للنفايات بعد عدة أمتار. ولكن أفكاره لم تتركه يتذكر ذلك. كان يبحث عن صيد ثمين.. امرأة ضعيفة لا تستطيع المقاومة.. حتى ينشل محفظتها ويهرب.

كان قد خرج من السجن منذ ساعتين فقط. بعد أن حكم عليه ثلاثة شهور سجن بجريمة الانتشال.

كان قد قرر قبل ذهابه إلى بيته في / غون غوران/ أن يحصل على بعض الليرات لتعينه بضعة أيام.

كان يراقب ويزن بنظراته المجربة النساء اللواتي يرحن ويجئن أمامه. الأكثريات منهن. كن قد شددن محفظاتهن تحت إبطهن بقوة. .

كانت سيجارته على وشك أن تنتهي. لم يبق منها سوى سحبتين أو ثلاث.. في هذه اللحظة تماماً ركّز نظراته إلى امرأتين كانتا تمران من أمامه... إحداهن مغطاة الرأس والأخرى متبرجة وشقراء.. كلتاهما في أواسط عمرها. فكرٌ في نفسه:

"لقد خرجتا من /الكوافير/ يجب أن يكون ثمة عرس في هذه الليلة.. أو /ليلة الحنّة/.. كانتا قد زينتا وبهرجتا وجهزتا نفسهما لهذه الليلة.

تمتم بهمس: "أزواجهما يعطيانهما مالاً وهما ترميانه هنا وهناك.. تعطيانه لهذا

وذاك".

كان يفعل هذا الشيء دائماً. يجد الفريسة أولاً ويلاقي العذر لنفسه ثانياً. وكان يقنع نفسه بذلك.

ولهذا السبب يجب أن ينتشلوا.. هل كانت أم عمر قد ذهبت في أحد الأيام إلى الكوافير؟ كانت المسكينة ترعى زوجها السكير على الدوام تتحمل قساوته. وكانت تحاول جاهدة إخفاء وستر وادخار بعض الليرات سراً. كي تعتني بابنها عمر وهارون وتجعلهما يكبران.

بدأ بتعقب المرأتين واضعاً مسافة بينه وبينهما. كانت الشقراء المتبرجة لا تعبأ بمحفظتها أما الأخرى أم الغطاء فكانت تحمل عدداً من الأساور بمعصمها.

بعد أن عيَّن هدفه تماماً.. بدأ بمراقبة الأجواء من حوله.

كان لا يريد أن يُقبض عليه ثانية بعد سرق المحفظة. ومن حسن حظه كان الشارع فارغاً.. حتى مرور السيارات كان قد خفَّ. بعد مسافة قليلة كانت ثمة أربعة مفارق. إذا سرق المحفظة هناك. يمكن أن ينتقل إلى الطرف المقابل ويختفي عن الأنظار.

بدأ بتقصير المسافة بينه وبين المرأتين.

في الوقت الذي كان يمر فيه أمام مقهى فيه حديقة تطرقت إلى أذنيه صوت رئيس الوزراء المنفعل. وعندما رفع رأسه عرف سبب عدم وجود أحد في الشوارع. كان المقهى مملوءاً حتى آخره. والشعب ينظر إلى التلفاز باضطراب وحزن شديدين.

قال رئيس الوزراء: "بالنسبة للأخبار الواردة إلينا بأن الطائرات الأمريكية على وشك أن تضرب جميع أنحاء تركيا.. كونوا مع الله ولا تبالوا.. وعلى مدى وجودنا على قيد الحياة.. لن يبقى جندي معادٍ على قيد الحياة.

ظن عمر بأنه سمع خطأ.. كان قد نسي النساء للحظة. وعندما أدار رأسه.. كانتا قد ركبتا السرفيس هزَّ يده بقوة وهو يقول:

"نوه.. ولكْ" قال ذلك ودخل إلى المقهى

كانت تصريحات رئيس الوزراء قد انتهت لتوه... كانت الفوضى الموجودة في المكان الذي أقام فيه رئيس الوزراء مؤتمره الصحفي تُعرض على الشاشة.. كان

الجميع يتحدثون مع بعضهم مرتبكين لا يدرون ماذا يفعلون. اقترب عمر من رجل طويل القامة كان يقف في آخر المقهى.

وقال له: "ما هذا الشيء الحاصل يا أستاذ؟ ماذا يحصل؟".

نظر إليه الرجل بداية من راسه حتى أخمص قدميه." وأين كنت الم تعلم إن الحرب قد بدأت؟".

كان عمر قد دُهش: "من نحن؟! هل تركيا دخلت الحرب؟ كان قد استمع إلى الأخبار آخر مرة ظهر الأمس. كانت الأخبار البارحة تتحدث عن توتر كبير بين أمريكا وسوريا.

قال الرجل: "نعم نحن.. ومع أمريكا أيضاً.. يقولون: إنهم قد هاجموا جنودنا وقذفوا فوقهم قنابل كبيرة ومات منهم الآلاف".

أسند عمر نفسه إلى الجوار وغارت عيناه. كان عدد الموجودين في المقهى قد بدأ بالتناقص.. كان الجميع قد تحركوا بسرعة كي يكونوا إلى جانب عائلاتهم وأقاربهم.. جلس هناك نصف ساعة وتعقب الأخبار الواردة تباعاً.

وبعد أن شرب شايه قال للقهواتي وهو يدفع له ثمن الشاي: "هل تعرف أين تقع أقرب شعبة عسكرية يا أستاذ؟"

٢٣ أيار ٢٠٠٧ . الساعة ١٩,٠٠

باي أوغلو. إستانبول

كانت أمل تسير في شارع الاستقلال دون أن تعبأ بالحياة التي كانت تسيل أو دون أن تحسّ بالحياة التي كانت تسيل في أطرافها متجهة نحو منزلها الكائن في حي /غلطة/. كان ثمة أنين يمسح أذنيها.. كلمات الطبيب هي التي كانت تنعكس على شكل موجات في مطبات أذنيها:

"هذا سرطان رئة. مع الأسف ومن أسوأ الأنواع.. ومنتشر إلى حد كبير".

كانت أمل لا تدخن ولا تسمح لأحد بالتدخين عندها.

كانت قد ولدت وعاشت وكبرت في ألمانيا ومنذ عام جاءت إلى إستانبول. وجدت عملاً بعد بحث طويل في إحدى شركات الألبسة. ولأنها كانت تتقن الألمانية والإنكليزية.. وضعتها في مكان تستقبل فيه المشترين القادمين من ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية..

كانت سعيدة في حياتها. والآن أصابها هذا المرض في الوقت الذي كانت فيه على وشك أن تحصل على الحياة التي تريدها وتتمناها.

عندما كانت تدخل إلى الشارع الذي يقع منزلها فيه.. نظرت إلى أطرافها... كل شيء كما هو.. لم يتغير فيه أي شيء.. وكأنه يجب أن يتغير. يجب أن يكون رد فعل الدنيا كبيراً. لأن الحياة كانت ستتركها.. قبل أن تصعد إلى منزلها دخلت إلى البقال الكائن في البناية نفسها واشترت ماء وخبزاً ومعكرونة.. كان البقال في حالة غير طبيعية... كانت قد عرّفت نفسها إليه قبل عام.. تحت اسم /صوفيا/ لماذا كان هذا الإنسان كئيباً ومتجهم الوجه ومتوتراً؟.

قال لها: "إذا أردت أن تشتري أشياء أخرى... قبل أن نغلق المحل".

عندما تعرّف إليها قبل عام ظنّها غريبة... أجنبية من شعرها الأشقر ومن تركيتها الركيكة وعينيها الزرقاوين.. ابتسمت أمل للحظة وجيزة. لم تكن قد

فهمت ما قصده /سيفو/. ولكنها أخذت بضعة أشياء أخرى بطريقة أو بحركة أتوماتيكية.. وأسرعت بخطوات مسرعة نحو منزلها.

وبعد أن رمت نفسها داخل المنزل سحبت /أوهاً/ طويلاً. ثم وضعت الأشياء في المطبخ وفتحت التلفاز. كانت ثمة مشاهد غير مفهومة كانوا يعرضون مكاناً يخرج منه الدخان بكثافة... والكاميرات تصور بشكل حر ومباشر.. تنتقل من هنا إلى هناك وتصور أناساً جالسين مجروحين في وجوههم وأجسامهم واضعين أيديهم على وجوههم... كانت الصور تُعرض دون أي تعليق.. سُحبت دماء إمل من جسمها.. ربما بدأت تحصل أشياء لا تعرفها. حاولت جاهدة أن تتعرف إلى مكان الصور المعروضة. ولكن من رابع المستحيلات لم تقدر على ذلك. وكأن ثمة بناية كبيرة كانت قد ضُربت. والناس من أطرافها يبكون ويولولون ويجرون نحو كل الجهات.

أعزائي المشاهدين.. الآن تشاهدون إخراج الجرحى من بناية وزارة الداخلية التي ضُربت.. والحريق الذي خرج بسبب انفجار القنبلة وسط البناية لم تتم السيطرة عليه بعد.

كانت أمل قد جمدت في أرضها وهي واقفة على رجليها. تنظر إلى المشاهد التلفازية وهي تدور ضمن الغرفة ولسانها قد جفَّ من اللعاب.

كانت تقول في نفسها. "هل يقولون وزارة الداخلية..؟ في أي بلد يا ترى؟

"البناية... نعم الآن تسمعون الأصوات أعزائي المشاهدين هذه الأصوات هي أصوات الطائرات. ولكن لا نستطيع أن نتعرف إليها من هنا... ربما هي الطائرات الأمريكية التي خرجت للقصف.. وربما هي طائراتنا التي بدأت تدافع عن أجوائنا"

فكرت في نفسها: يا إلهي من غير المعقول أن تكون الصور التي أراها وأسمعها حقيقية. كانت تعرف ومنذ أيام أنه ثمة توتر كبير بين أمريكا وسوريا. ولكن منذ متى كانت تركيا قد دخلت الحرب؟

كل شيء نوع من السخرية.. مزح مثل الكذب.. بعد سماع خبر مرضها جاءها هذا الخبر كالصاعقة.. ثقيلاً..

اقتربت من الزجاج ونظرت نحو كل الاتجاهات. وكأن كل شيء كان يتغير

ثانية بعد أخرى.. كان الناس يسيرون بسرعة في الشارع متجهين إلى منازلهم والنساء كذلك.. كن يجرين بخطوات كبيرة وهنَّ يحملن الأكياس.. على الأغلب كن يتجهن إلى بيوتهن. رأت ثمة توتراً واضطراباً قد لفّ وجوه الناس كلهم. كانت وحيدة داخل هذا البلد الكبير.

رنَّ الهاتف.. ارتجت أمل.. خافت. رفعت السماعة بانفعال كبير. كان والدها يتصل من ألمانيا.

- "ابنتي أمل اتركي البلد وارجعي فوراً إلى هنا الأمور سيئة جداً"

في تلك اللحظة فرَّغت أمل أعصابها المتوترة على مدى ساعات طويلة. وبدأت تبكي بقوة.

"اهدئي يا ابنتي. أنا لا أستطيع الذهاب إلى هناك.. رجاءً يا ابنتي اذهبي إلى المطار واصعدي إلى أول طائرة قادمة إلى هنا".

- "أعتقد بأنني لا أقدر على فعل هذا الشيء يا أبي .

كان صوتها يرتجف.. حتى أن والدها كان قد تأثر من موقف ابنته حيث بدأ بالبكاء أيضاً.. كان المنزل في ألمانيا قد انقلب رأساً على عقب. كانت أمل تستطيع سماع صوت أمها وأخيها.

صرخت بقوة. "رجاءً اسكتوا.. رجاءً" وألقت السماعة من يدها. وخرّت على ركبتيها وهي ترتجف وأخذت رأسها بين يديها. كانت سماعة الهاتف بعيدة عنها بعض الشيء. ولكنها كانت تسمع الأصوات الصادرة عنها. كان والدها يصرخ على الدوام.

تداخل شيء آخر إلى هذه المعمعة الكئيبة.. حيث بدأت صفارات الإنذار تدوي.. كانت صفارات الإنذار.. تنذر الناس بهجمة محتملة على الكلية الحربية.. ومراكز الإطفاء.

كان والدها قد وقع في عملية نفسية حرجة لبعض الوقت. انقطعت الأصوات الصادرة عن الهاتف في هذه الأثناء.

كانت أمل قد توقفت عن البكاء.. كان الجميع يحاولون فهم مغزى هذا الصوت الجديد الذي سمعوه. كانت أصوات صافرات الإنذار تدوي وتتصاعد قوة

وتنزل وتمتلئ في أذانهم.. قامت أمل عن الأرض واتجهت إلى زجاج النافذة. كانت الشوارع قد بدأت بالتخبط والاضطراب.. والمرور على وشك أن يتوقف.. والناس مثل المجانين كانوا لا يدرون إلى أية جهة يذهبون.. فجأة تذكرت الهاتف رفعت السماعة بهدوء. "أنا بخير لا تحزنوا من أجلي". كان صوتها قوياً أكبر من حقيقته.. لم تقل شيئاً آخر.. كانت تحس بأنها لن تستطيع الخروج من البلد حتى ولو ذهبت إلى المطار.

والأغرب من هذا.. لم تكن أمينة من طلبها هذا "خروجها من البلد" بالأصل لم تكن تريد الخروج من هذه المدينة.. الهروب.. كان بلدها ومدينتها تحت خطر الفناء مثلها تماماً.

في هذه المرة لم تكن وحيدة أحست بأنها تكاملت وتوحدت مع مدينتها وبلدها وشعبها.. كلهم صاروا قطعة واحدة.

أحست بالطاقة التي كانت تتماوج في دمها.. وانتشرت إلى عموم جسدها. تحدثت بعض الجمل الخفيفة مع أبيها كي تسكن من روعه. وأغلقت الهاتف.. تذكرت كلمة ووعدت نفسها:

- ستكون قويةً... كما هي الآن.. يجب أن تكون موجودة حاضرة على صفحات الحياة مهما حصل. وكانت جاهزة للدخول في أية معركة مع أي شيء يبعدها عن وعدها وقوتها.

٢٣ أيار ٢٠٠٧ . الساعة ٢٣,٥

. جبال طوروس .

كان وجه السماء قد تمزّق إلى عدد كبير من الخطوط البيضاء من جراء الطيور العملاقة ذات الثمانية محركات من طراز /B – 52/ .. كانت هذه الطائرات تمرُ من سماء المنطقة ومن عدة جهات. ولكن لم يكن أحد يعرف إلى أين تذهب. وكان جنود الكتيبة الأولى التابعة للواء الكوماندو الخاص المتمركزة في /قيصري/ **

كان هؤلاء الجنود قد تركوا قاعدتهم وانتشروا على سفوح الجبال القريبة وذلك بعد بدء الغارات الجوية الأمريكية بوقت قصير. وبما أنهم لم يأخذوا معهم مهمات تكفيهم.. فقد بقوا مختفين لبعض الوقت.. ولحسن حظهم كانت إحدى الملاجئ السرية الخاصة التي جهزها الجيش التركي لمثل هذه الحالات الاضطرارية.. قريبة منهم.

كان قائد الكتيبة قد انتظر أمراً من رئيس الأركان العامة. وعند تبلغ الأمر أسرع إلى الملجأ السري مباشرة وحمل كل محتوياته من أسلحة ثقيلة وعدد ومهمات إلى الشاحنات.

ثم بعد ذلك خرجوا وبشكل سريع جداً وسري جداً واتجهوا نحو المنطقة أو المكان الذي طلب منهم الذهاب إليه. كانت هذه الرحلة قد دامت من خمس إلى ست ساعات. وفي نقطة معينة تركوا السيارات وأخذوا وضعية الحرب.. وجهزوا مواقع بسرعة حتى أنهم تسابقوا مع الزمن... كان الوقت مهماً جداً بالنسبة إليهم.. لأن الهجوم الأمريكي كان قد بدأ في وقت لم يكن أحد ينتظره. وكذلك كانت سريعة بشكل مثير. وغير متوقع.. كانوا مجبرين على محاربة الطرفين. الزمن والعدو.

** ((مدينة في وسط الأناضول وهي مدينة صناعية.. مدينة وزير الخارجية التركي عبد الله غول ـــ (المترجم))

كان الأمر الذي أخذوه هو منع المدرعات الأمريكية المرور من ممرات جبال طوروس. لم يكونوا يستطيعون الحركة بحرية. لأن من أولى مهمات الطائرات الأمريكية ضرب الوحدات الميكانيكية قبل كل شيء. وإذا فعلوا هذا الشيء أي أظهروا أنفسهم كما فعلت الوحدات الأخرى. كانت الطائرات الأمريكية ستضربهم حتماً وبشكل كثيف. نعم كانت الكتيبة الأولى من اللواء الخاص المتمركزة في قيصري. قد أخذت مهمة منع الأمريكيين المرور من بين ممرات جبال طوروس ولكي ينجحوا في مهمتهم هذه كان عليهم أن يكتفوا بالقوة التي معهم.. ويطبقوا معادلة الاكتفاء الذاتي. كان قائد الكتيبة العقيد تومر يعرف أن عليه أن يستر قوته في مكان جيد ويجهز نفسه وأسلحته الثقيلة على أكمل وجه.

وكان قد فعل هذا الشيء، أما القسم الباقي من اللواء كان قد أرسل إلى شمال أنقرة.

في كل مرة كان فيها العقيد ينظر إلى السماء.. يعرف خطورة الأمر وغرابته.. كانت ثمة حركة جوية كثيفة.. والأصوات التي كانت تقترب من آذانهم ـ تعطيهم ماهية القوة الجوية وكثافتها.

كانت قيادة الكتيبة قد ركزت على كل طرف من الممر. سرية جاهزة وتمركزوا بشكل جيد على الكهوف والمغارات والفجوات الموجودة هناك. وجعلوا منها قاعدة عسكرية.

- "خذوا حذركم يا حسن.. أرى في السماء سرباً كثيفاً.. كما توقعنا تماماً".

كان صوته قوياً وحاداً.. وعضلاته مشدودة.. كان قد تحول إلى وحش جاهز للهجوم على فريسته.. خلايا المحارب المتجددة على مدى آلاف الأعوام ـ كانت لا تستطيع البقاء في أماكنها.

عمد النقيب حسن الذي أخذ الأمر من العقيد.. إلى تحذير قائد السرية المتواجد في الطرف الآخر من الممر بيده.

لا حظوا على بعد عدة كيلومترات من الممر. عربة صغيرة. فوقها جهاز.. يمشط الأطراف. واقتربت رويداً رويداً من الممر. كانوا يظنون أن الممر آمن لأن طائرات b- 52 كانت قد قصفت هذه المناطق بشكل كثيف. وكان الخط الزمني إلى جانب الأتراك. لأن القوات الخاصة التركية كانت قد تمركزت في هذه المناطق

بعد القصف الجوي بحوالي نصف ساعة. والحقيقة كان كل شيء حتى الأسلحة الضخمة قد استقرت على أكمل وجه وبشكل مناسب لعموم العمليات الحربية.

فصرخ بقوة: "نار"... فانعكس صدى صوته إلى ما فوق التلال الغربية كانت الدبابات والعربات المدرعة الموجودة في الأسفل قد توقفت.

فأخرج الجنود رؤوسهم من الدبابات ونظروا نحو الأعلى إلى السفوح والتلال. كانت /الـ كيوا/ قد أخبرتهم بالأمر.

في لحظة واحدة بدأت النيران تهطل على القوات الأمريكية من الطرفين.

كان أصوات الأسلحة المتنوعة قد ملأت الوادي. حاولت الدبابات الأمريكية أن تناور وتهرب من الموقع. وبما أن المكان ضيق جداً فقد تصادمت مع بعضها.. كان الصاروخ الأول قد أصاب دبابة وفجّرها بقوة.. بحيث تناثرت آلاف الشظايا هنا وهناك من الوادي تردد صدى صوت الانفجار إلى مسافات بعيدة.. كانت المروحيات الأمريكية ترمي نيرانها نحو كل الاتجاهات.. كان الجنود يرمون نيران أسلحتهم نحو أهدافهم التي أُمروا بتدميرها دون أن يبالوا أو يهتموا بنيران مدفعية الطائرة أو المروحية.. كان العقيد تومر محقاً فيما. خططه وفكر به. حيث بدأت خزانات الوقود بالانفجار خلف بعضها بعضاً من كثرة الإصابات التي أخذتها. أما الجنود فقد بدؤوا بالخروج من عرباتهم يريدون تخليص أنفسهم من الموت فارين نحو الجهة التي أتوا منها.

كانت الرصاصات قد بدأت بالاتجاه نحو الجنود الفارين. كانت الدماء التي تتفجر من أجسادهم تختلط بتربة الأرض وتأخذ شكلاً معروفاً.

كان الوادي قد أغلق.. والمروحية كانت قد عادت أدراجها بعد أن تلقت إصابة شديدة. حيث بدأت الدبابات الأخرى ترمي بحممها نحو الوادي من نقطة بعيدة تابعة للقوة الرئيسة.. تراجعت القوات الخاصة من أماكن تمركزها وانتقلت إل نقاط أخرى في الخلف. كانت معركة الدفاع قد بدأت.. كانت مدافع الهاون من عيار ٦٠مم قد عملت سداً من النار في مواجهة الهجوم الأمريكي.. تراجعت الدبابات نحو الخلف قليلاً. لأنهم كانوا قد فهموا أنهم أمام وحدة عسكرية قوية.

كانوا يطلبون الدعم الجوي من خلال الأجهزة اللاسلكية والأتراك

يسمعونهم.. والعقيد /تومر/ قد عرف بالذي سيحصل بعد قليل.

كان عليهم أن يجادلوا السماء والأرض معاً. ولكن نظرية الدعم الجوي كانت قد تغيّرت في السنوات الأخيرة. كانت الطائرات العملاقة من طراز B – 52 هي التي تدعم القوات المحاربة.. هذه الطائرات قد بدأت ترمي من على ارتفاعات شاهقة أكثر من أربع وثماني قنابل مسيّرة، وزن كل واحدة ٢٥٠كغ. كانت تنزل على الوادي على شكل هبات حرارية متواصلة.. كان صدى الانفجارات يتعاقب متتالياً في عموم أرجاء المنطقة وكتل النيران الضخمة ذات الألوان البرتقالية.. كانت تتراءى من على بعد مسافات شاسعة.. ولكن النيران ما زالت تخرج من خنادق الأتراك. كانت القوات الأمريكية تعرف أنهم ستبقى أمام هذه المعادلة التركية والمقاومة التركية لفترة أخرى من الزمن...

حتى أن الوقت بالنسبة إليهم أيضاً كان مهماً جداً.. كانت هذه القوة الصغيرة قد أنزلت بهم خسائر فادحة.

٢٤ أيار ٢٠٠٧ - الساعة ١٠,٣٠
- أنقرة-

كان حكمت باشا لا يغادر الهاتف الأحمر في مقر القيادة العامة الموجودة تحت الأرض.. كان يحسُّ بموت ابنه /أركان/ دون أن يسمع عنه شيئاً.. كان لا يفكر سوى بهذه الحرب القذرة، وصبَّ كل اهتمامه عليها.

حركة غير عادية في خطوط الاتصالات.. كانت الخطوط مزدحمة كازدحام السيارات في الشوارع. كان الجيش التركي قد توصل أو امتلك مقسماً لا تستطيع الأجهزة الأمريكية الإلكترونية أن تتوصل إليه وتُشَوِّشه وذلك بفضل نظام /TAFCS/ ولهذا السبب كانت الاتصالات لا تتقطع مع كل الوحدات العسكرية الموزَّعة في عموم أنحاء تركيا.. وذلك بعد بدء الحرب بوقت قصير.

ولكن الأمريكيين كانوا قد توصلوا إلى بعض هذه المقاسم التابعة لذاك النظام وأمروا بقذفها جواً. ولهذا السبب كانت الاتصالات تصل متقطعة بين وقت وآخر.

أعضاء الحكومة لم يكونوا موجودين هناك، وبقرار مشترك من الجميع، كان الوزراء سيعودون إلى رأس عملهم في الوزارات كي يبقوا على تماس مباشر مع المديرين "الإداريين.. عدا وزير الدفاع والخارجية ورئيس الوزراء. سيكونون على تماس دائم مع بعضهم. ولن يبتعدوا عن بعضهم كثيراً. دوائر الدولة والوزارات ستُفرغ من موظفيها. وبالأصل كانت البنايات ستسوّى مع الأرض بعد وقت قصير.. بعد الآن كل مكان سيكون بناية رسمية للدولة.. حتى مكاتب المختارية تتحول لفترة قصيرة إلى مكتب لرئيس الوزراء.

كان قادة القوات يُسجلون ملاحظاتهم من المعلومات التي كانت تأتيهم من الهواتف.. وعلى الدوام.. كانت وجوههم جامدة ومعززة بالديناميكية والحدة.. وطاقتهم في أوج شدَّتها.

والأصوات التي كانت تُسمع داخل المقر باستطاعتها أن تجمّد الدماء في عروق شخص عادي. كانت الرسائل الشديدة التي تحرق أحاسيس الأمن والأمان وتُضيّع الثقة في القلوب تماماً تُمطر من عموم أنحاء الوطن.

- "القاعدة البحرية تحت قذف جوي همجي.. أعود وأُكرر. القاعدة البحرية تقذف بشكل قوي".

صرخ ضابط العمليات بهذه الكلمات وتحرك بسرعة من طاولة الأميرال /تحسين يوجاسون/ قائد القوات البحرية ووقف أمام الشاشة العملاقة. ونظر إلى كثافة الطيران الموجودة فوق منطقة /إيجة/.. بدون أي شك.. كانت الهجمة قاتلة.

كانت اثنتا عشرة سفينة حربية تركية موجودة في القاعدة الموجودة في بلدة /بودروم/. والآن كانت هذه السفن تحت قذف جوي كبير. تم الاتصال مع قائد القاعدة البحرية.

كانت أصوات الطائرات تسمع من هاتف القاعدة البحرية. يعطي التقارير بين وقت وآخر. وكانت قيادة القاعدة الموجودة على رأس التلة /وآنتيل/ الرادار قد قُذفت. وجميع السفن تقريباً كانت تحترق. وأصوات المدافع المضادة للطائرات قد سكتت، لأن المدافع الموجودة على رأس التلة، والمدافعة عن مركز القيادة قد أصيبت بعدة صواريخ.

كان الأميرال يصرخ. "الدفاع عن القاعدة مستحيل".

- "لقد وقعت عدة قنابل على /لوجمانات/ أبنية مدرسة الوحدات الخاصة. ولا نملك أخباراً عن الخسائر البشرية.. نحاول إطفاء الحرائق. الوضع هنا سيء جداً يا سيدي. إنني أرسل الكوماندو SAT إلى أنقرة.. ليس لديهم عمل هنا".

- "فهمنا الوضع يا باشا.. أنت على حق.. سنحتاجهم هنا أكثر من هناك"

كان السيد / تحسين/ قد جهزّ كل المخططات ومنذ وقت طويل كانْ يفكر باستعمال هذه القوات أي /كوماندو SAT/ ضد القوات الأمريكية في الحرب البرية... يجب أن يجابهوهم على البر ويجب أن يستعملوا كل القوات التي يملكونها.

اهتزت البناية بشكل قوي.. سكتت كل الآلات الموجودة في مقر القيادة لبعض

الوقت.. وبدأت بالعمل بعد توقف الهزة.

كان جميع الموجودين قد وقعوا على الأرض.. قبل انتهاء تأثير الانفجار اهتزت القيادة بانفجار قوي للمرة الثانية.. وبدأت الأدخنة تتصاعد من أسلاك الآلات وغطت الجو. كانت عدة حرائق كهربائية صغيرة قد حدثت. ولكن العساكر تدخلوا وأطفؤوا هذه الحرائق الصغيرة مباشرة. بدأ حكمت باشا على لملمة نفسه. كان ينظر إلى أطرافه بشكل محتار.. وإذا بانفجار ثالث يهز المكان وقد رمى الموجودون بأنفسهم على الأرض ثانية.. كانت عملية التنفس صعبةً جداً.. كانوا على عمق عشرات الأمتار عن الأرض.. وهذا ما كان يظهر قوة الضربات والانفجارات... كانت بناية رئاسة الأركان العامة قد صارت مع الأرض. انتظر الضباط بعض الوقت. وجمعوا شتات أنفسهم. كي يستقبلوا الضربة التالية ببعض الثقة.. كانت الأدخنة والروائح قد لفّت الأجواء.

جاء قادة القوات بسرعة إلى مكان تواجد حكمت باشا.

- "هؤلاء الأوغاد جنّوا يا سيدي... لنترك النظام العام، لندافع عن أنفسنا ونحن منتشرون، الواضح أنهم قرروا محونا عن سطح الأرض.

هذه الكلمات قالها قائد القوات البرية الجنرال /فخري سرت/.. وهو يصرخ.. كان قد حمل سلاحه يريد الخروج من هناك.

- "الأخبار التي تصلنا مصيبة يا سيدي بكل معنى الكلمة مصيبة لنخرج ونصارعهم وجهاً لوجه وصدراً لصدر.. نحن مجبورون على هذا يا سيدي."

- "كيف حال الأوضاع يا فخري باشا؟"

- "الفرقة التي أفنتْ قواتنا في العراق يا سيدي بدأت بالتقدم بسرعة كبيرة ومعها فرق أخرى كثيرة.. لا تصلنا الأخبار الصحيحة ولكن أعتقد ثمة معارك كبيرة تقوم هناك".

كان رئيس الأركان /حكمت باشا/ على وشك أن ينفجر من غضبه فقال صارخاً: /ليبلوهم الله بكل المصائب/.

كان الجيش التركي يتعرض لهجمات كبيرة ومن كل الأماكن. التفت حكمت باشا نحو قائد القوات الجوية وقال:

- وكيف حال القوات الجوية يا جنرال؟

تحدث الفريق /أورهان أق يورك/ قائد القوات الجوية. بصوت يتلبسه الغرور. إلاّ أن الحزن المتراكم في أعماق عينيه الزرقاوين.. كان ظاهراً للعيان.

- "إننا نحاربهم يا سيدي.. الخبر الأخير الذي وصلنا هو إن المعارك الجوية قائمة. ولكن غير معروفة.. طائراتنا استطاعت الإقلاع.. ولكن ليس كلها.."

في هذه النقطة كان طوناج صوته ينخفض رويداً رويداً

- "والخسائر؟.

" لقد استطاعت طائراتنا الموجودة في قاعدة /ملاطيا/ أيرها ج ٧/ الإقلاع عن القاعدة.. ودخلت في معركة جوية قاسية. ووصلتنا أخبار بان بعض الطائرات الأمريكية قد تم إسقاطها. وحتى الآن لم يردنا تقرير قطعي بهذا الخصوص. ولكن بعد ذلك دمروا تلك القاعدة تدميراً كاملاً يا سيدي.. لم يبق فيها أي شيء على الإطلاق. وأظن أن القواعد الجوية الأخرى الموجودة في تلك المنطقة.. تلقت نفس الضربات أيضاً... يقولون إن طائراتنا من طراز /أف ـ ١٦/ قد هاجمت سرياً أمريكياً من طراز / إف ـ ١٨/ وإنهم أسقطوا عدداً منها. ولكنهم بعد ذلك تقابلوا مع سرب من طراز / إف ـ A ـ ٢٢/. والحقيقة يا سيدي إن طائراتنا لم تستطع أن ترى هذه الطائرات. وكما تعرفون من غير الممكن أن تقوم طائراتنا على تثبيت أماكن هذه الطائرات وضربها. أما الطائرات المعادية من طراز / إف ـ A ـ ٢٢/ فإنها تكشف طائراتنا وتصطادها. لأنها تملك أجهزة إلكترونية حديثة".

كان وجه الباشا قد احمرّ من الغضب.

"وأين تحصل المعارك يا باشا؟"

كانوا جميعاً واقفين على أجلهم. كان الضباط يصفون مشهد البناية من الأعلى... صارت مع الأرض والحرائق تشتعل فيها. ولكن مقر القيادة من الأسفل لم يكن تتأثر. وكان باستطاعتهم الخروج من هناك عبر ممر سري.

قال قائد القوى الجوية الجنرال "أورهان".

- " إن طائراتنا التي أقلعت من قاعدة / أسكي شهير/ يا سيدي \. اشتبكت مع الطائرات الأمريكية اشتباكاً لا نظير له فوق/ بودروم ومرمريس/ وأسقطت

ست طائرات معادية: أربع من طراز /إف ١٨/ واثنتين/ من طائرات التشويش الإلكترونية.

كان وجه الجنرال أورهان قد تنور.. وكان يتمنى أن يكون داخل إحدى الطائرات التي تحارب الأعداء.

كان غضب رئيس الأركان قد زاد حدة حيث قال:

- "وهل تسمي هذه المعركة حرباً يا أورهان باشا؟ وماذا حصل للطائرات التي أقلعت من ملاطيا؟"

- كان في مواجهة طائراتنا أكثر من مئة طائرة يا سيدي. في هذه الحالة ماذا كنا سننتظر منهم؟ نصف طائراتنا قد أسقطت وكلها من طراز /اف ١٦/ ... والقسم الباقي أصيب وتحطم على مدرج المطار.

- "ماذا تقولون.. هل نرسل قواتنا الجوية إلى بلد صديق.. أم تظلُّ هنا وتحارب؟.

"لا نملك غير هذا الخط يا سيدي. يجب أن نحارب. حتى لو أرسلناهم إلى غير بلد فلن نستفيد منهم. وإذا لم تقلع هذه الطائرات وتشتبك مع طائرات الأعداء... ستفنى على أرضها. حتى الآن أوقعنا بهم خسائر جديّة. ولكنهم يسيطرون على الجو. مع إطالة المعارك الجوية تصعب علينا المعارك الأرضية. وهذا الذي نريده.

- "كم من الوقت تتحمّل هذه المقاومة؟"

- " قواعدنا الجوية كلها تحت الهجوم يا سيدي.. أعتقد أنهمَ سيدمرون كل المطارات هذه الليلة. ولكن نستطيع إصلاحها مباشرة وجعل طائراتنا تقلع منها ثانية.

- "تمام يا أروهان باشا ما أظن أن العمل كله يقع على أكتاف الطيارين.. إذا لم يستطع أي طيّار تخليص طيارته فليخلص نفسه"

في هذه الأثناء سُمع انفجار ضخم. يجب أن تكون إحدى البنايات القريبة من القصر الجمهوري قد أصيبت.

- سنترك البناية. هذا المساء سنلتقي في الملجأ السري. التحضيرات هناك على وشك أن تكتمل. سنعلن الاستنفار العام /سفر برلك/ أعطوا الأوامر للوحدات الموجودة على كل الحدود. لن تستسلم أية قطعة عسكرية مهما كلف الأمر.

وكل واحد سيعمل من جسده خطاً دفاعياً. لقد مُنع الانسحاب منعاً باتاً".

- " لا أحد يريد الانسحاب من الحدود يا سيدي ولا أحد يفكر بهذا الموضوع"

كان هذا صوت قائد القوات البرية الجنرال /فخري سرت/.. هو شخص كان مثل كنيته: قاسياً ***

وأضاف الجنرال فخري سرت: "الأخبار الواردة لنا. تتحدث يا سيدي عن الفرقة الخيالة المدرعة الأولى والفوج الخيالة المدرعة الثالثة.

إنها دخلت الحدود ووصلت إلى ضواحي /أقجا قلعة/ بحوالي مئة كيلو متر من الناحية الغربية.. وتشارك هذه القوات المروحيات. ويقال إن إحدى كتائبنا الخاصة قد نصبت كميناً لإحدى كتائب الفوج الثالث وإن جميع الدبابات والعربات المدرعة قد أصيبت مباشرة. والباقي منها. قد فرَّ نحو الأراضي السورية. وأعتقد أن هذه الاشتباكات لن تؤثر كثيراً بالنسبة للهجوم العام."

- " قهرهم الله. طيب ماذا يريدون؟"

- "يقولون إن الفرقة الخيالية المدرعة. ومعها الفوج تتجه بشكل سريع داخل الأراضي التركية. وأعتقد أن هدفهم هو أنقرة. إلى جاب ذلك لا توجد أية حواجز طبيعية أمامهم. وإننا نُخمِّنُ عبورهم من نهري /سيْهان وجيْهان/ بسرعة. وسيصلون إلى أنقرة خلال وقت قصير إذا لم توقفهم قواتنا البرية.

- حظنا الوحيد في شمال مدينة /طرسوس/.. إذا خففنا من سرعتهم في جبال طوروس معناه نجحنا. أما إذا خرجوا إلى سهول /قونيا/ لا نستطيع إنقاذ أنقرة بعد ذلك".

- " شيء يحيّر.. الذي فعلوه في العراق سيفعلونه هنا أيضاً. سيعمدون إلى الاستيلاء على المدن الكبرى والمهمة وبعد ذلك تقع المدن البقية من تلقاء ذاتها. هذا ما يريدون فعله."

صرخ الجنرال حكمت باشا بحدة: " آمركم أن تقوم القوات البرية على توقيف

*** (سرت معنى قاسي). المترجم

هؤلاء الأوغاد".

عندما سمع الجنرال / فخري سرت/ كلمات قائده انكمشت أسارير وجهه وقال: "هذا أمرٌ قطعي يا سيدي. أعطني إذناً كي أقوم بهذه المهمة شخصياً. لأننا مجبورون بمقاتلة كلٍّ من الفرقة الأولى المدرعة والفرقة المشاة الميكانيكية الرابعة والفوج المدرع الثالث وفرقة الإنزال الجوي/ ١٠١"

فكرٌ حكمت باشا للحظة وجيزة. كان الأمريكيون قد تجرؤوا على المستحيل. في هذه الحالة.. يجب تغيير قانون اللعب وفق المتطلبات الجديدة.

- "طيب يا جنرال فخري أوقفوهم قبل وصولهم إلى أنقرة.. وليكن هدفكم الأول توقيف الفرقة المدرعة الأولى بأي شكل كان والباقي: الله كريم".

- "سيدي القائد. إن لواء دبابات التاسع ولواء الميكانيكي ٢٨ . يحضرون أنفسهم للحركة.. يجب أن نتحرك بسرعة يا سيدي".

- القيادة معك يا باشا. افعل ما بدا لك. ولكن أخبرني عن كل التطورات.

اقترب منهم ضابط عمليات المقر بسرعة وقال:

" إن موجة كبيرة من الطائرات المعادية تتجه نحونا.. وتم تثبيت أعداد أخرى كثيرة وهي تدخل من العراق ومن فوق البحر الأبيض المتوسط.

ثبتَّ حكمت بارس عينه على شاشة الرادار، كان المجال الجوي التركي محتلاً من قبل الطائرات الأميركية. كانت النقاط الصفراء قد ملأت الأجواء. لقد حان الوقت للذهاب إلى الملجأ السري الخاص. حضّر نفسه وذهب إلى الباب السري. ومن خلفه مجموعة كبيرة من الضباط. كان عليهم الذهاب إلى ملجأ سري في إحدى ضواحي أنقرة وبالسيارات المدنية.

عندما ابتعدت القافلة المدنية بعض الشيء... من رئاسة الأركان نظر/ حكمت بارس/ نحو الخلف.. كانت بناية رئاسة الأركان قد صارت على مستوى سطح الأرض. والأبنية المجاورة على مدى مئات الأمتار كانت مهددة بالسقوط... الناس الذين يسرعون.. وسيارات الإسعاف والإطفائية.. وعناصر الشرطة والجندرمة الذين

كانوا يحاولون تسكين وتهدئة الناس. كان الجو في حالة من الاضطراب والفوضى. ولكن النظام العام كان مستتباً حتى هذا الوقت... كان الناس يتصرفون تصرفاً عقلانياً. كما يجب عليهم فعله في ساعة المصائب والأخطار المحدقة.

ولكن لم تكن هذه سوى البداية. كانت الأخطار تزداد ساعة بعد أخرى وتضغط بثقلها على كاهل البشر.

في الوقت الذي كانت فيه صفارات الإنذار تدوي دون توقف.. نظر حكمت باشا إلى السماء من خلال زجاج النافذة. كانت ثمة أجسام تتجه نحوهم بسرعة البرق.. يجب أن تكون هذه صواريخ /توما هوك/ المعدَّلة... كأن سماء أنقرة مليئة بها. عندما نظر حكمت باشا لآخر مرة خلفه كانت بعض الصواريخ قد سقطت فوق بعض الوزارات أو في منطقة الوزارات وانفجرت... ولم ينظر ثانية خلفه.

٢٤ أيار ٢٠٠٧ الساعة ١١,٣٠

- ديار بكر-

كان يتراءى ثمة فوضى وتوتر في مديرية أمن ديار بكر. كانت أخبار المظاهرات والاشتباكات تتوالى على مدير الأمن. ولكن الشرطة لم تكن تتدخل ضد هذه المظاهرات المحظورة. وفوق ذلك كله كانت البناية أيضاً محاصرة.

كان الإرهابيون قد تجمعوا على مدخل شارعين وأغلقوا المرور وبدؤوا بإطلاق النار من مكان تسترهم نحو بناية مديرية الأمن.

والشرطة تقابلهم بالنار من خلف أكياس الرمل التي وضعوها أمام البناية.

كان مدير الأمن /كوراي هابجن/ يعرف خطورة الموقف والوضع. ويعرف أيضاً. بأن بالإرهابيين إذا أرادوا ضربهم لفعلوا ذلك برمي الصواريخ والقنابل اليدوية. بدلاً من قتلهم كانوا يريدون إجبارهم على تسليم أنفسهم.

كانت بعض العناصر من حزب العمل الكردستاني /PKK/ قد أجبروا الشعب للخروج إلى الشوارع بعد سماعهم بدء الحرب بين تركيا وأمريكا. بعد ذلك بدؤوا باحتلال الأبنية الرسمية.

كان هدف الأول للأمريكيين هو أنقرة.. وذلك عبر الأراضي السورية ثم إلى جنوب شرق الأناضول. ولهذا السبب قامت الوحدات التركية الموجودة في جنوب شرق الأناضول. وقوات الأمن والجندرمة بمحاربة الإرهابيين والقضاء على السلب والنهب والهجوم على المباني الحكومية هناك.

في البداية حاول مدير الأمن /كوراي هابجن/ إلى التقليل من الفوضى ورفع معنويات عناصره. وطلب دعماً من قوات الجندرمة. ولكنه علم بأن كل القوات كانت تحت الهجمات المتتالية.

.. لم يكن يدري ما الذي سيفعله الآن.

وفجأة سُمع صوت إطلاق نار كثيف من خلف الحواجز التي صنعها الإرهابيون... نظر عناصر البوليس في عيون بعضهم... يا ترى هل كانوا يتصارعون

فيما بينهم.. أم أن دعماً قد وصلهم؟

بعد انقطاع أصوات الأسلحة وإذا ببلدوزر كبير.. دفع الحواجز إلى الجانبين.. وبعد فتح الشارع إذ بثلاث شاحنات صغيرة مليئة ببعض الرجال يلبسون لباساً موحداً.

كان الجميع ينظرون إلى بعضهم.. أشار مدير الأمن بيده إلى عناصر البوليس كي يأخذوا وضعية الدفاع. ربما تكون لعبة.... القادمون غير معروفين هل هم من الأعداء أم من الأصدقاء. إذا أطلقوا النار. كان عليهم الرد بالمثل.

عندما تقدمت الشاحنات بسرعة ووقفت أمام البناية.. نزل من أولها رجل طويل عريض كثيف الشاربين.

جاء ووقف قرب مدير الأمن وأشار بيده كي ينزل الآخرون من الشاحنات وقال لـ /كوراي هالجن/ : "هل أنت المسؤول عن هذا المكان؟"

- "نعم.. ومن أنت؟ "أجابه كوراي هابجن.

أخرج الرجل من جيب سترته التي تشبه الكاكي العسكرية ظرفاً أصفراً ومده للمدير.

كان في داخل الظرف /كلمة سر/ أخذها مدير الأمن قبل تعينه هنا. ولم يكن يتوقع أن يرى تلك الكلمة ثانية.

ووقف باستعداد مباشرة وصرخ: "نحن تحت أمرك يا سيدي"

كان عناصر البوليس قد احتاروا في أمرهم. أخرج الرجل مسدسه من ظهره وأطلق طلقة واحدة.. فخرج كل من في البناية إلى الخارج وقال لهم صارخاً:

"نحن من الوحدات الخاصة... من زمرة /أرغناكون/... بعد الآن نحن مسؤولون عن هذه المنطقة.. بلادنا قد دخلت الحرب..

وشروط الحرب ستطبق هنا أيضاً. أنا النقيب جلال من الوحدات الخاصة، وهؤلاء رجالي.. كل الصلاحيات صارت بأيدينا الآن طبقاً لشروط الحرب".

كان عناصر الشرطة قد سمعوا بهذه الوحدة الخاصة. وقد بقيت في ذاكرتهم.. إذاً هي الحقيقة. لأن مدير الأمن يقف أمامه باستعداد وفي وقت قصير جداً صاروا تحت مسؤولية /أُمرة النقيب جلال/.

خرج بينهم جندياً عرَّف نفسه واسمه /متين/ وقف أمام المجموعات وقال لهم:

"الآن ستنزلون المدينة وتجمعون الأسماء الموجودة في هذا الجدول الذي سأعطيه لكم.. هؤلاء كانوا مرتبطين مع الإرهابيين أو الداخلين معهم مباشرة. إذا قاوموا اقتلوهم مباشرة.. ستظل سيارتنا تدور في الشوارع حتى المساء على شكل دوريات... أنا وجماعتي سنستولي على بناء مديرية الأمن ونذيع /بمكبرات الصوت/: منع تجول."

كانت ثمة إدارة جديدة قد تشكلت في عموم أنحاء البلاد متزامنةً مع شروط الحرب.. كانت المستودعات السرية قد فُتحت. لتوزيع الأسلحة.

وكل إنسان يسمع /رمزه/ عن طريق الإذاعة والتلفاز. كان يلتحق بوحداته مباشرة.

٢٤ أيار ٢٠٠٧ . الساعة ١٧,٣٠
الولايات المتحدة الأمريكية
فلوريدا . CENCOM

كان الرئيس الأمريكي قد جلس على مقعده يستمع إلى /بريفنغ/ وآخر الأخبار الواردة من منطقة العمليات.. ووجهه ينشر الابتسامة نحو كل الأطراف.

كان قد عمل طول النهار في الاستشارات السياسية.. الروس يستطيع إسكاتهم بالرشوة وإعطاءهم بعض المال والعمليات التجارية.. ووضع أرمينيا التي ستكبر ستكون لصالحهم. تركيا القوية.. وروسيا ناعمة الأطراف التي كانت تحاول جاهدة تطبيق الوجه السوفيتي القديم.

أما رد الفعل الأوروبي فكان أقل فاعلية... كان الأتراك قد ضيّعوا حقهم في الجلوس على كرسي المحادثات للدخول في الوحدة.. وكان الرئيس بوش قد زجر الرئيس الفرنسي/ نيقولاس ساركوزي/ عندما اتصل الأخير به يشتكي من العملية العسكرية التي قامت بها ضد تركيا وقال له: "إذا كنتم تحبون تركيا بهذا الشكل لماذا وقفت على رأس الذين كانوا يعارضون دخول الأتراك إلى الوحدة الأوروبية يا سيدي". آه من هؤلاء الفرنسيين".

أما إنكلترا. كالعادة كانت إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية. أما ألمانيا فكانت صامتة. أما الصين فمثل روسيا تماماً: "لا تنسوا حصتي أيضاً" هكذا كانت تتصرف الصين.

ولهذا السبب كان الرئيس قد رجّح الجلوس هنا ليرى المشاهد الساخنة بدلاً من السياسة التي تختزن الذبذبة والكيل بعشرين مكيالاً. وكان قد طلب من وزيرة الخارجية ونائبه كي يقوما بالاستشارات السياسية الجارية وبكثافة.

كانت ثمة مشاهد غريبة تظهر على الشاشة. كانت هذه الصور من الاستخبارات من الجوية. من بعض هذه المشاهد:

كان اللواء التاسع المدرع يخرج من ثكنته. وصورة أخرى تظهر معمل الأسلحة الموجود في /كرك قلعة/. وصور أخرى تظهر المطارات المضروبة. وإلى جانب كل ذلك. كان الرئيس قد طلب مشاهد صور حية وعلى الهواء مباشرة.. كانت ثمة صورة أخرى تظهر اصطياد طائرة /اف ١٥/ أمريكية لطائرة /أف ١٦/ تركية. ومشاهد أخرى عن قذف بناية رئاسة الأركان عن طريق قنبلة تقاد بأشعة الليزر. وصورة أخرى.. كانت طائرة مروحية تقذف مخفراً تقاد بأشعة الليزر.. وصورة أخرى.. طائرة مروحية تقذف مخفراً قريباً من الحدود في /أقجة قلعة/.

كان يستطيع مشاهدة الجنود... كانوا موجودين وخلال لحظة قصيرة صاروا عدماً داخل كتلة كبيرة من النار. الأخبار الواردة حتى الآن تظهر أن الأمور تسير على ما يرام.. كانت ثمة مقاومة شديدة. والتقارير الواردة تظهر أن الأمريكيين تعرضوا لبعض الخسائر الجدية.. طائرات ودبابات كثيرة.. ولكن غير مهم. إذا سارت الأمور كما هي عليه. الآن سيصل إلى هدفه.. هذا الهدف الكبير.. هذه النقطة الكبيرة... كان يريدها ويشتهيها كما لم يشته شيئاً آخر.

وكان جاهزاً لتحمل كل الخسائر مهما كان نوعها من أجل الوصول إلى هذه النقطة.

- "كنا نعرف ضعفهم في الدفاع الجوي.. ولهذا السبب فطائراتنا قامت بمهامها بسهولة كاملة"

في تلك اللحظة أشار /هوارد ستريك/ إلى مشهد ظهر على الشاشة يُظهر ضرب محطة رادار ضخمة.

- "صواريخهم المضادة للطائرات لم تفعل فعلها ولهذا السبب أفنينا نظام الرادارات عندهم بوساطة صواريخ متوسطة المدى. بالأصل صواريخ /هوك ١/ قديمة جداً. والمدافع المضادة للطائر ات كما هي العادة مثل دمية طفل بالنسبة لنا. أما بالنسبة للمعارك الجوية. فقد تم إسقاط مجموعة كبيرة من طائراتنا من قبل الطائرات المعادية. وكنا نعرف بأنهم يستطيعون فعل هذا".

- لأننا نحن الذين درَّبناهم. وطائراتهم من طائراتنا نفسها ".

كانت ثمة إفادة صبيانية على وجه الرئيس.

قال ستريك: "ولكن الخطورة مازالت قائمة. ولا أريد أن أدخل المعارك البرية باكراً. ولهذا السبب فقد طلبت من الفرقة المدرعة الأولى والفوج الثالث.. بالتخفيف من تقدمهم. والفرقة الميكانيكية الرابعة ربما تصل إليهم بعد يومين أو ثلاثة. في هذه الأثناء تكون القوات الجوية قد أنزلت خسائر كبيرة بالوحدات التركية الكبيرة".

- "سيد ستريك ـ رجاءً استعجلوا. إنني على ثقة مطلقة بمعماري هذه العملية الإستراتيجية.. يجب أن نحتل كل من أنقرة وإستانبول وازمير قبل فوات الأوان. لا يهمني شرق تركيا أبداً. إذا استولينا على المراكز الاقتصادية الضخمة. فالشرق يسلم نفسه مباشرة. كل المدن الموجودة في الشرق سهلة المنال... أعطوني الذي أريده وكفى".

- "سنفعل هذا الشيء يا سيادة الرئيس.. الغارة الجوية الكبيرة الآن على أبواب الأتراك.. لقد بدأت الهجمات الجوية وستستمر على مدى أيام طويلة. نفكر بإبادة الجيش التركي خلال ثلاثة أيام فقط".

- "وما احتمال استسلام الجيش التركي؟"

- "قريباً من الصفر يا سيادة الرئيس.. سيحاربون وسيموتون. ونحن أيضاً سنخسر كثيراً.

- "أعرف ذلك.. أعرف، إذاً سيحاربون وسيموتون أليس كذلك؟.

- نُرجِّح موتهم.. هل سيقاومون حتى الدقيقة الأخيرة؟ استسلامهم لا يفيدنا بشيء."

- "انظر يا سيادة الرئيس هذا المشهد الذي تراه الآن على الشاشة، إنه أكبر دليل على ذلك.

- "طيب وما وضع العمليات الخاصة؟"

"إن الوحدات الخاصة استولت على /سد أتاتورك/ في هذه المنطقة يوجد أكثر من ثلاثمئة عنصر من الوحدات الخاصة.. يريدون الدعم على الدوام من القوات الجوية. إن الأتراك يهاجمون بشراسة كي يستعيدوا السد".

ثمة صورة أخرى ظهرت على الشاشة الضخمة: كانت الصورة بالأبيض والأسود ومأخوذة عن طريق الأقمار الاصطناعية تظهر عليها قطعة من الأرض ومجموعة من الدبابات والعربات المدرعة.

- "هذه الدبابات تجهز نفسها للهجوم على قواتنا كي يستعيدوا السد. وبعد قليل سيفنون عن بكرة أبيهم. لأن حركة الهجوم عليهم قد بدأت."

- "أريد منكم أيضاً أن تُبيدوا القوات الموجودة في قبرص".

- "سيادة الرئيس كما قلت لك في جلستنا الماضية. إن الخطة جاهزة.ولكن الغارات الجوية ستأخذ الكثير من أرواح المدنيين.. وبالنسبة لهذا الموضوع.."

كان الرئيس قد غضب كثيراً:

- "اترك موضوع المدنيين يا هوارد. اترك هذا الشيء عليَّ. ماذا سيصير يعني.. بعض الناعمين المدلعين الأوروبيين سيبكون. إن الجيش اليوناني القبرصي على أتم استعداد. سيعمدون إلى تسكين الوضع في الجزيرة قبل أن تتحول إلى فوضى واضطراب".

ضحك.. كان قد أحس بكيْف "للمرة الثانية" أما بالنسبة لرئيس الأركان.. توقف لبعض الوقت:

- " ماذا فعلت.. هل استطعت قتلهم؟"

- "لا أعتقد لقد ضربنا البناية.. ولكنها كانت فارغة"

في هذه الأثناء دخل سكرتير الرئيس إلى الغرفة وقال بأن رئيس FBI السيد روبرت موللر على الهاتف.

في الوقت الذي كان فيه الرئيس يرفع سماعة الهاتف.. التفت نحو هوارد ستريك وقال له: "عندما تحتل أنقرة يا هوارد أخبرني. نعم يا موللر لماذا لم يتم جمع الأتراك داخل المعسكرات؟"

كانوا قد قرروا جمع الأتراك الذين يعيشون في أمريكا ووضعهم داخل معسكرات مغلقة. كانت هذه العملية قد بدأت من أول ليلة من المعركة.. وكانت مجموعة كبيرة من الأتراك الأحرار يعملون على إخراج القلاقل:

ذكَّر موللر الرئيس بأن عدد العمال الأتراك غير الشرعيين الذين دخلوا البلاد غير معروف. ولكن كانت أصواتهم وأنفاسهم ستقطع قريباً.

٢٥ أيار ٢٠٠٧ . الساعة ١١،٣٠

. مزرعة قريبة من نيومكسيكو.

كان الخادم قد احضر طعام الإفطار قبل ساعة تقريباً. ولكن /كوكهان/ لم يكن قد أكل شيئاً. كان ينتظر ويستمع.

كان قد تحوّل تقريباً إلى أسير في غرفة تحت الأرض. مضاءة بمصباح أصفر وذلك منذ يومين.

كان قد جاء إلى أمريكا منذ شهرين تقريباً. وانتقل من هنا إلى هناك. هذه الانتقالات سببها علاقات /الذئب/ مع المافيا. كان يحمل محفظتين على ظهره ولا يتركهما أبداً. في كل محفظة قنبلة نووية تقدر طاقتها عدة أضعاف القنبلة التي أُلقيت على /هيروشيما/. كانت خطتهم في البداية الحصول على خمس قنابل، إلا أنهم لم ينجحوا في ذلك ولكن اثنتين تنفعهما إذا استعملوهما بشكل جيد.

كان /كوكهان/ حذراً ويقظاً على الدوام. كان الذئب قد حذّره قائلاً: "أنا مدين لهاتين القنبلتين ولهذا السبب أجعل ثقتك في الناس حول نقطة معينة.. لا تنس، حول نقطة معينة.

ولا تنس أيضاً أن هؤلاء الرجال يبيعون أبويهم من أجل الدخول إلى العالم.. ويبيعونك ويبيعونني ببلاش".

لم يكن قد اتصل لا مع الأتراك الموجودين في الولايات المتحدة ولا مع أية تشكيلة من تشكيلاتهم. كان ينتظر التطورات منذ دخوله إلى أمريكا عبر الحدود المكسيكية.

صاحب المزرعة /راميراز/ ورجاله كانوا يتصرفون بشكل عادي جداً. اي أن الفضول عندهم في نقطة الصفر تقريباً.. لا يتساءلون فيما بينهم ولا يسألونه.. وهذا بحد ذاته كان شيئاً غير عادي. كان صاحب البيت/ راميراز/ قد ترك /كوكهان/ وحيداً. بعد أن حاول الاقتراب منه خلال يومين أو ثلاثة من قدومه إلى

هنا.

كان /راميراز/ إنساناً قوياً ومؤثراً في كلا طرفي الحدود. في الطرف الأميركي والطرف المكسيكي. وكان متوازناً مع جميع المحليين ومع عمله الذي كان يُسيِّره بنظام وأمان.

كان راميراز يظهر نفسه جاهلاً لكوكهان. ولكن الأخير لم ينخدع لمظهره الخارجي هذا.. كان الرجل بالنسبة لكوكهان يُخرج الأفعى من وكره ويركز نفسه في مكانها.

أما الآن، كانت الشروط قد تغيَّرت دفعة واحدة.. كان رجاله قد أغاروا على غرفته على حين غرة، وأخذوا المحفظتين منه وخرجوا. وكانوا قد قفلوا الباب عليه. ولكي تعمل القنابل كانوا بحاجة إلى الشيفرة أو /الكود/ ولهذا السبب كانوا بحاجة إلى كوكهان.

كان كوكهان يصغي بانتباه شديد لما يدور خارج الغرفة والمزرعة. وكان وقت العملية قد حان.. كان يعرف بأنهم سيأتون إليه في أقرب فرصة.. في تلك اللحظة، سمع صوت خطوات كثيرة في الخارج. وابتسم.. مهما كانوا كثيري العدد أفضل بالنسبة إليه. أخذ الملعقة البلاستيكية الموجودة فوق الصحن.

لم يعطوه ملعقة أو شوكة أو سكيناً معدنيةً كيلا يستعمله كسلاح. مع أن الغرفة كانت مليئة بعشرات الأغراض التي يستطيع كوكهان استعمالها في قتل إنسان ما.

كسر الملعقة البلاستيكية بوضعها تحت السرير والضغط عليها. وكما كان يتوقع بقي فيها طرف مدبب إلى حدٍ ما. وضعها بين طرف الطاولة وإحدى ساقيه. وتمدد على سريره بكل راحة منتظراً ضيوفه.

عندما فُتح الباب. كان مجموعة من الرجال قد دخلوا الغرفة مع /راميراز/ وكان كوكهان يراهم لأول مرة. ربما تشاور مع /بترون/ وأخذ منه دعماً.

اقترب منه راميراز مبتسماً وقال: "مرحباً يا سنيور يجب أن نتحدث".

كان كوكهان هادئاً: "بكل تأكيد سينيور راميراز.. أنا أنتظركم منذ أن أخذتم محفظتيَّ وأغلقتم الباب عليَّ".

فتح الرجل يديه وابتسم: "آه سنيور. لقد فعلنا هذا الشيء لنحميك فقط. أنت لا تعلم شيئاً، منذ يومين الحرب قائمة بين بلدك والموجودين هنا".

جلس كوكهان في المكان نفسه الذي كان مستلقياً فيه. إذن حصل الشيء الذي كان ينتظره. كانت ثمة أسئلة كثيرة تدور في رأسه بالنسبة لهذه الحرب.. ولكن قبل كل شيء يجب أن يُخلّص نفسه. ربما كان راميراز قد باعه لـ /FBI/.

"نعم.. وماذا سنفعل الآن يا راميراز؟"

"نحن لسنا أغبياء سنيور.. منذ اليوم الأول كنا نعرف ماذا تحمل. الآن نريد منك /شيفرتهما/."

ابتسم كوكهان من أعماقه.. الرجل الماكر يريد أن يلعب هذه اللعبة من أجل نفسه. إذن المحفظتان ما زالتا في المزرعة.. ارتاح كثيراً. إذا لم تكن الـ FBI موجودة في الوسط فالخروج من هذا الوضع ومن هذه الغرفة والمزرعة تكفي.

كان قد أحنى رأسه على الصحن الموجود فوق الطاولة. وفي الوقت الذي مدَّ فيه يده اليسرى نحو الصحن.. حرَّك يده اليمنى بحركة خفيفة كي يجذب الانتباه وقال:

- "أعتقد أنه يجب أن أفكر بنفسي في هذه المرحلة. إذا عملت معكم ووضعت يدي بأيديكم. هل أستطيع أن أعيش حياة سعيدة وهانئة دائمة؟ أما إذا كنتم تفكرون بأخذ المعلومات بالتعذيب فتصابون بخيبة أمل كبيرة"

ضرب راميراز بيده على كتف كوكهان بشكل خفيف وقال:

- "نحن لسنا طماعين كما تتصور سنيور، وستأخذ حصتك مثلنا.. والمبلغ يكفي للجميع".

رفع كوكهان رأسه وابتسم، وفي الوقت نفسه كان يُنصِّل وضع الموجودين. غرفة صغيرة - ثمانية أمتار مربعة. /راميراز/ ومعه خمسة رجال مسلحون يقفون على أرجلهم، ورجلان يقفان خارج الباب المفتوح. كان /راميراز/ قد جلس قربه.

في اللحظة نفسها قرر المباغتة.. حمل الصحن الذي أمامه. وقذف به نحو المصباح الأصفر فكسره.. وساد الظلام فجأة.. في هذه الأثناء كان قد غرز مقطع

الملعقة البلاستيكية المدببة على العين اليمنى /لراميراز/. كثرتهم الآن تحولت ضدهم كانوا لا يستطيعون إعطاء القرار الصائب للحركة.

استفاد من الفوضى التي سببها/ راميراز/ عندما بدأ يضرب يديه من شدة الألم. عندما أطلقت الرصاصة الأولى. انتقل إلى الطرف الثاني. واستطاع معرفة مكان الرجل الذي أطلق النار.. حيث سحب الساعد الذي يحيل السلاح نحوه وكسره بضربة واحدة. منذ الآن صار مسلحاً.. حيث بدأ بإطلاق النار نحو الرجال الواقفين هناك.

عندما انقطع إطلاق النار ـ فكّر بأنه قتل الرجال الخمسة. كان عليه أن يترك أحدهم حياً. وعندما تعقب الرجال بأنفاسهم المتعاقبة، وصل إليه ووضع رأسه تحت إبطه.. حيث قال الرجل مترجياً: "رجاءً .. رجاءً لا تقتلني سنيور" ابتسم كوكهان.

كان /بينغوراميراز/ هو الذي بقي حياً، والرجلان اللذان على الباب قد تركا مكانهما وسترا نفسهما بعد سماعهما صوت إطلاق الرصاص. إذا رمى كوكهان نفسه إلى الخارج سيموت حتماً. ومن خلال الضوء الذي يرشح من خلال "الكوريدو: شاهد أن الرجال قد دفعوا الباب ولكن لم يقفلوه. هذا كان خطأً كبيراً. دفع الباب بقوة وجعل من جسم "راميراز" درعاً له. كان الأخير يصرخ بأعلى صوته كيلا يرموا النار.

لم يكن ثمة مكان يستطيع فيه الرجال تخبئة أنفسهم. كانوا قد انحنوا وسددوا بنادقهم باتجاه الباب. كانت أوامر /راميراز/ تربط أيديهم وسواعدهم. ولكن كوكهان أطلق عليهم النار دون تردد. فأرداهم قتلى.. حيث بدأ /راميراز/ بالبكاء.

سأله كوكهان: "هل من أحد في الأعلى؟"

كان راميراز ما زال يبكي.. ضربه كوكهان ضربة خفيفة بقبضة سلاحه وقال له: "ارجع إلى وعيك أريد محفظتيَّ فقط وأغادر هذا المكان. لن أقتلك لأنك ستنظف هذا المكان من الجثث وتغطي على كل شيء. لا أريد أن يعرف أحد ما حصل هنا. لن أطلب المسؤولين ولن تقول لهم شيئاً. وإذا فعلت ذلك يسألونك أسئلةً كثيرة. وعلاقتك مع الآخرين تبيعك لهم:"هدأ الرجل فجأة.. ما قاله كوكهان

كان صحيحاً إلى حدٍ ما.

ولكن من غير الممكن الثقة /براميراز/ وبعدم فضحه. إذا تحدث يقبضون عليه مباشرة.. أما إذا قتله. لن يترك أثراً ويظل حراً لعدة أيام وهذا يكفيه.

رفع راميراز رأسه وقال: "لا يوجد سوى خادمين وعدة رجال يسيرون على شكل دورية" كانت زوجة الرجل وأولاده يعيشون في الطرف المكسيكي. وبين وقت وآخر يأتون بفاحشات جميلات إلى هنا. يقيمون الاحتفالات العامرة بالجنس والمخدرات من أجل معلمهم.

- "لماذا لم يأتوا على صوت الأسلحة؟"

- ""الجدران مغطاة وقوية وتقوم هنا بعض الأعمال التي تصدر كثيراً من الضجة".

فكّر كوكهان في نفسه: "إذن لم أكن أنا الأسير الأول الذي سيقومون بتعذيبه هنا".

عندما دخلا البيت.. دفعه كوكهان نحو غرفة مكتبه. كان يتذكر أنه قد شاهد سلاحاً كاتماً للصوت. كانت المحفظتان والسلاح على أرضية الخزانة الحديدية. وعندما ألقى نظرة فاحصة إلى المحفظتين أحس ببعض الراحة. لم يلمسهما أحد بعد. حمل المحفظتين والسلاح وتناول بضعة آلاف من الدولارات وهويتين مزيفتين ووضعها في جيبه.

عندما حمل السلاح الكاتم الصوت أشار بيده إلى الكاميرا الموجودة على السقف وقال: "هيا أرني غرفة الأمن". كانت ثمة كاميرات أخرى كثيرة في باقي الغرف وداخل المزرعة وعلى مدخلها. كان عليه مسح كل شيء من أثره.

كانت غرفة الأمن فارغة، لم يكن ثمة إنسان يقف على رأس التسجيلات، لو كان موجوداً لأعطى إشارات التحذير منذ وقت طويل. فكرٌ كوكهان في نفسه.. لم يكن بحاجة إلى /راميراز/ بعد الآن.. دفع الرجل مترين نحو الأمام وأطلق النار على رقبته.. فتكوَّم على الأرض بهدوء. جذب انتباهه كاميرا صغيرة في الغرفة.. حملها معه.. كان بحاجة إليها كي يسجل العملية التي كان سيقوم بها.

أثناء ذهابه إلى الكراج لجلب بعض البنزين لحرق المنزل. وجد الخادمين في

المطبخ. كانا يجهزان طعام العشاء.. لم يكن عنده وقت طويل للتفكير.. كانت مهمته أهم من كل شيء فأطلق رصاصتين.

فتح الغاز وانتقل إلى الكاراج. حمل /بيدوناً/ من البنزين وصبّه على البيت وخاصة مكتب /راميراز/ وغرفة الأمن.

في الوقت الذي كان يتجه فيه نحو رجلين واقفين على باب المزرعة بسيارة /مرسيدس/ زجاجها أسود... نظر إلى الخلف وإذْ بالأدخنة كانت قد بدأت تتصاعد من البيت.

ومن حظه أن الرجلين اتجها نحو مكان وجود السائقين كي يستفهما عن الأدخنة المتصاعدة من البيت. عندما كانت النافذة تنزل بدأ بإطلاق النار

نزل كوكهان من السيارة وفتح باب المزرعة... وغيَّر المذياع إلى محطة أخبارية وبدأ برحلته الطويلة.. كان عليه أن يأخذ تفصيلات المعركة كلها ويسجلها. كانت مدينة واشنطن ستكون موقفه الثاني. وقبل ذلك يجب المرور على نيويورك لتنفيذ خطته وتصويرها وتوزيع الصور إلى وكالات الأنباء العالمية كلها... قنبلتان نوويتان قوتهما تقدر بعدة أضعاف القنبلة التي أُلقيت على هيروشيما. تقتظران الانفجار في أهم مركزين وأهم مدينتين من مدن الولايات المتحدة الأمريكية وكان كوكهان قد قرر في نفسه إذا لم ينسحب الجنود الأمريكيون من تركيا. كان سيأتي بجهنم إلى منازلهم.

٢٥ أيار ٢٠٠٧ . الساعة ١٦,٠٠

برلين . ألمانيا

كان السفير التركي في ألمانيا السيد /أونورتورك أوغلو/ ذاهباً إلى موعده مع وزير الخارجية الألماني السيد /جوسكافيشر/ بانفعال شديد. الملف الذي كان تحت مقعده.. سيحدد قدر بلاده.

كان هذا الموعد قد أعطي له متأخراً أكثر مما كان يتوقع. وكان السفراء الأتراك في كل من إنكلترا وفرنسا وإيطاليا وروسيا قد أُمروا أيضاً بتسليم نسخة من هذا الملف تحت عنوان /الكود المستعجل/ إلى كل مسؤولي هذه الدول كانت الأمم المتحدة لا تأبه لهذه الهجمة الشرسة التي تقوم بها الولايات المتحدة ضد تركيا. ولا كان أحد يتوقع أن يصدر منها أي شيء. كان على الأتراك إقناع الدول الكبيرة بالوقوف إلى جانب تركيا في دفاعها عن العدوان.

كان الأتراك الموجودون في أوروبا يخرجون بمظاهرات تنديداً بهذه الحرب الظالمة. وخاصة في ألمانيا.

عندما لفَّ السفير من /الكوريدور/ لاحظ أن الوزير نفسه كان ينتظره على الباب مع أن معاونه كان موجوداً معه. هذا الموقف أعطاه بعض الأمل.. كان هذا الرجل صديقاً لتركيا على الدوام كان قد حاول المستحيل لإدخال تركيا بالوحدة الأوروبية. ولكن لم يستطع منع الدول الأخرى التي كانت تعارض دخول تركيا بالاتحاد الأوروبي وخاصة فرنسا. ولكن هذه الفكرة المهمة كانت قد ساعدت على تلاطم اختلافات الرأي بين الأطراف. كانت اللعبة السياسية التي تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية منصبَّة في الدرجة الأولى إلى إنهاء وجود الاتحاد الأوروبي.. وذلك من خلال الدول الشرقية التي صارت عضواً فيها ثم بفشلها الاقتصادي وعدم تناغمها مع الدولة الغربية.. وإبقاء تركيا خارج الاتحاد.

صافح الوزير السفير مبتسماً. ودخلا الغرفة مباشرة كان /أونورتورك أوغلو/

مضطرباً فقال للوزير:

"أريد الدخول في الموضوع مباشرة يا سيدي الوزير" قال فيشر: "بكل تأكيد أنا أفهمك... تفضلوا".

كان السفير سيقدم الملف في المرحلة الأخيرة من لقائه: "ننتظر منكم دعماً ومساندة إيجابية لإيقاف الحرب الظالمة التي تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية ضدنا ضاربة بعرض الحائط كل القوانين الدولية".

ارتسم التجهم على وجه فيشر فربط ساعديه ببعضها. كان السفير قد فهم ما الذي كان موجوداً على رأس لسانه: "لقد قمنا بتقديم إدانة للولايات المتحدة وطلبنا إيقاف الهجمات فوراً وحلّ كل القضايا المتنازعة حولها بالحوار والمناقشة. حتى إننا عرضنا الوساطة بين الطرفين. لم نفعل هذا الشيء من أجل الصداقة التي تربطنا. ولكن من أجل المصالح الألمانية الموجودة في تركيا. ولكن لست أدري لماذا يصرّ الأمريكيون على هذه الحرب ولا يريدون التراجع والحوار".

مدّ معاون الوزير ورقة له: "انظروا - إن البلاد الأوروبية كلها، حتى اليونانيين.. يرفضون سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ووقعوا على التنديد مثلنا".

فكّر/ أونور تورك أوغلو/ أنه قد حان وقت فتح الملف حيث قال: "نحن نعرف لماذا تصر الولايات المتحدة الأمريكية على الحرب يا سيادة الوزير. في هذا الملف تستطيع أن تجد الخطط الأمريكية الخائنة منذ سنوات طويلة وأنها تفعل ذلك من أجل معدن /البور/ الموجود في تركيا.

كان جوسكا فيشر قد دهش: "هل تقول البور؟"

"نعم.. ربما لم تسمعوا باسم هذا المعدن من قبل.. هو منبع الطاقة المستقبلية، كل المعلومات تجدونها في الملف... ولقد أرسلنا نسخة إلى جميع دول العالم إذا احتلت الولايات المتحدة تركيا لن تكون القوة الرئيسة فقط بل ستكون أفنديكم".

كانت اللعبة التي تلعبها تركيا هي اللعبة الدبلوماسية. وهي الطريق الأوحد لخلاصها. كان عليها أن تثبت بأنها مهمة للآخرين أيضاً.

٢٥ أيار ٢٠٠٧ . الساعة ٢١,٠٠
الولايات المتحدة الأمريكية
فلوريدا . CENTCOM

كانت الغرفة مضاءة باللون الأحمر فقط.. كانت تتراءى أنها غرفة جدْية إذا قارناها بغرفة الاجتماعات /البريفينغ/. كان هوارد ستريك يناقش مجموعة من الجنرالات وعددهم أربعة. وقد مرت ثلاثة أيام على بدء العملية العسكرية ضد تركيا. ومع أنهم لم يتركوا الهجوم لساعة واحدة. كانت القوات التركية تقاوم بشراسة.. متحملة كل الضربات. كانت الصور تأتي تباعاً على الشاشة العملاقة على شكل باكيتات /ديجيتالية كانوا يدققون من خلال بعض الأقمار إذا ما كانت الأهداف قد ضُربت كلياً أم لم تُضرب.كانت بعض الأهداف فيما ترفع من الجدول: "أبيدت"، وبعضها تعطى تعليمات جديدة لقذفها ثانية.

- "الغارة الجوية الكبيرة قد بدأت يا سيدي. بعد قليل ستصلنا مشاهد جديدة. الاستماع إلى محادثات الطيارين باللاسلكي ربما تكون غريبة".

هزَّ ستريك رأسه. كان الوقت حساساً بالنسبة للعملية. كان يريد أن يكون في هذه اللحظات مع جنوده. فتح ضابط العمليات في المقر زراً كي يخرجْ صوت الطيارين في الغرفة. في البداية سمعت خشخشة إلكترونية. وبعد قليل بدأ صوت الطيارين يخرج، كانت المحادثات بين الطيارين هادئة وكأنهم لا يفعلون شيئاً.

- "أمان يا إلهي ما كنت أريد أن أكون داخل هذه الجهنم".
- "لقد تمّت إصابة الهدف بدقة.. وهناك انفجارات كثيرة تحصل"
- "إن الدبابات تترك أو تغادر مكان تواجدها.. وأكثر ها يحترق. بعد الآن لا يشكلون أية خطورة علينا".
- " أووو يا إلهي.. كانت ثمة سيارات كثيرة تمر فوق الجسر".
- "نسر: هل دُمر الهدف؟"

- "لا.. القنبلة وقعت في منطقة جبلية".

كانت الأصوات تنعكس على أذن /هوارد ستريك/ كان قد أعطى أقسى أمرٍ خلال حياته العسكرية الطويلة، عندما تنتهي هذه الموجة من الغارات.. كانت ستبدأ الموجة النفسية الثانية، كان فضوله يزداد.. ماذا سيحصل يا ترى؟ يجب أن يُجرح الشعب التركي من أعماقه كي يسلموا أنفسهم مباشرة ولأجل هذا السبب كان سيخاطر في محاربتهم.

- "مركز.. مركز.. يجب أن تروا هذا المشهد".
- "ما حال مصانع الأسلحة في /كيرك قلعة/؟"

"تحدث فيها انفجارات مخيفة... يا إلهي - ليرسلوا سيارة إطفاء إلى هناك..."

"الضاربة الأولى.. ثمة طائرات تقترب منكم."

"عُلم.. إن سرب أف - ١٨ سيستقبلهم".

أشار هوارو ستريك بيده إلى ضابط العمليات كي يقطع صوت /مكبر الصوت/. حيث استولى الصمت داخل الغرفة مباشرة. فكّر في نفسه: يجب أن يتابع الاستماع حتى انتهاء المرحلة الأولى من الغارة. منذ وقت طويل لم يذق طعم النوم.. كان كل شيء يسير على ما يرام كما كان يتوقع.. صعبة ودامية. كان قد حقق خسائر أكبر من كل التوقعات.. والدفاع الجوي كان ضعيفاً أكثر من توقعه.. كانت المدافع المضادة للطائرات تمشط السماء بشكل جنوني.. ولكن هذه كانت مرآة لشعبهم فقط لا تضرهم ولا تنفعهم.

كانت الفرقة الأولى المدرعة الأمريكية ودبابات الفوج الثالث تتقدم بسرعة على استقامة مدينتي "طرسوس وقونيا" إذا فتح لهم الطريق فسقوط أنقرة مضمون. إذا دخلوا مدينة /قونيا/ لن تظل أمامهم أية حواجز.. كانت الطائرات الأمريكية قد حلّقت بكثافة فوق مدينة /أضنة / كي تفرغها من سكانها. أما إذا لم يحصل ذلك. فإن الأوامر قد أُعطيت للفرقة الأولى للمدرعات على إبادة المدينة كلها، والأخبار التي كانت تصلهم تباعاً إن الجنود يحاولون إخراج السكان من المدينة.. ومعنى هذا إن المدينة ستستسلم للأمريكيين؛ يا ترى لماذا كانوا يتراجعون بكل هذه السهولة؟. حتماً هناك مناورة وخطة جديدة. هكذا فكرّ سريك. كانت

ثمة مشكلة كبيرة أمامهم وهي لواء إسكندرون.

بعد أن تمَّ قذف اللواء والكتائب التركية الحدودية ـ كان عليهم دعم القوات البرية المتقدمة نحو /طرسوس/ كيلا يظل جناحهم مكشوفاً للأعداء. منذ ثلاث ساعات تقريباً كانت فرقة الإنزال الجوي /١٠١/ قد بدأت بالانزلاق والاتجاه نحو حدود لواء إسكندرون. وبالأصل كان اللواء ٨٢ التابع للفرقة /١٠١/ للإنزال الجوي قد دخل الحرب والمناوشات مع الأتراك... كان بمقدور الفرقة /١٠١/ للإنزال الجوي القضاء على الجيش التركي ومسحه من هناك بدعم من القوات الجوية. أما إذا لم ينجحوا في ذلك. فإن فرقة المشاة الميكانيكية الرابعة ستسيطر مباشرة على لواء إسكندرون. ولتطبيق هذه العملية... ربما يتأخرون يومين أو ثلاثة.

كانت القوات التركية تقاوم ببسالة وتنجح بوقف الأمريكيين. لو كان أمامهم جيشٌ آخر لأبادوه منذ وقت طويل.

حتى الجيش الروسي لم يكن يستطيع مقاومة الجيش التركي. ولكن لوجود الأجهزة الحديثة والتكنولوجيا المتقدمة الموجودة بيد الأمريكيين كان يؤخر الأتراك إلى دفعهم وعدم نجاحهم.

القوة الموجودة بيد الأمريكيين جعلت من شعر الأتراك أشواكاً من الدهشة والغرابة.. كان على الأتراك.. ضرب قوة حساسة عند الأمريكيين كي يرفعوا معنوياتهم قليلاً.

٢٦ أيار ٢٠٠٧ . الساعة ١٤,٤٥

البحر الأبيض المتوسط

حاملة طائرات جورج بوش uss

كان أكثر من خمس وثمانين طائرة تقلع وتهبط على الدوام على حاملة الطائرات العملاقة/ جورج بوش/ والذي يعيش عليها أكثر من ستة آلاف شخص. كانت قد مرت أربع وعشرون ساعة على بدء الهجوم الكبير... الأدخنة السوداء الظلامية قد غطت سماء الأناضول... لم تكن المشاهد التي تتراءى من فوق السفينة جميلة على الدوام.. ولا أحد يدري هل كان الطيارون يحسون في أعماقهم بشيء من تأنيب الضمير لإبادة المادة والروح.

ولكن كانوا يُحسّون بأن كل المهمات الأمريكية تتفرغ فوق التراب التركي.

كان ذلك اليوم هو بدء الغارات البيسكولوجية.. وكانت المهمات ستعطى للطيارين بعد إقلاعهم من السفن والمطارات الأخرى.

كانت قابلية المقاومة لدى الجيش تضعف باضطراد. والقوات الجوية في حالة من الانكماش... لا تقدر أية طائرة على الإقلاع من المطارات التركية لأن جميع المطارات تقريباً قد ضربت وخُرِّبت وهُدِّمت. أما الطائرات الأمريكية. فتطير دون مشاكل ومقاومة لأمن الطائرات التركية ولا الصواريخ.. سوى من المدافع المضادة التي كانت مثل عدم وجودها، وتضرب أهدافها كما يحلو لهم.. كان هذا اليوم مختلفاً عن الأيام الأخرى.. كان قد حان موعد إنزال الضربة القاضية.. يوم ستضرب فيه أحاسيس البشر وتكسر مهمة الدفاع والمقاومة من أعماقهم إلى الأبد.

كانت خوذة النقيب /جيفان هوكسلي/ تتدلى على ساعده وهو يتجه نحو طائرته من طراز /fa – 18e/. كان سطح السفينة ضاجاً بالحركة والسرعة.. الطائرات الهابطة تتجه مباشرة إلى /هنا / وتعود ثانية إلى المدرج بعد أن تقلع

الطائرات المتجهة نحو أهدافها كي تأخذ دورها بالإقلاع. كانت أصوات المحركات التي تنتج الطاقة البخارية تملأ الأجواء: ولكي تكون الرياح مساعدة للطائرات يجب أن تكون على عكس اتجاهها وتقوم السفينة بهذه المهمة بمناورة صغيرة بين وقت وآخر.

كان لدى النقيب /هوكسلي/ مزايا عكس الطيارين الآخرين. كان والده من أصل كردي. قد هاجر إلى أمريكا أثناء حرب الخليج الأولى واستقر هناك وأمه من أصل تركماني أما مكان ولادته فهو مدينة/ ديار بكر/ ولكن عندما قامت الحرب العراقية كانوا في زيارة لبعض أقاربهم في العراق.. ولهذا السبب لم يستطيعوا الخروج من هذا البلد. وبما أنهم ساعدوا القوات الأمريكية في العراق فقد منحه أحد الجنرالات الجنسية الأمريكية.

كان /جيفان/ يتذكر تلك الأيام مثل الخيال. في الوقت الذي كان يغادر قريته القريبة من /ديار بكر/ كان يحسُ بإحساس غريب جداً.. وكان قد سأل والده: "هل سنعود ثانية إلى هنا يا أبي؟" وأجابه والده في ذلك اليوم: "سنعود يا بني" ولكن عندما قال له والده هذه الكلمات كان ثمة خيال قد سقط على وجهه ولم يدر من أين سقط ذلك الظل. وخاصة بعد مرور سنوات طويلة وبعد أن صار طياراً في القوات الجوية الأمريكية.

منذ بدء الحرب كان قد خرج أكثر من ستّ عشرة مرة بطائرته وكان قد قذف المدرعات التركية المتواجدة في لواء إسكندرون ورأى كثيراً من الدبابات تحترق من خلال كاميراته.

كان عسكرياً محترفاً.. ولكن في كل مرة يقذف فيها قنبلة مقادة بالليزر كانت طفولته تُكشف أمامه. ربما أصدقاؤه يكونون في مكان ما في الأسفل ثمة صراع داخلي في أعماقه.ولم يكن يفكر لحظة بإهانة يقدمها لمهنته ووطنه الجديد.

عندما ركّز نفسه داخل كبين الطائرة وحرك المفاتيح لتشغيل المحركات. كان مرتاحاً إلى حدٍ بعيد. ولكنه ذاهب هذه المرة في مهمة مختلفة.. لم تكن المهمة واضحة حتى الآن. وكان سيأخذ /كوردينات/ هدفه بعد صعود طائرته إلى

الفضاء. دارت محركات الطائرة أمام/ الكتابولت/ وتجهزت للإقلاع. كان العسكري الواقف على المدرج يوجه الطيار بالأضواء التي كان يحملها في يده. وعندما حان وقت الطيران أنزل يديه نحو الأسفل واتجه جانباً وأعطى أمر الإقلاع "هيا اصعد" صعدت الطائرة اف ١٨ التي يقودها /جيفان/ بسرعة الرصاصة.. وحلقّت بعد أن قامت من السفينة وهي تميل نحو الأسفل والأعلى.

كان الجو فوق البحر المتوسط غائماً جزئياً.. كانت النجوم قد بدأت باللمعان داخل الظلام وبين الغيوم المجزأة هنا وهناك. وصلت /اف ١٨/ بعد فترة فوق البر.. عندما وصلت الطائرة فوق جبال /طوروس/ كانت /لكوردينات/ قد أشارت نحو الشمال على شاشة الحاسوب المخصص للاتصالات. فهم جيفان أنه ذاهب نحو أنقرة، تقدمت الطائرة الاتوماتيكية فترة من الوقت نحو هذه / الكوردينات/ ظهرت ثمة إشارة أخرى على الشاشة.. الكوردينات القطعي للهدف.. أدخل الإشارة إلى حاسوب الطائرة.. فمالت بعض الشيء وأخذت طريقها نحو الهدف.. كان هذا الوحش الإلكتروني يذكر بالإنسان/ بروتويلر/ الوفي. كانت الطائرة تحمل إلى جانب خزانات الوقود قنبلتين زنة كل واحدة طن واحد.. تسير على الليزر. كانت هذه القنابل قد صُنعت لاختراق الملاجئ الموجودة تحت الأرض. ولكن تأثيرها على سطح الأرض كان مخيفاً إلى حد كبير. لم يكن أحد يرافق /جيفان/ في رحلته هذه. وكان يذهب لأول مرة بمفرده لأداء مهمة بهذا الشكل. كان هذا الموقف يجعله يُحس بأنه قطعة من مهمة سرية يقوم بها.. كان فضوله يزداد لمعرفة الهدف.

بعد رحلة دامت عدة دقائق ظهر ضوء أحمر على شاشة الرادار. كانت كوردينات الهدف قد ظهرت على شاشة الرادار. الطائرة تستطيع إيجاد الهدف بوساطة الرادار AGP79... كان يتعقب الهدف والرادار إلى نقطة ما ثم ينقل الإشارات إلى مجال الليزر.. ولا يبقى للطيار سوى متابعة الهدف حتى وقت التصادم.

بدأ الرادار بإرسال تحذيرات خفيفة معناه أنهم اقتربوا من الهدف كثيراً.. حوَّل /جيفان/ مباشرة /بود الليزر/. كان يستطيع رؤية الأجسام على الأرض من خلال الشاشة. يجب أن تكون هذه الأجسام هي الهدف الذي سيلقي عليه ثمانية أطنان

من القنابل. كانت ثمة أحاسيس غريبة قد استيقظت في قلبه. رؤية وطنه بهذا الشكل وبعد فراق دام سنوات طويلة. تمزّق.. وأحسّ بأنه ثمة ضيق غامض قد ضغط عليه.. ولكي يوجه /بود/ الهدف بدأ بالبحث عن نقطة في الكوردينات.. لم تكن ثمة أشياء كثيرة على الأرض. يجب أن يكون الهدف مكاناً ما خارج المدينة.

رأى /جيفان/ نقطة الإشارة تتجه إلى بناية على بعد عدة كيلومترات.. دقق الرادار وبود الهدف والكوردينات التي فوقها. نعم كان صحيحاً.. كان قد وجد الهدف.. ولكن دقيقة واحدة.. يا إلهي.. قالها في نفسه.. فكبرت عيناه وبدأ قلبه ينبض بسرعة. نظر ثانية وبدقة إلى الهدف الموجود في وسط الإشارة واستعد للتسديد. لم يكن يصدق هذا لم يكن يصدق بأن الهدف الذي سيضربه هو هذا.

كان الهدف على ارتفاع تسعمئة متر عن سطح الأرض.. هو نصب مصطفى كمال أتاتورك المشهور. كان هادئاً ووقوراً بكل ما عنده من الاحتشام والكبرياء. الأسود المرمرية المجاورة لطريق الأسود.. انعكاسات بناء الدولة لدى الأتراك. وكأنه يضحك من الخطر الذي يقترب منه ويمضي.. كانت الأسود تتحطم، ولكن الروح الذي أعطى للمرمر قدرة التشكل.. ما كانت تتحطّم.

لم يكن /جيفان/ الديار بكرلي يصدق بأنهم قد أعطوا له هذا الهدف.. ما الضرورة من ضرب هذا المكان؟ ماذا سيربح الجيش الأمريكي من هذه الضربة؟ لا شيء أبداً... هذه هي الإنسانية كلها... لا... لا يجب أن يكون خطأ.. هكذا فكّر في نفسه، والإشارات كانت صحيحة. وكان ضابط العمليات فوق حاملة الطائرة /جورج بوش/ ينتظر منه تقريراً لكونه صار فوق الهدف. كان يحس بأن الدماء التي كانت في عروقه تغلي وأنها تسيل مثل الجنون... ولم تكن ثمة مدافع مضادة للطائرات تُرمى من أماكن كثيرة. لم تكن ثمة أية قوة تستطيع إيقاف صواريخ /جيفان/. كان النصب الذي وقعت عليه الظلال الضبابية.. يتراءى وكأنه لن يتهدم.. تراءى له أن الصواريخ عاجزة. وبدأت أذناه بالطنين. لم يستطع أن يعطي معنى للأصوات التي كانت تملأ دماغه. وكان الأتربة الموجودة تحته قد بدأت بالغليان.

كانت التربة حارة مثل الماء القادم من مركز الأرض.. كانت غاضبة وكأنها ستقفز نحو الأعلى وتحطمه مع طائرته وستبتلعه. كانت ثمة مشاهد غريبة تسيل أمام عينيه. وجوه البشر الذين يشبهون سمة والده بوجوههم الضبابية يسيرون خارج الطائرة. وكأن العيون المسنة تنظر إليه.. ثمة غضب يتفجر في وجوههم. فدُهست مثل ولد صغير.

انعكس صوت من داخل الطائرة /جيفان/ قريبه تماماً.. نظر نحو كل الاتجاهات ولكنه لم يستطع أن يرى شيئاً.

- "/جيفان/ إذا ذهب إلى البحر المتوسط. . يا إلهي.. يجب أن أكون قد جننت... هكذا فكرٌ في نفسه. ولكنه لم يكن يستطيع التخلص من تأثير الصوت.. صارت يداه مثل المقطوعتين.. كان الصوت الذي يأمره قد فتح في روحه جراحات عميقة.. أعماقه ذبلت.. ولكن ثمة حزمة من الأمان كانت تسيل من جسده. فجأة بهرت عيناه.. تحولت شاشة التسديد إلى نور ساطع. الآن يرى وجهاً على الشاشة. وجهاً محبوباً.. مبتسماً ينظر إلى روحه.. ارتخت كل عضلات جسمه دفعة واحدة. "التحق بنا يا ولدي/

كانت عيناه قد امتلأتا بالدموع.. ما هو هذا الشيء؟

حلمٌ بلا معنى ومغزى. كان الهدف على وشك أن ينهزم من أمامه. أعطى /البود/ إشارة الإنذار. ومرت الطائر ة من فوق نصب أتاتورك. عمل مناورة قاسية.. لم يكن يتحدث وكأن دماغه قد توقف. ولكنه صار وكأنه يسمع الأصوات.

كانت أصوات/ النضاوي/(جمع نضوة).. تنعكس على جنبات دماغه ألماً وحسرة.. شاهد الفرسان على وجه السماء يسيلون بقوة... صاروا سيلاً من الأضواء وهم قادمون يخترقون السحب ويتقدمون.. لم يكن يسمع الآن النداءات القادمة من اللاسلكي. كان قد عاد ثانية إلى طفولته ووجوه زملائه المبتسمين. وإلى رائحة التراب.

تذكر أمومة الوطن. كان يفكر بأنه يعود إلى المكان الذي هو منه وفيه. وفي الوقت الذي كان يمر فيه فوق السفن الأمريكية فوق البحر المتوسط وبين

الصواريخ التي كانت تتجه نحوه. مرّ من فوق فرقاطة وابتسم.. كانت حاملة الطائرات USS /جورج بوش/ مقابله تماماً.

لم يدر ماذا يفعل وكيف يتصرف الذين فوق الحاملة..

كانوا ينظرون نظرات دون معنى إلى الطائرة التي كانت تقترب منهم للمرة الثانية والأخيرة. نظر جيفان إلى الناس الذين كانوا يعيشون في أعماق ذاكرته. ومباشرة صدمت الطائرة بالحاملة بكل ما أوتيت من السرعة والقوة. سُمع صوت قوي تردد صداه في عموم البحر الأبيض المتوسط. كان اللهب قد وصل إلى ارتفاع عشرات الأمتار. عندما اتحدت القنابل مع البنزين الموجود في مستودعات الحاملة تحول المدرج إلى جهنم. كانت بعض الطائرات قد تطايرت فوق البحر وبعضها الآخر تضرر من شدة الانفجار. كانت الأدخنة ولهب النار تتفجر من قلب السفينة. لأول مرة في التاريخ العسكري الأمريكي - تتم خسارة حاملة طائرات.

٢٦ أيار ٢٠٠٧ . الساعة ١٠،٥٠
فلوريدا... CENTCOM

كان الرئيس في حالة غضب شديد. "ليقهرهم الله يا هوارد!!"

لم يكن يفكر بأنه سيُمنى بمثل هذه الخسارة. ولم يكن أحد يستطيع الاقتراب منه حتى سكرتيرته /كيتي/. كان جيش من الصحفيين يريد محاسبته لغرق حاملة الطائرات.. ولكن لم يكن أحد يستطيع أن يجده أو يصل إليه. حتى المسؤولون الكبار للصحف الكبيرة الذين هم بمثابة أصدقاء حميمين للرئيس. كان قد طلب منهم سد حنكهم وعدم تضخيم هذا الأمر. أميركا العظيمة وجيشها العظيم وأسطولها المسيطر على كل البحار والمحيطات، كيف لها أن تخسر حاملة غير قابلة للخسارة بأي شكل من الأشكال.

هذه العملية كانت ستشجع الآخرين في هذا المجال.

"صدقني يا سيادة الرئيس دققت في هذا الموضوع.." كان صوت رئيس الأركان يرتجف.. وحقيقة هذه خسارة غير مقبولة. أضخم سفينة على سطح البحر... يعيش عليها آلاف الجنود.. قد سقطت وأُخرجت من المعركة.. وها هي ذي السفن الأخرى تسحبها الآن.. نعم .. لم تغرق.. ولكنها جرحت من أعماقها.. ستنام في المشفى أكثر من ستة شهور وتجري لها عدة عمليات. حتى تعود إلى وضعها الطبيعي.

- "عدتُ لا أصدق شيئاً يا هوارد. أحدهم قد وسَّخَ هذه العملية. هل تلاحظ ذلك؟"

لم يكن رئيس الأركان يعرف ما الذي سيقوله.. كانت عروق وشرايين الرئيس قد انتفخت. وإذا ما زاد غضبه بعض الشيء كان سيلطمه على وجهه. كان هوارد يخاف من لكماته وإذا ما فعل ذلك. سيعطي هذا الغبي درساً لن ينساه أبداً وبدون أي شك.

- "كان ذلك الرجل من أفضل طيارينا.. ولكن عاش في تركيا مرحلة

طفولته.. ربما تذكرها و.."

- "ماذا.. ماذا قلت.. هل قلت ذكرياته؟ يعني تريد أن تقول لي إن سفينة كبيرة ثمنها أكثر من مليار دولار.. تلاشت عن الوجود بسبب ذكريات إنسان كردي؟"

" يا سيدي هذه معركة كبيرة وجدية.. الآن نحاول جاهدين تحطيم وتهديم دولة قامت منذ خمسةٍ وثمانين عاماً ومن المستحيل الا تطلع أشياء بهذا الشكل"

- "تقول بيطلع ها.. لك طريق من هنا إلى جهنم يا هوارد. كنت قد ذكرت لي بأن الأكراد في تركيا سيساعدوننا. ألم نخطط إذا ما سيطرنا على المدن الغربية.. ستكون المدن الشرقية في جيبنا بكل راحة. إذا كان هذا الجندي منا وفينا وفعل معنا هذا الشيء... ما بال أهله وأقربائه.. هل فكرت بهذا؟ ثم لم يأتنا بعد بأخبار التمرد والعصيان الذي كنا نتوقع حصوله في المناطق الشرقية".

- بناءً على الاستخبارات التي وصلتنا بأن التشكيلات العسكرية الخاصة التي عملناها ضد الاحتلال السوفيتي.. قد وضعت يدها على كل مكان.. وتسلمت المبادرة في تلك المناطق.. ونحن بدورنا لا نستطيع أن ندخل الأكراد العراقيين في هذه المسألة. لأنه ربما نحرك الإيرانيين.. في هذه المرحلة لا نريد أن يتطور الأمر ضدنا.. اسمعني يا سيادة الرئيس.. ابحث هذا الموضع بينك وبين نفسك ولا تنشره على عموم العملية".

- "اعمل ما بدا لك يا هوارد.. ولكن أريد انتهاء المرحلة الأولى من هذه العملية.. يجب أن تبدأ أساس هذه العملية فوراً وبأسرع وقت ممكن."

فجأة تلاشى جو الغضب من داخل الغرفة. وكأن خسارة الحاملة قد ضيعت من معناها بعد هذه الكلمات. جلس الرئيس حول طاولته. كان يحاول زرع السكينة والهدوء في قلبه. بقي ستريك واقفاً على رجليه.

ثم ذهب إلى أمام الشاشة المقابلة للرئيس. وبمجرد فتح الشاشة جاءت نقطة سوداء.. وبدأت المعلومات تسيل عبر الشاشة. عبر خطوط الاتصالات التابعة (ENTCOM) وبوساطة هذا النظام كانت التطورات تتعقب دقيقة بعد أخرى وتجري الاتصالات والأعمال وفق التطورات الجاري

- "سيدي الرئيس إن عملية العاصفة المعدنية تتقدم نحو الأفضل في مراحلها

الأولى" عندما قال هوارد هذه الكلمات، لم ينظر إلى وجه الرئيس. وبالأصل كان يعرف ما الذي كان يغطيه من الإفادات السوداء الباقية من خسارة حاملة الطائرات.

- "إن قواتنا البرية لا تتقدم بسرعة كما كنا نتوقع ذلك ولكن الفرقة المدرعة الأولى والفوج الثالث قد وصلت إلى منطقة /طرسوس/. ثمة قوة تركية تقاوم قواتنا في مدينة /أضنة/ يا سيدي.

يقولون إن القوات التركية قد هجمت على قواتنا من مسافة قريبة. وتراجعوا ثانية وسحبوا دباباتنا إلى الأحياء السكنية. الأتراك خدعوا أولادنا هنا يا سيدي. حيث أصابوا أكثر من عشرين دبابة ولكن يقال أيضاً إن قواتنا قد تصرّفت ببعض الخشونة هناك أثناء المعركة. حيث أُلقيت بعض قنابل /سلاير/ إلى داخل الأحياء السكنية.. وبما أن هذه المنطقة سهلة ومنبسطة.. لا نستطيع رؤية المدنية بالشكل الصحيح.

- "قواتنا كانت تريد التحرك لاجتياز جبال طوروس. ولكن طلبنا منهم الانتظار بعض الوقت.. واجتياز جبال طوروس سيكون صعباً بعض الشيء وبالتأكيد إن تلك المناطق مملوءة بالكمائن وطائرتنا تضرب تلك المناطق وتسويها مع الأرض. ويستعملون قنابل /سلاير/ لتنظيف المنطقة على أكمل وجه.

- "إن هذه القوات يتيمة داخل الأراضي التركية وتتقدم. أليس في هذا نوعٌ من الخطورة عليها يا هوارد؟"

"أؤكد لك يا سيادة الرئيس. إن العدو لا يملك أية طاقة كي يقوم بهجوم منظم وشامل على قواتنا.. كل قوت الأعداء تحت القذف الشديد يا سيدي.. ومن غير المعقول أن ينظموا أنفسهم ويهجموا على هذه الفرقة.

- ولكن أين القوات التي خرجت من أنقرة وهي اللواء المدرع التاسع واللواء الميكانيكي ٢٨..؟

- هؤلاء الأتراك غريبون حقاً.. ماذا كانوا يفكرون عندما أخرجوا هذه الألوية من المدينة. وأعتقد أنهم أخذوا احتياطاً ضد الفرقة الأولى.. وربما فهموا الخطأ الذي ارتكبوه. لأن عناصر اللواء التاسع قد أبيدت تقريباً عندما كنا

نشاهد هذه الهجمات، حقيقة تحولت شعر جسمي إلى أشواك من هول الضربات وأعتقد أنهم كانوا ينتظرون هذه الهجمة.

- ومن أين تعرف ذلك؟

- لأن هذا اللواء كان مدعوماً بمجموعة كبيرة من المدافع المضادة للطائرات. لو كانوا يحاربون دولة جارة لهم. ما استطاعت أية قوة أن تقف أمام هذا اللواء. ولكن طائراتنا B2 واف ١٥ و A10 أنزلت على رؤوسهم النار والدمار. ثم إننا قبضنا عليهم في ساحة مكشوفة.

- يا إلهي.. كنت أتمنى أن أرى ذلك المنظر. بالمختصر المفيد يا سيدي. لم يبق شيء عندهم سوى جثث الموتى والعربات المحطمة. ولكن اللواء ٢٨ الميكانيكي يُحاول التخلص من الغارات، من المناورات التي طبقها.

- طيب هل هناك من تطورات بالنسبة لبدء المرحلة الثانية من العملية؟

لم ينه الرئيس جملته وسبب ذلك أن كيتي كانت قد دخلت بسرعة. لم تكن تحدثت مع الرئيس في هذا اليوم كما هي العادة.. وكانت مزعوجة من هجوم الصحفيين حول حاملة الطائرات المضروبة. عندما رآها الرئيس سكت. وابتسم. جلست كيتي حول طاولة الرئيس دون أن تنظر إلى وجه /ستريك/ وانحنت نحو الرئيس كأنها تريد أن تهمس في أذنه شيئاً ما. السيد جيني يريد التحدث معك يا سيدي ويقول: "ليخلصني الرئيس من هؤلاء الصحفيين" أفرغ الرئيس قهقهة كبيرة وهو يقول:

- تمام يا كيتي.. سيعمد السيد هوارد على حل هذه المشكلة. ابتسم السيد ستريك بشكل قذر.. ما معنى ذلك. يعني أنه سيكون في نظر الجميع قائداً مهزوماً عندما سيصرح للصحفيين عن أسباب خسارة الحاملة. والحقيقة كان لا يريد أن يتسجل اسمه على صفحات التاريخ بهذا الشكل.

في الوقت الذي كان فيه كيتي وهوارد يخرجان من الغرفة رنَّ جرس الهاتف الخاص والذي لا يعرفه سوى الاثنين.

- "تفضلوا يا سيد /لينام/... خرج صوت ضعيف يسأل الرئيس: "كيف هي حال حربنا هل هي بخير؟" ابتسم الرئيس وقال: "نعم يا سيد /لينام/.. هي بخير أكثر مما كنا نتوقع" قال الصوت القادم من الطرف الثاني: "عملية سيفر"..

كانت هذه الجملة هي الاسم السري لعموم العملية. كان الجميع يظنون إن هذه الحرب ستبقى دائرة على الأراضي التركية. حتى قيام حكومة دمى جديدة تابعة للأمريكيين. ولكن الأمر كان مخططاً على إنهاء الدولة التركية من أساسها. وطرد الأتراك كلياً من الأناضول. كان هذا هدف العملية من أساسها... كان الأوروبيون سيبقون أحراراً ولن يحاربوا بعد الآن مع محاربين مسلحين وسيبقى العرب والإسرائيليون تحت منابع الماء الوفيرة.. طبعاً وسيحسون بالسعادة والأمان كونهم تحت رعاية وعناية الأمريكيين. أما الأرمن والأكراد كانوا سيأخذون الأرض التي تعجبهم ويريدونهم.. من يدري.. ربما تقام دولة رومية يونانية على ساحل البحر الأسود.. ولكن الأهم من كل شيء /البور/ و /التوريوم/.. و اليورانيوم الغني المخصب.. كل هذه المعادن منابعها للأمريكيين. والأصح أن هذه المعادن كانت ستصير بيد /أدريان الثالث لينام/ وهذه القوة ستجعل من أمريكا سيدةً للعالم بدون أي نقاش.

قال الرئيس: "قريباً يا سيد لينام .. قريباً"

٢٦ أيار ٢٠٠٧ . الساعة ١٣,٤٠

نبراسكا . افُوت

مقر القيادة الاستراتيجية

غرفة صغيرة محشورة تحت الأرض بعدة أمتار، غرفة من غرف مقر القيادة، مضاءة بمصابيح صفراء. في وسطها طاولة كبيرة.. عليها مجموعة من الخرائط. وثمة سهام وإشارات كبيرة واضحة هنا وهناك من الخريطة. وثمة أربعة جنرالات مجتمعون حولها. لم يكن هذا الاجتماع من الاجتماعات العادية المخصصة للحرب.

نتائج المناقشات هنا، تنتقل إلى رئيس الأركان. ومنه إلى الرئيس: هذه المناقشات تطرح مواضيع الحرب والعدو وعلى أساس نظام واحد. تطورات الحرب وتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة.

كان العميد /وارد/ وهو ضابط من ضباط الوحدات الخاصة. قد طور في عام ١٩٩١ نظام تدقيق للساحة العملياتية. ويعد الاجتماع مختلفاً عن الاجتماعات الأخرى.. يتناقش فيه مجموعة من الضباط المتنورين والمثقفين.

كانت المعلومات مرتبطة بالإعلام العسكري ومن القوات الخاصة الأمريكية التي كانت تشد الخناق على الأتراك ومن باقي المنابع المعلوماتية الأخرى، هذه التدقيقات والمناقشات المتعمقة ربما تغير مسار الحرب من أساسها. كانت هذه المناقشات التي تجري في هذا اليوم تذكر المرء بالمناقشات العادية ليس إلا.

- أيها السادة إن التطورات تبدو جيدة.. ولكن بعض الحوادث غير المتوقعة منعت من التأثيرات المباشرة للحرب.

- هذه الحاملة.. ليقهرهم الله.. لو بقي ذلك الطيّار حياً لكنت فعلت فيه...

- "رجاء دعونا لا ننزل إلى التفصيلات الدقيقة... التطورات جيدة وتعطي أملاً نحو المستقبل".

- "ولكن قواتنا الجوية في البحر المتوسط خسرت دفعة واحدة خمساً وثمانين طائرة. والجماعة دون أن يحركوا أيديهم صاروا وكأنهم أسقطوا خمساً وثمانين طائرة.

- لم يقل لنا أحد إن الأتراك أعداء بسيطون.

- "كانوا محظوظين فقط".

- "وكيف هو حال تقدم القوات البرية؟"

"قواتنا البرية دخلت إلى النظام أو الدوزان الذي نريده"

- " وما هي القوات الموجودة في الداخل؟"

- الفرقة المدرعة الأولى دخلت في معركة شديدة في منطقة /طوروس/. كتيبة من الدبابات أبيدت من طرف القوات التركية. المقاومة التي تقوم بها القوات التركية غير معقولة. كنت قد سمعت أنهم حاربوا في /كوريا/ بهذا الشكل. مهما ضغطنا عليهم ومهما ضربناهم.. وكأنهم يخرجون من الخنادق ثانية ويهاجموننا، جماعتنا لم يصدقوا ذلك".

- "لم نستطع التخلص من كمينهم إلا بعد أن ألقينا فوقهم قنابل /شلاير/ وبعد قذف جوي شديداً جداً. في هذه اللحظة يتقدمون نحو سهول / قونيا/ اليوم تلقّوا أمراً بالتوقف. وبعد أن يكملوا تزويرهم بالإمدادات والوقود يستطيعون التحرك ثانية.

بعض الإمدادات تأتيهم عن طريق البر وبعضها الآخر عن طريق الجو. ومن خلفهم تتقدم الفرقة الميكانيكية الرابعة. الآن هم مشغولون باجتياز منطقة جبال طوروس. وتوجهت كتيبتان من الفوج المدرع الثالث نحو الشمال. هدفهما بناء خط قوي في منطقة / غازي عنتاب/ والهدف من ذلك منع الأتراك من الهجوم عليهم من الخلف".

- "طيب والألوية الموجودة في لواء إسكندرون؟"

- "تبعثر ذلك اللواء من القذف الذي جاءهم من البحر وبهجوم الفرقة ٨٢ للإنزال الجوي.. ثمة معارك تجري هنا وهناك. ولكنهم يُقذفون بالطائرات على الدوام. والفرقة ٨٢ للإنزال الجوي تتجهز لتتقدم نحو هدفها الأساسي".

- "طيب وماذا تفعل الفرقة ١٠١ للإنزال الجوي؟"

- "في هذا الساعات يجهزون أنفسهم للتحرك. سينتقلون إلى منطقة قريبة من مدينة /كيرك قلعة/ والمكان الذي سيبنون فيه مقر قيادتهم تجهزها الآن لهم طائرات B1 – B2 وثمة وحدة خاصة تمسح ذلك المكان وتمشطها من أجل بناء مقر القيادة وأعتقد بأنهم لم يدخلوا في معارك كثيرة.

- "هذا جميل.. قل إننا في عمق أراضيهم. هذا إحساس مخيف إن تلك الأراضي مقدسة بالنسبة لكل عسكري منا. وهي الأراضي التي انهزم منها الأوروبيون على الدوام"

- "طيب وحادثة حاملة الطائرات؟"

- "بالنسبة إليَّ هذا عمل لم يكمل.. وهذه الحادثة رفعت من معنويات شعبهم كثيراً".

- "لنكمل هذا العمل.. ونحن نستعرض قوانا.. ومن ثمَّ...

- "ثم لنهز إستانبول من أساسها.. الغارات الجوية التي تحصل الآن تستهدف الوحدات العسكرية فقط. ولكن نستطيع القول بأن إستانبول لم تُمسّ بعد. يجب أن نهز هذه المدينة بشكل مخيف.. يجب أن يفهموا أننا موجودون حقيقة".

- هذا تمام.. بالأصل هناك تجهيزات تقام الآن من أجل هذه المدينة.. يعني ما سنفعله بعد هذا الوقت معروف. إن ضرب /نصب اتاتورك/ واحتلال أنقرة وإستانبول. ثم نستطيع البدء بالمرحلة الثانية من العملية ثمَّ إخبار الجيش الرومي القومي. كي يبقوا متيقظين. الغارات الجوية على الوحدات التركية هناك زادت من فاعليتها منذ يومين.. وأخبرونا بأنه ثمة نتائج حسنة وقواتنا الخاصة الموجودة في /أرمينيا/ استطاعت كشف أماكن تواجد القوات التركية وتحركاتها على الحدود. وأظن بأنهم يحفرون لأنفسهم خنادق كي يرحلوا من تحت التراب".

- إذن ما زالوا يحفرون خنادق اليس كذلك؟"

- "لقد قبضنا عليهم على حين غرة".

- "نعم يا أولاد.. قبضنا عليهم قبل أن يجهزوا أنفسهم".

"وكيف حال القوات الجوية؟"

- "لم نعد نرى فاعلية جوية عندهم.. لقد تمَّ ضرب معظم طائراتهم. والباقي لا نعلم عنه شيئاً. طبعاً لم يظل عندهم مطارات أيضاً كي تصعد منها الطائرات. لأن قواتنا الخاصة نظمت غارات على كل المطارات.. ووحداتنا تدخل وتخرج إلى كل مكان. وسد أتاتورك ما زال بأيدينا.. كنا قد عملنا هذا الشيء كتجربة ولكن عندما حاولت القوات التركية استرجاع السد قامت قواتنا الجوية بمنعهم وضربهم ضربات شديدة ومؤلمة.. ثم تراجعوا بعد ذلك".

- "إياكم ثم إياكم أن تضربوا المنشآت الكهربائية ومحطات الإرسال التلفازية. لأن سلاحنا الأقوى هو الإعلام /ميديا/ ".

- "أشاركك الرأي تماماً.. كل الهجمات التي نقوم بها يذيعونها مباشرة. ولكن بعد ضرب حاملة الطائرات وجدنا أنه من الأسلم أن نقطع عنهم الكهرباء لبعض الوقت.

- "نعم هكذا. اريد أن يفهموا معنى كل المشاكل التي تعبث بهم. أريدهم أن يأخذوا عبرة مما حصل ومما سيحصل على عكس ما تقول به كتبهم التاريخية.. أريدهم أن يتجرعوا المرارة والدهشة والآلام".

- "أظن أننا سنعمل هذا الشيء.. يا إلهي إنني لا أصدق.. الجيش التركي لا يستطيع مقاومتنا".

- نعم.. ليس في العالم جيش يستطيع الوقوف أمام جيشنا وقوتنا... فكروا.. طائراتنا تنظف السماء من طائراتهم.. ومن ثمَّ أمامنا جيش ضخم... لا يستطيع أن يفعل أي شيء ليسقط طائراتنا ولا يملكون سلاحاً لفعل ذلك. يا إلهي.. يجب أن يكون طيارونا يتسلون تسلية رائعة".

- "لا أعتقد أن طيارين لخمس وتسعين طائرة لا يفكرون مثلنا".

- "دعهم وشأنهم.. إن الطائرة التي تضرب وتسقط بوساطة صواريخ /ستنغر/ و /رابير/.. هؤلاء الطيارون يجب أن يعيشوا.. وهذا أفضل لهم."

- " لننهِ نقاشنا وتدقيقنا للعملية بشكل عام ونعطي تقريرنا إلى السيد /هوارد ستريك/.

- "بعض الأحيان أحسُّ وكأننا لا نفعل شيئاً. ولكن ثمة أشياء كثيرة..

كأنها تتحقق من تلقاء ذاتها".

إذا أردت الحقيقة هي هكذا.. إننا نكشف الأهداف للذئاب الجائعة وهي تقطع وتمزق"

ضحكوا كلهم دفعة واحدة.. كان الاجتماع مسلياً.. وكأنهم كانوا على يقين بأنهم سيتسلون هكذا على الدوام. وكأن الضربات والخسائر التي مُنيتْ بها القوات الأمريكية لا تهمهم بشيء على الإطلاق.

٢٧ أيار. ٢٠٠٧. الساعة ١١,٠٨
النصب التذكاري

كأن البشر قد ضيَّعوا مشاعرهم وأحاسيسهم وعقولهم. بعضهم يجرون هنا وهناك دون وعي. وبعضهم يبكون. وبعضهم ينظرون بعيون فارغة إلى حطام الأبنية والعمارات.. كانوا قد انتظروا على مدى ساعات طويلة حتى انتهاء القذف الجوي كي يقتربوا من هذا المكان.. وكأن الطائرات قد تركت القذف كي يقوم الناس بتوديعة أخيرة وبسلام أخير.. وحتى ينتهي تأثير هذه الهجمة الفظة.

كان الناس يصعدون إل داخل الحطام /الأنقاض/ ومن جميع الأعمار.. لم يكن بإمكان بضعة جنود والشرطة أن يقفوا أمام هذه الجموع البشرية المتلاطمة. لم يكن أحد في حالة من الوعي حتى يستمع إلى الآخر والشرطة والجيش.. كان عندهم هدف واحد ، وهو إنقاذ جثمان /مصطفى كمال أتاتورك/ من بين الأنقاض والحطام وتأمينه في مكان آمن.. كانوا يجرون نحو الأنقاض وهم يحملون الفؤوس والرفوش.. وآخرون يصرخون ويولّولون يريدون إزاحة كومات من /البيتون/ المحروق والمنصهر مع قطع من النار والدمار. يحاولون شق طريق لأنفسهم حتى يصلوا إلى موقع القبر. هذه الهدف المستحيل بحد ذاته كان خطراً عليهم.لأنهم كانوا يشاهدون بين وقت وآخر قنابل لم تنفجر بعد.

كانت الزحمة المتلاطمة من البشر قد بدأت الاقتراب من النصب مثل جيش كبير من النمل.. لم يكن الناس يستطيعون التفكير. كانت القنابل قد هطلت إلى مكان عميق في دماغهم. كان النصب قد تركهم بعد أن سيطرت عليهم موجة شديدة من الحقد والكراهية. كانوا يريدون الوصول إلى النعش قبل فوات الأوان.. أمر غير مقبول أبداً بالنسبة إليهم.. لأن هذا النصب كان مثل هالة من النور أو رمزٍ في أعماق كل واحد منهم. لم تكن أية قوة في تلك اللحظة أن تقف أمامهم.. لا المدرعات ولا الطائرات ولا أية قوة تستطيع أن تخيفهم.

بعد قليل.. وصلت مجموعة من الجنود وعناصر الإطفائية وبدؤوا. بالركش والرفش مع الناس. وكان ثمة مجموعة كبيرة من الضباط ومن مستويات أو رتب عالية يراقبون هذه العملية. وكأن الجنود لا يستطيعون النظر إلى وجوه البشر. كانوا في حالة من الأحاسيس وكأنهم يخجلون من هؤلاء الناس لأنهم لم يقدروا إيقاف هذه الهجمات البربرية.

بعد عدة ساعات شوهدت مجموعة من السيارات المدنية تقترب من المكان.. توقفت السيارات على مدخل الطريق الذي فيه تماثيل الأسود. خرج من السيارات الأولى والثالثة ثمانية عساكر من الوحدات الخاصة بكامل جاهزيتهم القتالية.. وعملوا /كوردونا/ أما من السيارة الوسطى فنزل شخص راقبه الناس بالحيرة والدهشة.. كان شخصاً غائباً عن الأنظار ومنذ أيام طويلة كان هذا الشخص رئيس الأركان الجنرال حكمت باشا.. كان يمشي نحو الأنقاض بخطوات سريعة.. كان الناس قد رموا عن كاهلهم إشارات الاستفهام والاستغراب والدهشة. وبدؤوا بالاقتراب منه رويداً رويداً يريدون الالتفاف حوله. إلا أن الوحدات الخاصة لم تأذن لهم بذلك. بدأ حكمت بارس بالصعود فوق حطام الإسمنت بجدية وتعب.. كان مرهقاً إلى أبعد الحدود وبدأ العمل مع الآخرين..

كان الظلام قد كبس على الجو، وثمة ثقب قد ظهر بين الحطام /الأنقاض/ دخل ناس من هذا الثقب ونزلوا إلى الطابق الأرضي وبدؤوا بالبحث عن النعش وكأنهم عمال يعملون في إحدى المناجم تحت الأرض. كانت الحرارة التي نشرتها القنابل التي أُلقيت لثقب الملاجئ.. تضرب وجوههم ولا يستطيعون الاقتراب من المركز: وبالأحرى يتكون شيء من استحالة العمل هناك.

كانت ثمة طائرة من طراز /إف ١٥/ تحلق قريباً من أجواء مدينة أنقرة.. الرسائل التي كانت تصل إلى أذن الطيارين جعلتهم ينفعلون إلى حد كبر.. كانت ثمة رسالة قد جاءت من مركز القيادة في العراق.. تطلب منهم ضرب هدف مستعجل جاءهم من الاستخبارات. ولكن الهدف المطلوب ضربه وقذفه.. هدفٌ مضروبٌ قبل قليل من الآن ولم يبق فيه حجر فوق حجر.

- يوجد عندنا استخبارات تقول: إن ثمة سمكة كبيرة قد وصلت إلى الهدف.

اضربوا الهدف للمرة الثانية.. الوقت مهم جداً..

- اضربوا المكان مباشرة.

"كرر ثانية يا مركز. هل تريدون منا ضرب القبر الذي ضربناه قبل قليل؟"

- "نعم.. رجاء.. طبقوا الأمر."

- "فهمنا الأمر".

اتجهت الطائرة /اف ١٥/ بمناورة قاسية نحو الهدف الذي طلب منه ضربه. كانوا قد تعرفوا إلى أنقرة جيداً وحفظوها عن ظهر قلب. ولهذا السبب لم يطلبوا الإحداثيات ولا الكوردونات "كانت الطائرة تعرف المكان الذي ستذهب إليه. بعد وقت قصير وصلت فوق الهدف تماماً.. الأدخنة ما زالت تتصاعد منه. كان الطيار قد استغرب من المنظر الذي تحته نقل الموقف بانفعال إلى المركز.

- "ثمة أناس مدنيون كثيرون في الهدف.. مجموعة كبيرة من البشر ليس بالإمكان إطلاق النار".

- "اضربوا الهدف فوراً"

كان الطيار يتحدث بانفعال واضح في حديثه.

- "أعطونا الموافقة. ثمة مدنيون في الهدف تماماً"

قال ضابط العمليات: "اضربوا الهدف مباشرة" كان صوته مثل السهم وخالياً من المشاعر الإنسانية.

رسمت الطائرة /إف ١٥/ إطاراً. كان الناس المجتمعون فوق النصب التذكاري يسمعون صوتها ومناورتها.

سمعت إطلاق بعض العيارات النارية من هنا وهناك.. هذه الطلقات كانت ترمى بحقد كتم الأنفاس. لم يكن يقترب من الطائرة بأي شكل كان. كان الهدف على الشاشة عبارة عن كومة من الحطام والأنقاض والإسمنت وثمة مدنيون كثيرون جداً.. فكر الطيار في نفسه: بعد قليل سيتحول إلى مجرم حقيقي سيقتل الناس /عينك عينك/ وبعد ذلك أرسل القنبلة الوحيدة المتبقية على الجناح الأيمن من الطائرة وهي قنبلة من طراز /GBU 27/... تقودها أشعة الليزر حيثما أرادت.. لم يكن الهدف يتراءى للطيار. خلال ثوانٍ تحولت الشاشة إلى بياض

من تأثير انفجار القنبلة. في الوقت الذي كان فيه التأثير الأول للانفجار على وشك أن يتلاشى.. كانت كرة النار الصاعدة على وشك الانطفاء.

لم يحس الناس الذين كانوا يبحثون عن نعش أبيهم /أتاتورك/ بأي شيء على الإطلاق. كانت قوة الانفجار بالنسبة إليهم فجائية وحادة.. رماهم الضغط على بعد عشرات الأمتار دون أن يعوا ويحسوا به.

سقط حكمت بارس بقوة على الأرض من تأثير الانفجار. كانوا على عمق عشرة أمتار تقريباً عن سطح الأرض. وكانت فوقهم عشرات الأطنان من البيتون والمرمر. ولكن القنبلة كانت قد وقعت فوق مكان تواجدهم تحت الأرض.. بدأ المكان الذي هم فيه يمتلئ بالدخان وقطع المرمر. نظر حكمت باشا إلى الجنود الآخرين. لم يكن في وجوههم قلق او اضطراب أو شيء من هذا القبيل.

عندما وصل رئيس الأركان حكمت بارس إلى مكان تواجد نعش /مصطفى كمال تجمّع قلبه بين أضلاعه. كان القبر قد تضرر بشكل كبير. وكان يخشى أن يكون الجسد الذي على شكل /مومياء/.. متضرراً أيضاً ـ التفوا حول القبر وبدؤوا بالنظر إلى داخله، كان الدخان قد خفَّ بعض الشيء. بحثوا طويلاً بين الأنقاض. لم يتوصلوا إلى الجسد.. بعد وقت قصير رفع رئيس الأركان رأسه وقال للجنود الذين معه: "إن الجسد ليس في مكانه".

نظر الجنود باستغراب إلى وجه قائدهم. كانت نظراته ترعب الناظرين إليه وهو يقول: "لا يوجد هنا.. حتى ولا أثر له"

ثم رفع رأسه وألقى نظرة من حوله. وكأنه يحاول أن يرى شيئاً ما، بدأ الجنود أيضاً بالنظر هنا وهناك مثله تماماً.. كانوا قد غرقوا في بحر من العرق والغبار.. وخوفهم كان شديداً.. يجب أن يكون الجسد هنا؟

منذ عشرات السنوات يرقد هنا. تحت الرعاية والعناية والصون.

ومن غير الممكن أن يُسرق أو ينقل إلى غير مكان. كان لا يستطيع أحد الدخول إلى هذه الغرفة سوى بإذن خاص من رئيس الأركان شخصياً.

ارتسمت علامة الغرور على وجه حكمت بارس.. كأنه سعيد إلى حد كبير ومرتاح جداً. فقال لجنوده "هيا لنذهب" وكما جاؤوا خرجوا بسرعة.. كأن من

المستحيل أن يعودوا من النفق الذي جاؤوا منه. كانوا قد ثقبوا فجوة ثانية بين الأنقاض وخرجوا منها.

كان الجنود في بحر من الدماء والعرق. ولكن صدمتهم المشاهد الخارجية واحسوا بقشعريرة تسري في أجسادهم.

كل مكان مغطى بالجثث. شاهدوا المكان الذي وقعت فيه القنبلة. على بعد عشرين متراً عنهم.. المكان فارغ.. وكأن الجميع قد ماتوا وخرجوا بشكل كبير إلى الطرف الثاني من الشارع..

كان ثمة أناس تجمعوا هناك والجنود مثل الأشباح الذين خرجوا لتوهم من القبور. كان الجو هادئاً.. لم يكن يصدر سوى صوت الطائرات الأمريكية البعيدة وهي تمزق الهواء.. وبين وقت وآخر كانت أصوات المدافع المضادة للطائرات.. تخرج من هنا وهناك أيضاً. ذهب حكمت بارس/ نحو الجثث وألقى نظرة على بعض منها.

إذا كانوا على قيد الحياة أم لا.. كلهم كانوا ميتين. كان الجنود قد بدؤوا بفقد صبرهم. وكانوا يعرفون لمن تتوجه هذه الهجمات.

نظروا إلى السيارات التي تنتظرهم. كانت الطائرة الحربية قد نزلت بقوة وفجرت السيارات بالكرة الإلكترونية.. هذه إشارة كافية. كانوا قد عرفوا أنهم هنا.. وضربوا الضربة القاضية.. لم ينجحوا في قتل هدفهم ولكنهم قتلوا أكثر من مئة مدني بسيط. وثمة سؤال غريب بقي في الأجواء.

لم يكن مصطفى كمال في قبره.. في هذه الحالة أين يجب أن يكون؟ CNN أنترناشيونال:

"صرَّح مصدر مسؤول في وزارة الدفاع الأمريكية بأنه تم قتل رئيس الأركان التركي.. في غارة جوية حدثت مساء أمس".

كانت الأخبار تنتشر بسرعة كبيرة. تأثير التلفاز كبيرٌ على الناس من حيث المعنويات وروح المقاومة. الأخبار السيئة تصل إلى الناس بشكل مباشر عن طريق المحطات والأقنية الفضائية التركية. ومهما حاولت المحطات تصغيره وتنفيسه وتنقيته من محتواه إلا أن الأمور كانت واضحة مثل الشمس والحقائق مطروحة في

كل مكان. ولهذا السبب كانت هذه المحطات تنقل أجواء الحرب إلى داخل المشاهد التركي. ودون أن تفهم لماذا لم يتم ضربها حتى الآن.

على الشاشة الآن مشهد من مشاهد النصب التذكاري.. كان الجميع يتابعون المشاهد القادمة إليهم، المشاهد المفروزة بصمت الأموات.. دون أن يتنفسوا، لا يوجد تعليقات.. فقط صورة النصب الذي حُفر في أرواحهم، وثمة أدخنة متصاعدة والظلام ذو الشقين. منذ نصف ساعة والمحطات تعرض هذه المشاهد.. كان الناس قد قفلوا أنفسهم على الشاشات حتى مع عدم وجود أي تعليق يتابعون الصور وكأنهم سُحروا.. حصل ميلان في الصورة. وظهر المعلق.. والأنقاض من خلفه.

"السادة المشاهدون. جاءنا الآن هذا الخبر. بعد البحث والتدقيق الشديدين إثر الغارة الجوية على النصب التذكاري، تبين أن جسد الزعيم الكبير غير موجود في قبره"

٢٧ أيار. الساعة ١٩.٢٥

. مكان غير معروف.

كانت الوزارة قد اجتمعت . بثلاثة أشخاص فقط . ورئيس الوزراء يتابع التطورات أولاً بأول مع اتصال مباشر مع أنقرة.. وهو في حالة من الغضب الشديد. ولا يعلم ما الذي سيفعله.

وكانت ثمة مرارة تقرض أعماقه. كان الشعب قد وضعه وصياً عليه.. أميناً على مصالحه والآن لا يستطيع أن يُبعد عنه المصاعب والأخطار. وبالأساس كانوا قد فكروا بحل لوقف هذا الاحتلال.

عندما قرأ "طيب أردوغان" التقرير الذي بين يديه" عرف أنه سيأتي بالاحتلال وفي الوقت نفسه سيخلصهم منه. قبل ثلاثة أيام كان قد عقد اجتماعاً من أجل هذا الموضوع. وقال للمجتمعين آنذاك:

أيها السادة: إذا كنا نملك طريقاً للخلاص.. فسنتبع ما قام به العثمانيون قبل مئات السنين.. وهي الدبلوماسية.

وقتها كان الوزراء والعساكر قد أصغوا إليه وفي كل عين من عيونهم مئة سؤال. كنت تقرأ في وجوه الجميع عدم التصديق.

أكمل رئيس الوزراء كلامه: "ألم تقرؤوا التاريخ؟ عندما وصل الروس حتى /يشيل كوي/ (حي من أحياء إستانبول) ما القوة التي ردّتهم إلى أعقابهم؟ إبراهيم باشا بن كافالالي محمد علي باشا/.. هذا الباشا الذي انتصر على ثلاثة جيوش ووصل حتى مدينة /بورصة/.. ما ذا كانت تلك القوة؟

قام أحدهم وتحدث بسرعة: "الدول الغربية يا سيدي.. كانوا لا يريدون سقوط الدولة العثمانية المريضة الضعيفة. لأن ذلك كان ضد مصالحهم.

قال طيب أردوغان: "نعم هذه الأراضي تملك من الأشياء الإستراتيجية الشيء الكثير. لا ترضى أية دولة كبيرة أن تكون حاكمة على هذه البلاد بمفردها".

فتح وزير العدل يديه بشيء من الضعف وقال:

- "ولكن الشروط مختلفة هذه المرة يا سيدي. الولايات المتحدة الأمريكية.. هي الدولة الوحيدة القوية في العالم.. والاتحاد الأوروبي ليس في مكانة يستطيع مجابهتها.. ونحن بالأصل علاقتنا معه ليست على ما يرام. إنكلترا وكما في كل مرة تدعم الولايات المتحدة. وروسيا تحاول أن تُرضي مصالحها الاقتصادية. وبالأصل فإن الولايات المتحدة بنت لها قاعدة كبيرة في /أذربيجان/ أما الصين فليست جاهزة لتقابلها وجهاً لوجه.. لا تتحرك إلا رويداً رويداً"

قذف طيب أودوغان التقرير فوق الطاولة وقال:

"كتير كويس وإذا ما عرفوا ماذا كُتب في هذا الملف؟ وإذا ما أرادوا هذا البلد يقع تحت أنياب الأمريكان بمفردهم".

وضع يديه فوق الطاولة ونظر في عيون الجميع وقال:

- الطاقة المستقبلية موجودة في أراضينا. أمريكا تريد أن تحافظ على مستقبلها من حيث الطاقة الأرضية والتكنولوجية الفضائية وتركيا بمفردها تملك من معدن /البور/ الثمين من ٧٠- ٨٠٪ من احتياطي العالم.. وكما تعرفون البترول لم يكن في بلد واحد واليورانيوم كذلك. ومع هذا بنت سياستها العدوانية ومنذ سنوات طويلة على القوة والبطش والسيطرة على بترول العالم. ولكن البور بيد دولة واحدة وهي تركيا. ولهذا السبب فالدولة التي ستسيطر على هذا المعدن معناه تسيطر على العالم كله".

نظر الجميع في عيون بعضهم وبريق الأمل تلمع فيها:

- "نعم إن أمريكا دولة قوية وذات قطب واحد.. ولكن إذا استطعنا شرح مشروعنا السياسي هذا للآخرين فيستطيعون الوقوف في وجهها مجتمعة".

وانتهى الاجتماع وهم في غاية السرور. وتم إرسال تقارير سرية إلى كل سفارات تركية في الدول الكبيرة وطلب من السفراء أن يقدموا التقرير لليد العليا في كل دولة مثل رئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية. وبعد أن تمَّ تسليم التقارير اتصل طيب أردوغان مع كل المعنيين في تلك البلدان بالهاتف.

النتيجة...

صمت!!

وضع طيب أردوغان رأسه بين يديه.. كان يشاهد المناظر المروّعة في النصب التذكاري... جثث الناس هنا وهناك. فكّر بينه وبين نفسه: "لماذا؟ لماذا لم يتحركوا حتى الآن؟"

بعد تقديم التقرير إلى تلك الدول... لم يصدر منها أي صوت على الإطلاق.. لا من فرنسا ولا إنكلترا ولا إيطاليا ولا ألمانيا ولا الصين ولا اليابان ولا روسيا ولا الهند. ربما أخطؤوا في هذه الفكرة. ومن خلال هذه التقارير أوضحنا لهم الأهداف التي دعت الولايات المتحدة الأمريكية إل احتلال تركيا.

وربما فكروا على عكس ذلك.. أن يتم سحق تركيا كلياً من الوجود ومن ثمَّ يلعبون أوراقهم وفق مصالحهم وبطريقة صحيحة.

مثلاً باستطاعة الروس والصينيين مهاجمة /كازاخستان/ والحصول على معدن /البور/ الموجود هناك.

تمتم في نفسه: "أنا عملت اللي بإيدي".

ألف عام من التاريخ التركي في الأناضول. هل كان سينتهي في عصره هو؟ وقف على رجليه بغضب، بعصيان كان يُمزّق أعماقه وقال: صارخاً:

- "لأتصل هاتفياً وللمرة الثانية مع هؤلاء الأشخاص".

٢٨ أيار ٢٠٠٧ ـ الساعة ٠١,١٥

- انقرة-

٥٠ هكم إلى الجنوب من /بولاتلي/

كانت الفرقة الأولى الخيالة المدرعة على وشك أن تتحرك كي تكمل العملية. أما الفرقة الميكانيكية الرابعة للمشاة فكانت تنتظر كي تأخذ وضعيتها لإتمام العملية. كانت الوحدات الأمريكية في قلب تركيا الآن. أما عربات /هوموا/ التابعة لفرقة المشاة الرابعة قد شوهدت في مواقع متقدمة جداً.. يقومون بعملية استطلاعية في الأعماق التركية. أما فوج الخيالة الثالث.. فكان قد خسر قسماً كبيراً من قوته.. وأرسل بعضاً منه إلى منطقة /غازي عنتاب/ ولهذا السبب بقي هذا الفوج ضعيفاً مهزوزاً ويمكن الاستغناء عنه. وكذلك لم تكن باقي الوحدات أفضل شأناً من ذلك الفوج. كانت القوات الأمريكية في حالة شديدة من الإنهاك والإرهاق الشديدين. وفي حالة نفسية سيئة جداً.. كانت أخبار الخسائر تتوارد في كل لحظة.

عقد الجنرال /هاري جاكسون/ قائد الفرقة المدرعة الأولى. اجتماعاً طارئاً مع قيادة اللواء والضباط الإداريين وذلك في مركز قيادة اللواء. حيث اصطفت أربع عربات مدرعة من طراز /برادلي/ وشكلت ساحة على شكل قوس. كان هذا الفراغ هو مركز قيادة اللواء الآن. كانت الفرقة قد دخلت عدة معارك طاحنة حتى مجيئها إلى هنا. كانت ثياب الضباط والعساكر مغطاة بالغبار والوحل والتراب.

كان /هاري جاكسون/ جندياً ممتازاً وهو متخرج من جامعة /seattle/. وكان يملك من الأوسمة والنياشين وشهادات التقدير في كل مرحلة من مراحل خدمته في الجيش الأمريكي. وكان في الثالثة والخمسين من عمره.. وبما أنه تواجد في تركيا لمرات كثيرة.. كان يعرفها جيداً. عندما بدأت العملية سيطرت

عليه بعض المشاعر الغريبة. الأماكن التي زارها في الماضي.. كان الآن مع دباباته ومدرعاته يعيث فساداً في هذه الأرض وقريباً من أنقرة التي زارها عشرات المرات.

كان الجميع منفعلاً وفي حركة دائمة. لأنهم كانوا يخاطبون الـ /CENTACOM/ ومركز القيادة في العراق. حيث يأخذون منهم التعليمات والأوامر الجديدة ويقدمون لهم التقارير. ولهذا السبب كان مجبراً على الرد على الهواتف التي كانت تأتيه تباعاً أثناء الاجتماع.

أشار /هاري جاكسون/ وبحدة بيده إلى جندي الاستخباراتي الذي كان معهم ليترك الاجتماع. عندما خرج العسكري وقف على رجليه ونطر نحو بلدة /بولاتلي/. عندما يُنظر بمنظار جيد يستطيع رؤية جنود الأتراك وهم يحفرون الخنادق.

ولكن يجب أن يكون الجميع على علم بأن هذه الخنادق لا تستطيع أن تعيق تقدم العدو بأي شكل كان. هذه الخنادق كانت مرآة لحرب طاحنة ستقام في تلك المنطقة.

تحدث بصوت حاد وكأنه يصرخ: "احتلال أنقرة لن يكون صعباً في الوقت الذي سندك فيه المدينة من الخارج.. سنفتح ثغرات كثيرة في خطوط دفاعهم... وبنتيجة الفوضى التي ستسود الخطوط.. سيتحطم ترابط الخطوط وعندها سيكون الجو مناسباً لتدخل الفرقة/ ١٠١/ للإنزال الجوي.

- "كم سنشق بالغارات الجوية يا سيدي"

هذا السؤال جاءه من نقيب قائد إحدى الفصائل.

قال هاري مبتسماً: "بقدر الكفاية، الغارات الجوية ستفتح الطريق أمامنا تماماً. وكما هي العادة.. نحن سنظل مشغولين بالجزئيات والتفاصيل و/١٠١/ ستضرب الضربة الأخيرة.. في هذه الأثناء ستعمد الفرقة الميكانيكية للمشاة إلى ترسيخ الأمن من خلفنا وستدعم القوات الأخرى عند الحالات الضرورية"

قال العميد، جون فلوبارت/ القائد الثاني في اللواء:

- "معارك المدينة ستكون صعبة يا سيدي"

- "معارك المدينة من شغل الفرقة /١٠١/.. نحن لن نقدم سوى الدعم الدباباتي.. ولكن سنخسر كثيراً منها.. الأتراك سيقاومون بشدة. طبعاً لا يوجد أي

شك في أننا سنستولي على مدنهم. إن الغارات الجوية تتبع لها طابعاً غريباً.. مثلاً ضرب قبر مصطفى كمال..

- إننا نتبع استراتيجية مختلفة وهذا واضح من هذا..."

بعد أن قال هذه الكلمات تذكر زيارته إلى النصب التذكاري. وتذكر الإعجاب الذي لفّه عند دخوله إلى ذلك المكان.. كان قد أحس نفسه قزماً.

دام الاجتماع طويلاً. كان لا يُمزق صمت الليل وظلامه سوى تحركات الدبابات التي كانت تأخذ لها مواقع. وانفجارات القنابل التي كانت تنزل على أنقرة. وكان شدة المعارك قد خفت بعض الشيء. كان الجيش الأمريكي قد توقف لتحليل حركاته وفي الوقت نفسه يقوم بالتحضيرات لشن الهجمات ثانية. كانوا متغلغلين كثيراً في عمق الأراضي التركية. وهذا بحد ذاته كان وضعية أو موقفاً خطيراً في شروط الحرب: كانوا قد انتصروا إلى حدٍ ما بفضل قواتهم الجوية.

كان التكتيك الحربي الأمريكي قد أظهرَ حقيقة للعيان وهي: إذا ما دخلت أية دولة في حرب مع أمريكا يجب عليها تقبل كل الخسارات وإخراج نظامها الأمني والإستراتيجي من دائرتها. ذلك من قوة وضخامة قواتها الجوية الضارية. يجب على النظام الحاكم أن يُفرِّغ نفسه من نفسه حتى يخلّص نفسه فيزيائياً. ويتحول إلى نظام قابع تحت الأرض. وكانت هذه الحقيقة قد تحولت بشكل عام إلى منطق مروري للجهة المضروبة.

ولا تستطيع أية قوة أن توقف الدفع الأمريكي وتقدمه إلا بحرب العصابات والشوارع. وكان/ هاري جاكسون/ يرى أن هذه القاعدة ما زالت تعمل.. وصار كما أراد.

بفضل الدعم الجوي. كانوا قد صاروا قريبين من أنقرة.. والخسائر التي منوا بها تعتبر قليلة بالنسبة للانتصارات الكبيرة: ٨٥ دبابة من طراز/ **M1A2**/ و ٦٥ عربة مدرعة من طراز برادلي.

أما خسائرهم من الجنود.. كانت ١٤٣٠ جندياً ميتاً. وأكثر من ٣٠٠٠ جريح. أما اللواء التركي المشهور والمتواجد خارج البلاد وهو اللواء ٢٨ الميكانيكي قد

أظهر مناعة ومهارة بشكل كبير حيث حاصر اللواء الثاني المدرع للقوات الأمريكية وذلك بمناورة تكتيكية رائعة وضرب أكثر من عشرين عربة مدرعة من طراز /ستريكر/ أما الخسائر الأخرى فكانت كبيرة من حيث الموتى، الجرحى: وكان الجيش الأمريكي وللمرة الأولى قد أبطل مبدأه الداعي إلى عدم ترك جثث القتلى من الأمريكيين في أرض المعركة. وبقيت عملية جمع الجثث على عاتق الجنود الأتراك. ولكن اللواء الميكانيكي ٢٨ من الجيش التركي قد تم قذفه بعد هذه المعركة من قبل طائرات B52 الأمريكية وبكثافة. حيث شُل تقريباً. وكانت القوات الأمريكية المتقدمة تتقابل بين وقت وآخر بمقابر الدبابات التركية. أما القوات الخاصة التركية /كومندو/ قد ردت على أعقابها من قبل عربات المدرعة الأمريكية من اللواء الثاني وبوساطة الصواريخ المضادة للدبابات /TOW/ ولهذا السبب كان تقدم الفرق الأمريكية لم يتوقف مع نيلها كثيراً من الخسائر.

لم يكن /هاري جاكسون/ يريد الانتظار أكثر من ذلك. لأنه كان يعرف بأن الوقت مهم جداً بالنسبة لأنقرة والدفاع عنها. لم يكن يريد إعطاء هذا الوقت للأتراك.. كان سيقوم بالتحرك في اليوم التالي مباشرة لينهي هذا الأمر. والحقيقة لم يكن أحد يستطيع الاعتراض عليه.

٢٨ أيار. ٢٠٠٧. الساعة ١٠,١٥

. إستانبول.

كانت أمل تنام فوق سريرها دون حراك. جامعة رأسها بين ركبتيها. ويفضل القطن الذي وضعته على أُذنيها كانت لا تسمع صوت الطائرات ولا انفجارات القنابل. كانت أعصابها قد انقلبت رأساً على عقب من شدة القنابل التي لا تعرف التوقف والانتهاء. وبما أنها تأخذ كثيراً من الحبوب المهدئة للأعصاب. كانت لا تستطيع الوقوف على رجليها.. مع أن التوصّل إلى الحبوب صار صعباً جداً ومستحيلاً. يجب أن تتحرك من سريرها وتخرج من البيت. لأن الخبز كان يوزع في أوقات معينة. والمحلات تغلق أبوابها بعد الظهر. كانت الأفران تعمل بين الساعة الثامنة إلى العاشرة صباحاً.

خرجت من لسرير بصعوبة بالغة.. كانت رجلاها تسحبانها نحو الخلف.. أسندت رأسها إلى زجاج النافذة ونظرت إلى الشارع بعينيها الفارغتين. المارّة قليلون جداً. رأت عدة أشخاص يتجهون نحو الفرن بخطوات سريعة مركزين عيونهم نحو السماء. وهم في حالة شديدة من القلق والاضطراب.

لم تكن الحرب قد ضربت بعد إستانبول مثل المناطق الأخرى. كانت الغارات الجوية تتراءى بشكل كثيف جداً. ولكن الأماكن المضروبة هي الثكنات والمواقع العسكرية فقط. كانت الثكنة السليمة قد دُمِّرت تماماً. وبناية الثانوية العسكرية في /كوللي/ قد صارت شقين.. وكانت بعض الأحياء قد تعرضت لبعض القنابل عندما كانت السفن تضرب /البوغاز/.. إلى جانب ذلك كله لم يكن التيار الكهربائي مقطوعاً وكذلك المياه.. كانت الطائرات الأمريكية لا تضرب البنية التحتية للمدينة. كان الناس يتعقبون أخبار الحرب عن طريق التلفاز. بالأصل لم يكن لهم عمل آخر يقومون به. طوال النهار أمام التلفاز. يشاهدون القوة التي لا تستطيع أي إنسان أن يتحملها ويقابلها. يشاهدون ويستغربون. كانت ثمة

فتاتان تزوران أمل بين وقت وآخر. وهما زميلتاها في العمل. كانت هاتان الفتاتان قد بقيتا عندها ليلتين.

كان النظام المصرفي قد توقف. أما نظام البطاقات فكان يعمل. البيع والشراء إلى حدٍ ما شغَّال.. ولكن الأمر كان صعباً بالنسبة لأصحاب المحلات. لأن الصادرات كانت قد توقفت تماماً والموظفون لا يأخذون رواتبهم. توتر غريب يضغط على المجتمع بسرعة زائدة. ولكن لا نستطيع أن نسميه سقوطاً تاماً.. لأن الحرب كانت قد بدأت منذ يومين أو ثلاثة فقط. تعاملات الدولار كانت بيد العسكر فقط. والمصانع الحكومية كانت تعمل على مدى أربع وعشرين ساعة وبكل سرعتها وطاقتها.. حتى إن بعض المعامل الخاصة المهمة كانت قد أُممت أو صارت بيد الدولة. معامل الأغذية كانت تعمل تحت إشراف عناصر الجندرمة.. كانوا يعطون العمال بدلاً من الراتب أغذية ووقوداً.

غطّت أمل ظهرها بخرقة سميكة وخرجت إلى الشارع. استغربت من الهدوء السائد لعدة دقائق.. الناس كأنهم متواعدون لشراء الخبز في الدقيقة نفسها.. الجميع كانوا يهرعون نحو الفرن.. وثمة ذيل طويل قد تكوَّن عندما وصلت أمام الفرن غطت وجهها علامات التشاؤم بقيت بضع دقائق هكذا.. كانت تفكر الخلاص من الدور.. ولكن عندما نظرت في عيون الواقفين. عرفت أنه من غير الممكن أن تفعل ذلك.

ثمة يد بدأت تمسح الرطوبة عن زجاج الفرن... وتراءى لها الماسح على شكل صورة ضبابية. كانت لا تلحظ سوى زوجٍ من العيون تبرقان أو تلمعان. ثم .. وكأن الصورة قد أشارت لها بيدها "تعالي/ ثمة فرح عابر غطى أعماق أمل، ابتسمت للولد الفران.. في لحظة واحدة كانت ثمة راحة قد لفّت قلبها.. ما أجمل هذا الشيء... الخبز صار مضموناً. وكان عندها متسع من الوقت.

يجب أن تستغل هذه الفرصة. منذ وقت طويل لم تزر شارع الاستقلال. مشت ببطء.. كان الناس قد رموا بأنفسهم إلى الشارع.. وكما هي العادة كان شارع الاستقلال مزدحماً.. آلاف من البشر يدورون هنا وهناك.. كانوا منهكين.. وصامتين وكأنهم قد كبروا وصاروا يفكرون بعقلانية شديدة. هكذا كانوا

يتراءون.. مشت حتى نهاية الشارع.

كانت بعض المحلات مفتوحة وبعضها الآخر مغلقاً. ثمة أشياء كثيرة على الواجهات.. لا تختلف شيئاً عن جو ما قبل الحرب وكأن الزمن قد جمد في تركيا. ثمة طاقة غريبة كانت تتوزع بشكل سري إلى عروق البلد المدنية. تسممها طاقة لا تشفع ولا ترحم أبداً. كان الناس لا يلاحظونها. سُمٌّ خاص صُنع من أجلهم.. يمسحهم بالنظام الذي يجمعهم ضمن قالب واحد.

كان هذا السمُّ قد بدأ فعله منذ وقت طويل.. صُنع وجُهِّزَ بعد تحليلات معمقة ووضع قيد التطبيق.. الكريزات الاقتصادية، ومشاكل الأقليات وغسل دماغ الشباب وألبرمجة الجديدة والآليات الخيالية التي كانت تطبق لرفع معنويات القتال في روح المجتمع. كلها وُضعت رويداً رويداً في إحدى الزوايا وجعلت من المجتمع كله لا يعرف اتجاهاً له. وحتى منعوا من التوجه إليه.

بدأت أمل تمشي نحو ساحة التقسيم قادمة من جهة ثانوية /غلطة سراي/كانت تمشي فوق خط الترامواي الذي لا يعمل. كان عقلها مليئاً بآلاف الأفكار بحيث أنها أصبحت لا تقدر على التفكير. تأخرت بعض الشيء عن سماع الضجيج الذي كان يملأ أذنيها في هذه اللحظات ولم تقدر أن تفرقه عن باقي الأصوات التي كانت تسممها. نظرت نحو السماء بعينيها الفارغتين. أحست بأن طائرة لم ترها تحلق في مكان ما من السماء. وكان هذا الصوت الغريب يزداد باضطراد. يشبه صوت جسم يتقدم بسرعة وهو يُمزق الفضاء.. كل الموجودين في الشارع رفعوا آذانهم نحوه. كان الزمن قد بدأ بسحب الجاذبية رويداً رويداً.

خمسة.. أربعة.. ثلاثة.. اثنان.. واحد.

انفجار قوي يصمُّ الآذان احسوا بأن ضوءاً كفيفاً صادراً بقوة بين الأبنيّة وبقوة الانفجار تهاوت زجاجات واجهات المحلات على امتداد الشارع دفعة واحدة. ومن كلا طرفي الشارع.. مئات المحلات ومئات الواجهات. آلاف الألواح الزجاجية تناثرت على الأرض وفي كل مكان.. حيث تحوَّل المشهد أمام الناس إلى موجة كبيرة من الهطولات الزجاجية.

وكأن الشارع وللحظة صغيرة قد لُفَّ بطبقة من الضباب أو الدخان" دام لعدة

ثوانٍ فقط ولكن تمَّ حفظه في ذاكرة الناس حتى يوم القيامة. عندما أزيلت الستارة الضبابية التي تكونت من الهطول الزجاجي تكوَّن مشهد يختلف كل الاختلاف عن المشاهد الأخرى.. كان الناس الذين يسيرون على شارع الاستقلال قد تكوَّموا فوق بعضهم بعضاً كانت الأجساد كلها قد صُبغت باللون الأحمر.. وليس بالإمكان أن تُفرِّق واحداً منهم عن الآخر... وكما هي وجوه واحدة وشخصية واحدة... حتى ألوانهم صارت واحدة.

وبما أن أمل قد تأثرت بالانفجار.. فقد رمتها القوة الفجائية نحو الخلف كانت على بعد من المطر الزجاجي.

ومع هذا كانت الدماء تنزف من الجراحات التي تكونت في أنحاء جسدها. وعيُها ردُّ المشاهد المتكونة أمامها.. لو وعت ذلك كانت قد جُنَّت.. جلست على الأرض وبدأت تنظر أمامها بنظرات لا معنى لها ولا مغزى. حاولت وبقوة أن تلقي نظرة إلى أطرافها وجسدها. كان كل مكان في جسدها يتقطر ألماً ودماً.

أما الذين استطاعوا الحراك من داخل حمام الدم.. بدؤوا بالبحث عن أقربائهم بين كومات البشر.. كانت ثمة مرآة لا أمل لها أمامهم.. منظر مرسوم من الكوابيس الحقيقية.. كان أحدهم لا يبعد عنها كثيراً... يحاول جاهداً الوقوف على رجليه وساقية اللتين بقيتا سليمتين فقط.. بين ذراعيه وشرايينه كانت تتدلى على حبال من الدم والاحمرار.

امرأة تدور هنا وهناك تترنح، تسقط فوق الأجساد الإنسانية. ثم تقف ثانية وتمشي.

وامرأة أخرى، صارت عمياء، وصماء، جالسة على الأرض لا تستطيع الحراك.

كانت ثمة مشاهد تعاش هنا وهناك.. لا يستطيع المرء أن يصفها بأي شكل كان.. رفعت أمل رأسها نحو الأعلى.. كانت الطوابق العليا للبنايات قد اشتركت في دعم الهطولات الزجاجية أيضاً.. والقراميد التي كانت تهوي تباعاً قد تحوَّلت في لحظة إلى هطولات حجرية.. كانت هذه القراميد تنتظر أو تحرس الأجساد التي قضت على أرواحها.

كانت بعض الحرائق قد ظهرت في الطوابق العلوية لبعض العمارات ولأسباب

مجهولة. كانت غيمة كثيفة وكبيرة من الدخان قد بدأت ترتفع نحو السماء في الجانب الذي يربط شارع الاستقلال بشارع /جيها نفير/.. ولكي يرى الإنسان الهدم تماماً كان عليه الصعود نحو الأعلى../ أو النظر من الأعلى/. وثمة ضغط غريب خرَّب الأزقة الداخلية بشكل مثير ومن عدة زوايا.

لم يكن بمقدور أي إنسان معرفة الزمن المنقضي.. بدأ الناس يسمعون صوت صفارات الإنذار.. واشترك صوت الطائرات ثانية بصوت الإنذارات. وسمعت عدة انفجارات قوية من مكان لا يبعد عنهم كثيراً.. ولكن قوة تلك الانفجارات لم تكن توازي قوة الانفجار الذي حصل هنا. الناس في موقف من الجمود والذهول.. لا يأبهون لأي شيء حاصل في مدارهم. كانت الطائرات التي أرسلتها الـ /CENTCOM/ فوق سماء إستانبول تولول وتتعب وتصرخ في الأجواء تريد ضرب النفوس وتزرع الرعب بين الناس.. كانت هذه الهجمات تعد الموجات الأولى لحرب نفسية تنفذها الطائرات الأمريكية.

ثمة انفجاران كبيران حصلا فوق جسر /بوغازايجبي/... وانشطر الجسر إلى قسمين. وبقي واقفاً دون أن ينهار. ولكن صار في وسطه فراغ كبير يُقدَّر بعشرات الأمتار.

أما جسر الخليج.. فكان يتدلى بعد أن تحوَّل إلى عدة قطع سوداء فوق البحر.. وثمة حريق ضخم حدث في الأحياء القريبة من الخليج. كان الناس يجرون وبسرعة نحو الساحل.

كانت الأشجار الكبيرة الكائنة في حديقة /ماجكا/ تحترق بشكل مثير للانتباه. اللهب الذي كان يصعد نحو السماء وبارتفاعات هائلة.. كان ينشد نشيداً حزيناً من أجل إستانبول. أما صالون جمال رشيد بك فصار نصفين.. كانت عربات الإطفاء قد تخلصت من هذه الغارات لأنها كانت في الخارج. ولكن المركز قد سوي مع الأرض تماماً.

كانت ثمة حرائق تصدر من البنايات الكائنة على ضفة /اليوغاز/ هل كانت بعض الصواريخ قد اخطأت أهدافها يا ترى؟

أما حي /لفت/ المشهور بناطحات السحاب قد شكل بالنسبة لإستانبول هماً

آخـر.. لأن ناطحـات الـسحاب قـد انهـارت كليـاً وصـارت مـع الأرض. وفي بعـضها الآخر.. كانت الحرائق تندلع. وكانت إحدى الأبراج قـد مالـت واسـتندت إلى بـرج آخر.

كانـت الانفجـارات الـتي تـصمُّ الآذان لا تتوقـف أبـداً.. وكـان القـوات الجويـة الأمريكية قد وضعت البشر في إستانبول داخل جسم معدني كونيكي. تحـاول جاهدة غسل دماغهم. كان الجميع قد فروا إلى منازلهم. ولكن ولأول مرة كانوا لا يحسون بالأمان حتى داخل منازلهم. ولهذا السبب كان الجميع قد نزلوا إمـا إلى الملاجئ أو إلى الطوابق الأرضية.

CNN انترناشيونال

"بدأت غارة جوية ضخمة على إستانبول. لم تصدر أية تصريحات بعد. ولكـن إستانبول تتعرض إلى أشرس وأقوى غارة جوية في تاريخها. مدة العملية غير معروفة. انقطعت المياه في المدينة بعد غارات دامت أربع ساعات. والمرور توقف كلياً. الطرق والجسور كلها خربة وتعرضت لخسائر كبيرة.. والمعلومات تؤكد بأنه ثمة مدنيين كثيرين فقدوا أو ضـاعوا أو مـاتوا.. وانـير سمـاء المدينـة بقـذائف المـدافع المضادة للطائرات التي تخرج من أماكن شتى من المدينة. والمعلومات تؤكد أيضاً بأنه ثمة حرائق كثيرة قد حصلت من ماس كهربـائي لعـدم انقطـاع الكهربـاء في المدينـة. وقد صرَّح المسؤولون في /البنتاغون/ بأن عدم انقطاع الكهرباء في المدينة لهو دليل حي على تخريب نظام الدولة وآلية عملها. ردود أفعال كثيرة تأتي من جميع أنحاء العالم وهناك مئات من الأحـداث الـتي سـببها الأتـراك في كـل أنحـاء العـالم.. وتم القبض عل الـكثيرين مـنهم... حيـث عمـدت مجموعـة مـن المـسلحين الأتـراك إلى الإغارة على مخفر للبوليس في مدينـة /دنفـر/ وقتلـت سـتة مـن البـوليس. وجرحـت خمسة منهم. وفرَّ المسلحون الأتراك بعد ذلك من المكـان.. والبـوليس يبحـث عنهم... حيـث دخلـت مجموعـات كـبيرة مـن الحـرس الـوطني الأمريكـي إلى مدينـة دنفـر وتركزت في بعض النقاط المهمة من المدينة. وقد عقد الأمـين العـام للأمـم المتحـدة الـسيد /أيوشيم سـويزاك/ اجتماعـاً مـع الممثـل التركـي في الأمـم المتحـدة الـسيد /أيتلا سيراك/. وذكر له بأن المناقشات تجـري دون توقـف مـع الأمريكـان كـي

يوقفوا الحرب على تركيا".

لم تكن أمل تعرف كم بقيت هناك. كانت أطرافها مملوءةً بسيارات الإسعاف وأخرى مشابهة لها. ولكن لم يكن أحد يساعدها.. ويظهر من هذا الشيء أن وضعها ليس سيئاً.. عندما نظرت إلى الحمالات التي كانت تمر قريباً منها أيقنت أنها على حق في تفكيرها. وبما أن طرف الشارع مغطى بعمارات كبيرة.. لم تكن تستطيع رؤية أي شيء. ولكنها كانت تسمع صوت الانفجارت الكبيرة والمرعبة.. حاولت الوقوف على رجليها وكان لها ما أرادت ولكن بصعوبة بالغة.. كانت تحس بدوار في رأسها وغثيان في معدتها. لا لا تقدر على الذهاب إلى المنزل وهي في هذه الحالة كانت تخاف أن يُغمى عليها في كل لحظة.. وفي اللحظة نفسها تماماً.. امسكت ذراعها يدٌ وبشدة... ونظرت إلى الخلف دون إرادة منها.. ثمة شخص مدني طويل عريض يقف أمامها. رأت بندقية أتوماتيكية من ماركة /كلانشنكوف/ تتدلى من كتفه. وكان ملتحياً.. كانت الضحكة تتفجر من بؤبؤ عينيه وثمة ابتسامة حزينة ترتسم على شفتيه. ويتصرف وكأنه يعرفها منذ وقت طويل. أما هي لم تتعرف إليه.

بدأ ت المشي وهي تستند إلى ذراع المسلح المدني.. كان الرجل يأخذها نحو منزلها. فكّرت أمل في نفسها: يجب أن يكون عارفاً مكان إقامتي.

مرا بخطوات خفيفة من بين الزحام والفوضى والاضطراب.. صارا شاهدين على هذه المناظر المرعبة. مع عودة الوعي إليها رويداً رويداً بدأت أمل تحس بأبعاد هذه الغارات والانهيارات والأنقاض. لأول مرة ترى مثل هذه الهجمة منذ بدء الحرب. وربما كانت هذه الغارات هي الخطوات الأولى للعاصفة الرهيبة. وبدون أي شك. كانت الحياة ستصعب أكثر فأكثر بعد هذه العاصفة الصغيرة. وهذه هي الغاية المنشودة لهذه الهجمات: جعل الحياة صعبة.

عندما وصلا إلى حارتها.. انفتحت عيناها بالدهشة والاستغراب بما أن حارتها تقع فوق هضبة مرتفعة.. كانت إستانبول على مرأى نظرها.. كانت الأدخنة السوداء الكثيفة قد غطت سماء المدينة. استطاعت رؤية مجموعة كبيرة من النقاط في السماء.. الطائرات لا تعرف أهدافاً محددة. جاءا إلى البيت.. كانت

الزجاجات محطمة. ولكن الاحتياطات التي اتخذتها أمل تجعل الزجاجات تتبعثر في جميع أرجاء المنزل.

وصلا أمام الباب. بعد بحث طويل عن المفتاح.. دخلا المنزل.. أخذها الرجل دون أن ينطق بكلمة واحدة إلى الصالون وساعدها على التمدد فوق الصوفة.

- "معك أي شيء؟"

- "لا أبداً. فقط عدد من الجروح. أعتقد أنه لا يوجد شيء مهم. وبالأصل إذا ذهبت إلى المشفى وأنا في هذه الحالة يطردونني من هناك"

ابتسم الرجل ابتسامة فيها دفء وآمان وقال:

- "ربما يجب أن تذهبي إلى هناك للمساعدة.. إذن انتظريني بعضْ الوقت سأجلب لك بعض الخبز".

وخرج من البيت بسرعة دون أن يقول شيئاً. كانت أمل قد أحست بالاستغراب.. هذا هو الرجل الذي رأته صباحاً داخل الفرن من خلف الزجاج الضبابي والذي هزَّ يده لها.. تذكرت الحرارة التي كانت تصدر من داخل تلك العيون.. مدت رأسها من النافذة وصرخت.

- "لا تأتِ بأي شيء.. ثم إنني سأذهب إلى المشفى".

عندما نظر الرجل إليها هزَّ لها يده وابتسم وقال:

- "من أجل المساعدة".

في لحظة واحدة أضيئت الغرفة فجأة.. كانت الكهرباء قد قطعت لفترة وجيزة وعاد التيار ثانية. فتحت التلفاز. كان على الشاشة صحفي طال شعر ذقنه وانتفخ تحت عينيه، كان يحاول التعليق على بعض المشاهد التي كانت الكاميْرات قد صورتها.. والحقيقة لم تكن المشاهد من النوع الذي تحتاج إلى تعليق. رأت في وجه الصحفي نظرات مملوءة بالرعب والخوف.. وكأنه يريد أن ينتهي هذا الكابوس في لحظة قريبة جداً.. كان صوته يصدر من أعماقه متقطعاً.. كان يتحدث ويؤكد أن باستطاعة تركيا أن تعقد اتفاقاً مع أمريكا وتوقف الحرب.. إذا ما تمت الحركة الصحيحة، بالتأكيد تعمد الحكومة الأمريكية إلى تصحيح علاقاتها مع الأتراك.. أحست أمل بالغثيان ثانية.. وفي الوقت الذي كانت فيه تقوم

من أمام التلفاز، وإذا بمشاهد أخرى ظهرت على الشاشة.

كان وزير الخارجية على الشاشة. استغربت أمل فجأة.. كانت هيئته نظامية وثيابه لطيفة ورائعة. كان معه بعض الدبلوماسيين الأتراك. كانوا يجلسون داخل غرفة وإلى جانب بعضهم بعضاً.

كان هذا المشهد مأخوذاً عن محطة CNN انترناشيونال.

إلى أسفل الشاشة. كانت قد كتبت هذه الكلمات:

/Turkish Ministen in Custody/ وبين وقت وآخر كانت فلاشات الكاميرات تلمع في أرجاء الغرفة... وكان ثمة موظف مدني يعطي بعض المعلومات لمسؤول عسكري.

قربّت الكاميرا وجه /عبد الله غول/ على طول وعرض الشاشة. كانت علامات الغضب المغروزة على وجهه تظهره مرعباً. وبالأصل كان المسؤول المدني يحاول البقاء بعيداً عنه بقدر المستطاع. كان يتذكره بوجهه المبتسم على الدوام. امتدت الكاميرا نحو مساحة خضراء .. وأظهرت الميكروفون الذي كانت تتحدث فيه وزيرة الخارجية الأمريكية /كونداليزارايس/.. كانت الأخيرة تجيب عن أسئلة الصحفيين.

- "لا.. لا نفكر الآن بمحاكمتهم.. ولكن الحكومة التركية مذنبة أمام عيوننا.. لأنهم هجموا على جنودنا وقتلوهم. ولأجل هذا السبب لا أعطيكم الضمان لمحاكمتهم".

- "وأين هم الآن مأسورون؟ وهل ستقولون شيئاً حول هذا الموضوع"؟

- "لا.. لن نفعل هذا الشيء للحاجة الأمنية.. ولكنهم ضيوف عندنا"

عادت المشاهد ثانية إلى تركيا.. كانت ثمة مشاهد تسيل عبر الشاشة من بعض الكاميرات الموضوعة في عدة نقاط من إستانبول. أما الغارات الجوية فلم تكن قد توقفت حتى لحظة واحدة.. وكان التلفاز يعرض القنابل التي كانت تنفجر في الأحياء السكنية. حيث كانت إستانبول تحترق بكل معنى الكلمة.

ثم بعد ذلك ظهرت قاعدة /انجيرلك/ الأمريكية في تركيا. كانت أمريكا قد فرّغت هذه القاعدة بعد عام واحد من الانتخابات العراقية. وبعد الغارة الجوية

التي ضربت مدينة /أضنة/ كان الشعب قد هجم على هذه القاعدة وسلب الأشياء الموجودة فيه والتابعة للأمريكيين.

CNN أنترناشيونال:

"القوات البرية الأمريكية على أبواب أنقرة.. يجهزون أنفسهم لمعركة شوارع كبيرة وقاسية. وصرَّح أحد المسؤولين العسكريين الأتراك وهو برتبة عميد. بأن أنقرة ستكون قبراً للقوات الأمريكية".

خرجت أمل بسرعة من البيت بعد أن وضعت شيئاً ما على ظهرها، كانت تريد الذهاب إلى أقرب مشفى لتقدم المساعدة التي يطلبون منها.

٢٨ أيار ٢٠٠٧ - الساعة ٢،٠١٥

- واشنطن-

كان /كوكهان/ قد تحوَّل إلى ما يشبه الوحش /المكلَّب/ منذ رؤيته للنصب التذكاري الذي سُويَّ مع الأرض. وكانت يده اليمنى ما زالت تؤلمه بعد أن لكم سقف السيارة بلكمة قوية من شدة غضبه.. كان قد وصل إلى واشنطن بعد سفر دام يومين دون توقف. وها هو الآن في واشنطن منذ ساعتين أو ثلاث.

ولكي يُخلِّص نفسه من المراقبة الشديدة. كان قد تصرَّف بكل دقة وحنكة شديدين.

وكان قد اختار أحد الكهوف الموجودة في إحدى الحدائق العامة في واشنطن.. انتظر ساعات طويلة موعد منتصف الليل حتى يذهب ويبرمج القنبلة.. وفي هذه الفترة. أخذ وقتاً طويلاً من الاستراحة والهدوء.

بالأمس عندما كان في مدينة /نيويورك/.. عمد إلى وضع نسخ من المشاهد التي صورها في صناديق بريد وكالات الأنباء العالمية أو في مكاتب استعلاماتهم. طبعاً كان تصرَّف بحذر شديد وهو يُصوِّر نفسه يضع للقنبلة.. ببعض من المكياج وستر الوجه بحيث لا يعرف من قبل الآخرين. كانت المشاهد ببساطة موجهة للمسؤولين والشعب الأمريكي.

مفادها: إذا لم تسحب أمريكا قواتها من تركيا فمدنهم ستتعرض /للأدخنة المنطارية/؟ (الفطرية)

وكان قد صور نفسه ومن خلفه منظر من مناظر مدينة نيويورك كي يؤكد أنه موجود فيها.. كان تمثال الحرية يظهر من يمينه والمحفظة على ظهره..وتحدث بأن طلبه وما يرونه جديان.. وإنه يملك قنبلة نووية.

منذ الساعة الأولى كان يفكر باستعمال هذه القنابل للرد على العدوان أو

ليكون رادعاً وكان الانفجار كان مرتبطاً بالتطورات الإيجابية التي كانت ستحصل.

أما الآن لم يكن أميناً من نفسه.. يعني من التفجير لأن غضبه كان يزداد باضطراد كلما تذكر النصب التذكاري لأتاتورك وقذف المدن التركية بوحشية. ووجوه الناس الذين صورهم جيشٌ كبيرٌ من الصحفيين الأمريكيين الذين كانوا يرافقون الجيش.

لم يكن كوكهان ينظر إلى الحياة في يوم من الأيام نظرة وردية متفائلة. وكان قد تعلمً أثناء تدريباته كل شيء يتعلق بالجيش الأمريكي وبوحشيته.

الأمريكيون الذين أعطوا بطانيات ملوثة بميكروبات الجدري للهنود الحمر الموجودين في المعسكرات وقتلوهم بهذا الشكل. وهكذا.. هم الذين كانوْا بدؤوا بالحرب البيولوجية قبل الجميع.

كان الجميع يعرفون المعسكرات الموجودة في ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية.. ولكن لم يكن أحد يعرف المعسكرات الأمريكية المليئة باليابانيين أثناء تلك الحرب أيضاً.

كان الجميع يعرفون بأن الأمريكيين لا يترددون على استعمال كل الأسلحة الإستراتيجية دون شفقة ولا رحمة وذلك بعد عرض ترومان عضلات أمريكا بالقنبلة النووية والمجازر التي تعرض لها شعب فيتنام واستعمالها للقنابل العنقودية /والنابالم/ الحارق.

عندما كان يتقدم نحو الكهف بخطىً وئيدة فكّر في نفسه: "سأعطيهم اثنتي عشرة ساعة بالأكثر".

في الوقت الذي كان يريد الدخول فيه إلى الكهف.. سمع صوتاً يقول له: -

"هاي يا صاحبي هل تبحث عن موتك في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟"

عندما دار نحو الخلف وجد أمامه خمسة أشخاص تابعين لإحدى العصابات. اثنان منهم أحمران وواحد أبيض وزنجيان. ضحك وقال:

- "شوف هالحظ... بريد أمريكي على أكمل وجه"

ضاعت الابتسامة من وجه الزنجي الطويل العريض الذي كان يحمل سلاحاً في

يده. ثم أعادها ثانية /أي الابتسامة/ وقال: "انظروا الواضح إننا وجدنا شخصاً كوميدياً" قال ذلك وذبل وجهه مع الغضب. وقال ثانية:

- "هيا لا تطلِ الأمر.. أعطنا الشيء الذي تحمله على ظهرك حتى ثيابك ستخلعها لنا.. وإلاّ تذهب في ستين جهنم".

رمى كوكهان المحفظة التي أخرجها من جيبه على الأرض. وعندما كان يخلع ثيابه دار في أرضه وكأنه يقوم ببعض العروض العصبية الغريبة.. وكأنه سكران ثمل على أكمل وجه .. ضحك أفراد العصابة، في هذه الأثناء كان كوكهان يقترب من الثرثري المسلح.

وعندما وصل أمامه تماماً قرفص ومدّ يديه له وكأنه يعبده وإذا بأحدهم يصرخ من الخلف: "هذا ولد يبحث عن حبيب".

ولكن. كان وقت الحركة قد آن. ومن بين يديه المفتوحتين الممدودتين.. أخرج قدمه بسرعة البرق ولبط بطن الزنجي.

تراجع الرجل نحو الخلف وسقط متمدداً على ظهره وهو يصرخ آه ه ه ه .. سيبقى هكذا على المدى الطويل وربما يموت.. دون حراك ولا آفة.

دار كوكهان بسرعة نحو الآخرين.. في البداية وقعوا في بحر من الدهشة والاستغراب ولكنهم صحوا وأخرجوا أسلحتهم اليدوية للانتقام.. كان كوكهان سيقتلهم بالذوق والكيف وبيديه العاريتين. كان يستطيع أن ينزل شيئاً من غضبه باسم شعبه وباسم الأشياء والإجرام الذي قاموا به.

لم يستطع أي خنجر أو موس أو مشرط أن يقترب منه.. كسر الأعناق والأرجل والأذرع والصدور /الأضلاع/ ولعب مع آخر واحد منهم كما يلعب القط مع الفأر.. كلما حاول الفرار وقف أمامه.

عندما قتلهم كلهم. نقل جثثهم إلى المغارة.. كانت رائحتهم ستخرج بعد يومين. ولكنه كان سيُغيِّر القنبلة لاثنتي عشرة ساعة ولا شيء يهمه بعد ذلك الوقت.

٢٨ أيار. ٢٠٠٧ . الساعة ٠٣,٥٠
فلوريدا . CENTCOM

كان رئيس FBI روبرت موللر/ يقف أمام الرئيس الذي كان يجلس بثياب النوم. وكان معه /هوارد ستريك/ ومستشاره ومعهم رئيس CIA /بورتر كووس/ سأل الرئيس. "نعم.. ما هذا الشيء المهم؟/

كان موللر يهز بيديه على كاسيت وهو يقول: "سيدي الرئيس لقد وُزِّعت نسخٌ من هذا الشريط على عموم وكالات الأنباء العالمية.

وإما أُرسل بالبريد. استطعنا حتى هذه الساعة أن نمنع نشرها وعرضها. ولكن ثمة أماكن كثيرة لا تصل إليها أيدينا أي خارج /كونرولنا/ ولا يريدون أن ينتظروا أكثر من هذا الوقت.

هزَّ الرئيس يده بدون صبر وقال: " ادخل إلى الموضوع مباشرة يا روبرت. ماذا يوجد في هذا الكاسيت؟ هل فيه تهديدات رئيس الوزراء التركي"؟

وضحك بصوت مرتفع وكأنه قد مزح مزحة ثقيلة.. ولكن عندما لم يشترك معه أحد.. أنزل عينيه.

تحدث روبرت موللر مباشرة: "تهديد نووي يا سيدي وأخاف أن يكون حقيقة" عندما شاهدوا الكاسيت.. أطبق الصمت على الغرفة.

وأخيراً تحدث الرئيس: "كيف يحصل هذا الشيء؟ ألم تخبروني بأن كل الأسلحة الموجودة بيد الأتراك تحت /الكونترول/ قال هوارد ستريك: "عندما كنا نجهز أنفسنا لهذه العملية أتينا بهذه الرؤوس إلى هنا نفكها ونحطمها استناداً للاتفاقيات القائمة بين الطرفين. ولكن فهمنا إن اثنين منها ليسا موجودين".

أكمل /بورتر كووس/ الجملة: "الآن نعرف أين هما إنهما هنا، في قلب الولايات المتحدة الأمريكية".

فتح الرئيس يده باستغراب ودهشة وقال: "طيب.. كويس:: ولكن كيف أتوا

بهاتين القنبلتين إلى هنا خلال يومين"؟

نظّفَ بورتر كووس حنجرته وقال: "لا يا سيدي.. هذه العملية ليست عملية يومين أو ثلاثة.. علمنا أن الملف السري الذي جهزناه. قد تم كشفه وتقديمه إلى رئيس الوزراء من قبل أحد رؤساء الاستخبارات قبل شهرين أو ثلاثة. عندها حاولنا المراوغة ودفع الرشوات والتهديد ولكن الذي فهمناه أن الملف قد وصل إليهم".

كان الرئيس ينظر إلى رئيس CIA بدهشة وهو يقول له:

"ولكن ألا يوجد عندنا تدابير خاصة؟ ألا تقدرون إيجاد هذا الشخص"؟

فرح /كووس/ بعض الشيء لأنه كان سيعطي جواباً إيجابياً على الأقل لهذا السؤال حيث قال:

من تمشيطنا للملفات عرفنا شخصيته.. نحن واثقون بأن هذا العميل هو/ كوكهان بيرداغ/. الآن يتم توزيع صوره على جميع قوات الأمن.. ونستطيع القبض عليه خلال أربع وعشرين ساعة بالكثير. ولكن أعتقد لا نملك هذا الوقت".

تدخل هوارد ستريك بالحديث: "يا سيدي الرئيس إن كلام الرجل ليس /بلوف/ لقد تم تدقيق المشاهد والأماكن. والقنبلة جاهزة للبرمجة والتعبير والاحتمال الأكبر أنها موجودة في نيويورك لأن الرجل قد وزّع الكاسيتات هناك ولكن لا نعلم إن كان وحده أم لا. واشنطن ونيويورك من أهم المدن والأكثر خطراً. حتى لو بدأنا بعملية تفريغ المدينة ستخلق توتراً شديداً.

قال روبرت موللر: "ستعمد وكالة ما إلى عرض الكاسيت خلال ساعات من الآن. حتى ولو منعنا العرض في عموم الولايات ستعمد الأقمار الاصطناعية والإنترنت إلى عرضها.. والنتيجة طبعاً فوضى وتوتر شديدان".

قام الرئيس على رجليه بسرعة وقال صارخاً: "أيها السادة: في الوقت الذي يقوم فيه بلدنا بحرب مهمة جداً ونحن في وسطها وإذا بإرهاب نووي يهددنا.. بمعنى أنتم تقولون لي هذا الكلام أليس كذلك؟

إذا رضخنا لهذا التهديد من يسمع كلام الولايات المتحدة بعد الآن؟ ويتراجع تأثيرنا بين دول العالم إلى الصفر.

يعني هل ستأسرنا قنبلتان نوويتان؟ اذهبوا الآن واقبضوا على ذلك الإرهابي أو

الإرهابيين.. أوجدوا القنابل. من غير الممكن أن نوقف هذه الحرب بالتهديد والابتزاز".

عندما خرج الرئيس من الغرفة نظر الجميع إلى بعضهم ودار فجأة ونظر إلى روبرت موللر بعيون مهددة وقال:

"أعطيك الصلاحية الكاملة.. أوجد نسخ هذا الشريط وأمنع نشره بأي شكل كان".

كان روبرت موللر قد فهم الآن أنه يعمل مع رئيس مجنون حيث قال له: "هل تعطيني أمرك هذا كتابياً يا سيدي الرئيس؟"

ظهرت ثمة ابتسامة قذرة على وجه الرئيس وقال: "طبعاً".

٢٨ أيار- ٢٠٠٧

ضواحي أنقرة الأمامية

كانت نيران المدافع من عيار ١٥٥مم ومن طراز /هوتيز/.. شديدة الانفجار بدأت تمطر الجنود الأتراك بشكل نظامي.. أما المروحيات من طراز أباتشي وكيوا وهي طائرات هجومية واستطلاعية فكانت تطير من ارتفاعات قليلة تستطلع مساحات شاسعة من الأراضي. وتساعد بعض القذائف التي تقاد بأشعة الليزر إلى أهدافها، منيرة ذلك المكان الذي تسقط فيه.

وتجهز نفسها للهجوم الكبير الذي كان سيبدأ بعد قليل.

وبين وقت وآخر كانت تصدر بعض النيران من المدافع التركية..

ولكن القوات الأمريكية كانت تسكت هذه النيران. إما بالمروحيات أو بالمدافع بعد أن تكشف أماكنها أو مواقعها. كان الجنود المتواجدون على الخط الأمامي من الفرقة المدرعة الأولى قد حموا أنفسهم بخنادق عميقة لأن نيران الأتراك الصغيرة كانت تصدر من عشرات المواقع والخنادق.

كان الجنود الأتراك يُفرِّغون ما في جعبتهم من نيران جميع أنواع الأسلحة دون توقف فوق القوات الأمريكية.

كان الجنرال هاري جاكسون ينظر إلى عدوه الذي أمامه بكل جدّية. وكان يستطيع التخمين بأن الأتراك قد تخندقوا بشكل جيد. وإنهم سيحوِّلون المدينة إلى جهنم. ومن أهم الجوانب الجيدة للجيش التركي هو دفاعه.. كان الجيش التركي يستطيع أن يقوم بهجمات مضادة. وبشكل سريع. ولكن إذا بدأ بالهجوم المضاد لم يكن بمقدور أية قوة على سطح الأرض أن توقفه.

لم تكن القوات الخاصة قد قابلتهم حتى الآن. وكان /هاري جاكسون/ يعرف كما يعرف نفسه أن مدينة أنقرة مليئة بالكمائن وبالقوات الخاصة. وإنهم سيتصارعون معهم في أقرب فرصة. مشّط بمنظاره الخطوط التركية. كان

بمقدوره رؤية النيران الكثيفة حتى داخل الخطوط الأمامية. هذه الخطوط لم تكن تهمه بأي شيء. كل هؤلاء الشباب الموجودين على هذه الخطوط كانوا سيخرجون من الدقائق الأولى للمعركة. عندما تبدأ الغارات الجوية. و عندما يبدأ هجوم الدبابات. كان الخط الأمامي سيتمزق من منتصفه ولكنه كان قلقاً من أجل أنقرة. عندما يحتلونها... كان البنتاغون قد خطط لاحتلال إستانبول على شكل عرض سينمائي.. هوليودي.

في هذه الأثناء أعطاه جندي الاستخبارات الرسالة التي تؤكد بدء الغارات الجوية. وبعد أن أبلغ الرسالة إلى قادة الألوية والكتائب في جيشه.. ظهرت الطائرات الحربية على شكل أسراب في الجو. بدأت الطائرات تمطر الجنود الأتراك بالقنابل والصورايخ ومن مسافات بعيدة وهي تَنْقَضُ انقضاضات قاسية. كانت الطائرات من طراز **A15** تطير على ارتفاعات منخفضة وتنقض على الجيوب التركية الصغيرة.. كما ينقضُّ الدبّ على فريسته. بمدافعها التي تسمى /غاتلينك/.. وتقيم الدنيا ولا تقعدها بالدخان والغبار.. بعد وقت قصير حصل شيء.. جعل من الجميع ينفعلون ويهيجون. حيث ظهرت الطائرات **B5** القاذفة وبدأت برمي آلاف الأطنان من القنابل فوق الخطوط التركية.. حيث فتحت فيها ثغرات كبيرة وعميقة.. كانت الخطوط الأمامية قد سكتت تقريباً.. ولم يكن هناك من معنى لانتظار الدبابات بعد الآن. ربما إن الجيش التركي.. امتنع عن تحويل أرضه إل حقل ترعى فيه الأغنام ... فالعملية لم تكن تتوقع كثيراً من المصاعب.

بدأت مئات الدبابات من طراز **MIA2** والعربات الحربية المدرعة من طراز /برادلي/ والعربات المدرعة من نوع /هومفا/ المحمولة بصواريخ مضادة للدبابات قد بدأت بالحركة. كانوا يستطيعون رؤية المروحيات وهي تصب النيران من أفواهها من مسافات بعيدة. كانت طائرات الأباتشي قد دخلت في معركة شديدة.

عندما شاهدت الدبابات الأمامية العربات المتحركة بدأت بإطلاق نيران مدافعها.. تقدمت الدبابات والعربات المدرعة بشكل سريع وهي تصب نيرانها حتى توقفت، عندما شُوهدت الأحياء الأمامية من /بولاتلي/ ولكنهم كانوا قد تأخروا كثيراً عن ملاحظة الخطر الذي كان يأتيهم من تلك البلدة كان الجنود الأتراك

قد اقتربوا من بعضهم وبدؤوا باصطياد الدبابات الأمريكية المتقدمة. والحقيقة كان انفجار الدبابات واحتراقها والأدخنة والغبار المتصاعد والجنود الغائبون المتشردون داخلها قد أنزلت من معنويات الجنود الأمريكيين كثيراً. كانوا لا يصدقون أنهم وصلوا حتى ضواحي أنقرة الأمامية. وكان اعتقادهم هذا سيطلع حقيقة ولكن خسائرهم الكبيرة في معارك البر وبمساعدة الهجمات الجوية الكثيفة غير المنقطعة.. قد وصلوت إلى هنا.. كانت خسائرهم كبيرة بحيث أنهم كانوا لا يقدرون على إحصائها ومعرفتها. والأصح أن القيادة الأمريكية لم تكن تهتم كثيراً لا بالخسائر البشرية ولا المعدات. وبما أنهم على علم بأنهم داخل جهنم وبئس المهاد.. يعطون بعض البيانات الكاذبة كي يسكتوا وسائل الإعلام التي معهم. وإذا ما تقدموا هكذا بعض الشيء. كانوا سيجدون أنفسهم داخل منظومة قوية من حرب الشوارع والمدن. بحيث أن العملية كلها تقع تحت سطوة الحظر... كان قد طُلب منهم الابتعاد بقدر الإمكان عن الجيش التركي في حروب البر. كان عليهم أن يتركوا كل شيء للقوات الجوية والمساعدة الجوية. كان عليهم التقدم إلى مركز أنقرة دون أن يُضيِّعوا وقتهم في مناوشات ثانوية داخل الأحياء السكنية وكل التجمعات البشرية الأخرى.

كان الأمريكيون يعرفون حق اليقين بأنهم إذا ما تقابلوا وجهاً لوجه مع الجيش التركي فإن احتلالهم لن يكون حقيقة. ولهذا السبب ولضرورة النظريات الحربية المعروفة.. كان عليهم تحريض المجتمعات التي تفكر بالانفصال عن تركيا. وحتى الآن لم يكن قد صدر أي صوت من هؤلاء الانفصاليين.

وإذا دام الأمر على هذا الشكل فإنهم سيبقون خلال وقت قصير داخل بحر من النار وأمامهم الجيش التركي الذي ملأ الحقد قلبه ضدهم.

ومن ذا الذي كان يستطيع إخراجهم من داخل هذه الوضعية أو الموقف. كانت ثمة طلقات رشاشة تخرج من داخل هذه الوضعية أو الموقف. وكان واضحاً أن غاية هذه النيران.. سحب القوات الأمريكية إلى حرب المدن والشوارع. من يدري ما الذي كان سيصيبهم لو أرخوا أنفسهم وانجرّوا خلف هذه النيران المتقطعة. ولم يكن باستطاعة /هاري جاكسون/ المرور من قرب/ بولاتلي/ وهو يعلم أن العدو

متخندق فيها وبكثافة. كان عليه أن يفرض سيطرته على ذلك المكان. ولكن كان ذلك نوعٌ من المستحيل. هذا معناه إضاعة المزيد من الوقت والمزيد من الخسائر البشرية. لم يكن أمامه سوى اختيار واحد يجب تطبيقه. وهو إفناء البلْدة عن بكرة أبيها بناسها وأبنيتها وجنودها تفادياً لضياع الوقت والأرواح.. كان يتمنى ويريد أن يجعل هذه البلدة مركزاً للدعم والإسناد.

فاتصل مع القوات الجوية مباشرة وأمرهم باستعمال قنابل /سلاير/.

كان بمقدوره بعد الآن أن يشير إلى كتائب الدبابات بأن مركز أنقرة هدفٌ لها.

كان يكفيهم تمزيق الخطوط قبل أن يتقدموا كثيراً نحو الأمام.. كان يفكر هكذا.. ولكن كثافة الدخان فوق سماء المعركة لا تريهم أي شيء.

كان قد بدأ يقول في نفسه: إن الأمور لم تكن تجري كما يشتهونها. أو يريدونها.. كانت فرقة الإنزال الجوي /١٠١/ تنتظر خلفهم للاشتراك في المعركة على بعد اثني عشر كيلو متراً من شرقهم. كانوا سيهاجمون مركز أنقرة تماماً. ويسيطرون على القصر الجمهوري وبناء مجلس الأمة التركي. وبدأتْ الفرقة المدرعة الأولى بالتوجه نحو الشمال الشرقي بكل سرعتها وطاقتها وقوتها... بدباباتها وعرباتها المدرعة. وكانت المروحيات ترفع كل الحواجز من أمامهم وتقدم خطاً دفاعياً هجومياً لهم وبكل دقة. وتضرب الخطوط الدفاعية التركية بقوة لا ترحم. أما القوات التركية التي فقدت دباباتها وعرباتها المدرعة. كانت تقوم بتكتيك حرب العصابات. حيث كانوا يقتلون الجنود الأمريكيين دون توقف.

أكملت الدبابات خلال ساعة من الوقت كل صيانتها وتجهيزاتها وإكمالها. وبدأت بالحركة والتقدم على استقامة أنقرة.. كانت القوات التركية المختفية والمتخندقة داخل /بولاتلي/ تطلق النار وبكثافة على هذه القوافل الأمريكية المتجهة نحو أنقرة. كي تسحبها إلى داخل البلدة. ولكن الفرقة المدرعة الأولى تابعت طريقها دون تدخل في معارك ثانوية... كانت تريد الخط الدفاعي الرئيس في أنقرة. في هذه الأثناء ظهرت الطائرات القاذفة من طراز 130 – C. فوق سماء

الأفق البعيد.. هذه المشاهد لم تكن تبشر بالخير للبلدة وسكانها وجنودها. كانت هذه الوحدات المتخندقة داخل البلدة ترمي مدافع الهاون على القوافل الأمريكية. ولكن ليس من مستجيب لهم. كانت مهمتهم مقتصرة على تأخير هذه القوافل. ولكن القوات الأمريكية كانت قد غيّرت من قواعد الحرب بشكل سافر.

لأن هذا الخطر المحدق الكامن في نقطة ما ـ كانت ستتحول إلى أرض مستوية كما يريدونها. إذا كان أحد الأطراف المتصارعة أو المتحاربة لا يأخذ أهمية /للرأي العام/. فإنه يُغيِّر التوازنات الحربية مباشرة.

عندما وصلت أربع طائرات من طراز /C- 130/ فوق بلدة /بولاتلي/ فتحت أغطيتها السفلية وتركت الكتل العملاقة. بدأت القنابل تنزل نحو الأسفل تاركة صيحات وحشية وكأنها خارجة من فم واحد حيث سقطت على الأحياء الجنوبية الشرقية من البلدة. وبتأثير انفجار هذه القنابل حدث زلزال حقيقي كان قوته ٣,٨، بعد الانفجارات الحاصلة وبعد أن تحولت البلدة إلى خراب حقيقي بدأ لواء المدرع الثاني الذي كان يدعم الفرقة المدرعة الأولى. بدأ هذا اللواء بتنظيم حركات استطلاعية نحو بلدة /بولاتلي/ بشكل سريع وكثيف. كانت ثمة أصوات أسلحة كثيفة قد بدأت بالخروج من /بولاتلي/. لم يكن أحد يعرف ما الذي كان يحصل في داخل المدينة. طلب/ هاري جاكسون/ تراجع العربات المدرعة من أعماقها.

فانسحب اللواء المدرع الثاني مباشرة إلى خارج المدينة. وأُعطيت الأوامر للقوات الجوية الكوردينات ثانية لوجود المزيد من القوات.

فقامت الطائرات F-15 الموجودة في تلك المنطقة على إفراغ كل قنابلها التي تقاد بالليزر فوق بولاتلي ثانية. وكأن المنازل قد خربت وهُدِّمت تقريباً.. كانت أنقاض المنازل من طابق واحد أو اثنين. قد انتشرت في أماكن واسعة. فأعطى /هاري جاكسون/ أمر إيقاف إطلاق النار.. كانت المنطقة قد صمتت لا أصوت طلقات ولا مدافع ولا قنابل.. القوات التركية ما زالت هناك. كان يعرف هذا الشيء.. يجب أن تكون الخسائر البشرية في المدينة قد جعلتهم يصمتون ويعرف بأنهم سيظلون هكذا لمدة طويلة.

كان /CENTCOM/ يريد الارتباط به. حمل /هاري جاكسون/ الهاتف بيده. وأجلس على وجهه ابتسامة وقال:

- "سلام هودي... أعتقد أن كل الأمور على ما يرام: سأقوم شخصياً بتشتيت الخط الدفاعي الرئيس والباقي على عاتق الـ/ ١٠١/ ولكن لست واثقاً من هذا التصرف الذي نقوم به، وهو إرسال جنودنا إل داخل المدينة. ربما تكون خسائرنا كبيرة جداً".

في الوقت الذي كان يتحدث بالهاتف أكمل تمشيط المنطقة بمنظاره. كان يحب البقاء في ساحة المعركة. وتعجبه الحرب إلى جانب جنوده. من يدري كم كان يشتهي أن يصير مع قواته في الصفوف الأولى.

- "وكما في كل مرة فإن القوات الجوية تقوم بواجبها على أكمل وجه ويجب على الخطوط الدفاعية الرئيسة أن تتبعثر خلال ساعة أو ساعتين.. الآن تقوم الطائرات بقذف تلك المنطقة دون توقف. وقد وصلتنا معلومات بأن ثمة ثغرات كبيرة قد فُتحت في هذه الخطوط حتى قبل الهجوم البري. وأعتقد أن الأمر سيكون سهلاً جداً".

- "أعرف.. أعرف.. ولكن لن تكون بهذه السهولة. ولكن انتبه لا نريد أن تسيطر على كل الأحياء والحارات.. بالأصل ما في ضرورة لذلك. سأحاول جاهداً استعمال القسوة والشدة حتى نُقطع النظام إلى أشلاء مبعثرة... بعد ذلك يأتي دورك.. وأنا لا علاقة لي بالأمر".

أغلق الهاتف. أحس بأن بارقة من الثقة بالنفس قد غزته.. هذه الفكرة جعلته في وضعية نفسية غير مرتاحة لأنه كان قد بدأ بتقزيم عدوه. . من الناحية العسكرية هذا الأمر مرفوض وغير مقبول أبداً.. ولكن المعطيات كانت تشير إلى أن كل الخطوط الدفاعية ستنقلب رأساً على عقب.. على الأقل من الناحية النظرية. ولكن كلما كان ينظر إلى العربات التي كانت تمر قرب مركز القيادة حاملة القتلى والجرحى.. كان يحسُ بأن الثقة التي تعلوه مشكوك في أمرها. هذا ما كان قد بدأ يُحس به. كانت أجساد جنوده الصغار تحمل إلى الخيم العسكرية الطبية.

كانت المروحيات قد تركت نقل الجنود والذخائر وبدأت بنقل الجنود المصابين إلى العراق.

بدأ بالتصنت إلى اللاسلكي. سمع صوت العساكر الذين كانوا يصرخون بين حزيز الجهاز، كانت الدبابات المتقدمة قد كشفت أماكن وجود المدرعات التركية وبدأت بإطلاق نيران كثيفة فوق تلك المدرعات. كانوا وسط صراع مرير ووجهاً لوجه مع الأتراك /أي بالسلاح الأبيض/.

أسرع الجنود ودخلوا إلى المنزل. كان الجميع معجونين بالدخان والغبار.. وفي بحر من العرق. حتى أنهم يتنفسون بصعوبة بالغة.. أغلقوا الباب من خلفهم وتخندقوا خلف النافذة.. كانت القذائف تمطر فوق المنزل. خمسة عساكر أفرغوا آخر قذائفهم من سلاح /3 – G/ إلى أهداف لم يروها. وخرجوا من خلف المنزل واختفوا عن الأنظار عندما غادر الجنود المنزل وإذْ بقذيفة صاروخية مضادة للدبابات قد انفجرت على باب المنزل من الخارج. هذه كانت أولى القنابل التي تتفجر في الأحياء الخارجية لمدينة أنقرة.

كانت الفرقة الأولى المدرعة قد فتحت ثغرات مهمة على جميع الخطوط. كانت عربات الـ /هومفا/ المدرعة وعربات /ستريكر/ المدرعة أيضاً. تدخل عبر هذه الثغور إلى الدخل حيث تشتبك مع الأتراك وتنسحب ثانية.

ولكن لم يكن هذا العمل سهلاً بقدر ما يتصورون. ففي خلال ساعةٍ واحدة كان الأتراك قد أحرقوا اثنتي عشرة عربة مدرعة من طراز /هومفا/ مع رجالها وعساكرها وذخائرها. كان الجنود الأمريكيون يحاربون بشكل قوي وسريع لم يكن أحد ينتظر منهم ذلك.. كانوا لا يبالون بالخطر أمامهم. وكانوا يحاولون شق الخطوط الدفاعية لمدينة أنقرة بأي شكل كان. كان الجنود الأتراك يخرجون من كل ثقب تقريباً ويحاربون الأمريكيين دون أن يفكروا بالموت.. في بعض الأماكن كانوا قد صاروا وجهاً لوجه ودارت الحروب الطاحنة بالسلاح الأبيض والأيدي العارية.. كانت ثمة معركة في الخارج تذكر الإنسان بحرب فيتنام.. كان الجنود الأمريكيون يدخلون من الثغور ويتقدمون نحو الداخل..

ولكن فترة قليلة وإذا بخط دفاعي آخر يقام من خلفهم. وكأن هذا الخط لم يُضرب أبداً. وكأن الجيش التركي بأكمله قد صار داخل أنقرة.

لم تقدر الدبابات على تحطيم الخطوط الأمامية.. والأحياء الخارجية لأنقرة كانت تشتعل بشكل مثير من شدة المعارك الدائرة. توقفت دبابات وعربات الفرقة الأولى المدرعة. كانت ثمة ثغرات موجودة على الخطوط التركية. ولكن إذا ما دخلوا من هذه الثغرات.... كانوا سيكونون في قلب المدينة مباشرة. ولكن وجهاً لوجه أمام الكمائن التركية دون دفاع ولا رجوع.. وربما يبادون بالكامل. لم يكن في نية /هاري/ الوقوع تحت الكمائن التركية. كما وقع الروس تحت كمائن الشيشان.

كان عليه أن يفعل شيئاً ما. ولكن كان عليه أن ينهي العملية بالسرعة القصوى.. تردد بعض الوقت. ثم أعطى الأمر للدبابات للدخول من هذه الثغرات. كان هذا قراراً خطراً. ربما كانت هذه الثغرات قد فُتحت قصداً على أنها طرق عادية.

ولكن إذا لم تنجح العملية.. ربما تتعرض القوات الأمريكية للتقهقر والتبعثر والانتشار على أبواب أنقرة. وكانت التقارير الواردة من الاستخبارات تؤكد أن القوات الخاصة التركية المتمركزة حول مدينة /قيصري/... قد أغارت بأسلحتها الثقيلة المتنقلة على قوافل الإمدادات الأمريكية وأفنتها عن بكرة أبيها. كانت هذه القوات تتقدم نحوهم بشكل غاضب.. ولم يكن بمقدرهم تخليص القوافل اللوجوستية منهم. حتى أنهم لم يكونوا واثقين من تخليص أنفسهم.

كان الزمن يقترب بالنسبة لفرقة الإنزال الجوي /١٠١/ حيث أكملت المروحيات تحضيراتها واستعداداتها وبدأ الجنود استعدادهم بشكل هادئ وصامت. كانوا على الدوام يضعون الدهانات على وجوههم.

كانت الحركة ستبدأ في الليل... عندما بدؤوا سماع هدير أصوات المحركات تملأ آذانهم... أسرعوا في الاستعداد والتجهيز.

كان مركز قيادة الفرقة /١٠١/ يقع على بعد عشرين كيلومتراً من شمال/ بحيرة الملح/. كانت هذه القيادة تحوي العشرات من طائرات الأباتشي و CH –

47 و 53 – CH وبلاك واك، و 53 – MH. حيث بدأت كلها بالإقلاع دفعة واحدة... كانت الأصوات المتداخلة مع ظلمة الليل والأضواء الكاشفة قد خلقت صورة تذكر الإنسان بجهنم.

كانت كتائب الطائرات تنقل المئات من الجنود إلى أهم مهمة أُعطيت لهم حتى الآن.. صراخهم وعويلهم كانت تتصاعد في كل مكان.

كانت أضواء الطائرات القاذفة تتراءى في أعالي السماء.. عشرات الأضواء.وكانت ستفرغ أحمالها من القنابل بعد قليل فوق المنطقة التي ستهاجمها الفرقة /١٠١/ ستنزل القوات الأمريكية إلى قلب أنقرة بعملية تُعد الأخطر من نوعها. وبعد السيطرة على امتداد عرضه عشرة كيلو مترات من الأرض. كانت الفرقة المدرعة الأولى ستتحرك أيضاً وتلتقيان هناك وتتوحدان داخل قوة واحدة. في المرحلة الأولى سيتم إنزال الفوج ٣٢٧ للمشاة التابعة للفرقة /١٠١/ ومن خلفه سيتم إنزال فوج المشاه /٥٢٢/ على طريق عام /أنقرة ـ بولو/ الواقع إلى شمالْ أنقرة. والغاية من هذا الإنزال هو دعم القوات من الناحية الشمالية عند الحاجة إليها.

كان ليل أنقرة يضاء بقنابل اللهب الصادرة من دبابات /M1A2/ من نوع /ابرامس/.. أما المدنيون من سكان أنقرة. فكانوا لا يعرفون ماذا سيفعلون.. كانوا قد دخلوا إلى بيوتهم محبطين من الرعب والقلق.

أما الأدخنة فقد غطت وجه السماء المظلم. وثمة حرائق كانت تشتعل في بعض البيوت. وكانوا يستطيعون رؤية العربات المدرعة الأمريكية في الأحياء الخارجية. تمر قرب بيوتهم بسرعة.

صرخ الرجل بقوة: "تعالوا.. هيا بسرعة تعالوا إلى هنا".

تحركوا بسرعة وجاء قرب الرجل أربعة أطفال وامرأتان. كان الرجل متخندقاً خلف منزل متهدم يحمل على كتفه بندقية من طراز /M1/ ومنظاراً قديماً. كان الأولاد والمرأتان يخافون الخروج من مكان تواجدهم. كانوا قد ستروا أنفسهم داخل حفرة تبعد عن الطريق مقدار عشرة أمتار تقريباً. كانوا في موقف خطر جداً. في كل لحظة يمكن للموت أن يطرق بابهم من نار الطرفين. كانت المدرعات الأمريكية تمر من الطريق الذي يمر من أسفلهم.. ويطلقون النار على

إحدى الحارات ويعودون من الطريق نفسها. وبين وقت وآخر كانت بعض الطلقات الرشاشة والصواريخ تصدر من تلك الأحياء. ورداً على قذف الأمريكيين كانت هذه الطلقات تسقط حول الحفرة التي يختبئون داخلها.

كان الرجل يسمى /باركن جاغلايان/ من موظفي وزارة الخارجية التابعين للدائرة المهتمة بقبرص. قطع الرجل الساحة الفارغة... ورمى بنفسه إلى الحفرة. كان المدنيون الستة يرتجفون هلعاً وخوفاً.. ألقى /باركن/ بنظراته نحو كل الأطراف.. كان الوضع يتراءى سيئاً إلى أبعد الحدود.. كانت أصوات الطائرات المنقضة تصم الآذان.. ومن خلفها تسمع صوت انفجار القنابل.

كان عدد الجنود الأمريكيين يزداد في هذه المنطقة مع مرور كل دقيقة وثانية.. كانوا يسيرون مجموعات مجموعات.. وهم يحملون الأسلحة والذخائر وكل شيء يهمهم.. ثم يتخندقون... ويركزون أنفسهم في نقاط معينة ويتقدمون ثانية. نظر /باركين/ نحو المرأة التي خمنَّ أنها أم الأولاد وقال لها:

- "عندما أقول لك اركضي يا خالة. خذي أولادك عل الفور وأسرعي نحو هذه الأنقاض. وأنا سآتي معكم.. وبعد ذلك سنهرب معاً". ألقت المرأة نظرات لا معنى لها. كانت تنظر إليه وكأنها تقول له: "وإلى أين سنهرب؟؟"

ومع هذا لم تكن في وضعية يمكن لها أن تعارضه، كانت ستنفذ كل تعليماته. نظر باركن نحو الطريق ثم إلى الساحة الفارغة من حوله. كل دقيقة تمر وعدد الجنود في ازدياد.. شاهد عدة دبابات تتوجه نحوهم. كانت تتقدم وهي ترش أمامها برشاشتها الثقيلة والخفيفة. ولكن الأصوات الصادرة من خلف الظلام كانت أكثر فظاعة ورهبة. كان /باركن/ يحسُ بأن ثمة حركة كبيرة قد بدأت. في لحظة واحدة ضرب كتف المرأة وجروا معاً. كان عليهم الإسْراع في الجري حتى يصلوا إلى المكان الذي يودون الوصول إليه. ولكن المرأة المسكينة.. كانت قد تأخرت عنهم. أمسك /باركن/ ذراعها وسحبها نحو مكان تواجد الأنقاض.

استطاعت المرأة الوصول إلى الأنقاض وهي تزحف فوق ركبتيها ودون أن تقول شيئاً.. كانت أصوات الطلقات تمر من فوقهم. يجب أن يكون أحدهم قد

شاهدهم. وربما لم يهتم كثيراً بأمرهم، هذه طلقات أطلقت من أجل التسلية فقط.

شاهدوا كرات كبيرة من النار تتكون فوق الأماكن التي يتواجد فيه الجنود الأتراك. وكانوا يعرفون أن ثمة زحمةً لا يرونها تتلاطم في السماء. كان الجيش الأمريكي يحارب داخل ساحة صغيرة جداً.

ويُطبقون تكتيكات مختلفة. كانوا قد وصلوا إلى العاصمة بصعوبة بالغة. وهم في حالة وكأنهم لا يهتمون لأية منطقة أخرى من البلد.

وكأنهم لا يريدون السيطرة على قسم من الأراضي ولا على نقاط إستراتيجية.

كان /باركن/ موجوداً ضمن أول هدف تم قذفه منذ بدء العمليات العسكرية. كان قد عاش تلك اللحظة.. كانوا قد تدحرجوا على الأرض عندما اهتزت البناية بشدة.. مع اصطدام القنبلة الموجهة بالليزر، كانت البناية قد بدأت بالاشتعال من منتصفها حتى إلى أعلى الطوابق.. كانت أكثريتها فارغة. ولكن كان عدة أشخاص من /البيروقراطيين/ في الطابق العلوي من البناية ماتوا كلهم.

أما هو فقد خرج من البناية وصار شاهداً على أحداث وصور شتى... كان قد رأى الطائرات وهي تناور في أعالي السماء وتلقي بقنابلها على العمارات وبعض الأحيان على الشوارع والطرقات.. أحسّ آنذاك أنه استفاق من حلم عميق جداً.. الأوراق التي تحترق في وزارة الخارجية.. تحمل في مضمونها سياسات الدولة على مدى مئات الأعوام.. ومع احتراق تلك الأوراق أحسَّ بان التاريخ قد طمر منذ قيام الجمهورية وإلى الآن.. وأحس أنه أيضاً ينطمر مع ذلك التاريخ وتلك الأوراق.

لم يكن من السهل إزالة أو رمي هذه المشاعر والأحاسيس وتلك الأحداث.. كان قد ذهب إل البيت مسرعاً ووجد زوجته تقف على الباب مرتجفة. كانت يداها ترتجفان بحيث أنها لم تنجح بوضع المفتاح في القفل وفتح الباب، دخلا البيت ولم يخرجا أبداً.. وجلسا داخل المنزل البارد من جراء تكسر أو تحطمُ زجاج النوافذ وانتظرا نهاية الكابوس:

فوضى للحظة واحدة.. تغيَّر كل شيء.. ماذا حصل لحياتهما؟ كان كل شيء يسير على ما يرام.. حياتهما كانت رائعة. كانا يتنزهان بالسيارات فوق شوارع أنقرة العريضة والواسعة.. و يتحدثان عن الحياة والعالم وعن كل شيء.

ولكن خلال أسابيع قليلة تغيّر كل شيء. ثمة قوة غريبة كانت تخترق الجسد وتتقدم نحو القلب ولا يستطيعون فعل أي شيء.

طبعاً من الصعوبة بمكان أن تقف في وجه جيش متطور بهذا الشكل. ولكن الجيش التركي كان مستيقظاً.. حارب الأمريكيين بشكل غير متوقع وأنزل بهم خسائر فادحة. كانوا يحاربون دون أن يفكروا بالموت. أما الآن راحت الأسلحة الثقيلة من تحت أيديهم.

كي يجابهوا هذه القوة الغاشمة.. كان /باركن/ يحسُ بأنه قد حان الوقت كي يجعل من صدره خندقاً مانعاً.. للمحافظة على بلده والقيم والإنجازات الكثيرة التي تكونت على مدى عشرات الأعوام.. كانت هذه الأحاسيس غريبة بالنسبة إليه... لم يشعر بها من قبل.

كان الأصدقاء والزملاء والجيران يجتمعون ويناقشون كيفية الوقوف أمام هذه القوة الغاشمة. كانوا يجدون بعض الأسلحة في أماكن حكومية. كان /باركن/ قد تعرف إلى أحد العناصر من الوحدات الخاصة في رحاب عمله كموظف يعمل في مجال جزيرة قبرص.. عناصر الجيش التركي الذي كان الأمريكيون يسمونهم /Hard soldiers/ (الجنود الأشداء) يجهزون أنفسهم للقتال وهم يرتبطون مع المدنيين.. ويحضرون معملاً لصنع القنابل.. ويدربون المدنيين على شكل مجموعات صغيرة للسلاح وقتال الشوارع ويخططون للدفاع عن مدينتهم.

عندما تدخل القوات الأمريكية إلى أنقرة سيحوّلونها إلى جهنم ويصبّون حممها فوق رؤوس الأمريكيين. وكان /باركن/ داخل هذه المخططات. وهو الآن ينفذ أمراً ومهمة.. وقد جاء إلى هنا ليعرف تقدم الأمريكيين وأين وصلوا وماذا يفعلون.. كانت البندقية التي استعملها في العسكرية /M1/.. وهي الآن من أحسن أصدقائه بلا منازع. وربما لا تساوي شيئاً.. عندما تقوم معركة حقيقية.

ولكن إذا استعملت من منطقة بعيدة.. فهي تفعل الكثير والأمريكيون يعرفونها جيداً لأنها من صنعهم.

أشار إلى المذنبين الذين كانوا معه وقال: "اذهبوا إل هناك. ثمة أناس يقدمون

لكم المساعدة".

لم يكن باستطاعته أن يقدم لهم المزيد من وقته.. كان لديه مهمة. ويجب أن يُكملها. كانت المحادثة التي أجراها مع جنود الوحدات الخاصة شفافة جداً ومفعمة بالمشاعر الإنسانية. لم يكن أحد يصدق بأنهم سيحافظون على المدينة ويمنعون احتلالها. ولكنهم وبقدر الإمكان أن يقتلوا الأمريكيين. ربما هذه العملية تجبرهم على الانسحاب وترك المعركة. ربما كان هذا الرأي أكثر تفاؤلاً. لم يكن أحد يرى سوى هذا الحظ أو هذه العملية. لم يستطيعوا الدفاع عن المدرعات بالأسلحة العادية الصغيرة.. وخاصة ضد الطائرات الحربية. وكان يفكر بأنه لا محاربين سوى هؤلاء المدنيين من أمثاله.

الجميع كانوا يفكرون هكذا.. لأن القوات الجوية لم تستطع المقاومة سوى أسبوع واحد فقط. والمطارات قد ضربت والطائرات قد أُسقطت وبعضها تم ضربها وهي متواجدة في أماكنها.

أما القوات البحرية فلم تستطع أن تفعل شيئاً وهي ترى سفنها تغرق في الأعماق. أما القوات البرية.. فقد صدت الأعداء بكل نظام.

وعملت مناورات نظامية ورائعة.. ولكن الجيش لم يكن قد جهزٌ نفسه للوقوف أمام هذه القوة الغاشمة. وهذا كان واضحاً من مجمل تحركاته.

كان الجميع ينتظرون عملية شديدة من المدرعات الأمريكية. وكان المتوقع هو أن تقوم الفرقة المدرعة الأولى بهجوم قوي وكامل على الخطوط الخلفية الدفاعية للأتراك. أما المقاومة فقد انعدمت تقريباً على الخطوط الخارجية. ولكن كانت ثمة أصوات أسلحة وطلقات تُسمع خلف الخطوط الأمريكية المتقدمة. كان /باركن/ قد لاحظ أن القوات الأمريكية تتجمع بشكل سريع... وهذه المعلومة بالنسبة إليه كانت كافية كي يذهب ويُخبر الآخرين بهذا الخبر.. فخرج من بين الأنقاض وبدأ بالجري.. أنين قادم من السماء. صوت قاسٍ وشديد.. رفع رأسه ونظر نحو الأمام.. رشح الأفق بنظراته.. اصطدمت ريح قاسية على وجْهه..

بعد الرياح قابلت نظراته ظلال ضخمة تتحرك بسرعة وهي تمزق الظلمة. كانت مجموعة من المروحيات الضخمة المخصصة للنقل مرت من فوقه واحدة إثر

أخرى.

لم يصدق عينيه. كانت المروحيات تتجه بسرعة نحو مركز أنقرة ستكون في قلبها خلال دقائق من الآن. كان هجوماً غير متوقع وغير منتظر. لم يدر /باركن/ ما الذي سيفعله.يجب أن ينتقل هذا الخبر مباشرة.. ربما تكون خطتهم انقلبت رأساً على عقب خلال وقت قصير.. كانت المروحيات ما زالت تمر من فوقه. حتى إنه كان يستطيع رؤية الجنود في داخلها. صور سوداء، نظراتهم مرعبة.. كانت هذه المشاهد من المشاهد التي لن ينساها أبداً. في الوقت الذي كانت فيه المروحيات تمرُّ تباعاً.. كانت الانفجارات قد بدأت في قلب أنقرة. الآن يستطيع رؤية المروحيات أكثر على ضوء الانفجارات. كانت المروحيات تطير بشكل منخفض وكأنها ستصطدم بالبنايات.. ثم إنها كانت قد بدأت بإطلاق النار نحو كل الاتجاهات. بعد قليل كان كل مكان سيتحول إلى جهنم. كان على القوات الأمريكية المتحاربة بالسلاح الأبيض مع الأتراك ووجهاً لوجه.. مضطرة لذلك؟ كان باستطاعة باركن رؤية المدافع والرشاشات الأرضية وهي تتجه نحو المروحيات. وكانت طائرات /الأباتشي/ تقف أمام هذه المروحيات التي تنقل الجنود، تدافع عنها وتسترها عن الطلقات. كانت الأجواء قد انقلبت رأساً على عقب من الآن. وبعد ذلك ظهرت ثمة أجسام في الجو.. بدأت الانفجارات تسمع ثانية.. كانت أصوات المدافع وأصوات الدبابات قد امتزجت ببعضها بعضاً. كانت المروحيات قد بدأت تنقض على الموقع كانت ألسنة النيران تنير المكان. في هذه الأثناء.. انفجرت واحدة منها وهي تحاول الهبوط على الأرض. وواحدة أخرى نزلت نحو الأرض بسرعة وهي تخرج صوتاً غريباً وتدور في الجو بشكل غير نظامي. يجب أن تكون قد اصطدمت بالأرض بقوة شديدة. كانت هذه أول خسارة بالنسبة للجنود الأمريكيين. كان /باركن/ يستطيع مشاهدة السماء بشكل جيد من النقطة التي كان يقف فيها.

كانت الطائرات الأمريكية تتلقى الخسارة تلو الخسارة على مدى تواجدها في الجو... كان قد رأى بأم عينيه إسقاط خمس طائرات نقل ضخمة.. كانت هذه حركة جنونية بكل معنى الكلمة.

ودون مسؤولية.. لا يحق لأي قائد أن يرمي جنوده داخل النار والدمار بهذا الشكل. وكأن الجنود الأمريكيين لا يعرفون ماذا يفعلون. كانوا يحاولون المحاربة وهم مخدرون من الخوف الشديد.

ما معنى الهجوم على مدينة بالمروحيات ولم تسقط دفاعاتها بعد؟ يجب أن يكون مخططو هذه العملية مجانين أو علاقتهم مقطوعة كلياً مع العالم. كانت الفرقة /١٠١/ للإنزال الجوي قد أعطت أكثر من مئتي قتيل قبل نزولها على الأرض.

لم يكن /باركن/ يحزن من أجلهم.. جرى بسرعة نحو الذين كانوا ينتظرونه.. كان الناس يخافون من إخراج رؤوسهم من منازلهم التي كانت غارقة في الظلام.. كان يسمع صوت خطواته فقط ويخاف من نفسه.. يا إلهي هل هذه حقيقة؟ أخاف الجري داخل مدينتي.. وبعد قليل سأخاف المشي في الشوارع.. قال ذلك في نفسه واهتز جسمه هلعاً.. في الوقت الذي كان يجري داخل الأزقة الضبابية لاحظ أنه يخاف من ظله. قهره الله.. أين ذلك المكان؟

وكأن الأزقة كلها تشبه بعضها. كان المكان يتراءى كأنه كمين.

كان السلاح لا يثبت على كتفه. وجسمه المبلل بالعرق يؤثر عليه سلباً ويجعله جامداً من شدة الرياح الباردة. أحسَّ بأن القوة التي كانت في ساقيه قد انتهت. كان ثمة أشياء في أعماقه تطلب منه الانهزام والفرار.

بيته الدافئ، زوجته، وأحلامه الدافئة.. مقابل كل هذا. رياح باردة وقاسية، ووجهاً لوجه أمام المدرعات المميتة كان عليه أن يختار شيئاً كبيراً.. اختياراً كبيراً.. كان بحاجة إلى طاقة تجعله يطرد الإحساس الذي بدأ ينتشر في أعماقه وروحه.. كي يُسلِّم نفسه والبلد. ولكن ماذا كان بوده أن يفعل؟.. ماذا يستطيع أن يفعل ويقدم أكثر من هذا. كان قد شاهد كل الهجمات.. حتى ولو قتلوا بعضاً منهم ماذا كان سيحدث يعني؟ هم أيضاً كانوا سيموتون.. وبالنهاية هم سينتصرون. إذا بقي على قيد الحياة.. ربما يُسوي بعض الأشياء. ربما يُغير شيئاً ما.. ربما استطاع الرجوع إلى أيامه الخالية اللذيذة... من يدري؟ كان يتذكر على الدوام الأفلام الأمريكية وفجأة فهم ما الذي كانت تدعو إليه تلك الأفلام.

ولكن عبثاً لم تعد تفيد بشيء بعد الآن. هو أساساً لم يكن يعرف الأمريكيين. كان يحلل ويدقق بما يحدث الآن بإيماءات تلك الأفلام التي شاهدها. وربما كانت هذه هي الرسائل التي تريد أن توصلها تلك الأفلام وتشجعه على الاستسلام والتسليم في هذه اللحظات بالذات.

كان يسمع أصواتاً لم يسمعها طيلة حياته. إذا بقي على قيد الحياة وتذكر هذه الأيام - سيتذكر هذه الأصوات فقط... انفجارات جنونية. أصوات قدميه وهو يجري داخل الأزقة الفارغة. صوت تنفسه. شهيقه وزفيره. وصوت الضغط الذي كان يتكون داخل دماغه من جراء عمل القلب ونبضه.

نعم.. هذا هو المكان.. دخل إلى بناية قديمة. ورنَّ جرس الطابق الثالث.. فتح الباب مباشرة.. صعد بسرعة نحو الأعلى.. كانت البناية مظلمة. عندما وصل إلى الطابق الثالث دخل إلى البيت مباشرة. كان في الداخل ثمة ثمانية أو تسعة أشخاص. كان أحدهم يختلف عن الآخرين بشكل جسده وبنظراته. كان هذا الرجل يعمل في الوحدات الخاصة برتبة صف ضابط.. كان الآخرون ينادونه بالسيد شاهين.

- "لا تستطيعون أن تُخمنوا ماذا حصل؟"
- "ماذا حصل؟"
- "جاؤوا.. نعم جاؤوا بالمروحيات ويهاجمون."

وقف الجميع ممن كان داخل الغرفة.. ووجوههم قد تغيرت. حمل السيد شاهين سلاحه مباشرة. وبدأ بلف أغراضه حول جسده كانت الوجوه قد صارت بيضاء. لم يكن أحد ينتظر مثل هذا الشيء. كانوا قد ظنوا أنهم سيُركزون بعض القنابل في بعض الأماكن.

ولكن السيد شاهين كان يُجهز نفسه وكأنه سيدخل المعركة. كان قد علَّق بندقيته الخاصة من طراز /M16/ ومنظاره الليلي على كتفيه. وثمة مسدس كان معلقاً على صدره فوق قلبه تماماً. وعلى خصره كانت مجموعة كبيرة من المخازن قد حُشرت تحت نطاقه وخارجه. ووضع على رأسه قبعته الخفيفة المصنعة خصيصاً، وقال:

- "نعم.. هل من أحد يريد المجيء معي؟ انسوا كل الخطط. إن الأوغاد يهجمون علينا من صرتنا تماماً. وهذا معناه: "نحن هنا إذا كنتم رجال تعالوا".

لاحظ باركن في نظرات الموجودين في الغرفة الانهزامية والفرار. وكأن أحد لم يكن جاهزاً لمثل هذا الشيء. كان السيد شاهين قد فهم الموقف. وكان يعرف أن الجميع عندهم عائلات. إذا أراد كان بإمكانه أن يجبرهم على ذلك.. ولكن لن يفعل ذلك. كانت أنظمة اللعبة قد تغيَّرت.. كان عليهم أن يجابهوا الجنود الأمريكيين وجهاً لوجه وعنقاً بعنق.

يُعد ذلك اليوم أصعب يوم في تاريخ أنقرة الحديثة. تقدم باركن خطوة نحو الأمام وقال:

- "ماذا تنتظر يا سيد شاهين؟ أعطني بندقية كلاشنكوف وكفى". أُضيء وجه السيد شاهين. كان ينتظر هذا التصرف من باركن.

أسرعَ باركن وتناول بندقية كلاشنكوف وعلّقها على ظهره. وتناول عدة مخازن وركزها على كتفه. وقال:

- "إذا كنت سأعيش تحت إمرة هؤلاء الأقذار. أموت أفضل لي."

وفي الوقت الذي كان يغادر فيه المنزل أطبق الصمت في داخل الغرفة.. فكّر الآخرون الذين كانوا على وشك أن يتنفسوا الصعداء ولكن كانت ضمائرهم تؤنبهم من الألم والجبن والغبن. وكأن سحابة من الأنانية قد كبست فوقهم.. كان الاثنان قد ذهبا ومن المؤكد أنهما سيموتان.

أما هم كانوا سيعيشون يوماً دافئاً ثانياً. ربما سيمر كل شيء على ما يرام.. أليس كذلك؟

مرَّ باركن والسيد شاهين من بين الشوارع والأزقة. مثل شبحين وتوجها نحو المكان الذي كانت الطائرات تنزل فيه. كانا يصادفان رجالاً مسلحين وثمة وحدات عسكرية كانت متخندقة هنا وهناك.

كان أحد الجنود ينتظر صيده داخل أحد المنازل وهو يحمل صاروخاً مضاداً للدبابات من ماركة /إيركس/. لم يكن أحد يتحدث مع الآخر. وكأن الجميع منحلين في بحر من الدهشة والحيرة. ومع أن رئيس الأركان كان في حركة دائمة

ومستمر إلا أنه كان مرتبطاً مع الجنود على الدوام. كانت معنويات الجنود ترتفع بين وقت وآخر عندما يسمعون صوت قائدهم رئيس الأركان في جهاز اللاسلكي. كانت جميع الوحدات تحاول أن تعمل شيئاً ما على ضوء ما يأخذونه من معلومات. وكانت تشكيلات الأمن والشرطة تحارب وكأنها وحدة من وحدات الجيش النظامي. كانت أنقرة داخل معمعمة من الفوضى والاضطراب.. ولكن الدفاع يجري تحت جناح النظام بكل معنى الكلمة. ثمة خمسون عسكرياً يخرجون فجأة من داخل إحدى البنايات ويهجمون على الغرفة /١٠١/ هجوماً مباغتاً وينزلون أفدح الخسائر ويختفون عن الأنظار ثانية.

كانت القوات الخاصة تحارب في عدة نقاط على شكل قيادات صغيرة. كأية وحدة نظامية أخرى.. وقوات الشرطة والأمن كانت تحت أمرتهم أيضاً.

حتى أن بعض عناصر الشرطة المسنين الذين لا يتحركون في الأوقات العادية.. كانوا يحملون السلاح /الكلاشنكوف/ ويحاربون العدو ويستشهدون.

أما الشرطة الخاصة بالمدنيين الذين كانوا يخدمون في أنقرة. فقد ركبوا سيارات مدنية والتحقوا تحت إمرة قائد منطقة إستانبول وبدؤوا بتحضيراتهم للدفاع عنها. عندما كان الدور سيأتي إلى إستانبول كان الناس سيشاهدون معركة حقيقية بكل معنى الكلمة.

كان باركن وشاهين قد بدأا بالزحف بعد هذه المرحلة. وعندما وصلا إلى منطقة الوزارات. كانت أصوات المعارك تصمُ الآذان من شدتها كان ثمة مشاعر قد تحركت في باركن. وكأنه قد ترك جسده في الخارج ويراقبه من بعيد. كان كل شيء يوقظ لدى البشر إحساساً ما بعد الحقيقة. كان اللواء الأول من فرقة الإنزال الجوي /١٠١/ قد تمَّ إنزاله في قلب أنقرة تماماً. باركن يستطيع رؤيتهم... كانوا قد ستروا أنفسهم مع أسلحتهم المرعبة وتجهيزاتهم الضخمة على إطراف البنايات والعمارات. ويطلقون النار على الدوام. كلاهما كانا يشاهد ظلال الجنود داخل العتمة. وكانت البنايات التي فيها الجنود الأمريكيون تتعرض لنيران شديدة أيضاً.. كانت الطلقات تصطدم بالجدران وتصدر غباراً وقطعاً إسمنتية وتنشرها في مساحات واسعة. والجنود الأمريكيون يرمون بالنار من داخل الأبنية التي

سيطروا عليها.

وعندما تنتهي رصاصاتهم يبدؤون ثانية بملء المخازن وهم يدعون ويرسمون الصليب على صدورهم. أما بالنسبة للجرحى فلا مجال لفعل أي شيء على الإطلاق. كان الجميع قد بدأ بفقد حاسة الحقائق.. لا يهمهم أي شيء.. لا الذين قتلوهم ولا الذين قُتل منهم. كأنهم في داخل جهنم وبئس المهاد.

وكأنهم على علم بعدم خروجهم من هنا ولا يحملون ذرة أمل واحدة تريهم الطريق القويم للخروج.

أشار السيد شاهين بيده إلى ناحية. كان كلاهما يشاهد آثار معركة طاحنة تدور رحاها في مكان تواجد مبنى مجلس الأمة الكبير.

كانت الطائرات لم تقذف تلك البناية خصيصاً.. كان في نيتهم السيطرة على ذلك المبنى وخلق نوعٍ من التأثير النفسي قال السيد شاهين: "أعتقد إنهم يهاجمون كي يسيطروا على مجلس الأمة الكبير" كان يتراءى غارقاً في بحور الأفكار. كان باركن يستطيع فهم حالته النفسية.. يجب أن يُحس بنفسه مسؤولاً عن كل هذا الذي يجري الآن. عليه أن يُجند الناس لتخليص البلد من هذا الاحتلال البغيض. ولكن حركة الاحتلال كانت مباغتة وسريعة بحيث لم يتمكنوا من جمع الناس وتدريبهم. من الصعوبة بمكان أن تخلق نوعاً من المقاومة الشعبية من الداخل. كان احتلال العراق بالنسبة لأمريكا يختلف كثيراً عن هذا الاحتلال.. كان العراقيون معتادين على جو المعارك الداخلية والخارجية ضد الديكتاتور وسواه حيث أذاقوا الأمريكيين درساً لن ينسوه. ولهذا السبب فقط كانوا قد دعوا الجيش التركي للدخول إلى هناك: يعني على أقل تقدير كانت البيانات الرسمية تظهر هذا الشيء. والحقيقة كان العراقيون قد أبدوا مقاومة قوية إلى أبعد الحدود.

كان السيد شاهين قد بدأ يضحك ضحكات لا معنى لها وهو يقول (شو بدنا ناكل خرى يعني؟): كان وجهاهما قد صارا قذرين ووسخين من آثار النار والدمار والشحار.. أسنانهما كانت تلمع من البياض.

حتى أعصاب باركن كانت قد خربت واهترأت. هو الآخر بدأ بالضحك

شخصان مسلحان منبطحان على الأرض ويضحكان وهما يمسكان بطنيهما وعلى بعد مئة متر منهما.. كان جنود الأعداء يطلقون النار نحو المصادر التي تخرج منها النيران وهم يضعون على عيونهم المناظير الليلية.

يذكرون الإنسان بالمخلوقات القادمة من الفضاء. سكت السيد شاهين فجأة، لاحظ أن ثمة حركة قوية بدأت بين الجنود. في هذه الأثناء خرجت مدرعة من أحد الشوارع بسرعة جنونية وأمطرت البنايات من أمامها بوابل من نيران رشاش من عيار ٢٥مم. ثم رسمت خطاً دائرياً بمناورة قاسية ودارت نحو الخلف. ووقفت أمام الجنود لتجعل من نفسها سداً لهم.. خرجت دبابة من الشارع نفسه الذي خرجت منه العربة المدرعة فارتجف الاثنان دفعة واحدة.. كانت الدبابة تسير بقوة وهي تطلق النار من مدفعها.. كانت البنايات قد بدأت تهتز وبدأ زجاج النوافذ والأبواب السليمة يذوب.. كما الثلج والجليد تحت الملح. وكأن الأمر قد خرج من أيديهم أو من تحت سيطرتهم.

ازداد الضغط والشدة أكثر عندما انفجرت الدبابة الأمريكية بوساطة صاروخ. لم يعرف أحد مصدره.. كان الطرفان يهجمان على بعضهما بقوة أكثر. كان الجيش التركي يجادل بشكل رائع وكأنه يريد أن يسحب الأفعى الملتفة على عنقه. ويريد طرحها أرضاً. حتى مجيء أو وصول الأمريكان إلى هذه النقطة بحد ذاته شيء لا يحتمل.

نظر السيد شاهين إلى الجنود الأتراك الذين كانوا ينتشرون في الأطراف. كان يستطيع تنقية ظلالهم حتى من مسافات طويلة. فكّر بينه وبين نفسه: نحن أقرب شخصين إليهم: في الوقت الذي كان يفكر. وإذْ بصاروخ آخر صنع قوساً في السماء وأصاب الدبابة الثانية من سطحها. حيث انفجرت بصوت قوي جداً وبدأت بالاحتراق. اجتمع الجنود الأمريكيون في نقطة واحدة.. وابتعدوا من خلف المدرعات التي ستروا أنفسهم بها. حيث بدأت موجة شديدة من النيران تتوجه نحو النقطة التي خرج منها الصاروخ.. استطاع التخمين بأن أحد الجنود الأمريكيين طلب المساعدة باللاسلكي الذي كان يحمله. أما الدبابة وما تحويها من جنود فلا يقدرون فعل

أي شيء من أجلهم.

كان صاروخ /أيركس/ قد أصاب هدفه تماماً. يجب أن يكون الأمريكيون قد فهموا أنهم في نقطة خطيرة جداً. بعد دقيقة واحدة بدأت مروحية من طراز /أباتشي/ تمطر فوق النقطة التي خرج منها الصاروخ بوابل من القنابل والصواريخ. ولكن النيران التي أُطلقت باتجاه الآباتشي صارت أشد. أُصيبت الطائرة وبدأت تنخفض نحو الأرض وهي تدور واصطدمت فوق بالبيتون بقوة.. الطيارون لم يموتوا ولكنهم كانوا لا يستطيعون الحراك.

ذهب بعض الجنود الأتراك إلى مكان سقوط الطائرة وسحبوا الطيارين نحو أماكن تسترهم أو تخندقهم.

كانت أصوات الصواريخ التي تقع فوق البيتون تخلف أصداءً وتنعكس نحو كل الأطراف في الوقت الذي كانت فيه الهجمات دائمة. سمع صوت طائرة في السماء. وحصل انفجار كبير في النقطة التي خرج منها الصاروخ قبل فترة قصيرة.. وكأنهم يريدون عدم خروج أي صاروخ من تلك الحارة بعد هذه الضربة..كانت هذه القنبلة التي أُلقيت من الطائرة قد أحدثت خسائر في عدد من البنايات.

كان صوت المدنيين يخرج على شكل صراخ وعويل وولولة. ولكن مساعدتهم كانت مستحيلة. من شارعٍ موازٍ للشارع الذي خرجت منه المدرعة. خرجت عدة عربات مدرعة أخرى. وتوجهت نحو نقطةٍ بعيدةٍ إلى حدٍ ما.

كانت تلك العربات قد فقدت صوابها. كانوا قد نزلوا وسط عاصمة قوية وجيشها أقوى منها. ودخلوا في حرب مدن وشوارع قوية. بدأت أصوات الأسلحة تزداد شدة وضراوة من النقطة التي كانت العربات المدرعة تتجه نحوها.. يجب أن يكونوا قد كشفوا نقطة دفاع قوية.. خرجت من الشارع نفسه دباباتان واتجهتا بسرعة نحو مكان تواجد العربات المدرعة.. حيث وجهت مدافعها وبدأت بإطلاق النار على النقطة نفسها. كان الجو قد أُضيء مثل النهار من جراء النيران الكثيفة الخارجة من مدافع الدبابات. وكانت العربات المدرعة تدعم الدبابات بنيرانها أيضاً. خرج جنود فرقة /١٠١/ من داخل الدبابات وتخندقوا في نقاط معينة على الزوايا

وجانب الأبنية. نظر السيد شاهين وباركن في عيون بعضهما عندما عرفا أن الجماعة يسيطرون على أنقرة خطوة خطوة.. نعم ها هم الأعداء أمامهم تماماً.. فكروا بالذي سيقومان به. كان باستطاعتهما الاشتباك معهم. ولكنهما سيموتان حتماً.

في هذه اللحظات كانت القوات الأمريكية.. الأكثر تدريباً وتعلماً وتكتيكاً تطبق عمليةً تعد من أقوى عمليات التاريخ الإنساني كله. من الصعب عليهم إيقاف هذه الهجمة. كانت هذه القوات تهاجم وبضراوة كل نقطة تصدر منها النيران وتنزل خسائر فادحة بين المدنيين. كانا يشاهدان أناساً يرمون أنفسهم من فوق البنايات هرباً من الحرائق والموت.

في مثل هذه المواقف.. الدفاع يجلب الضرر أكثر من الانتصار.. سُمعت أصوات مروحيات ثانية. كانت العشرات منها تمر من فوقهم وتتجه نحو شمال أنقرة.. ولا تهمل إطلاق نيران رشاشتها في كل الأرجاء والأنحاء"

كان الأمر قد اتضح عما سيُسفر عنه الصباح. القسم الأكبر من أنقرة سيكون تحت الاحتلال الأمريكي.

ولكن الموقف كان يتجه نحو استقامة على عكس ما كان يتوقعه الجميع.

كانت خسائر الأمريكيين كبيرة جداً.. واستدامة العملية كانت قد دخلت في حيز الخطر.

- "صباح الغد سيكون صباحاً آخر. "هكذا فكّر باركن بينه وبين نفسه. ونظر إلى بندقية الكلاشنكوف التي كان يحملها. وتذكر زوجته وأمه كان السيد شاهين يعرف ما الذي يدور في عقل صاحبه.

- "يجب أن تذهب"

- "مستحيل يا سيد شاهين.. لا.. لا."

اذهب الآن يا باركن. لا يوجد شيء نفعله الآن. انظر! الجماعة نزلوا إلى مركز المدينة.. ونحن سنخلصها منهم رويداً رويداً. كل ما نفعله الآن عبث. إنهم عازمون.. وعندهم كل الإمكانيات. ونحن لا نريد أن يصاب المدنيون بالخسائر.. أليس كذلك؟"

- "نعم.. ولكن؟"

ضحك السيد شاهين وصرخ: "روح وِلَكْ وإلا بطيِّر راسك ها"

- "وأنت؟"

- "وأنا الآخر سأذهب إلى عند عميدي"

هزَّ باركن رأسه وابتعد من هناك مسرعاً.. كان عليه أن يصل إلى زوجته.. من يدري كم خافت؟ في الوقت الذي كان يجري بين الأزقة الخلفية.. كان يصادف الجنود والناس الآخرين. كل واحد يحاول أن يفعل شيئاً ما. ولكن كأنهم يعرفون بأنهم لن يقدروا على فعل أي شيء أمام أسلحة العدو الجبارة. فجأة تذكر.. رفع البندقية من كتفه ورماها على الأرض.

وقال في نفسه: في كل الأحوال أستطيع أن أحصل على سلاح آخر.

بعد أن وثق السيد شاهين من ذهاب باركن. نظر إلى تقدم الجنود الأمريكيين. كانت طلائع الجنود والدبابات التابعة للفرقة المدرعة الأولى قد بدأت تلتقي وتلامس طلائع فرقة الإنزال الجوي /١٠١/. ولكن كيف ستتطور الحالة، الأمر غير معروف. كانت الفرقة المدرعة الأولى قد دخلت من الثغرات ولكن اتضح أن هذه الثغرات مليئة بالكمائن التركية. وهذا ما كانوا يتوقعونه... ومع إن كل التوقعات مجهولة فإن القسم الأكبر من المدينة كانت محاطة ومحاصرة بالقوات الأمريكية.

وكان ثمة جنود آخرون يلبسون ثياباً أخرى.. متواجدين هنا وهناك.. كان السيد شاهين يعرف بوجود القوات الخاصة الأمريكية. وكان هدفهم الرئيس مبنى مجلس الأمة التركي الكبير.. كان عليه الذهاب إلى هناك بأي شكل كان.. عليه المقاومة والدفاع عن ذلك المكان حتى الاستشهاد. جمع أشتات ذهنه وبعد أن رسم الخط الآمن الذي سيوصله إلى هناك.. أخذ نفساً طويلاً وجرى بسرعة وعلى استقامة واحدة وباستقرار واحد.. وكأنه يجري في سباق أحد الماراتونات. وعنده ثقة مطلقة بأنه سيجد الكثيرين من زملائه هناك.

كانت الشوارع قد فرغت كلياً. وأصوات الأسلحة قد ملأت مكان الناس. لم يكن السيد شاهين يفكر برد هذه الهجمة. لأن العدو كان قد نزل في داخلهم.

واستطاع الارتباط مع الفرقة المدرعة الأولى التي كانت تحاصر المدينة.. مقاومة هذا الهجوم معناه زيادة في الخسائر البشرية. لأن النقاط المدافعة. كانت تتعرض لهجمات وغارات جوية كثيفة.. دون رحمة ولا شفقة.. كانت أصوات الانفجارات تتوالى من عموم أنحاء المدينة ودون توقف.. كان السيد شاهين يقي نفسه من شظايا المعادن وقطع الإسمنت.. وهو يجري. عندما اقترب من المجلس. أحس بشدة المعارك. فتح أمان سلاحه. وأكمل جريه وسبطانة البندقية تنظر نحو الأسفل. كانت رائحة البارود قد غطت جو المدينة بأكملها. لم يكن يحس بأي شيء. عندما كان يجري أمام الأبنية رأى أناساً جالسين أمامها.. تخلصوا من الموت بأعجوبة كبيرة. وكانوا في موجة من القلق والاضطراب. كان بوده مساعدتهم وتقديم يد العون لهم.

ولكن كل الروابط كانت قد خلت تماماً. نظام جمهورية عملاقة كان يجادل كي يبقى واقفاً على أرجله. ولا أهمية بعد الآن لزيادة الخسائر البشرية.

عندما اقترب السيد شاهين من بناء المجلس وقف في إحدى الزوايا وألقى نظرة فيما حوله. لم يكن يصدق ما تراه عيناه. كان بعض المدنيين يحملون إشارات من الأضواء يلوحونها نحو السماء.. ومن ثم كانت المروحيات تنزل فوق تلك النقطة وتنزل ركابها من الجنود الخاصة الأمريكية. حيث كانوا يتوزعون نحو كل الجهات وهم يحملون عشرات كيلو الغرامات من التجهيزات. ويكوّنون نقاط أمان مباشرة. لم يكن السيد شاهين يرى الأشخاص الذين يؤشرون للمروحيات.. ولكنه كان واثقاً أنهم ليسوا من الأمريكيين. امتلأ قلبه بالغضب والحقد. وبدأ بمراقبة أحدهم.. شاب في الخامسة والعشرين من عمره تقريباً "شخص أسمر إلى حدٍ ما. بعد نزول المروحية كان قد دخل إلى إحدى الأزقة الداخلية جرياً. بدأ السيد شاهين بالجري كي يقبض عليه. دخل من شارع جانبي وأوقفه. كانت عينا الشاب قد فتحتا من الخوف. عندما قابلت نظراته نظرات السيد شاهين.. احتار في أمره. كان يريد أن يقول شيئاً ولكن صوته لم يكن يخرج. لم يجد السيد شاهين ضرورة حتى يسأله. سحب زناد بندقيته لمرة واحدة.. فتمدد الشاب طولاً وعرضاً على وجهه من جراء انفجار الرصاصة في وجهه.

عاد السيد شاهين جرياً إلى النقطة نفسها التي كان فيها. كان الجنود الأمريكيون قد شكلوا سدوداً في مناطق عدة. قال في نفسه:

"قهرهم الله.. هل كان بوسعي أن أفعل أفضل من هذا؟"

والحقيقة لم يكن ينتظر هجوماً جريئاً بهذا الشكل.. كان السيد شاهين يظن بأن القوات الأمريكية تمسك بزمام الأمور في كل الاتجاهات. لأنه لم يكن يرى القسم الأكبر من اللوحة.. ولكن الأمر لم يكن كما كان يظنه شخصياً.

كانت كل التجهيزات التركية قد تركزت في الضواحي الخارجية للمدينة. وذلك لإبادة دبابات الفرقة المدرعة الأولى. مع أن الأمريكيين كانوا قد دخلوا المدينة من نقطة ضيقة /أو كوريدور ضيق/ وكانوا يحاولون السيطرة على قلب أنقرة بالتعاون مع عساكر الإنزال الجوي /١٠١/ وكانوا قد تقدموا بعض الشيء في هذا الصدد. كان يستطيع رؤية الجنود الأمريكيين داخل بعض المباني الحكومية التي نجت من الهدم. وكان قصر الجمهورية أيضاً تحت /كونترول/ العربات المدرعة. مهما كانت المشاهد سيئة هنا، فالقوات الأمريكية كانت محاصرة تماماً.. كانوا ينتظرون الصباح ومجيء كاميرات التلفاز. ويجب أن تأتي قوات جديدة حتى تخلصهم مما هم فيه إلا أن القوات الخاصة التركية المتمركزة في قيصري كانت قد شنت هجوماً على الفوج /٥٢٧/ الذي أرسل لإغلاق طريق /بولو/ وأنزلت بها أفدح الخسائر.

والحقيقة أن هذه المرارة التي قدمت للجيش الأمريكي ستسجل في تاريخ جيشهم مُذكرة المرارة والألم. كان اللواء الخاص قد طبق تكتيكات رائعة في حربه مع الفوج /٥٢٧/ الأمريكي: حتى أن القوات الخاصة قد اقتربت منهم كثيراً وقذفت مركز قيادة الفرقة والفوج. وقتلت من الضباط ذوي الرتب العالية عدداً كبيراً. كانت الحرب قد بدأت تنحو منحاً غريباً.. مصير أنقرة كان مجهولاً. كان ثمة فوضى تعاش بكل معنى الكلمة.

قام السيد شاهين من الأرض وجرى ثانية. لم يكن قد صادف بعد أحداً من زملائه.. انتقل من الشارع القريب من المجلس إلى الجهة الأخرى المقابلة..كانت آثار سلاسل الدبابات واضحة على الشارع.. اختبأ خلف الجدار البيتوني الذي يحيط

بالحديقة الموجودة في حي /كافاقلي دارا/. فكّر للحظة: أنه تصرّف خطأً.. كان في قلب المركز تماماً. كانت ثمة رصاصات طائشة تطير فوق رأسه. وبمقدورهم كشفه في كل لحظة. كان يسمع صوت الجنود الأمريكيين وصراخهم. وإطلاقهم النار فقط. في تلك اللحظة شاهد مجموعة من المدنيين. وهم نازلون نحو الأسفل.. فرح كثيراً لرؤيتهم كان قد عرف أنهم من القوات الخاصة.

وذلك من حركاتهم وتصرفاتهم.. كانوا ثلاثة أشخاص..أحدهم يحمل رشاشاً ثقيلاً والاثنان الآخران يحملان بندقية من طراز /M16/. كانوا قد ستروا أنفسهم خلف صخرتين كبيرتين. ولكن وضعهم كان سيئاً وحرجاً.كانوا يحاربون دون أمل. في الوقت الذي كان فيه السيد شاهين يريد محادثتهم وإذا بحزمة كبيرة من الضوء قد نزلت واصطدمت بالصخرتين. حيث صار الجو مُضاءً. رمى السيد شاهين نفسه على الأرض. للحظة واحدة صارت عيناه مكفوفتين. عندما استطاع فتح عينيه رأى العساكر الثلاثة يتلوّون فوق الأرض. كان عليه الابتعاد من هنا مباشرة.. وإلا.. في الوقت الذي كان يبتعد فيه من هناك نظر إلى الخلف وإذا بعدد من جنود الأعداء بلباسهم الأسود ومناظيرهم الليلية جاؤوا ووقفوا فوق جثث العساكر الثلاثة. في تلك اللحظة رفع أحد الجنود رأسه ونظر نحو السيد شاهين.. حيث تقابلت نظراتهما: مدَّ السيد شاهين يده إلى سلاحه مباشرة وأطلق النار مباشرة مع الحركة نفسها صدرت من الجندي المعادي فخرقت الرصاصتان جسم الاثنين معاً. ولكن الجندي الأمريكي كان يلبس صدارة معدنية واقية. في الوقت الذي كان فيه السيد شاهين متمدداً على الأرض كان يشاهد السماء. كانت ثمة أجسام أكثر سواداً من الليل تدور داخل الظلمة. وكان يرى الطلقات الخطاطة التي تشق السماء. مرت الثواني بسرعة كبيرة. وإذا بالجنود الذين يلبسون الفورمات السوداء ظهروا فوق رأسه. لم يكن في حالة يستطيع التحدث فيها. كان الدم ينزف من الجرح الذي في بطنه. إحساسه بالألم لم يدم طويلاً. حيث وجه الجندي الأمريكي سلاحه وأنهى عمله.

في صباح اليوم التالي. كانت أنقرة مغطاة بالأدخنة الكثيفة والشحار الأسود الرهيب. وكأن الأصوات قد قُطعت أيضاً.. وبين وقت وآخر كان يخرج صوت

سلاح ما ويتصدى في الأجواء. كان المشهد مرعباً بكل معنى الكلمة. كانت المدينة قد لاقت وبالاً من الخراب والانهدام.

والخسائر البشرية فادحة جداً. البنايات الموجودة في منطقة الوزارات والمجلس قد صارت سوداء. وكان المرور قد توقف كلياً في الأحياء المجاورة لكثرة الأنقاض في العمارات والحرائق التي كانت تشتعل فيها.

ومن رابع المستحيلات أن ترى أحداً من الناس والحيوان في الشوارع.

لأن الجنود الأمريكيين كانوا يطلقون النار لكل حركة يرونها.. كانت خطوط التموين قد قطعت ولكنهم كانوا لا يستطيعون الخروج من أماكن تواجدهم. ومجيء الدعم والمساعدة إلى الأمريكيين كان من رابع المستحيلات. كانت فرقة الإنزال الجوي /١٠١/ قد خسرت أكثر من ثمانين طائرة مروحية.. كانوا في حالة مخيفة جداً. كانوا يفكرون بأنهم ما زالوا يملكون المزيد من القوة كي يروّجوا دعاية لأنفسهم.. إذا ما بدأت قوة الحركات الانفصالية المرتقبة.. لعادتِ الأمور على ما يرام.

نظر باركن من زجاج منزله إلى الشارع.. كانت زوجته تبكي على الدوام. كان المنزل قد فرغ كلياً من المأكولات والمشروبات.. كانت برودة الصباح الشديدة تملأ جو الغرفة دون شفقة ولا رحمة. وإذا أردنا قول الصراحة كانا يدعوان ربهما لأن بيتهما كان متيناً ولم يُصب بأي أذى.

كانت العربات المدرعة الأمريكية تمرُّ من الشارع والجنود على سطحها يراقبون البيوت بدقة متناهية وهم في حالة من التوتر الشديد.

لم يُرد /باركن/ أن تتقاطع نظراته مع نظرات الأعداء.. فتراجع عدة خطوات نحو الخلف.. كانت زوجته في البيت. وإلاَّ...

فتح التلفاز.. هذا الموقف لم يكن يفهمه أبداً.. الكهرباء شغالة والتلفازات شغالة على الدوام. وكأن الأمريكيين يفعلون هذا الشيء بملء إرادتهم. نعم.. نعم.. كانوا يفعلون ذلك بملء إرادتهم.. لا شك في ذلك. كان هذا سلاحاً مهماً بالنسبة إليهم. مشاهد الأنقاض كانت تؤثر أكثر من الأنقاض نفسها.

ولكون العمارة عالية كان باستطاعته رؤية القسم الأكبر من أنقرة يا إلهي؟!

وكأن كل شيء قد ضُربَ. لم يعد هناك من شيء يستطيع المرء أن يفعله. كان الجنود الأمريكيون موجودين في مركز المدينة وقد صبغوا أنفسهم بالدهان ولبسوا الألبسة المرعبة. بقوا هناك منزوين في حيز ضيق جداً.. كانت مدرعات الفرقة الأولى قد شكلت خطاً دفاعياً أمامهم. بعد قليل كانت القوات التركية ستهجم على هذه الخطوط.. يجب أن يرتاحوا بعض الوقت ويجمعوا بعض قواهم. في هذه الأثناء لم يكن يعرض التلفاز شيئاً هاماً. فقط كانت المشاهد الخام تسيل عبر الشاشة.

لاحظ أن ثمة مشاهد تعرض من القصر الجمهوري. كان ثمة جنود يدورون في حديقة القصر. والأدخنة كانت تتصاعد من داخل المنزل. وبعض الجدران كانت قد تهدمت. تغيرت الكاميرا.. كان يعرض الغرف الآن. كان الجنود قد جلسوا على الكراسي يرتاحون ويتمازحون. وكان بعض الجنود يتصورون قريباً من الجدران.. كان واضحاً أنهم خرجوا من معركة شديدة. لم تتح لهم الفرصة حتى يمسحوا الدهان الذي على وجوههم.

كانت ثمة كتابة على الشريط الذي يظهر أسفل الشاشة تلخص أحداث اليوم.

CNN أنترناشيونال: "تمت السيطرة على قسم من مدينة أنقرة..

بعد حروب دامية وقاسية تم الاستيلاء على بناء المجلس والقصر الجمهوري وبعض الأبنية الأخرى الهامة. التوتر شديد جداً. منذ البارحة وإلى الآن مات ٦٢٨ عسكري أمريكي. والخسائر منذ بدء العملية وحتى الآن ٥٨٠٠ قتيل أمريكي. وعدد الجرحى ٩٨٠٠ جريح. والخسائر لدى الجيش التركي غير معروفة".

بقي باركن متمدداً فوق الكنبة. وكأن طاقته كلها قد سُحبت منه. وما الذي رآه على الشاشة لم يكن سوى الكذب بعينه. ولكن كان بمقدور هذه الأخبار أن تقلب معنويات الشعب رأساً على عقب.

كانوا يريدون أن يظل الشعب واقفاً لا يحرك ساكناً، يا ترى ماذا يفعل الآن السيد شاهين؟ هل يستطيع أن يصل إليه؟

منذ وقت طويل لم يصدر من المسؤولين الكبار كلمة واحدة. حاول باركن فهم الهوة التي كانت تتعمق رويداً رويداً في أعماقه.. هذا النظام الذي صار

كالبيتون. على مدى سنوات طويلة... عبارة عن ماذا يا ترى؟

وصار الآن عبارة عن نجار ليس إلا. والحقيقة.. كان الجيش الأمريكي قد جلس بقوة وبشكل سريع في قلب البلد. أما الحياة في باقي المناطق كانت تسير بشكل عادي. كانت القوات الأمريكية قد قامت بهذه العملية بمساندة القوات الجوية.. ولكن هل بمقدورها المحافظة عليها.

هذه العمليات. كانت قد صارت ميزة جديدة في حروب اليوم والمستقبل. لأن الدول التي دخلت الحرب مع الأمريكيين لم تكن تستطيع الاحتفاظ بقوتها بسبب القوى الجوية الأمريكية.

وخلال وقت قصير سيضيع معنى الجيش النظامي الكلاسيكي.. وهنا أيضاً صار الجيش التركي هكذا لم يضيّع بشكل كبير بنيته التحتية والفوقية، ولكن على وشك. والشيء الوحيد الذي فعله هو حرب العصابات الدفاعية. ولم يمكن يتراءى بعد مرحلة الهجمة المضادة.

٢٨ أيار ٢٠٠٧

مكان غير معروف

كانت الغرفة حارة جداً.. كان أحدهم يحمل رشاشاً ثقيلاً.. بلباس مدني يقف أمام الباب.. كان رئيس الأركان يجلس فوق كنبة واسعة وإلى يمينه رئيس الوزراء رجب طيب أردوغان. وإلى شماله قائد القوات الجوية الجنرال /أورهان أق يورك/ وإلى الكرسي الذي بجانبه يجلس قائد القوات الخاصة الجنرال/ سلامي ديك باش/ كانت وجوه الجميع باردةً وعليها علامات الظلمة.. كان حكمت باشا يتراءى أكثرهم ديناميكية وطاقة.. كان الجيش الأمريكي قد حاول قتله. وفي بعض الأحيان اقتربوا كثيراً من هدفهم.. كان حكمت باشا يأخذ الأمر نوعاً من المزحة ويقول لزملائه: "الظاهر أنهم لا يجدون في قتلكم أهمية".. والحقيقة كان هذا الاجتماع يُعد نوعاً من النصر.

ما معنى أن يجتمع رئيس الوزراء مع جناح العسكر وفي وضع يزداد التوتر فيه والفوضى في البلد.. ليقدموا استشارتهم لبعضهم. هذا بحد ذاته كان حادثة مهمة. لو تم ايصال هذا الاجتماع إلى باقي المناطق في البلد.. لارتفعت معنويات الشعب.. ولأثر إيجاباً على الجو العام.. ولكن التلفازات لم تكن تفهم معنى هذه المسؤولية. كانوا يظنون أنهم إذا ما عرضوا هذه المشاهد على الشعب. عند ذلك تحاسبهم القوات الأمريكية لم يكن الاحتلال قد اكتمل بعد عملياً. ولكن في نظر الناس كان القسم الأكبر من الاحتلال قد تمَّ.

أعطى حكمت باشا التعليمات للمصور الذي كان موجوداً في الغرفة كي تكون الصور جيدة ومناسبة للعرض... كان التصوير سيتم في بعض أقسام الاجتماع.. وهذه الأقسام ستكون في حالة من المناقشات والصحبة الرائعة.. الوجوه مبتسمة وكل حركاتهم تدل على الوفاق والنجاح. هذه ستكون رسالة موجهة للشعب.. انظروا نحن هنا ونقاوم العدو.. الكاميرا ستنتظر الآن البداية، كان

عليهم البحث عن الوضع الحقيقي. وبالأصل الغاية الأساسية من الاجتماع كان هنا. ثم ينتقلون بعد ذلك إلى قسم المناقشات اللذيذة والحرّة.

تحدث حكمت باشا بصوت ضبابي: "هذه العملية لم تكن قد طُبقت بعد ولم يرها أحد.. بعض الأحداث منها من الطراز المتوقع مثلاً محاولة إبادة البنية التحتية بوساطة القوات الجوية. والقيام بعملية سريعة بمدرعات الاحتلال.

وافقه الآخرون بهزة من رؤوسهم.. ما حصل كان طبيعياً وهو ما يجب أن يحصل.

- "أما الأشياء غير الطبيعية. فهي حصول الحركة في منطقة ضيقة وبشكل محدود. وبصورة سريعة جداً. إلى جانب هذا كله. كانوا يهاجمون المدنيين أيضاً.. مع إنه يجب على القوات المحتلة أن لا تأخذ المدنيين أنداداً لها. ولكنهم يهاجمون بغاية خلق نوعٍ من الخوف عند المدنيين.

تدخل رئيس الوزراء طيب أردوغان: "الدنيا كلها لا تهمهم بشيء. وجميع الدول بقيت صامتة مع إننا أرسلنا لهم كل الوثائق والأدلة".

أكمل الجنرال /أورغاهان أق يورك/ قائد القوات الجوية... وحالياً قائد بلا قوات وكان على الدوام ملازماً الرئيس الأركان:

- "هذا ليس طبيعياً.. العالم صامت بشكل غريب - حتى إنهم لا يذكرون الخسائر البشرية".

قال حكمت باشا: "إن الأوغاد يتحركون كالعاصفة. يحركون قوة ضخمة بنظام فريد من نوعه.. ويحافظون عليها بالقوات الجوية. إنهم يدخلون إلى داخل نظام البلد. ولكن قواتهم الموجودة في أنقرة محاصرة تماماً.. لم يفعلوا شيئاً رموا بقوة مهمة إلى المركز وتمسكوا بها هناك. يجب أن نتحرك بسرعة ونفنيهم عن بكرة أبيهم".

كان الجميع يوافقون حكمت باشا برؤوسهم. وبالأصل فهو محلل رائع وتلقى المزيد من شهادات التقدير. ومشهور في هذا المجال، وأضاف حكمت باشا: "أعتقد أنهم يريدون تهديم النظام.. وتحريك الانفصاليين لتقوم حرب أهلية داخلية.. وتمزيق البلد إلى دويلات. وصلوا إلى العاصمة دون أن يمسُّوا بقية المناطق بأذى.. بعد ذلك

سيكون هدفهم إستانبول.. ثم سيسيطرون على الانفصاليين الموجودين في الداخل وربما الخارجين أيضاً".

الجملة الأخيرة من كلمات حكمت باشا جعلت من شعر أجساد الآخرين أشواكاً.. يا ترى هل يفعلون هذا الشيء حقيقة؟ كان هذا سؤالاً لا معنى له. إذ نظرنا إلى كل شيء فعلوه. معناه لن يتركوا شيئاً إلا وسيفعلوه.

تخيّلوا القرى والبلدات التي صارت بأيدي اليونانيين والأرمن أرواح كثيرة ستزهق. والدنيا كلها ستغمض عيونها.

- "يقولون إن كتيبتين من الفرقة المدرعة الثالثة قد أقامتا خطاً دفاعياً أمام /سد أتاتورك/ للوقوف أمام كل هجمة مضادة.

نحن الآن نهاجم خطوط التموين عندهم. ولهذا السبب فعندهم نقص كبير في المعدات والتموين والوقود. أما وحداتهم الموجودة في أنقرة قد ضيّعت كل قوتها الحربية.. القوات الموجودة في الخارج قابلة للحركة فقط. وخاصة من الدعم الجوي.. ولكن إذا هجموا على إستانبول وربما نضربهم هناك الضربة القاضية. طبعاً إذا لم يعمدوا إلى إنزال بحري في إستانبول.. والأخبار الواردة إلينا تقول: السفن التي تحمل مشاة البحرية تتجه نحو بوغاز /جنق قلعة/"

سحب السيد طيب أردوغان شهيقاً طويلاً. كان الجميع يشتركون معه في أفكاره لأن واقعة أخرى أو حرباً في قلعة جنق قد صارت من نصيبهم.. حيث قال:

- "ثمة احتياطات في قلعة جنق. وضعنا كثيراً من الصواريخ المضادة للدبابات على الخنادق الساحلية ولكن. لست أدري.. ربما يقذفون المنطقة بقوة بوساطة الطائرات"

الكل وافق على ما قاله. الخنادق الساحلية الموجودة هناك لن تكون نقطاً أمنية.. كان من الصعب إنزال الخسائر بالسفن وبالصواريخ المضادة للطائرات. أما بطاريات المدافع لم تكن تستطيع الحراك لأنها كانت تحت القذف على الدوام.

تحدث قائد القوات الخاصة الجنرال سلامي ديك باش لأول مرة: "عندما يصلون إلى إستانبول يا سيدي ستتغير كل الأمور الخطط الدفاعية في أنقرة ناجحة جداً. لأن العدو قد حُوصر في المركز. وضيقٌ ارتباطه بالخطوط الخارجية" رفع رأسه

للحظة واحدة نحو الأعلى وصمت عن الكلام.. ثم جمع أفكاره ثانية وقال مضيفاً: "لقد نقلنا كل عساكر الوحدات الخاصة إلى إستانبول - حتى قوات الأمن المدنيين في باقي المدن تم إرسالهم إلى هناك أيضاً.. ضباط القوات الخاصة سيترأسون هذه العناصر. وسيشكلون نقطاً دفاعية في عموم أرجاء إستانبول".

للحظة واحدة امتلأت عينا حكمت باشا بالدموع. وقال: "أردنا نقل عناصر الكوماندو الموجودة في /بولو/ بالحافلات المدنية إلى إستانبول. ولكن وصلتهم هذه الأخبار.. القافلة تعرضت لهجمة شرسة. سقط مئات الشهداء ومن بينهم قائد اللواء شخصياً".

تمتم الجميع دفعة واحدة: "يرحمهم الله"... وهزَّ حكمت باشا رأسه قال: "أكثرهم تخلصوا من موت محقق. ولكن الوحدة ابتعدت عن مركزها وهي الآن منتشرة هنا وهناك. ونخمن أن هذه القوات ستتجمع وتلحق بنا إلى إستانبول. في هذه الحالة سنستعملهم في الهجوم على الوحدات الأمريكية التي ستحاول أو ستجرب احتلال إستانبول".

قال السيد طيب أردوغان:" تقول الأخبار إن فرقة الإنزال الجوي ٨٢.. ستنفذ الهجمات". ولكن السيد أردوغان لم يكن واثقاً من هذه الأخبار.

- "ربما يكون هذا الخبر صحيحاً يا سيدي. تلك الفرقة موجودة الآن قريباً من لواء إسكندرون. ولكن لديها من الإمكانيات التي تستطيع الوصول إلى إستانبول خلال عدة ساعات.. ولكن هذه الفرقة فقط. تستطيع المجيء من البحر والبر أيضاً هذا ضروري من الناحية المنطقية.. وإلا لا تقدر الوصول إلى نتيجة".

أخرج السيد رجب طيب أردوغان من جيبه ورقة وبدأ بقراءتها: "الوضع في الجنوب الشرقي متوتر جداً.. ليس عندهم هناك قوات سوى الوحدات الخاصة.. يقولون إنهم قد هجموا إلى بعض القرى التي لم تقف معهم بالرشاشات والقنابل وبوساطة المروحيات".

- "إنهم تحولوا إلى وحوش"

سأل حكمت باشا: "وما وضع الحكومة؟" لم يكن مخاطبهُ سوى السيد طيب أردوغان أجابه:

- "يقولون إنهم قد ألقوا القبض على وزير الداخلية. فعينت مكانه، ظهرت الابتسامة على وجوه الحاضرين. لأن وزير الخارجية كان بمثابة أسير في الولايات المتحدة.. كان وضع وزير الخارجية أصعبهم وضعاً. أكمل رئيس الوزراء: "أعتقد أن السيد عبد الله غول محجوز في غرفة لأنه على حسب ما يقولون.. كسر أنف أحد الدبلوماسيين الأمريكيين حين زاره في غرفته.. كان أكثر وزرائي في أنقرة. قلت لهم: إذا ساءت الأمور كثيراً نظموا المقاومة في مدنكم وأعتقد أن الجميع قد انتشروا أما والي أنقرة فلكم العمر.. يقولون: إنه لم يستطع التحمل أكثر فقتل أحد الداخلين إلى مبنى الولاية. "انحنت الرؤوس ثانية نحو الأمام وتمتمت: "يرحمه الله"

"أما رئيس الجمهورية فهو موجود في إستانبول مع زوجته وهو بخير وأمان".

مرة أخرى كان حكمت باشا قد صار رئيساً للاجتماع حيث قال: "وإذا نظرنا بشكل عام - فإن جيشنا قد فقد كل بنيته التحتية والفوقية العصرية. وبالأصل فإن هؤلاء الأقذار يروجون الدعاية العصرية لأجل هذا السب. وبما أنهم يعرفون العصر والعصرية.. فإبادتها تسهل كثيراً. بعد الآن يجب علينا أن نصنع المقاومة في كل مكان ونجعلهم يندمون لقدومهم إلى هنا.

ولا أعلم متى نلتقي ثانية. أنا شخصياً سأذهب إلى إستانبول. وإذا ما سقطت تلك المدينة مثل أنقرة.. فإن بقية المناطق في البلد تسوء معنوياتها تماماً. يقولون إنهم يرسلون رسائل إلى أزمير كي تسلم نفسها. وأنهم رموا بعض الأحياء منها بتلك القنابل الضخمة وحوّلوا الأحياء إلى أنقاض. كانت قنابل /سلاير/ قد صارت معروفة من قبل الأتراك: بعد الآن يستطيعون القيام بأول عملية إنزال بحري إلى أزمير.. وفي نقطة سيئة جداً.. من البر والهواء ومن كل مكان..

فهي مكشوفة ودون دفاع. وكما قلت لكم إذا سقطت إستانبول فاعرفوا أنا ميت. عندها العمل يبقى لكم.. لا تجعلوا هذا الوطن علفاً لهؤلاء".

الضوء الذي ظهر على وجه حكمت باشا.. أعطى الجميع القوة. والعزيمة التي كانت على وجهه قد انتشرت للجميع فجأة.

وأضاف قائد القوات الخاصة الجنرال /سلامي ديك باش/:

"واحسبوني أنا أيضاً في أعداد الشهداء: أنا الآخر سأكون في إستانبول. والمكان الذي سأتواجد فيه سيكون حتماً من أدمى الأماكن، إن جنودي ينتظرونني"

الكلمات التي وصلت إلى لسان السيد طيب أردوغان قد علقت في حلقومه حيث قال: "أنا أيضاً سأكون قريباً من إستانبول في إحدى ضواحيها. طبعاً لن نجعل هؤلاء يرتاحون هنا. ولا توجد أية مشكلة في قيادة الوحدات الموجودة خارج أنقرة وأعتقد أن الضواحي الخارجية لأنقرة ستبقى هادئة لفترة طويلة، وسأحاول إعداد الوحدات بشكل بطيء وهادئ لهجمة مضادة:.

وافقه حكمت باشا قائلاً: "هذا جيد.. عشت وشاهدت أشياء كثيرة.. وأنت أيضاً صرت جندياً".

أشار حكمت بارس بشكل شديد إلى المصور.. كانت وجوههم قد تغيرت خلال لحظة واحدة. توزعت كؤوس الشاي وانتقل الحديث إلى مواضيع أخرى. بدؤوا يتحدثون عن مقاومة الشعب الرائعة وكيف أذاقوا الأمريكيين درساً لا ينسوه أبداً. كان سلامي ديك باش قد حلَّ شيفرة كيفية عرض الشريط أو الكاسيت.. في إحدى ساعات الأخبار سيذهب إلى إحدى الأقنية الفضائية وسيعمد إلى عرض الشريط بقوة السلاح.. وإذا ما جاء الأمريكيون وحققوا مع مسؤولي القنال. فهي مسؤوليتهم بمفردهم.

كانوا يتحدثون في الاجتماع عن الضربات التي ستُنزل بالقوات الأمريكية ولكن الخبر الأصلي كان على وشك أن يصل من بعيد، بعيد جداً.

٢٨ أيار ٢٠٠٧ . الساعة ١٥،٢٣

نيويورك . واشنطن

كان كوكهان قد ألقى عن كاهله تعب السفر الذي دام يومين متتاليين ودون توقف. بعد أن نام عدة ساعات في /موتيل/ صغير. وطلب طعام الإفطار بوساطة الهاتف.. كان قد انتقل إلى نيويورك بعد أن عيرَّ القنبلة في واشنطن. وكان من حسن حظه أنه قد اجتاز حواجز الأمن بمروره عبر الطرق الفرعية أو الجانبية.

كان التلفاز مفتوحاً على الدوام.. دار على الأقنية.. ولكنه لم يجد قناةً تعرض الكاسيت الذي أرسله.. قال في نفسه: "إمّا أنهم لم يأخذوا الأمر بالجدية الكافية وإما قد شغّلوا ميكانيكية الحظر والمنع.. المهم.. عندما تنفجر القنبلة في واشنطن فإن صوتهم سيعلو كثيراً".

نظر إلى الساعة وقال: "الآن".. كان سيموت آلافٌ من البشر الأبرياء. ولكنه كان يرى في التلفاز ماذا يفعلون بشعبه. لم يشعر بأي عذاب في ضميره ووجدانه.

في الوقت الذي كان فيه كوكهان يدخل إلى الحمام.. كانت صورته التي صوِّرتْ أثناء عودته إلى تركيا في ٢٧ كانون الثاني. تعرض على شاشة التلفاز.. كان /جنكيز/ أو رجاله هم الذين أخذوا له هذه الصورة . كانوا يقولون: "كل من يساعد على إلقاء القبض على هذا الرجل ستقدّم له مكافأة مالية مقدارها عشرون مليون دولار: كانت عينا الشاب الذي يعمل في الاستعلامات قد فتحتا مثل /حجر الفال/ وهو ينظف ما بين أسنانه من بقايا اللحم المحشوك هذا هو الرجل الذي سجل اسمه في دفاتر /الموتيل/ كان واثقاً من ذلك حيث طلب الرقم الذي كان يظهر على الشاشة مباشرة.

كان ذلك اليوم بالنسبة /لسوزان ساندون/ كبقية الأيام. كانت جالسة في بيتها المطل على نهر /بوتاماج/.. تُمتِّعُ نفسها ببقائها في البيت وانتهائها من العمل. كانت قد تركت البحث عن الأقنية في التلفاز. المحطات لا تعرض سوى مشاهد

الحرب وآثارها. كانت قد ضاقت ذرعاً من هذه المشاهد. ولداها الاثنان كانا على وشك خروجهما من المدرسة. عندما يصلان كانت ستهتم بهما وترعاهما.. فكرت: عندما يكبران لا تريد أن يكونا جنديين. هذا شيء كثير بالنسبة إليها. كانت تعتني بهما كاعتنائها بعينيها. اهتز جسدها وتحوّلت أشعارها إلى أشواك تُغرز في أعماقها.. وهي تفكر بهما: بعد وقت سيكبران ويصيران جنديين ويذهبان لقتال أولئك البربر قاطعي الرؤوس.

هذا الاحتمال كان وارداً جداً. كانت تريد تصديق أن أولئك البشر ليسوا كما تصفهم المحطات التلفازية. ولكن المحطات كانت تقنع الناس بطريقة غريبة.. على الأقل يجب أن تبقى بعيدة عن تلك العوالم. والحقيقة أن واشنطن لم تكن آمنة أيضاً بقدر ما كانوا يتصورون.. على الأقل كان ولداها معها.

كانت تستطيع حمايتهما.. وكانت قد أجبرت نفسها لتكون لهما أباً بعد أن افترقت عن زوجها /جيمي/... ولداها كل شيء في حياتها.. نظرت إلى صورهما وشعرت بالشوق نحوهما.

سمعت صوت حافلة تضغط على المكابح.. يجب أن يكونا هما /ميكي ودوني/.. ولداها. وبما أنهما يدرسان في مدرسة واحدة كانا يعودان معاً. أسرعت نحو الباب.. عندما فتحت كان ولداها قد نزلا من سرفيس المدرسة الأصفر. وكان يجريان نحوها.. انتشرت ابتسامة عميقة على وجه سوزان، وهي الأخرى خطت نحوهما عدة خطوات.

تلك اللحظة كانت لحظة مختلفة. لم تستطع سوزان فهم ماهيتها إذا استطاعت تذكر حياتها في الدنيا.. لتذكرت هذه اللحظة والضوء السميك الذي يعمي الأبصار. وموجة الحرارة التي سحبت جلدها عن جسدها كشرشف. كانت هذه الموجة الحرارية والضوئية التي نشرها الانفجار.. تسير بسرعة الضوء تقريباً وانتشرت على مساحة عشرة كيلو مترات تقريباً. في اللحظة الأولى من الانفجار كان الناس والمعادن وكل شيء قد تبخر كلياً: وسوزان أيضاً كانت قد تبخرت ولكنها تركت أثاراً أمام بيتها. وكأن أحدهم قد صوّرها ولم يظهر منها سوى /النيكاتيف/.

كانت قوة القنبلة التي ركَزها كوكهان تعادل ضعف قوة القنبلة التي أُلقيت على هيروشيما. ولهذا السبب كانت تعد صغيرة. والحقيقة كان الناس الذين فنوا قبل سماع صوت الانفجار محظوظين جداً.

أما الغيمة المنطارية التي تشكلت بعد الانفجار فكانت مشهداً ستظل أثاره محفورةً في ذهن الإنسانية إلى الأبد. عندما تشكلت السحابة.. كان تأثير الضوء قد خفَّ بعض الشيء أو قد بدأ يُضعف من قوته.. أما الذين بقوا خارج مساحة خمسة كيلومترات. كانت عيونهم قد عُميت من الإشعاع النووي. وبقوا جامدين دون حراك داخل بحر من الألم مصابين بحروق من الدرجة الثانية. وآخرون كثيرون كانوا قد فقدوا صوابهم وعقولهم وتوازنهم من تأثير الانفجار.. كانوا يجرون من هنا إلى هناك.

كل البيوت تقريباً كانت قد تعرضت للانهدام وتحولت إلى أنقاض وثمة نساء كنَّ قد حملن أولادهن بأحضانهن يجرين هنا وهناك في عالم ساده الظلام فجأة. وكانت ثمة رياح حارقة قد تكونت من جراء الضغط الذي فعله الانفجار نحو الخارج بسرعة مئتين كيلومتراً في الساعة. أما في الجهة المعاكسة لهذه الرياح كان الهواء يجذب الأشياء نحو الداخل ويرتفع نحو الأعلى مكوناً السحابة المنطارية. كانت الفوضى والتوتر قد نزلت فجأة فوق مدنية واشنطن بتأثير الرياح المتجاذبة نحو جهتين. كانت الأبنية قد سقطت على الأرض من أساساتها بتأثير من العواصف النارية والرياح الإشعاعية، ويلفها الموت من كل جانب.

كان ارتفاع المنطار قد وصل إلى أربعة عشر كيلومتراً. لم يكن ينشر ضوءاً بعد الآن. ولكنه كان منطاراً حاراً وعملاقاً. أما الأشياء المسحوبة نحو السماء.. فكانت قد بدأت تمطر مطراً أسوداً فوق المدينة.. كانت سرعة الريح قد نزلت إلى أربعين كيلومتراً في الساعة الآن والإشعاعات النووية كانت قد وصلت إلى بعد عشرين كيلوا متراً.. كان مركز واشنطن وكل آثارها الرمزية قد أبيدت كلياً.. بناية FBI والبيت الأبيض ومركز CIA ووزارة الدفاع.. كان كل شيء قد فُني.

كان الذين تعرَّضوا للإشعاعات النووية داخل مساحة خمسة كيلو مترات.. في حالة لا يستطيع المرء أن يقترب منهم لمدة طويلة. والذين بقوا على قيد الحياة كانوا

سيموتون خلال وقت قصير. الذين بقوا خارج الحلقة الأولى يمكن تقديم المساعدة لهم. ولكن نسبة الوفيات عندما وصلت السحابة المنطارية إلى أعلى مستوى لها. كانت الرياح قد بدأت بالانتشار. كانت قد اتخذت حالة ظلامية بكل معنى الكلمة: وحرارتها كانت على وشك الانتهاء. كل من تنفس الهواء الإشعاعي كان سيصاب بالسرطان.. كان ثمة انفجار نووي قد حصل فوق الأراضي الأمريكية. ولكن سيخلّف ردّات فعل سياسية قوية.

٢٨ أيار ٢٠٠٧ . الساعة ١٥,٥٠

فلوريدا- CENTCCOM

كان الانفجار قد أحدث نوعاً من الاضطراب والقلق في جميع أنحاء العالم.. كانت عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية ذات تاريخ يرجع لمئتي عام قد أبيدت كلياً تحت سحابة منطارية كبيرة. ولم يبق من البيت الأبيض سوى كومة من الأنقاض.

كان الخبر قد وصل الرئيس وهو يأخذُ مسَّاجاً.. كان جاك أرغوسيّان. قد دخل بسرعة وهو يصرخ بأعلى صوته: "لقد فجَّرها.. لقد فجَّر القنبلة في واشنطن.."

كان الجميع قد أمضوا نصف الساعة التالية بالتوتر الشديد.كانت المشاهد تأتي تباعاً عن طريق الأقمار الاصطناعية والطائرات المرتفعة جداً.. لمكان الانفجار ذات الإشعاعات الكبيرة.. كانت وحدات الجيش قد أقامت منطقة محظورة حول المكان.. والمدرعات السميكة تجمع الجرحى من المنطقة.. كان مكان العاصمة سيبقى مقفراً ودون حياة على مدى طويل جداً.

قال الرئيس: صارخاً "سننتقم منهم.. سنقتل كل الأتراك."

فقال له روبرت موللر: "لا أظن أن هذا سيخيفهم يا سيادة الرئيس. بالأصل نحن نفعل ذلك".

كان يجب إلقاء القبض على هذا الرجل المجنون وتوقيفه عند حده، وبما أن جميع النواب والشيوخ قد ماتوا فإنهم أعلنوا بذلك إدارة أو حكومة طوارئ غير عادية.

كان الرئيس سيتحدث إلى الشعب في عرض تلفازي مباشر. وكان العالم كله سيسمع هذا الخطاب عن طريق الإذاعات والتلفازات. رنَّ جوَّال روبرت موللر.. كان الخبر القادم.. من أحسن الأخبار في ذلك اليوم. جاؤوا بالخبر المجهز على ورقة وقرأوها على أُذن الرئيس: "قد تم كشف مكان وجود الرجل.. هو موجود في أحد

/موتيلات/ نيويورك.. بعد قليل سيتم القبض عليه".

رفع الرئيس يديه الاثنتين نحو الأعلى وهزّ قبضتيه وقال صارخاً: "هذا هو.. هذا هو". والتفت فجأة نحو الخلف وقال: "في هذه الحالة لنؤجل الخطاب ولنعطِ خبر إلقاء القبض عليه "ثم وقف على رجليه وأمسك بياقة روبرت موللر الذي كان ينظر إليه بنظرات حائرة وقال: "الأفضل من هذا: لنقم بالإغارة عليه بشكل مباشر وأنا على الهواء. وهذا يظهر قوة الولايات المتحدة".

٢٨ أيار ٢٠٠٧ ـ الساعة ١٦،١٠

- نيويورك-

كان عدد الطلقات الموجودة في سلاح كوكهان.. أقل بكثير من طلقات الذين كانوا ينتظرون الإغارة على غرفته. كان كوكهان يعرف إن نسبة خلاصه من هنا قليلةٌ جداً.

كان قد رأى وجهه على الشاشة مع المشاهد القادمة من واشنطن وعندما أراد /كونترول/ الخارج.. فهم أنه حوصر منذ وقت طويل.. وكان ينتظر.

لو قبضوا عليه ستكون مصيبة كبيرة.. من جهة يكون غير مخلص لوطنه وشعبه.. ويعطي للأمريكيين دعاية كبيرة ضد بلده: كانت وسائل الإعلام ستعمد على إعطاء الحق للأمريكيين.. كونهم لم يهجموا على الأتراك بغير حق شرعي.. كانت ستظهر الحرب ضد تركيا على أنها نوعٌ من العقوبة لدولة إرهابية.. والناس بعد ذلك لن يتحدثوا عن الأحداث إلاّ كما تتحدث وسائل الإعلام حول هذا الموضوع. ولن يتذكروا إلا ما قالته ووضعته /الميديا/ العالمية.

يعني قبل قيام الحرب ضد تركيا.. قام الأتراك بعملية إرهابية قذرة في داخل الولايات المتحدة الأمريكية وفجرّوا قنبلة نووية وبعد ذلك هجمت أميركا على الأتراك. كانت مثل هذه التعليقات تسمع من الآن.. كشفت الاستخبارات الأمريكية بأن دولة نووية مثل تركيا ستقوم بتخريب العالم بالإرهاب النووي ولهذا قامت القوات الأمريكية بالهجوم على تركيا ليخلص العالم من شرها الإرهابي النووي.

يجب الهروب من هنا وإما الضغط على الزناد وقتل نفسي فكّر بان ثمة احتمالاً صغيراً من الحظ يصادقه.

حيث اتصل بالاستعلامات وطلب من الشاب الموجود هناك زجاجة من الويسكي وإنه مستعد أن يعطيه مئة دولار.

في الوقت الذي كانت فيه التحضيرات تقام في الخارج لنقل القبض على كوكهان مباشرة على الهواء..كان التلفاز يعرض مقاطع من حديث الرئيس وفي الوقت الذي كان فيه وجه الرئيس يملأ الشاشة وإذ بالباب يُطرق.

فتح كوكهان الباب /لراندي/ وقال له: "ضع الزجاجة فوق الطاولة أيها الشاب". عندما كان /راندي/ يترك الزجاجة فوق الطاولة. كان كوكهان يتصرف وكأنه يأخذ المال من محفظته وقفز خلف الشاب

كان راندي يتراءى وكأنه يستمع إلى خطاب الرئيس وقد شبك ذراعيه على صدره. كان توتره واضحاً.. كان يُخفي وجهه الوسيم بقبعة رخيصة.

في هذه اللحظة تماماً أنزل قبضة سلاحه على رأس الشاب بقوة إلى حد ما. كان عليه أن يستعجل.. حيث خلع قميص وبنطال الشاب ولبسهما.. ومن حسن حظه أن طوله كان من طول الشاب ووضع القبعة على رأسه وأنزلها تماماً فوق وجهه. وبقطعة /روج/ صغيرة عمل الخطوط الحمراء على وجهه وشفتيه مثل الشاب تماماً.. عندما يُنظر إليه عن قرب يتراءى المكياج الذي على وجهه. ولكن الذين في الخارج يجب أن يكونوا في حالة من الانفعال الشديد.. وثم أخذ حقيبة من الخزينة ووضع فيها سلاحه والقنبلة التي كانت داخل محفظة أخرى.

عندما فتح الباب قال: وهو يُقلد صوت راندي صارخاً: "تمام يا أفندم أنا الذي سألقي الزبالة".

كان الواقفون على جانب الكوريدور من البوليس والأمن السري المدني يشيرون له بالاقتراب منهم بسرعة. كأنهم لم يفهموا التغيير الحاصل:

قال قائد العملية: "هيا أسرع.. سينتقلون إلى النقل المباشر هيا ابقَ خلفنا" ودفعه بقوة.

بدأ الرجال التقدم نحو الباب زحفاً. كان كوكهان يقف قرب امرأة مسنة إلى حد ما مصبوغة الشعر وتعلك علكة.

التفتت المرأة نحوه للحظة وقالت: "متى ستأخذ مالك.. يارا.. ولكن تقابلت نظراتهما.. سكتت مدهوشة.." أنت... أنت"

في لحظة واحدة دارت الرؤوس كلها نحو كوكهان. أما الذين كانوا يزحفون على الكوريدور لم يلاحظوا أي شيء: ويشيرون إلى الصمت وعدم التحدث.

أخرج كوكهان سلاحه وبدأ يراجع الموت في الكوريدور. كان يسدد خارج الصدارة المعدنية التي كانوا يلبسونها إما على أعناقهم أو على ظهورهم. عندما انتهت طلقات مسدسه. أخرج رشاشه الأتوماتيكي.

كان العالم بأجمعه يتابع على الهواء مباشرة الدهشة التي زرعها كوكهان هناك. كان العنصر الذي سينفذ المداهمة.. صار قرياناً. كانوا في حالة من الحيرة والدهشة. بحيث أن واحداً منهم لم يكن يفكر بقطع العرض التلفازي المباشر.. في إحدى زوايا الشاشة كان فم الرئيس يبدو مفتوحاً من حيرته الشديدة ودهشته.

أما الرجال الذين كانوا يزحفون فوق أرضية الكوريدور.. فقد بدؤوا على بإطلاق النار عشوائياً لقتل كوكهان. ولكن أحد زملائهم قد تحوّل إلى ما يشبه الغربال.

لا يستطيع البقاء هنا أكثر من هذا.. فجذبت انتباهه النافذة الموجودة على طرف الكوريدور. نظر إلى العلبة التي تحوي القنبلة والموجودة على الأرض. من المستحيل أن يلتقطها.. كان في الطابق الثالث ولكنه قرر القفز من هناك. في الوقت الذي أسرع فيه نحو النافذة وكسر الزجاج.. أحس بألم في ساقه.. كان مصاباً بطلقة نارية.

أغمض عينيه للحظة واحدة. عندما فتحهما لاحظ الأسلاك المشدودة.. ثلاثة أدوار من الأسلاك.. فخلعها كلها. كانت هذه الأسلاك قد خففت بعض الشيء من قوة سقوطه.. عندما اصطدم بالأرض. فحوَّل قوته كلها إلى يديه ودفع نفسه نحو الأمام متدحرجاً.. من المهم أن تعرف كيف تسقط.

كان على قيد الحياة.. ولكن ذراعه الأيسر قد انكسرت.. وكان مصاباً من ساقه أيضاً. أحسَّ وكأنه سيغمى عليه. ولكنه ضرب ذراعه بقوة حيث فسح المجال للآلام كي تنتقل إلى باقي أنحاء جسده. هذه العملية تجعله في وعيه وتبقيه يقظاً.

كانوا قد بدؤوا بإطلاق النار من النافذة المكسورة.. وكانوا يتحدثون بالأجهزة اللاسلكية.. المئات من الناس سيكونون خلفه بعد قليل.

وسيطاردونه.. لفَّ من الزاوية وبدأ بالهروب.

كان عليه إيجاد مكان يختبئ فيه.. لم يكن في موقف جيد أبداً..

٢٩ أيار ٢٠٠٧ - الساعة ٠٩,٢٣

- أنقرة-

كانت ثمة ذيول بشرية قد تمددت في مركز المدينة. كان الناس مضطرين إلى الذهاب إلى نقاط معينة كي يؤمنوا احتياجاتهم من الطعام والشراب. قبل يوم من الآن. كانت الإذاعات والتلفازات قد قطعت إرسالها فجأة. ومع أنهم كانوا محاصرين في نقطة ضيقة جداً. إلا أن مساحة كبيرة من المدينة كانت تحت سيطرتهم. كانت القوات الأمريكية تتواجد وبشكل كثيف في نقطة ضيقة جداً. وكانت تطلق النار دون مبالاة بالخسائر البشرية من المدنيين لم يكونوا في موقف وكأنهم باقون.. ومع إنهم كانوا في داخل أنقرة. كانوا في وضعية الجاهز للخروج منها طبعاً.. إذ وصلت المساعدات في الوقت المناسب.

وكما بدأت العملية بشكل غريب... كانت تكمل بهذا الشكل أيضاً.

كانت بعض الوحدات من الفرقة الأولى المدرعة موجودة في مركز أنقرة. أما الفرقة الميكانيكية الرابعة للمشاة فكانت قد تحركت باتجاه إستانبول. وكان لواء المروحيات التابعة لفرقة الإنزال الجوي /١٠١/ قد تحرك أيضاً مع الفرقة الميكانيكية الرابعة... لم يكن عندهم أية نية لتخليص القوات المحاصرة في داخل أنقرة.. كانوا مضطرين إلى الدفاع عن أنفسهم.. إذا ما تمَّ دفنهم في أنقرة.. معناه أنهم قد تعرضوا للهزيمة.

كانت الإبرة تتجه وبشكل سريع نحو إستانبول.. والتوتر يزداد باضطراد. كانت الأراضي التركية تشبه ملعباً كبيراً للعبة أكبر منها. كانت القوات المعادية تتحرك وبشكل غير عادي.. خارج الحرب الكلاسيكية: وتهاجم بشكل مفاجئ مواقع لم يتوقعها أحد.. حتى تضرب معنوية الشعب وتنزل من عزيمته وإصراره.. أما القوات الخاصة الأمريكية التابعة لعناصر /socom/... كانت تغير على المناطق.. وتلتقي مع الشعب محاولة جذبهم إلى طرفهم.. لم يكن أحد

يعرف ماذا فعلوا في هذا الخصوص. كانت التشكيلة السرية المسماة /أرغنيكون/ التركية. تفرض النظام في تلك المناطق بتدابير قاسية وشديدة وفجائية بأسلوب التكتيكات الأمريكية بنفسه المسماة /الإعصار/ وتنتظر نتيجة الحرب. أما الرمز القاتل للعملية كان إستانبول.. عندما تقع هذه المدينة.. سيتم الكبس على الزر.. وكانت العملية الثانية ستبدأ.

/عملية sever/

كان /باركن/ قد عاد إلى بيته.. ينتظر التطورات.. يحاول إدامة حياته مع زوجته.. لم يكن يترك زوجته /هالا/ بمفردها. حتى عندما يذهب إلى أماكن توزيع الطعام يكونان معاً. بعض الأحيان كانا يتناولان طعامهما حتى قبل وصولهما إلى البيت. عندما كان باركن يسير في الشارع يُحس بأن كل دمه قد تجمّع على رأسه. كان الجنود الأمريكيون يملؤون الأطراف ويعاملون البشر والبيئة بشكل قذر جداً. وكأن الأرصفة قد تحولت إلى مراحيض. كانت بعض المستشفيات الموجودة في المدينة قد أُغلقت.. كانت ثمة مشافٍ مفتوحة فقط. إلى جانب ذلك ثمة مراكز طبية أمريكية كانت تقدم بعض خدماتها: كانت أنقرة صامتة بكل معنى الكلمة.

لا تسمع فيها صوتاً واحداً.. كان جنود الفرقة الأولى المدرعة محتارين ومدهوشين في كل حركاتهم وتصرفاتهم لأنهم كانوا محاصرين في المراكز. في الوقت الذي كان فيه الجميع ينتظرون المقاومة بشدة وقوة.. كان الهدوء يعمُّ المدينة بكل معنى الكلمة.. وكان سبب ذلك واضحاً. لأن الجمهورية كانت قد تعرضت لهجوم كاسح مفاجئ.. القوات الموجودة داخل أنقرة لم تكن تشكل أهمية إستراتيجية... المهم توقيف القوات المتجهة نحو إستانبول. وإنزال الخسائر الكلية بالعدو وبشكل نهائي.

قام باركن من مكانه وهو يتأفف واقترب من النافذة. كانت ثمة عربة حربية من طراز /برادلي/ تقف أمام البناية. كان الجنود يريدون تفتيش رجل وامرأة.. وكان الرجل يعارضهم. وكانت زوجته تريد التخلص منهم. وهي تدفعهم بيديها.. شعر /باركن/ بأن ثمة حادثة سيئة ستحصل. فكرّ بالذي سيفعله.. وبما أن زوجته

نائمة كان بمقدوره الخروج من البيت بكل أريحية.. ذهب مباشرة إلى الباب وفتحه من دون أن يحدث ضجيجاً يشعر به زوجته وتستيقظ. ونزل من الدرج بسرعة. عندما وصل إلى باب البناية وجد أن الجنود قد أنزلوا الرجل الأرض بضربات من مقابض أسلحتهم. حيث تجمَّع دمه في دماغه وأحسَّ بأن طاقته الموجودة في ساقيه قد طارت. لم يستطع أن يتحكم بنفسه /أو يتمالك نفسه/ وقفز نحو الأمام. كان الجنود مشغولين بضرب الرجل بشكل غريب بحيث أنهم لم يشعروا باقتراب باركن منهم. اندفع باركن بقوة ودفع الجنود نحو الجدار. وأخذ الرجل من بينهم. والجنود الذين كانوا ينسلون قبل وقت قليل. جاء بدلاً منهم مجموعة من الجنود المتوترين وقد صوَّبوا أسلحتهم نحو باركن.

كان الرجل الذي أُهين وضُرب قد عانق زوجته بقوة - وكان وجهاهما تنزفان دماءً. عندما رأى باركن الأسلحة الموضوعة على رأسه عاد إلى وعيه. ورفع يديه نحو الجانبين مشيراً للجنود كي يهدؤوا مثله. ولكنهم لم يكونوا يريدون ذلك. كانوا يصرخون على الدوام ويطلبون من باركن التمدد على الأرض. كان الجنود الشباب وكأنهم قد فقدوا صوابهم. ولم يكن على رأسهم أحد من الضباط. في هذه الأثناء تماماً سمع صوت امرأة تصرخ في الطوابق العليا. رفع الجميع رؤوسهم نحو مصدر الصوت. شاهدوا رأس امرأة تصرخ وتولول وتحول وجهها إلى بياض الخوف. كانت هذه /هالا/ عندا رآها باركن كان قد ذُهل تماماً. وكأن أعصابه قد خرجت من تحت سيطرته. كان الجنود الأمريكيون يطلبون منها السكوت وإدخال رأسها. ولكنها لم تكن في حالة تفهم طلبهم..

صرخ باركن من الأسفل: "رجاءً يا هالا ادخلي إلى الغرفة".

لكن المرأة لم تكن تسمع شيئاً.. كانت تبكي وتبكي وتصرخ وتطلب من زوجها العودة إلى المنزل. رفع الجنود بنادقهم نحو هالا. وطلبوا منها إدخال رأسها إلى الداخل. ثم إنهم كانوا قد سددوا نحوها تماماً.

خرجت إحدى الطلقات منفجرة حيث صمَّتْ آذان الجميع للحظة واحدة. كانت الرصاصة قد اصطدمت أسفل النافذة وارتدَّت ثانية.. حيث تكونت سحابة صغيرة

من الدخان مكان الاصطدام.. سكتت المرأة ولكنها كانت تبكي بشكل مستور. نظر باركن بداية إلى زوجته ثم إلى الجنود ودخل البناية جرياً. كان يسمع الصرخات التي تصدر من خلفه.. كانوا يستطيعون قتله في كل لحظة. ولكن حتى الموت لم يكن يهمه بشيء بعد الآن. المهم لم يسمع صوت السلاح الذي انتظره. وأسرع بالصعود من الدرج نحو شقته. كان ثمة صوت يسمعه أكثر خطورة وسوءاً من صوت السلاح... وهو صوت خطوات الجنود الذين كانوا يتبعونه.. كان صوت الأحذية العسكرية تصطدم بالجدران وتصل إليه.. كثيرون يأتون من خلفه.

عندما وصل إلى الطابق الذي يسكن فيه.. دخل إلى شقته بسرعة وقفل الباب من خلفه.. كان قد لاحظ أنه تصرَّف تصرفاً خاطئاً.. تصرفاً لا منطقياً ولا عقلانياً. ولكنه لم يكن يدري ما الذي يفعله. بعد وقت قصير بدؤوا يطرقون الباب بلكماتهم وأرجلهم.. لم يكن للباب أية قدرة على التحمل. بعد عدة ضربات متتالية سمع تكسر الباب ودخول الجنود من خلفه وهم يتصايحون ويصرخون. نقل باركن زوجته إلى الصالون وأغلق الباب من خلفه. كانت أقدام الجنود تتراءى من أسفل زجاج الباب.. وفي هذه اللحظة نفسها نزل الزجاج كاملاً على الأرض. كان يراهم.. غاضبين، شامتين يتفجر الحقد من وجوههم.. كان ثمة ثلاثة جنود شقر وواحد زنجي. لم يكن باركن يعرف ما الذي سيفعله.. والحقيقة كان الوعي قد عاد إلى رأسه بعض الشيء. لم يكن يلاحظ أنه يعيش في مدينة محتلة.

ومع مرور كل ثانية كان باستطاعة الجنود كسر القفل والدخول إلى الصالون.

كانت النيران تتطاير من عيونهم.. فهم في تلك اللحظة أنهم لا يمزحون. صرخ في وجوههم: "رجاءً.. رجاءً.. اهدؤوا قليلاً".

كان صوته يرتجف.. وحنجرته قد جفت.. ومفاصل ركبتيه كانت على وشك أن تنحل من الخوف. وكان الجنود الأمريكيون يصرخون في وجهه أيضاً.

- "تمدَّد على الأرض أيها الغبي.. لماذا تدخلت في شؤوننا؟"

- "ستموت أيها التركي القذر.. ستموتون جميعاً.. لقد أفنوا واشنطن تماماً. يجب أن نقتلهم جميعاً".

كان باركن قد سمع الجملة مع أنه كان يبحر في أزمات نفسية وجسدية قاهرة: " لقد أبادوا واشنطن من أساسها". ردَّد في نفسه هذه الجملة. إذن من أجل هذا السبب كان إرسال التلفاز قد انقطع فرح للحظات ولكن كان عليه التفكير بنفسه وزوجته هالا.

فتح باركن ذراعيه ووقف أمام هالا. كانت المرأة في حالة نفسية كئيبة جداً. كان صوتها وأنفاسها قد قُطع.. وفي الوقت الذي كانت تنظر فيه نحو الجنود. كانت كأنها لا ترى شيئاً. رفع الجندي الزنجي سلاحه نحو باركن وطلب التمدد على الأرض. وبإشارة من يده طلب من زوجته أن تقترب منه. احتار باركن في أمره.. لم يكن قد فهم شيئاً.. أوضح هذا الشيء بنظراته إلا أن الجنود لم يكن عندهم طاقة للتحمل أكثر من هذا. أنزل العسكري الزنجي السلاح نحو الأرض وضغط على الزناد. بعد خروج الطلقة انعكس صوت باركن المخنوق داخل الغرفة وتدحرج على الأرض.

نظرت هالا نحو زوجها الممدد على الأرض دون أي رد فعل. نظرت إلى وجهه المشحون بالألم وإلى عينيه. ثم إلى الجنود. كانت ثمة ابتسامة قذرة مزروعة في وجوههم. أشار الجندي الزنجي لها كي تقترب منه. حاول باركن الوقوف على رجليه. إلا أن أحد الجنود أنزل على ظهره لبطة قوية.. بدأت الدماء تسيل من أنفه ونزل على الأرض ثانية. أمسك الجندي الأسود يد هالا وأراد إدخالها إلى غرفة النوم.؟ امتنعت المرأة في البداية. إلا أنها تركت نفسها عندما رأت البندقية تتجه نحوها. خرجت ثمة كلمة مضغوطة من فم باركن.

- "لا... " إلا إنهم لم يسمعوا هذه الكلمة. غادر الجنود كلهم الغرفة. لم يكن باركن بعلم إلى أين ذهبوا. ولكن كان ثمة إحساسٌ سيءٌ يراود أعماقه. دخل إلى الغرفة الأخرى زحفاً. كانت ساقه تنزف بشكل سيء.

كانت الأماكن التي قطعها زاحفاً.. قد امتلأت بالدماء. لاحظ صدور الأصوات من غرفة النوم. كان قلبه قد بدأ ينبض كالمجنون. استجمع كل قواه حتى وصل إلى باب غرفة النوم. وعض لسانه من ذلك المشهد الذي رآه. كان يريد الصراخ. إلا أن ردة الفعل الشديدة الصادرة من دماغه قد جعلته يفتح فمه بشكل غير متوازن

وعضَّ لسانه بشكل قوي جداً.

كان الجنود الأربعة يقفون حول السرير والقسم السفلي من أجسادهم عارية كانوا قد أسندوا بنادقهم على الجدار.. وكأنهم غير مبالين بأي شيء من حولهم.

كان الزنجي يغتصب هالا أمام الآخرين "باركن كالمجنون.. صرخ بأعلى صوته نظروا إلى خلفهم إلى مصدر الصوت.. تقابلت عينا باركن بعيون زوجته للحظة واحدة. يجب أن تكون هالا في حالة جنونية كاملة.. كانت نظراتها جامدة ورطبة.

وكأن ثمة فراغاً قد تمَّ فتحه بين باركن وهالا. لم يكونا يسمعان أي شيء كانا يعيشان جهنم بنظراتهما فقط.

وقف أحد الجنود فوق رأس باركن وصرخ بأعلى صوته: "هل أعجبتك زوجتك في هذه الحالة أيها القذر: سنتصرف مع الجميع هكذا وسنقتلكم جميعاً".. كان يقول ذلك وهو يرش البصاق من فمه. حاول باركن الوقوف على رجليه.. انتقل الجندي النصف العاري إلى الجدار وتناول بندقيته من هناك لم يكن يهمه ما يفعله الآخرون. أما الآن كان أحد الجنود البيض قد بدأ على باغتصاب هالا. كانت طاقتها تنتهي رويداً رويداً. كانت على وشك أن يغمى عليها. نظر باركن إلى البندقية الموجهة إليه. انفجرت البندقية ثانية. في هذه المرة كانت الرصاصة قد دخلت من بطنه انتشرت القطعة المعدنية في جسده كله. كان يحسُ بأن ثمة سائلاً ساخناً ينزف من الثقب الحاصل في بطنه.. في البداية لم يشعر بأي ألم.. وأخيراً ارتجَّ جسده بالألم. كانت عيناه تزوغان.. كانت أصوات القهقهات قد امتزجت بالطنين الصادر من أذنيه. وبكاء زوجته المؤلمة الذي كان قد بدأ بالضعف.

لم يكن يستطيع تخمين الوقت الذي مرَّ. عندما فتح عينيه رويداً رويداً كانت الظلمة قد غطت كل شيء. كانت ثمة نقطة ساخنة على بطنه وشيء من القساوة. وكانت ثمة بحيرة من الدم قد تكونت في مكان تمدده مدَّ جسده بصعوبة وأشعل المصباح. كانت غرفة النوم قد انقلبت رأساً على عقب. رأى زوجته المتمددة فوق السرير. كان جسدها العاري جامداً وكأنه قد صُرمَ بشكل قوي. وصل إلى السرير زاحفاً.. وتسلقه كانت ثمة نقاط سوداء وبنفسجية على وجهها وجسدها..

دقق نبضها. لم يكن يشير بأية حركة استمع إلى قلبها.. لم يكن موجوداً.. لم تكن أية علامة من علامات الحياة. لم يكن عقله يتقبل ذلك.. بدأ يهز جسدها بقوة ولكن عبثاً.. تكوَّم فوق جسدها وأجهش بالبكاء. هو الآخر كان ضيَّع كثيراً من دمه.. وعلى وشك الموت.

فكَّر بأنه سيقابل هالا ثانية وسيكونان مع بعض.

٢٩ أيار ٢٠٠٧ . الساعة ١٠,٥٥

موسكو . كرملين

كان /بوتين/ يشاهد للمرة الثانية الغارة على الموتيل وحديث الرئيس وما أعقبته من الفضائح والرذائل. لم يكن يستطيع إمساك تلك القهقهة التي تعقب كل ورطة يقعُ بها الأمريكيون وهو يصرخ: "الأمريكيون الأغبياء".

كان هذا التركي قد ظهر جوزة قاسية جداً.. لم يكونوا قد قبضوا عليه بعد ولكن الأطباء كانوا يقولون: إنه سيموت حتماً من فقده للدم حتى وإن لم يتم القبض عليه.

طُرق البابُ فصرخ بوتين: "ادخل".. دخل سكرتيره الخاص /فالدمير/ وقال: "جاء ألبروفسور جاركو يا سيدي". وفتح للرجل ذي اللحية البيضاء الباب.

قام بوتين ومشى مع ألبروفسور حتى الكنبة ودعاه للجلوس. وجلس مقابله وقال: "هل بحثت عن محتوى ذلك التقرير يا سيدي ألبروفسور؟"

ضرب جاركو الملف المغلف بغطاء /كريم/ وقال: "طبعاً يا سيدي.

ومنذ يومين أنتظر إشارة منك كي أُحضره إليك".

منذ فترة والرئيس بوتين كان يفكر بالتقرير الذي وصله من الأتراك.

كانت المعطيات العلمية حقيقية ومطلقة ولكن السياسة والعلاقات الدولية لم تكن تشبه أحجار الشطرنج. ثمة لاعبون كثيرون يلعبون هذه اللعبة.

- "ماذا تقولون؟"

"هؤلاء لا يقولون شيئاً جديداً يا سيدي.. بالأصل كل شيء كُتب عن معدن البور.. معروف سلفاً. إن العلماء الأمريكيون وعلماءنا يقومون ومنذ فترة في البحث والتدقيق لبناء سنترالات بهذا الخصوص".

هزَّ بوتين يده وقال: "انتقلوا إلى المعطيات العلمية.. ورجاءً أريد النتيجة فوراً".

ابتسم جاركو وقال: أنا رجل علم.. ولكنكم تريدون مني نتيجة تخص

مستقبل وطني.. وأستطيع أن أقول إن الأتراك محقون.. هذه الحرب قامت من أجل البور. وإذا ما استولى الأمريكيون على هذا النبع فمستقبل العالم كله سيكون بأيديهم".

قام بوتين من مكانه ودار حول الغرفة. كان في حالة وكأنه قد نسي البروفسور. وبعد عدة دقائق وقف أمام مكتبه وضغط على الجرس. فدخل /فالدمير/ إلى الغرفة فقال له بوتين:

"ودّعوا السيد البروفسور واتصلوا مباشرة مع بكين وبرلين وباريس" كان البروفسور قد ترك الملف فوق الطاولة.

- في هذه اللحظة ـ الشيء الظاهر البقاء إلى جانب الأتراك. ولكن يجب أخذ الدعم من برلين وباريس وبكين. وعليهم التحرك معاً. وإذا ما كوّنوا الضغط اللازم لإخراج الولايات المتحدة من تركيا.. فهذه تغير كل شيء. طبعاً يجب بناء لجنة خاصة لاستخراج معدن البور.. وتقسيم الحصص. يعتقد أن روسيا ستأخذ نسبة مئوية عالية من هذا المعدن. ولم يكن يعتقد أن يقول رئيس الوزراء التركي طيب أردوغان: لا ، أو من غير الممكن أن يعارض رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان ما سيطلبه بوتين به.

٢٩ أيار ٢٠٠٧ - الساعة ١١،٠٢
نبراسكا - أوفوت

مقر القيادة الإستراتيجية الأمريكية

كانت القنبلة التي انفجرت في واشنطن قد أثرت وبشكل كامل على إستراتيجية الحرب الدائرة في تركيا. ولكنهم كانوا مضطرين للمضي قدماً في هذه الحرب.

سأل أحدهم: "ما وضع فوج المدرع الثالث؟"

- "أخذ كل الاحتياجات حول سد أتاتورك. وبمساعدة إضافية لهذا الفوج استولى على سد /كابان/. في هذه اللحظة فالسدان تحت سيطرتنا كلياً. ولا ضرورة كي نتقدم نحو الأمام. وبما أن السدين في يدنا فأكثرية إنتاج الكهرباء صارت تحت سيطرتنا أيضاً.

- ما زال السدان ينتجان الكهرباء".

- "كأن الجيش التركي لم يفقد قابلية الحركة بعد. ما زالت هناك مقاومة شرسة. أنا شخصياً ما كنت أخمن ذلك.. والحقيقة أن أعصابي تتوتر أكثر فأكثر.

- "إذا جئنا إلى الحقيقة ما زالوا يملكون بعض المدرعات والدبابات.

ونستطيع أن نقول: إن قسماً من مروحياتهم مخبأ. ولكن أيها السادة إن الجيش التركي قد صُدِمَ بشكل مفاجئ".

- "نعم.. إننا قبضنا عليهم بشكل فجائي وسيء. وأية حركة من أي جيش أثناء الغارات الجوية تكون نوعاً من الانتحار.. فهم جربوا عدة مرات ولكن...

- "نعم اللواء الجبلي للقوات الخاصة في بولو".

- "إذا جئنا إلى الحقيقة.. كانت فكرتهم رائعة جداً.. وهذا يوضح بأنهم جدّيون في موضوع إستانبول.. خرج اللواء بأكمله بالحافلات المدنية نحو إستانبول.

إلا أن طائراتنا من طراز f 15.. أبادتهم تماماً".

- "نهاية سيئة جداً."

- "نعم. ولكن الأكثرية منهم قد تخلصوا. ولا ندري ماذا يفعلون الآن. وربما يتقابلون مع الفرقة الميكانيكية الرابعة للمشاة قريباً. وأتمنى أن يكونوا شجعاناً حتى يتقابلوا مع جماعتنا".

- "والدور بعد ذلك؟"

- "إستانبول."

- "نعم. مدينة مقدسة حقيقية. يجب أن تعود إلينا بعد احتلال دام أكثر من خمسمئة عام.

- "الوضع هناك سيكون أسوأ من أنقرة."

- "وأنا أيضاً أخمن أنهم يجمعون هناك قواتاً كثيرة.. أثناء الحرب العالمية الثانية - لم يكن الأتراك قد فكّروا بالدفاع عن أنقرة. وبما أن جهة التهديد قد تغيرت فهم يفكرون الدفاع عن إستانبول. هؤلاء الجماعة بالأصل عندهم عاصمتان."

- "لقد قضوا على عاصمتنا ودمّروها تدميراً".

- "أتمنى ألا يظهر مجنون من طرفنا ويرسل بصاروخ إلى إستانبول"

- "يستحقونه".

- "المهم.. لنعد إلى عملنا.. ماذا ننتظر من عملية إستانبول؟"

- "ها ها !!!.. عندها يجب أن نسمي قائد الوحدة التي ستحتل إستانبول /الفاتح/"

- "ستعمد الفرقة الرابعة للمشاة على رفع الحواجز عن طريق إسثتانبول. وستبنى على الطرف الجنوبي الشرقي في بحر /مرمرة/ نقطة للقفز. يجب أن يكونوا الآن حول مدينة /أسكي شهير/. ومن هنا وضعنا أمامنا هدفاً وهو الساحل الجنوبي لخليج /إزميت/ وستتمركز في هذه النقطة فرقة الإنزال الجوي ٨٢ ومروحيات الأباتشي التابعة للفرقة /١٠١/ وستعمد الوحدات التابعة لفرقة المشاة ١٥ و ٢٦ إلى اجتياز مضيق جنق قلعة عن طريق البحر وتقوم بالتحضيرات

هناك. ثم تبدأ الغارات الجوية التي صارت بالنسبة إلينا كلاسيكية. ثم سنعمد إلى إعطاء تعريف جديد للغارات الجوية.. بعد الغارة الجوية ستنزل وحدات ٨٢ والمشاة البحرية إلى مراكز التجمع في الساحل وستبني عدة جسور.. وسيتم السيطرة على الأحياء المركزية.

- وستعمد الفرقة الميكانيكية الرابعة للمشاة بالتحرك نحو إستانبول. وسنرسل لهم فوج الإنزال ١٧٣ دعماً أي للفرقة الرابعة للمشاة".

- "وكيف هو الوضع في أسكي شهير؟"

- "ساكن جداً.. تم تخريب المطار هناك تخريباً كلياً. وتم ضرب عدة نقاط في داخله.. الحركة العسكرية قليلة جداً".

- "ألا يوجد شيء ناقص في هذه اللحظة؟"

- "كقوة ضاربة.. قليل جداً. لا يستطيعون إرسال أربع فرق دبابات إلى هناك. هذه العملية تؤدي إلى اشتداد المقاومة في الطريق الواصل إلى إستانبول. لاتنسوا هدفنا. تدمير النظام وفتح الطريق للعملية الأصلية أو الأساسية."

نعم.. يا إلهي يحاول الجميع فهم الذي يحصل الآن.. يحاولون فهم التكتيك الحاصل في هذه العملية.. عندما يعرفون.. ستكون قد انتهت."

- "نعم كما تقول تماماً. هذه بكل معنى الكلمة.. عملية من نتاج هندسة نظام ليس إلا. لقد تم تحديد النقاط الأساسية للجمهورية التركية.

- وطبقاً لهذا الشيء.. تطبق الغارات الهجومات. سيعمد النظام إلى التفكك عند نقطة معينة ثم ستتفرق إلى قطع صغيرة وهي القطع الأساسية للنظام.. غايتنا إظهار هذه القطع إلى حيز الوجود. ثم سنشاهد الذي فعلناه".

- " يعني تريد أن تقول.. بعد هذا ، ظلام دامس، أليس كذلك؟"

- "وفقاً لهذه النظرية نستطيع أن نقرأ المستقبل ولا نستطيع قراءته ولكن الظلام مسيطر على الدوام".

- "أتمنى أن نتوقف في عملنا. ولا تخرج مفاجأة أخرى من القنابل النووية".

- "أتمنى ذلك".

- "المستقبل مظلم.. أنت قلت هذا الكلام".

١ حزيران ٢٠٠٧ . الساعة ١٥,٠٠

. إستانبول .

لم تكن هنا إستانبول القديمة.. كان كل شيء قد تغيَّر.. التغير الأول كانت رائحة المدينة. وأصوات النوارس ثم الإفادات المرسومة في وجوه البشر ونظرات المحبين في عيون بعضهما بعضاً.

كانت الطاقة المخبأة داخل البارود تُغيِّر العالم. وإستانبول كانت تتراءى وكأنها قد أخذت نصيبها من هذه الطاقة. كان البارود هو الوسيلة الأكثر قوة وخلقاً للتغيير في التاريخ، وما فعله كان ظاهراً للعيان. كانت البنايات العملاقة التي أُقيمت وأُنشئت خلال عشرات الأعوام وبمبالغ طائلة قد سُوِّيت مع الأرض. كانت ثمة نقطة عملاقة، فراغ عملاق قد حدث في وسط جسر /بوغازايجي/. أما الجسر الآخر كان سليماً لم يُضرب بعد. أما جسر الخليج كان قد صار قسمين ونزل إلى القاع إثر عدة هجمات متتالية. وكانت ثمة قنبلة طولها ثلاثة أمتار تنام في وسط الخليج تحت الماء. لم تنفجر. ولكنها كانت قد أخذت شكلاً غريباً من تأثير قوة الصدمة. كانت الأدخنة تتصاعد من الأحياء القريبة من الخليج. وعندما ينظر المرء من الأعلى يستطيع رؤية سحابات سوداء من الدخان متجمعة فوق تلك الأحياء.

كانت الطائرات الأمريكية تقذف الأحياء الشعبية الفقيرة بشكل بشع جداً لم يكونوا قد لمسوا الأحياء الغنية أبداً.كانت الحياة قد صارت مستحيلة في الأحياء الشعبية. كان الناس ينتقلون إلى الأحياء الغنية في وسط المدينة جماعات.. جماعات. كانت الإستراتيجية الأمريكية قد بدأت تظهر نفسها في هذه المناطق.

وبالرغم من شدة المعارك وقوتها. كان الفقراء قد سببوا نوعاً من الفوضى والتوتر داخل الأحياء الغنية التي جاؤوا إليها. ولم يكن ساكنو الأحياء غير المضروبة ينظرون إلى سكان الأحياء المضروبة بعدم الرضا. عدم الأمن والأماكن

التي خلفتها الحرب.. كانت تتأثر بشكل نظامي بتوترات أخرى وبأشكال مختلفة.

كان العدو يعرف بما يفعله. كانت إستانبول بالنسبة إليه الخطوة الأخيرة.. هذه المدينة الكبيرة ربما تصير عنواناً للنصر أو الهزيمة.

كان العدو قد بدأ يطبق قواه وبشكل كثيف في هذه المدينة. لأنها تهمه كثيراً. وبسبب الغارات المتواصلة.. كانت الأعصاب وردود الأفعال طريقة واحدة وتنفذها كي تمزج التوترات الفردية والشخصية بتوترات اجتماعية - كانت تخلق إشاعات بأن الناس الفقراء يشكلون فيما بينهم مجموعات ضد الأحياء الغنية والأغنياء.

كانت قوة الحرب وشدتها تَستُرُ غايتها وتخدم مِنْ ولأجلِ أي شيء.

كانت القوات الأمريكية تقدم أو تعرض الإعلانات الرائعة والحياة الجميلة في الأحياء الشعبية وبين الفقراء والمعدومين وإن الاحتلال قد جاء من أجلهم فقط ليقدم لهم الحياة السعيدة. أما في الأحياء الغنية فكانت قوات الاحتلال تطالب بحكومة حليفة لها كي تقدم لها العون والمساعدة للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي.. لم يكن أحد يعلم من الذي يُصدر هذه الإشاعات. ولكن بالنتيجة.. كان هناك ثمة أناس يتأثرون بها. لأن الناس الذين هُدمت أرواحهم كانوا ميالين لتصديق أي شيء وكل شيء.

أما التخريبات في الطرق الرئيسة فكانت شديدة جداً.. كانت الطرق الواسعة والعريضة والتي كُلفت مليارات الدولارات.. كانت قد تحولت إلى ما تشبه الحقول العادية من قوة الضربات الجوية وشدتها.

مع تناقص البضائع المنقولة عبر الطرق الرئيسة كانت الأزمات تزداد في مركز إستانبول من حيث إيجاد الأغذية والماء والبضائع الأخرى. الهجمات الجوية الأمريكية. كانت تؤذن بمقدم حرب كبيرة.. لم تكن الراحة موجودة كما هو الحال في القديم. إذا أراد المرء البحث عن الراحة فعليه دعم المصالح الأمريكية والتلاؤم معها.

كانت إستانبول قد تحوّلت إلى ما يشبه لون الرماد. والفصول قد امتزجت

بالأحزان ورائحة البارود. كانت النيران التي أشعلتها الصواريخ الليزرية ترقص فوق سطح الماء من جهة غروب الشمس. كانت اللمعات التي تضرب وجوه الناس من النوع الذي يحرقهم الآن. كانت تفني المنازل والأخيلة التي بُنيت على مدى عشرات الأعوام كانت قد بدأت بالذوبان.

كانت حيوات /السوسيتية والمغازينية/ قد عفرَّتها شهوات الحرب، كل شيء كان قد تبخرٌ.. الاحتفالات الرائعة واللامبالاة.. والشعور باللامسؤولية.. لم يبق سوى /تورتة/ الحقيقة. وعلى مدى فترة زمنية بقي الناس يسلقون حقيقة وجودهم بفضلات الحياة التي كانوا يعيشونها.. ولكن ديمومة هذا الأمر كانت مستحيلةً أيضاً...

لأن ذكرى تلك الأيام الجميلة. كانت تسبب لهم الألم أكثر من قطع الشظايا. والإحساس بالاستسلام كان يُجلدهم أكثر من الإرهاب الذي تخلفه الأسلحة. كان الناس يحاولون إقناع أنفسهم كي يكونوا متناسبين مع الوضع الراهن.

هذه المدينة الكبيرة.. العملاقة. كأنها قد فُصلتْ عن باقي المناطق. كان الناس الذين يعيشون خارج أماكن الاحتلال حزينين من أجل أهلهم وأقاربهم وذويهم في إستانبول. أما شعب إستانبول كان يؤدي البدل لأنه سيصير صاحباً لتاريخ كبير. الآن كان قد نسي سبب مجيئه إلى هذه المدينة. وكانت حيرته تتبع أساساً من عدم معرفته بالمكان الذي جاؤوا إليه. لأنه كان قد صار هدفاً رئيساً للعدو الذي بدأ بفصله عن العالم الخارجي.

كل الشعب كان قطعاً مادية تجرب فوقها جميع أنواع الأسلحة والتكتيكات.. هذا الإحساس كان يخلق عنده حالة روحية مشتركة، هذا الخلق كان حقيقة. ولكن المصاعب كانت أقسى من كل التوقعات من جهة ستبقى على قيد الحياة.. من جهة أخرى صبغَ العيون من قبل وعود الأعداء.

هذه هي الحواجز التي كانت توضع أمام الذين عندهم ميل للمقاومة. لم تكن روح المقاومة الحقيقية قد تكونت بعد لدى الناس. كان ثمة أُناس مسلحون كثيرون هنا وهناك. ولكن لم تكن هناك وحدة للمقاومة حتى تتحقق فيها روح /ستالنغراد/ كان المقاومون يُحسون بالقهر والإحباط لأنهم لم يكونوا يرون تلك

الروح. كان بعضٌ منهم يلتقي مع مجموعات كبيرة.. ويودُّ أن يزرعوا فيه روح المقاومة. ولكن علامات وجوهه المرتخية. كانت تأخذ الطاقة من أعماقه.

يجب أن تكون ثمة أشياء تُقدم لهؤلاء الناس المتعبين. والحقيقة أنهم لم يكونوا يعرفون الشيء الذي يحاربونه. حتى إنهم لم يكونوا في حالة حرب.. الشيء الوحيد الذي كانوا يفعلونه الانهزام من القنابل الهاطلة فوقهم من أين لا يدرون.. كانت انقطاعات المياه لم تصل بعد إلى ذروتها. ولكن الانقطاعات الكهربائية لم تكن دائمة.. بعض الأحيان يعود الجريان الكهربائي وتعمل التلفازات.

عندما انفجرت القنبلة في واشنطن.. كانت قد خلقت نوعاً من الانفعال والتوتر في بداية الأمر.. كان الجميع قد علقوا على أنها ضربة كبيرة لعدو كبير لا ينهزم.

هذه الأفكار السلبية كانت تهدم روح المقاومة لدى البشر.

◆ صحفي مشهور.. ذائع الصيت ومعروف بإدمانه للخمر.. عندما بدأت الحرب.. سافر إلى إنجلترا وبدأ يرسل من هناك مقالات يطالب فيها بالاستسلام الكلي حتى تصير تركيا ولاية من ولايات المتحدة الأمريكية. وبالأصل ألم يكن الجميع يسعون للحصول على البطاقة الخضراء حتى يستقروا في أمريكا؟ كان يقول: "ها هي تركيا ستكون بالكامل مضمومة لأمريكا.

كانت ثمة توترات قد بدأت تظهر على الناس مع مرور كل يوم وساعة.

في كل مرة كانوا يفتحون فيها التلفاز. كان يرون الفرقة الميكانيكية الرابعة للمشاة تتحرك نحو إستانبول. والسفن البحرية الأمريكية الحربيّة التي كانت تنقل عناصر المشاة البحرية تقترب من إستانبول بعد أن اجتازت مضيق /قلعة جنق/. وكانت الفرقة ٨٢ للإنزال الجوي المتمركزة على الحدود السورية قرب لواء إسكندرون. قد بدأت بنقل آلاف الجنود وبطاريات المدافع إلى داخل تركيا ونحو جهة غير معلومة.

كان يسيطر على الأجواء انتظار غريب. كان الناس يشعرون بأن ثمة شيئاً غير طبيعي سيحصل.. هذا غير ممكن... يجب الا تذهب إستانبول هكذا. كان أحدهم يريد تجربة هذا الشيء. والآن لم يكن أحد يعلم ماذا سيحصل: كانت ثمة أيام سيئة تترقبهم. الجنود والغرباء كانوا سيطؤون بأقدامهم أماكن زيارات الناس

ولهوهم وعبثهم.

وربما سيضعون قوانين وأنظمة جديدة في تلك المناطق. والسفن التي كانت تنقل الركاب إلى جزر إستانبول ستترك عملها.. ستفنى والبنايات الموجودة في شارع الاستقلال.. ستكون قعراً للضباط والعساكر الأمريكيين. وسيتحول استاد /انينو/ إلى مطار للمروحيات.. و سيعمد الجنرالات إلى رفع أقدامهم في سراي /دولما بقجة/. وسيتحول اسم مطار ريشيل كوي أتاتورك، إلى اسم بيزنطي جديد.. وستخصص كل القصور الموجودة على ضفتي البوغاز للموظفين الأمريكيين الكبار.

وستتحول الحياة في الأحياء الشعبية إلى حياة لا تُحتمل أبداً.. وستخرج المقاومة من تلك الأحياء.. وسيعمد العدو على الرد على المقاومة بأقصى قوته.. وستعمد الفرقة السمفونية الأمريكية إلى إقامة حفلات في المركز الثقافي المسمى أتاتورك. وسيجبر المدعوون على الذهاب إلى تلك الحفلات.. وسيفتح مجلس الشيوخ الأمريكي برامج للمساعدة.. بمليارات الدولارات لصالح تركيا.. حيث ستستعمل هذه المبالغ الضخمة لبناء المدارس التي هدمت أثناء الحرب وعندما ينتهي إنشاء جسر بوغازايجي.. سيلقي أحد الضباط الأمريكيين خطاباً أثناء حفل التدشين أو الافتتاح. وربما يعود كل شيء إلى حالته الطبيعية.. بعضهم قال هكذا وبعضهم الآخر قال إن الأمر سيسوء أكثر فأكثر ولكن الذين كانوا يتحركون قليلون جداً.

٢ حزيران ٢٠٠٧

- غولجك الجديدة.

الشواطئ الجنوبية لخليج /ازميت/١

كان ثمة صمت عميق يطبق على الجو. وكأن الزمن قد توقف. كان البحر ساكناً. وثمة برودة جافة تسيطر على الجو. كان خليج /أزميت/ يبدأ بيوم لا حركة فيه ولا رياح. لو كان الزمن غير هذا الزمن لبدأت الحركة تحسس البشر بنفسها. من حيث هدير المعامل أو المصانع أو عبر تبادل الورديات بين العمال.. كل هذا كان يخلق نوعاً من الأنين الممزوج بالهدير يتوزع في أرجاء منطقة المعامل والضواحي مؤكداً أن الحياة لم تتوقف هناك.

المنطقة المملوءة بأحياء العمال. وعلى بعد من تلك الأحياء . تبدأ منطقة المصانع التي تذكر المرء بالانقلاب الصناعي الأوروبي.

كان الضباب والأدخنة يُشكل ستارة رفيعة فوق تلك الأحياء. وكأن العمالة نوع من قانون ينتقل من الأب إلى ابنه.

وبروابط عائلة كبيرة وواسعة.. كانت قد تكوَّنت مساحة كبيرة للإنتاج في المصانع.

طبعاً كل الذي ذكرناه. كان قبل بدء الغارات الجوية على هذه المنطقة.. ومن أجل الدخول إلى إستانبول مباشرة.. كان لا بد من إيجاد نقطة مناسبة هذه العملية كانت قد جهزت خصوصية المنطقة كلها ونهايتها. كانت الأحياء الاصطناعية والمصانع العملاقة. قد سُوِّيت مع الأرض تماماً.. وعلى مدى عشرات الكيلومترات لم تبقَ بناية واحدة سليمة. حتى الأحياء المدنية كانت قد نالت نصيبها من هذه

---

[1] ((ـــ "غولجك: بلدة صغيرة على الشاطئ الجنوبي من بحرمرمرة.. وفيها أكبر قاعدة بحرية عسكرية تركية. وقد سويت مع الأرض أو غطست في البحر أثناء الهزة الأرضية التي ضربت منطقة مرمرة في عام ١٩٩٩..وراح فيها الآلاف" ملاحظة المترجم.))

الغارات. كانت أكثرية هذه الأحياء تذكر المرء بالبلدات التي تسكنها الأشباح.

كانت برودة الصباح تجعلك تشعر بنفسك، والذين بقوا على قيد الحياة. كانوا قد لملموا أنفسهم في إحدى الزوايا خوفاً من الموت.

وكان كلهم مثل النائمين بعمق وهم يستمعون إلى الصمت. في الوقت الذي بدأ فيه الصباح يفصح عن نفسه جيداً.. كانت ثمة أصوات هادرة تشبه الأنين قد أزاحت الأمن عن كاهل الأحياء. حيث بدأت الطيور تنظر نحو كل الأطراف بعيون مملوءة بالخوف وهي تخفق أجنحتها.

كانت المخلوقات التي تحسُ أو تشعر بأن ثمة شيئاً مكروهاً سيحصل، قد بدأت بالحركة.. كانت القطط والفئران قد بدأت تتحرك بين أنقاض المعامل وهياكلها العظمية بشكل غير واعٍ.. هذه التحركات كانت قد أخافت الطيور أيضاً. حيث خرجت من أوكارها الدافئة وبدأت تطير هنا وهناك. وكأنها تريد أن ترى ما الذي كان يقترب منهم. كانت الشمس قد أظهرت نفسها كاملاً.. في الوقت الذي كانت فيه الشمس ضوءاً عادياً تستطيع النظر إليه. وإذ بظلال غريبة بدأت تظهر فوقها.. ثم بدأت تكبر بسرعة.

هذه كانت المروحيات العملاقة التابعة للفرقة /٨٢/ للإنزال الجوي، منها: مروحيات / 47 – ch/ ذات مروحتين و 53 – ch/ وهي مروحيات واسعة وناقلة بشكل كامل وأخرى من طراز / 66 - uh/ المسماة /الصقر/. كل هذه المروحيات كانت تطير قريبة من بعضها بعضاً. أما طائرات آباتشي من طراز / AH - 64 /.. كانت قد انتشرت ضمن مساحة كبيرة.. تمشط الأطراف. أما مروحيات /كيوا/ من طراز /85d – OH/.. فكانت تفتش عن نقاط الدفاع الجوي بكاميراتها المتقدمة. ولكن من المستحيل أن ترى شيئاً.. لأنه حتى يوم احد من هذا التاريخ، كان الناس لا يفكرون حتى بالمجيء إلى هنا وذلك بعد عدة أيام من القذف الجوي المكثف.كان قد طلب من القوات الأمريكية تجهيز هذه المنطقة لتنزيل الفرقة ٨٢ ـ قاموا بتجهيزها بشكل لا يخطر على بال أحد. كان المشهد مؤثراً إلى حدٍ كبير عشرات المروحيات وقد أخذت الشمس خلفها.. كانت المروحيات العملاقة قد غطت السماء وهي تنقل اللواء الثاني التابع للفرقة ٨٢ أكثر

من أربعة آلاف عسكري بعرباتهم المدرعة من طراز /هومفا/ ومدافعهم ومعداتهم.. كانوا سينزلون إلى الشاطئ الجنوبي من خليج /ازميت/.

وعربات ثقيلة ستنقلها الطائرات العملاقة C -130. وكانت ثمة مروحيتان من طراز /MH – 53/ تطيران أمام المروحيات الأخرى. كانت تنقل مجموعة من الوحدات الخاصة الأمريكية. اقتربت هاتان الطائرتان بمناورة قاسية فوق بعض الأراضي قادمة من البحر. وقبل أن تلمس عجلاتها بالأرض أنزلت الجنود.

أسرع الجنود نحو المصنع المضروب على طرف تلك الساحة.. كلهم كانوا جاهزين على أكمل وجه ومستعدين للقتال في كل لحظة.. فحص جنود الوحدة الخاصة الأنقاض وما بينها بمناظيرهم الليلية.. كان تربط بينهم اتصالات سريعة جداً. مهما كانوا بعيدين يسمعون بعضهم بعضاً. كان الجو يبدو ساكناً. وكانت الطائرات /MH – 53/ تطير فوق المنطقة وهي ترسم الدوائر وفي أسفلها الرشاش الثقيل ذو ستة سبطانات جاهزة لإطلاق النار في كل لحظة. ولم يكن باستطاعة أي مخلوق حي التخلص من رقابة هذه الطائرات ولا بأي شكل من الأشكال.

أخبر الطيارون الجنود بأن المنطقة نظيفة وبمقدورهم التحرك بحرية. نظر الجنود إلى بعضهم وأخبروا سرب المروحيات بأن الأطراف ساكنة من حولهم. نزلت المروحيات /MH – 53/ إلى طرف الساحة... وبدأت بالانتظار دون أن توقف محركاتها. عندما اقتربت الأسراب الأخرى.. وتشكل أنين هادر في الأجواء.. كانت عملية الإنزال تنفذ وتسمع من على بعد كيلومترات.

كان الناس الذين يعيشون خارج منطقة القذف قد استيقظوا من نومهم وخرجوا من بيوتهم مذعورين.. يراقبون ما يحصل من حولهم.. كانت أشعة الشمس تضيء السماء. ولكن ثمة ظلاً غريباً. كان يمنع وصول أشعة الشمس إلى بيوتهم. عندما شاهدوا هذه الأجسام العملاقة فوقهم أغلقوا نوافذهم وسحبوا ستائرهم وجلسوا داخل بيوتهم. اتجهت الطائرات العملاقة نحو مكان نزول الوحدة الخاصة الأمريكية.. نزل من الطائرة الأمامية خمسة وأربعون جندياً بأسلحتهم وعتادهم. ورموا بأنفسهم نحو النقاط التي أشار إليها الجنود الآخرون. ثم بدأت المروحيات

الأخرى بالنزول - والتي كانت تنقل بطاريات المدافع.. خلال نصف ساعة من الوقت كان أكثر من أربعة آلاف من المظليين قد احتلوا منطقة واسعة حتى حدود مدينة /قوجة علي/ عمد الجنود إلى بناء خيمة القيادة كي يكلوا /كردوناً من الأمن/ وتحركوا لتنظيف المكان وعلى اتساع أربعة كيلومترات من حول الخيمة. وبعد فترة قليلة بدؤوا بتمشيط منطقة المعامل وما بين الأنقاض إذا كان ثمة مسلحون أتراك هنا. وذلك بوساطة العربات المدرعة /هومفا/ التي أنزلتها طائرات النقل من طراز 130 – C. ثم دخلت هذه العربات إلى داخل الأحياء التي فرغت من سكانها.. وعملت /كونترولا/.

وبين وقت وآخر كانت تسمع صوت رمي طلقات.. ولكنها لم تكن تطلق في معارك عادية. ولكنها كانت تطلق نحو أماكن ونقاط مشبوهة لا مجال للحظ في مثل هذه الأماكن. لكي تكون رأساً جيداً لأحد الجسور يجب أن يكون آمناً.. كانت الفرقة ٨٢ للإنزال الجوي تجهز مكاناً للواء الثالث الذي سينضم إليها بعد عدة أيام.وهكذا.. سيكون أكثر من عشرة آلاف جندي قد جهزوا أنفسهم جيداً من أجل الهجوم على إستانبول.

في هذه الأثناء حصل شيء جذب انتباه الجنود. كانت ثمة حركة تتراءى في منطقة بعيدة جداً. حركة خفيفة جداً.. لا ضرورة للمراقبة.. تم إعطاء الإنذار وبدؤوا بإطلاق النيران نحو تلك النقطة. تحولت النيران بعد فترة إلى أكثر كثافة. لم يكونوا ينتظرون هذا الشيء.

كانوا تحت هجوم كبير وشديد. لم تكن الاستخبارات قد أعطتهم أية معلومات عن هذه القوة التركية. يجب أن تكون هذه المجموعة هي مقدمة الذين تخلصوا من الغارات الجوية وهم من اللواء الجبلي للوحدات الخاصة المتمركزة في /يولو/ والتي تم قذفها وهي تتجه نحو إستانبول بالحافلات المدنية.

إمساك رأس الجسر لن يكون سهلاً هنا.كانت المعارك الشديدة قد بدأت على مدى خط طويل.

كانت الفرقة الرابعة للمشاة قد بدأت تقطع المسافة بين مدينة /بيلجيك/ و /آدا بازاري/.. وكانت الفرقة تتوقف بين حين وآخر وتجبر على الحرب.

كانت الوحدات التركية. توقع بمقدمة القوات الأمريكية الخسائر الفادحة وذلك بالصواريخ المضادة للدبابات وبناء الكمائن. إذا لم تتم الحركة بسرعة مناسبة كانت الفرقة الرابعة الأمريكية للمشاة.. ستُضيِّع من قوتها وهيبتها إلى حين وصولها إلى إستانبول.

كانت مدينة بيلجيك هي نقطتهم للقفز نحو الأمام. وعندما يصلون إلى مدينة /آدا بازاري/ فالطريق إلى إستانبول ستكون مفتوحة.

ودون أية حواجز تذكر. كانت هاتان الفرقتان تأخذ تعليماتهما ودعمهما الأساسية من مقر القيادة الموجودة في أنقرة.

كانت الارتباطات البرية تقريباً مقطوعة بين فرقة المشاة السابعة الخفيفة التي دخلت الأراضي السورية وعناصر الفوج الثالث الذي كان يتحكم بسد /أتاتورك / وسد كابان/ وبين الوحدات المنتشرة من أنقره حتى منطقة خليج /ازميت/.. كانت الإمدادات تتوصل في البداية إلى أنقرة عن طريق الجو.. ثم ترسل إلى القوات الأمامية.. أما اللواء الثاني فكان في حالة حركة في الوسط بوساطة عرياته المدرعة /هومفا/ يساعد الذراع الأساسي للقوة المهاجمة الرئيسة. حتى ولو على حساب خسارته هنا وهناك. وقريباً كان سيعلن فناءه رسمياً.

كان الإستراتيجيون الأمريكيون قد فكروا في بداية الأمر استعمال نصف جزيرة /باندرما/ نقطة للانطلاق بالنسبة لفرقة الإنزال الجوي ٨٢. ولكنهم لم يكونوا يريدون ابتعادهم عن الفرقة الرابعة للمشاة.

إذا ما حصل هجوم تركي مفاجئ، تعمد المدرعات التابعة للفرقة الرابعة للمشاة لدعمها حتى ولو لعدة ساعات.

كانت فرقة الإنزال الجوي ٨٢ تريد أن تربط الأمور بروابط سليمة. حيث بدؤوا بتحويط منطقة واسعة من الأراضي بكل الأشياء السلبية التي تجبرهم على البقاء هنا لفترة طويلة. فأي أمر عابر من الأمور السلبية يجبرهم على البقاء لمدة طويلة. وفي هذه الحالة يجب عليهم صد كل الهجمات التي تأتيهم. ولهذا السبب كانت بطاريات المدافع تترك جاهزة على الدوام. حتى إنهم كانوا قد ركزوا بعض مدافع الهاون في مناطق ملئت بأكياس الرمل. حتى ولو لم يكن أحد ينتظر أية غارة جوية

من قبل الأتراك.كانت عربتا /هومفا/ قد تركزتا وسط المنطقة التي كانت تتحول إلى قاعدة عسكرية. تراقبان الجو على الدوام. إلا أن الهجمات التركية كانت قد زادت على هذه القاعدة. وكانت الخسائر تزداد على الدوام.

كان الناس الذين يعيشون في الأحياء الجنوبية لخليج ازميت. يحسون بالإحباط والتوتر عندما يرون الجنود الأمريكيين ويصابون بمشاعر غريبة جداً..

وكما أنهم يرونهم بعيون عارية.. كانت ثمة قوات كبيرة تتمركز هنا وهناك. وعملهم الوحيد هو الجلوس والمشاهدة. لم تكن القوات الأميركية في حالة يريدون الاقتراب منهم.. كانوا قد فهموا أن التجهيزات التي تقوم بها هذه القوات لا علاقة لهم بها. كان الجميع قلقين ومتوترين.

لم يعد هناك أي عمل يقومون به. ولا يقدمونه للآخرين. في الوقت الذي كانوا فيه قد ضمدوا جراح الزلزال الكبير منذ وقت قصير.. كانت مصيبة كبيرة تنتظرهم.

كانت القاعدة التي بدأ الأمريكيون بإنشائها.. قد بدأت تتشكل أمامهم في ساعات الظهيرة وبالعيون المجردة. كان الناس يشاهدون بناء القاعدة بوجوه قلقة.. كان كل واحد يسأل الآخر.. كيف يحصل هذا الشيء.. كانت بعض الحرائق قد ظهرت هنا وهناك من القاعدة إثر هجوم عناصر الوحدات الخاصة التركية.

منذ أن قُذف مركز قيادة الجندرمة ووحداتها ومركز القوات الحديدية لم يكن أحد يعرف مكان تواجد قوت الجندرمة. ولكن عناصر الشرطة كانوا موجودين يدورون بسيارات مدنية. وهم أكثر المراقبين توتراً للقاعدة الأمريكية. كانت قوات الشرطة الحديدية ينتظرون بلباسهم الحربي وقد وصفّوا رصاصاتهم على جيوبهم. ولم يكونوا يخبرون أحداً بأماكنهم الجديدة لأحد. وكانوا يبتعدون عن بعضهم بعضاً بكل السبل والوسائل. كانوا مجبورين على فرض الأمن داخل المدينة وخارجها. وإذا ما جاءت القوات الأمريكية ما كانوا يعرفون ماذا سيفعلون ولا كانوا يفكرون. العمل الوحيد الذي كان في مقدورهم هو محاربة الأعداء.

في الوقت الذي كانت فيه شمس الظهيرة تلمع في السماء. كانت السحب السوداء تمر سريعاً وتحجب أشعتها. كان ثمة جماعة يجلسون أمام أحد المقاهي في

مركز المدينة.. يتحدثون عن الشيء الذي سيقومون به.

تحدث أحد الحرفيين وهو في متوسط العمر: "يقولون إن هؤلاء الأوغاد قليلو الشرف والناموس يقذفون كل منطقة تظهر المقاومة فيها يا عم فوزي".

لم يعد دكان هذا المتحدث موجوداً.. كان الجميع قد اشتروا منه كل شيء، ولكن المال الذي يملكه لم يكن يساوي شيئاً. كان قد خزّن بعض المأكولات له ولعائلته.. يُدبر حاله بهذه المواد. وبين وقت وآخر كانت قوات الشرطة توزع بعض المأكولات للشعب.

ولم يكن أحد يعرف من أين أتوا بها. ولكن كان الجميع واثقين بأنها من مستودعات: إحدى الوحدات العسكرية.

- "أنا شخصياً لم استغرب أبداً. كنت أعرف بأنهم سيفعلون بنا هذا الشيء."

كان في كلماته نوعٌ من اليأس والإحباط.

لم يكن العم فوزي في حالة تسمح له التفكير في كل شي. كان الرجل في الخامسة والستين من عمره. وكان قد عاش في حالة من الفقر المدقع عل الدوام. ولكن الشيء الذي يتفاخر فيه. هو أنه خدم الوطن في الحدود أكمل كلامه: "عندما كنت جندياً.. كنا نراقب الحدود كالنسر. عندما كان المهربون يحاولون اجتياز الحدود. والله كنا نرمي السيجارة التي أمام أنوفهم".

- "لا تقل هذا الكلام يا عم فوزي.. تغيَّر الآن كل شي".

كان المتداخل في الكلام رجلاً آخر غير ذاك الحرفي. كان وضعه مثل ذاك تماماً. وأضاف الرجل: "صعب علينا أن نجابه أسلحتهم.. انظر في الصباح لم يكن في هذا المكان شيء. أما الآن استقر فيه جيش عرمرم.

في الوقت الذي كانت فيه الساعات تمضي تباعاً.. كان الناس في كل مكان قد بدؤوا بمناقشة مثل هذه الأمور.. وفي كل الاجتماعات. من جانب كانوا يتحدثون عن كيفية الدفاع ومن جانب آخر: إذا جاؤوا حقيقة فكيف كانوا سيعيشون مع هؤلاء الأوغاد.. كان الشباب هم الأكثر تأثراً من هذه المناقشات. كانوا على علم ولو صغير بحقيقة هؤلاء.. وذلك من خلال الأفلام التي شاهدوها. ولكن هل كان بمقدورهم العيش معهم مع القيم التي تعلموها؟..

عندما جاءت ساعات المساء. تواجه سكان الأحياء بمشهد لن يصدقوه أبداً... كان ثمة /جيب/ عسكري قد لفَّ من أمام الزقاق وبدأ بالاقتراب منهم بسرعة. كان في داخل الجيب أربعة جنود أمريكيين. كان كل واحد منهم قد ركزَّ إلى جانبه سلاحاً من نوع /أوزفا/.. حاول جميع الجالسين أمام المقهى الدخول إلى الداخل.. لكن الصوت الصادر من الجيب عن طريق /مكبر الصوت/.. جعلهم يقفون في مكانهم وكان عليهم أن يفعلوا هذا الشيء.. تابع الجيب طريقه نحوهم بين صفين من الأبنية حتى وقف أمام المقهى. كانت هناك ساحة صغيرة، بسيطة.. مقابل المقهى.. وحوض صغير. ونزل الجنود وأسرعوا نحو الواقفين. الناس لم يلاحظوا شيئاً. ولكن هؤلاء الجنود الأربعة كانوا من خيرة القوات الخاصة الأمريكية. الشيء الذي فعلوه كان يُعد جنوناً بكل معنى الكلمة. ولكنهم كانوا قد أظهروا الشجاعة في هذا التصرف. يجب أن يكون ثمة عرض عضلات. وكيف كانوا يجدون الطاقة في أنفسهم للدخول إلى قلب مدينة لم تُحتل بعد؟

وإذا ما جاءت قوات الشرطة الآن؟ عندها ماذا كان سيحصل؟

في الوقت الذي كانت فيه هذه الأسئلة تتوارد في عقول الواقفين. وإذا بأحدهم يقترب منهم. وكان الثلاثة الآخرون يراقبون الأطراف بأسلحتهم.

سأل ذلك الجندي الذي كانت الثقة تملأ عينيه إذا كان يوجد بينهم شخص يعرف الإنكليزية. لم يكن أحد بينهم يعرف التحدث بها. ولكن كان أحدهم يفهم بعض الشيء. كان قد تعلمها خلال دورتين فتحها لهم المعمل الذي كان يعمل فيه. قال له الجندي بداية: "مرحباً" فأجابه الرجل بقدر معرفته. كان الجندي يتحدث بشكل بطيء وبالشكل الذي يقدر على إفهامه.. فقال له: إنهم ليسوا ضدهم في أي شيء. . أوصل الرجل هذا الكلام للآخرين. وإذا لم تظهر أية مقاومة فلن يلمسوا مدينة أزميت أبداً. وأنهم جاؤوا إلى هنا مخاطرين بحياتهم كي يوصلوا هذه الكلمات. لأنهم لم يجدوا طريقة أخرى للتواصل معهم. كان الجميع يحاولون معرفة الذي حصل. ولم يكونوا يعرفون ماذا سيقولون لهؤلاء الجنود الذين يحملون أسلحة ثقيلة. سكتوا فقط وهزوا رؤوسهم. بقي الجنود هناك بضع دقائق فقط.

وعندما همّوا بركوب عربتهم. سُمع صوت طلقة واحدة. وإذا بأحد الجنود

الأمريكيين.. يهوى على الأرض بقوة.. أما الآخرون تمددوا تحت السيارة.. بدأت الطلقات تنهمر فوقهم. وسكان الحي رموا أنفسهم بصعوبة داخل المقهى. كان الجنود الأمريكيون يقولون لبعضهم كلمات دون أمل. عندما رفع الموجودون داخل المقهى رؤوسهم عن الأرض. شاهدوا في طرف الشارع مجموعة من الجنود الأتراك من الكوماندو كانوا عراة من الأعلى ويطلقون النار كالمجانين.

لم يكن أي أمل بالنسبة للجنود الأمريكيين في تلك اللحظة. كان الكوماندو الأتراك مملوئين بحب الانتقام لزملائهم.

بعد دقيقة واحدة انفجر صاروخ وأنهى المعركة. كان الجنود الأمريكيون قد ماتوا. أسرع الجنود الأتراك ووقفوا على رأس الجنود الأمريكيين.. كانت ثيابهم ملطخةً بالسواد والشحار.

ودخل من بينهم واحد، يجب أن يكون قائدهم، إلى المقهى. عندما رأوه ابتسموا ابتسامة ممزوجة بالخوف.. كان القائد غاضباً..

- "لماذا لم تجابهوهم؟"

لم يتحدث أحد من الموجودين.

- "إنهم يضعون لكل واحد منكم وفي داخل وطنكم أموراً سلبية.. ولا يخرج من أي واحد منكم صوت أو رد فعل لو رأيت الجميع هنا قتلى لسعدت أكثر.."

وأغلق الباب بقوة وخرج والتحق مع بقية الجنود وابتعدوا عن المكان..

كان رواد المقهى قد عادوا إلى وعيهم.

كانت العملية تتراءى وكأنها تتقدم أكثر من كل التوقعات. وكأن ثمة سباقاً قد بدأ للوصول إلى إستانبول. وبهذا الشكل يستطيعون الانتقام لواشنطن. في الوقت الذي كانت فيه القوات الأمريكية تريد البدء بحرب إستانبول. كانت الوحدات التركية تؤخرها بكل السبل والوسائل.

كانت بعض الوحدات التركية الجاهزة للقتال، والمسلحون المدنيون يتحركون داخل الطرق وبشكل خطر. حيث يعرضون أنفسهم للمخاطر.. يريدون الدخول إلى إستانبول قبل بدء الغارات الجوية والهجوم العام - حتى يركزوا أنفسهم في أماكن تحميهم من الغارات والقنابل والصواريخ.

في هذه الأثناء. كانت القوات البحرية الأمريكية قد حركت وحدتين من المشاة البحرية وهما الـ ١٥ و ٢٦.. بوساطة سفينتين. كي تُسهلا من السيطرة على المدينة. كانت السفينتان على وشك الوصول إلى بوغاز جنق قلعة. وكانت القوات الجوية الأمريكية قد بدأت قذف البوغاز. كانت تريد مرور السفينتين بأمان وسلام. كانت الانفجارات قد بدأت تسمع في تلك المنطقة أي /جنق قلعة/ بعد مرور تسعين عاماً من حرب جنق قلعة المشهورة.. في الوقت الذي بدأت فيه السفن بالاقتراب من البوغاز.. كانت التربة قد بدأت تسخن.

كان الجنود المتخذون على طرف البوغاز لا يقدرون الوقوف على أرجلهم مع شدة سخونة التربة تحت أقدامهم. وبما أنهم كانوا لا يعرفون لمن سيقولون أو يوصلون مصيبتهم. فإنهم خرجوا من الخنادق فقط هرباً من الحرارة.. في الوقت الذي كانت فيه السفينتان تمران من البوغاز.. كان ثمة إحساس غريب قد بدأ يضغط في أعماق البشر وقلوبهم. أما قاطنو المدن المجاورة كانوا يحسون بأن ثمة كابوساً أسود يضغط فوق رؤوسهم. لأنهم كانوا لا يعرفون ما الذي يحصل. كان البوغاز يتراءى وكأنه أقل حماية من أيام الحرب العالمية الأولى. كان الجنود الذين تركوا خنادقهم قد بدؤوا بالتراجع نحو الخلف رويداً.. رويداً. لم يكونوا يستطيعون تفسير الذي يحصل ازدياد درجة الحرارة تحتهم.. بعضهم كان يفكر بأن ثمة زلزالاً سيحصل. وبعضهم كان يفكر بأن القيامة ستقوم. أما القذف الأميركي لم يكن يتوقف أبداً. وكأن التلال والهضاب الموجودة على أطراف القناة المائي قد بدأت تُغير أشكالها. حتى بطاريات المدافع القديمة. لم يكن قد بقي أحد من الناس لحماية البوغاز. وعندما تم توصيل هذه الأخبار إلى رئيس الأركان.. كان حكمت باشا قد قفز من مكانه غاضباً.. ولكنه لم يكن يفعل أي شيء. لأن الجنود كانوا لا يبقون داخل الخنادق.. وكأنها مملوءة بأشياء مجهولة.

٢ حزيران ٢٠٠٧ . الساعة ١٤،١٥

فلوريدا . CENCOM

كان ميامي قد صارت العاصمة الجديدة للولايات المتحدة الأمريكية.

كان الرئيس ورئيس الأركان يديرون العملية من هنا. كان الموظفون الجدد يعينون هنا.

كان شعب الولايات المتحدة الأمريكية يعيش جو الحرب التي وصلت إلى سواحله ولأول مرة بعد علمية /بيرل هاربور/ وكان صوت المعارضة قد بدأ يخرج بقوة.. وذلك الإرهابي التركي لم يتم إلقاء القبض عليه بعد. وإذا ما تم انفجار قنبلة نووية أخرى في نيويورك لطلعت الخسائر بتريليونات الدولارات. والحقيقة كانت المحطات التلفازية قد ذكرت بأنه تم السيطرة على القنبلة الثانية أثناء الغارة للقبض على الإرهابي التركي.. ولكن الأكثرية لم يكونوا يصدقون ذلك..

كان الشعب يهرب من المدينة وهو في حالة توتر شديد. هذه العملية كانت قد بدأت تشكل أزمة /وكابوساً/ كبيراً بالنسبة للاقتصاد الأمريكي.

كان احتمال انفجار القنبلة الثانية في نيويورك. وكأنها ستلحق بالولايات المتحدة الأمريكية خسائر فادحة أكثر من فناء مدينة واشنطن نفسها. لأن تلك القنبلة كانت قد خلقت في رؤوس الناس خوفاً لا يجاريه أي خوف على الإطلاق. لأن تلك الدنيا الفانية قد صلت أمام أبوابهم تماماً.

عندما فنيت واشنطن كانت قاعدة تنظيم الولايات قد أظهرت إيجابيتها.

لأن جميع الولايات كانت تدير نفسها بنفسها. وكأن كل الأمور ستكون على ما يرام حتى يتم تشكيل البيروقراطيين الجدد.

كان رئيس الأركان هوارد ستريك يتعجب من الأضرار والخسائر التي سببها شخص واحد. تركي واحد كان قد حصل على بعض المعلومات عن هذه العملية. وهذا الشخص كان على وشك أن يقضي على دولة جبارة هي القطب الوحيد في

هذا العالم وسيجعل نهايتها وخيمة.

كان قد شاهد مشهد الغارة لإلقاء القبض عليه - لمرات كثيرة. لم يكن قد صدّق نفسه من حركات الرجل وتصرفاته داخل ذلك الكوريدور الضيق وأمام عشرات من الأعداء. كل حركاته المسلسلة كانت قد أنجبت الموت باضطراد.

قال في نفسه وهو يلقي نظرة إلى الخريطة: "أتمنى أن يكون ذلك الرجل القذر مرمياً في حفرة وميتاً".

كانت تُعاش ساعات انفعالية شديدة من كثرة المعلومات التي كانت تنهمر على مركز القيادة. كان ضباط العمليات جالسين حول حواسيب ذوات شاشات كبيرة في غرفة القيادة.. ينتقون الأخبار الواردة ويُصنفونها ويقدمونها للضباط الكبار. كان هذا اليوم يوماً مختلفاً. كان الضباط يفتشون عن الأخبار وينتقون منها الصحيحة أو الخاطئة ويتعبون كثيراً في ذلك.

كان هوارد ستريك لم يتحرك من على الطاولة منذ سبع عشرة ساعة ونيف.

كان أمامه مئات الأشياء والأخبار التي تجب أن يهتم بها. كانت فرقة الإنزال الجوي ٨٢ تتابع إنزالها على أزميت وضواحيها. وأية حركة معاكسة خارج إرادتهم في تخفيف أو تبطيء عملية الإنزال. كانت ستؤدي إلى تأخير الهجوم على إستانبول. كان يقرأ التقارير الواردة من /ازميت/ حتى أدق تفاصيلها.

كان الوضع يتراءى مضطرباً وبسبب المعارك الشديدة.. ربما كانوا لا يستطيعون استعمال الفرقة ٨٢ بكل طاقتها.

وكان عليه تعقب متابعة مسيرة الفرقة الرابعة للمشاة وانتقالها.

وبما أن الفرقة مجهزة بأحدث الوسائل الاتصالاتية الديجيتالية. كان عليه متابعة أخبار كل دبابة على حدة. وطريقة سيرها وحركتها ومعاناتها. كان كل ذلك مهماً بالنسبة إليه. في مثل هذه العملية المعقدة والكبيرة كان على كل ضابط وقائد أن يكون جزءاً من هذه العملية.

حتى هوارد ستريك نفسه كان يجد حركتهم هذه نوعاً من الجنون ليس إلا. وكل جندي نال تدريباً كلاسيكياً.. كان عليه أن يفكر هكذا.

فرقة مدرعة كبيرة تتقدم نحو الأمام وداخل الأراضي المعادية التي لم يلمسها

أحد بعد. ولا يحميها شيء سوى القوات الجوية. وحقيقة الأمر كانت هذه الفرقة تجبر نفسها للدخول في معارك مع بعض الوحدات التركية المنتشرة.

وكانت عدد الهجمات قد وصلت إلى أربعمئة وخمس وعشرين هجمة منذ خروجهم من أنقرة. هذه الهجمات نفذت من قبل الفرقة الثالثة المدرعة.

والفرقة الرابعة الميكانيكية للمشاة هي التي كانت قد ردت كل هذه الهجمات. وخسائرهم حتى الآن كانت كبيرة جداً.. وكان هذا السؤال يتشكل في ذهنه على الدوام. ماذا كان سيحصل عندما تبدأ حرب إستانبول؟ بعض الأحيان كان يجد نفسه يدعو الله: "ماذا يحصل يا إلهي لو كانت مثل عملية بغداد دون مقاومة".

كان الجيش التركي قد ردّ بشكل شديد.. كانت قابلية المناورة عندهم قليلة وصغيرة تحت تأثير الهجمة المفاجئة. إلا أنهم كانوا ما زالوا يشكلون خطراً عليهم. وهم حريصون جداً وسريعون لإنزال الهزيمة في كل لحظة بالأمريكيين. كانت الوحدات الكبيرة قد ضيعت كثيراً من عددها وسرعتها وقابليتها للحرب بعد أن ضُربت بقوة بوساطة القوات الجوية الأمريكية. كانت القوات الجوية تضرب كل عربة تتحرك ما بين المدن.. وبهذا الشكل تكون قد قطعت كل الإمدادات والتموين عن كل الوحدات المتحركة والمتمركزة. كان الجيش التركي قد انقسم إلى مئات من الكتائب المشاة.. تحارب حرب العصابات بأقصى قوتها وشدتها.

وتحو ل كل مكان داخل الوطن إلى حقل للموت.

كان هوارد ستريك وبقية الضباط المخططين يعرفون أن الجيش يستطيع أن يخلق فوقهم نوعاً من التأثير السلبي وهم يقومون بتطبيق ما طلب منهم. كان الجيش الأمريكي ضعيفاً أمام الهجمات الإرهابية. لعدم وصول الإمدادات إليه. ولا يستطيعون الوقوف أمام أية حركة شعبية عارمة. وإذا ما أخرج الأتراك العربات المدرعة التي ستروها.. سيقومون بالإغارة والقضاء عليها.. حتى المداخلات من الدول الأخرى. كان قليلة ولا خطوة لها. كان كل شيء يمضي قدماً كما خطط له. ولكن إذا ما سقطت إستانبول. عندها تكون المشكلة قد حُلت لأنها مكان

العقدة تماماً. وبعد ذلك سيكون للخسائر التي قدمت معنى خاص.

كانت الضغوطات تنهال على هوارد ستريك من الجهات العسكرية.. كان على الجيش الأمريكي احتلال الأراضي التركية بكل طاقته وقوته. كي تُسهل من عملية السيطرة على إستانبول. وربما لا تبقى حاجة للحرب بعد ذلك. ولكن كان عليه الوقوف في وجه هذه الضغوطات.

إذا قام باحتلال الأراضي التركية بأكملها.. يواجه بمقاومة عنيفة. لم يكونوا يعرفون ماهية هذا الشيء. ولكن الشيء الوحيد الذي كانوا يعرفونه: أن التاريخ كان يقول لهم إن هذه الأراضي ليست وحيدة ودون صاحب ومدافع.

فُتح باب ستريك دون أن يُطرق. عندما رفع القائد رأسه. كان الرئيس قد دخل الغرفة وثمة إفادات ذات معانٍ كثيرة مزروعة على وجهه كما هي العادة. لم يكن قد ضحك منذ ذلك العرض التلفازي. ولكنه كان قد جمع نفسه وشخصه بسرعة. لم يكن يبقى في /CENTCOM/ كما كانت العادة في بداية الحرب. كان يمر إليها بين وقت وآخر ويأخذ المعلومات الواردة والضرورية. كانت العملية بالنسبة إليه ناجحة في مرحلتها الأولى. وكان عليه أن يضغط على الزر إيذاناً لبدء المرحلة الثانية من العملية.

"كيف الحال يا هوارد؟".

هذا السؤال وصل للعسكري المحترف وكأنه نوع من السخرية أو المزاح.

- "شكراً يا سيدي الرئيس.. أنا في حالة جيدة جداً".

كان بمقدوره الإجابة بكلمات أكثر فظاظة وثقلاً. لم يكن لها أية ضرورة. كان هوارد ستريك عسكرياً محترفاً.

- "هوارد.. أريد أن تبدأ عملية /سيفر/ لقد انحل نظام الأتراك. وليس بمقدور أية قوة أن توقف حقوق طلاب تلك الأراضي .

كان الرئيس قد جلس حول طاولة الاجتماع. يدقق الأوراق التي وجدها هناك. وكانت مساعدته /كيتي/ قد جلست على الكرسي المجاور له. كانت تهز رأسها إلى كل تعليق يصدر من الرئيس. رفع الرئيس رأسه لوهلة عن الأوراق ونظر إلى هوارد ستريك وقال له:

- "لا يكون لك أي تفكير يا هورد سننهي هذا العمل".

هزَّ العسكري الخبير رأسه وقال: "أنت على حق يا سيدي. نستطيع أن نبدأ المرحلة الثانية.. في كل الأحوال سنحتل إستانبول.. الآن الدور عندك. وأعتقد بأن الانفصاليين الموجودين في داخل تركيا واليونانيين القبرصيين سيتحركون. إذا طلبت منهم التحرك".

- "وكيف الوضع في قبرص".

- "القوات التركية تتعرض لهجمات شديدة ومكثفة ومنذ أيام طويلة. وماذا ننتظر أن يكونوا وقد جمعوا في مساحة ضيقة.. الجو بالنسبة إليهم.. ليس إلا مصيبة وبلاء".

- "وهل ينجح الجيش الرومي اليوناني في قبرص؟".

"هم مجبورون على النجاح. لقد اشتروا أسلحةً كثيرة. أما إذا كانوا لا يعرفون استعمالها. معناه لا نستطيع أن نقدم لهم أي شيء.

- أنا لا أستطيع أن أضع فرقة من المشاة البحرية مكتوفة الأيدي من أجل تلك الجزيرة".

- "يقولون إن ثمة تطورات كثيرة تحصل يا هوارد. وأن محادثات كبيرة تحصل بين روسيا وألمانيا وفرنسا والصين. وأن ثلاث فرق دبابات روسية قد تأهبت أقصى درجات التأهب.. وتركت مقراتها. والتقارير الواردة إليَّ من الـ CIA وصور الأقمار الاصطناعية تؤكد هذا الأمر".

- "إذا كان ما تقولونه صحيحاً يا سيدي الرئيس فهذا يعني: إننا سننتظر ضيفاً جديداً".

كان هوارد ستريك قد احتار في أمره أمام هذه المعلومة الجديدة. ولكن وبما أن نتيجة هذه العملية غير معروفة سلفاً فيمكن توقع مثل هذه التطورات.

ضرب الرئيس يديه بقوة فوق الطاولة وقال: "يا إلهي. لا أتمنى أن أقابل الروس الأقذار ثانية. ولكن كما تعرف. إن طلبهم لمنطقة /قارس/ وأردهان/ مازال جارياً حتى الآن."

كان الرئيس واثقاً من نفسه وهو يقول هذه الكلمات. وإذا أراد كان بمقدوره إيقاف الروس عند حدهم، ولكن لم يكن هناك أية ضرورة لذلك. حتى دخولهم إلى هناك يكون فيه فائدة لهم. لأنهم يساعدونهم في إتمام بقية الخطوات وتنظف المنطقة من الجنود الأتراك المنتشرين في كل مكان.

- "أنا شخصياً كنت أحبذ دخول الأرمن إلى تلك المنطقة. لأن الروس ربما يخربون علينا عملنا ويقلبون كل شيء رأساً على عقب.

- "ولكن إذا ما تحركت فرق الدبابات الروسية. ربما نضطر إلى ترك منطقة /فارس/ لهم. وأظن أن الأرمن لن يقولوا شيئاً عن ذلك".

تحدث الرئيس بصوت غطته الغشاوة: "حتى الآن لم يخرج أي صوت من الأكراد".

كانت في نظراته ثمة مقاومة. وهذا ما كان يظهر تفكيره بشيء مهم. وأضاف: ستتجح أم لا. على الأقل أريدهم أن يفكروا بهذا الشيء".

وللحظة واحدة ضرب يده بقوة فوق الطاولة ثم أردف: "ستستغرب لما سأقوله لك الآن. اتصل معي رئيس الوزراء اليوناني وطلب مني ألا تنزل بـ /دوقيا التاريخية/ أية خسائر أثناء الهجوم على إستانبول".

كان الرئيس قد غضب تماماً ثم أردف: "هل تستطيع أن تتصور بأن رئيس الوزراء اليوناني يحذرني".

و غادر الغرفة بسرعة تحت نظرات هوارد ستريك القلقة. إذا ما دامت هذه الحرب إلى فترة طويلة.. لتحرك الرأي العالمي والدولي.. وتلخبطت كل الأمور. كانت إستانبول عالقة أمام نظر الجميع.. لا تهرب منها الأنظار والعيون أكثر من اللازم.

تحولت عيناه لوهلة إلى التلفاز.. كانت ثمة ذيول طويلة من السيارات تُعرض على الشاشة.. كان هؤلاء الهاربون من نيويورك. فكّر هوارد ستريك للحظة بالأشياء التي ستأتي بها هذه الحرب من غنائم وانتصارات. هل ستكون الأرباح موازية لهذه الخسائر التي تقدر /بألف تريليون/؟.

كانت نيويورك هي القلب النابض لاقتصاد هذا البلد. أية علة تظهر عليها. كانت ستؤدي إلى انتكاسات متتالية في عموم جسده. كانت ستغلق آلاف المحلات والدكاكين الصغيرة والكبيرة. ويبقى أناس كثيرون عاطلون عن العمل.

٢حزيران ٢٠٠٧. الساعة ١٨,٠٠

. صالون المؤتمر الصحفي لـ CENTCOM .

دخل هوارد ستريك إلى صالون الاجتماعات بخطوات سريعة ووقف أمام الميكروفونات التي كانت قد صُفت فوق منصة قليلة الارتفاع إلى حدٍ ما.

وبعد أن وضع الأوراق التي كان يحملها. حوَّل نظراته نحو الصحفيين الذين كانوا يملؤون الكراسي بين لمعات فلاشات الكاميرات وأضوائها. وبعد أن نظّف حنجرته وغيَّر نبرات صوته. قال مخاطباً الصحفيين.

- "السادة الصحفيون الأعزاء - كما تعلمون - إن الإرهابي التركي لم يتم إلقاء القبض عليه بعد. ولكن سيطرنا على القنبلة النووية الثانية لم يعد هناك أي خطر محدق لمدينة نيويورك بعد الآن.

والحراس الوطنيون يقومون الآن على إقامة وتأمين الجو النظامي العام للمدينة وإعادة ضخ روح الحركة والاقتصاد فيها. وستعود الحياة الطبيعية إليها في أقرب وقت. أما لو عدنا إلى الحرب بعد قليل ستكونون وجهاً لوجه مع قيادات الوحدات الموجودة في داخل الأراضي التركية. وستكون المقابلة على شكل /فيديو كونفرس/ وأعتقد أننا لن نتعرض لأية انقطاعات سوى التأخير الحاصل من الأقمار الاصطناعية".

في هذه الأثناء تماماً ظهرت ثمة تقطيعات وانقطاعات على الشاشة البيضاء الموجودة خلف المنصة. كانت الأصوات تسمع ولكن المشاهد لم تكن قد ظهرت بعد.

"وأظن أن صاحب هذا الصوت الذي نسمعه هو للجنرال /هارولد فلين/".

كلمات هوارد ستريك هذه فتحت أبواباً للضحك بين الموجودين داخل الصالون.

- "هوارد هل أنت المتحدث؟"

خرجت ثمة ضحكات للمرة الثانية.

كان المشهد قد ظهر على الشاشة بعد عدة ثوانٍ.. كانت الصور تأتي جامدة بين وقت وآخر. ولكن الصوت يصل بشكل نظامي. كان الجنرال /هارولد فلين/ قائد الفرقة الميكانيكية الرابعة للمشاة يشترك بالنقاش من داخل إحدى العربات المدرعة التابعة للفرقة. كان الجنرال يظهر مرهقاً وفي الوقت نفسه يتراءى ديناميكياً. كانت ثمة إفادة مظلمة في وجهه. كان قسمٌ من جبهته يظهر مفرّغاً لأنه كان قد حلق شعر راسه بشكل خفيف جداً. ومع هذا كان شعره لم يتساقط كلياً. ومع إنه كان في نهاية الأربعينات من عمره. كان يعطي انطباعاً بأنه عسكري في ريعان شبابه. جاهز للمعركة أو الحرب في كل لحظة. أمّا الذين كانوا يجلسون معه داخل دبابته. كانت نظارتهم توحي بأنهم يشتركون في البث المباشر من السماء. اما إذا تم النظر في شروط وضعهم.. فهم كانوا محقين في نظراتهم هذه وعبراتهم.

قال هوارد ستريك متوجهاً نحو الصحفيين: " نعم الآن نرجو من السيد /فلين/ أن يعرفنا على نفسه ويجيب على أسئلتنا التي نود طرحها له.

ضحك /هارولد فلين/ وقال: "سأجرب يا هوارد. ولكن عندما أتذكر الصحفيين. يجب أن اقول مخمناً بأن وجودي امامهم أصعب عليَّ كثيراً من التقدم في الأراضي التركية".

خرجت ثمة ضحكات أخرى وا؟؟؟

- "أريد أن أرحب بكل المشاركين في هذا المؤتمر الصحفي. نحن الآن داخل حدود ما يسمى منطقة /مرمرة/ في داخل الأراضي التركية وعناصر الفُرقة في حالة حركة مستمرة. وإذا جئنا إلى الحقيقة والواقع أجبرنا على إقامة هذا الاجتماع أو المؤتمر الصحفي".

تضاربت الضحكات في عموم أرجاء الصالة واختلطت الأصوات ببعضها.

- "قبل كل شيء أحب أنا اقول لكم وأوكد بأنني أحس بالفخر والاعتزاز لأنني قائد هؤلاء الجنود الأبطال الذين أُرسلوا لأداء مهمة وطنية شريفة وفي ظروف صعبة جداً. منذ خروجنا من أنقرة وإلى هنا دخلنا في عدد كبير من المعارك الطاحنة. ولم نستطع التقدم إلا بسرعة طول رمح أمام جيش قوي يدافع عن هذه

التربة.. ومنينا بالكثير من الخسائر. ولكنها لم تستطع إيقافنا (أي الخسائر).. تكنولوجيتنا على أكمل وجه.

وفي كل معركة تخلصنا من مواقف صعبة. وطبعاً تنزل المزيد من الخسائر للعدو.

حتى الآن تقابلنا مع مقاومة شديدة ولكن الجيش التركي / مضعضع/ مفكك الأوصال إلى حد كبير. آخر مرة تقابلنا مع كتيبة ميكانيكية متخندقة تخندقاً رائعاً. وتم القضاء على هذه الكتيبة بشكل كامل بالدبابات والمروحيات إلى جانب الدعم الجوي الكامل. أثناء المعركة استعملنا أجود وآخر أنواع التكنولوجيا المتوفرة لدينا. واستطعنا السيطرة على وحداتنا المقابلة من مسافات بعيدة. ولكن منينا ببعض الخسائر من جراء القذف المدفعي التركي الثقيل الذي طالنا ومن مسافة بعيدة جداً.

نحن كفرقة مشاة رابعة.. نطبق ونتقدم بسرعة كل ما هو مطلوب منا وأنا واثق بأن جنودي سيقومون بإنهاء هذه العملية.. وبما أن الشعب التركي منظم وبارع ومنتظم فسنعمل بكل شيء نستطيع القيام به.. نعم الآن استطيع الإجابة عن أسئلتكم ولكن أسرعوا بعض الشيء لأننا مقدمون على بعض الأعمال التي نود إنهاءها".

سُمعت ضحكات من داخل الصالون.

- "أنا روجر بينمورا من BBC. كما هو معلوم أن الجيش التركي يعد من طراز جيوش حلف الناتو.. والسؤال هل نجاحكم في الوقت نفسه يعد فشلاً من الزاوية الأوروبية؟".

- "إن الطراز والماهية الأمريكية مفتوح دائماً للأصدقاء وأظن أن الذين سيطبقون هذا الشيء لن يجدوا أية مشكلة أمامهم".

- "هل أنت واثق من نفسك يا سيد/ميزو/ بأنك لست صحفياً تركياً؟"

اختنق الصالون ثانية بالقهقهات.

- "من المستحيل أن أُجيب عن هذا السؤال. ولكن اجتزنا منطقة /أسكي شهير/ ومرورنا هذا لم يكن إيجابياً بالنسبة لأسكي شهير.. لقد هجموا علينا

عدة مرات. وبما أننا قابلنا الهجمات بأقوى منها فقد شهدنا تهدم بنايات كثيرة جداً. ما زال القتال دائراً في تلك المنطقة حتى هذه اللحظة".

- "يعني هل تم احتلال المدينة من قبلكم؟".

- "لا.. لا نستطيع أن نقول هذا. لقد كشفنا عن أماكن خروج النيران وتم تخريب تلك النقاط فقط.

- "كيف كانت نوعية هذه الهجمات؟"

- "هجمات بكل الأسلحة الثقيلة تقريباً. بعض الأحيان تداخلت العربات المدرعة ببعضها. وتم القضاء عليها كلها. ونحن خسرنا عشرين دبابة في هذه المناوشات. ولكن كل هذه الخسائر طبيعية. لأننا نقابل جيشاً نظامياً وقوياً بكل معنى الكلمة. إنهم يحاربون بشكل ممتاز.. ولا أستطيع أن أذكر أنني معجب بهم كثيراً. ولكن كما قلت. لا أستطيع أن أعطي لكم أرقاماً عن الخسائر البشرية في مدينة /أسكي شهير/".

- "أنا جون غوشيون/ يا سيدي الجنرال من CNN.. هل عندكم القوة اللازمة كي تحتلوا إستانبول التي هي هدفكم التالي؟"

مع طرح هذا السؤال تماماً... تركزت نظرات الجنرال المجنونة نحو الكاميرا.. وبقي عدة ثواني هكذا. وكأن ثمة ستارة قد غطت عينيه وهو يشاهد الأشياء من خلالها.

احتار الصحفيون من موقفه هذا.

- "هل ترغب أن أطرح عليكم السؤال ثانية يا جنرال؟"

عاد هارولد فلين إلى وعيه وقال: "لا.. لا. جواب هذا السؤال سنأخذه بعد قليل. أظن يجب أن أعود إلى راس عملي.. لقد وصلتني بعض الأخبار بأن جنودنا في مقدمة الخطوط يشتبكون مع الأتراك.

يجب أن أكون قريباً منهم كي أعطيهم الأوامر والتعليمات."

قال هوارد ستريك ملتفتاً نحو الصحفيين: "نعم. أيها السادة الصحفيون إننا ننهي نقلنا. ونعطي الأمر إلى القائد كي يعود إلى راس عمله".

في هذه الأثناء كانت صورة الجنرال موجودة على الشاشة. ونظراته كانت

مركزة على الكاميرا. كل الموجودين هناك ظنوا بأن هذا الجمود في الشاشة حصل من جريان الصور عبر الأقمار الاصطناعية.

٣حزيران. وقت الظهيرة.

إستانبول. تارلاباشي.

اجتماع السناسر (جمع سنسار ـ الدلق)

كانت مئات العيون القلقة والعازمة تنظر إليه.كان متعوداً على هذا الشيء. ولكن مع تذكرة لاقتراب الوقت. كان لا يستطيع الضغط على انفعاله.

كانت كل الأشياء قد تطورت وبشكل سريع جداً بالنسبة لأمل. كانت قد قررت مرافقة ذلك الرجل الذي ساعدها بعد الانفجار الهائل الذي حصل في شارع الاستقلال ومن ثمَّ بدأ يترأس فصيلاً مدنياً من المقاومين.. كانت قد بدأت تشعر نحوه بحب خلال وقت قصير. ولكن المهمة الوطنية كانت أكبر منهما.

بحيث كانت لا تستطيع أن تعطي من وقتها الشيء القليل لهذا الحب.. بعض الأحيان كانا يقبضان على نظرات بعضهما.. وتكون ذروة الحب عندها في تلك اللحظة.

إذا نجحوا في المقاومة... ربما يكون لهما بعض المستقبل. ربما...

كانوا يحاولون عقد مظاهرة مدنية كبيرة /ميتنغ/ كما فعلوا في إستانبول بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. عندما كانت محتلة.

"أحس بالاعتزاز بكم. "كان صوت أمل يرتجف من الانفعال الشديد، يصير رفيعاً ثم يغلظ.. كان مئات الشباب قد تجمعوا بين أنقاض حي /تارلاباشي/ وهم ملتصقون بأسلحتهم.

- "لا يستطيع أي واحد منا أن يعطي ولو تفسيراً واحداً حول ما حصل لنا. لقد تقابلنا بأشياء كثيرة حتى لم نتخيلها أبداً. ولكن الذي حصل قد حصل. وأكثر من هذا حصل الذي كنا نقول عنه لن يحصل لنا أبداً. نحن الآن مقابل الحقيقة الباردة التي تسطو على رؤوسنا".

- "ربما نحن الجماعة المدنية المدافعة الوحيدة، نحن إستانبول ونحن جميعاً في

حالة صعبة جداً.. أيام طويلة لم نذق فيها طعم النوم.. وفقدنا الكثير من أهلنا وأقربائنا. ولكن كان علينا أن نقوم بذلك. وربما نحن الذين سنكون المؤهلين لأنفسنا ذاتها".

- "اعتنوا بأنفسكم جيداً.. من نكون ومن نحن وماذا سنفعل؟ انظر إلى أطرافي..تحوّل جهود مئات السنوات إلى ما يشبه الرماد. وكلما طال أمد الحرب سيفنى كل ما استثمرناه.. وسيدوم النزيف على الدوام. وإذا ما جاء يوم وانتصرنا في هذه المعركة لا ندري ما الذي سنفعله.

مع إن هذا اليوم مختلف عن الأيام الأخرى.. نحن الآن معاً كي نبقى على قيد الحياة.. فكرٌ أشخاص بالوقوف إلى جانبنا في هذه المعركة. وتشجّعوا على ذلك.. طيب ونحن ماذا نستطيع أن نفعل غير الحرب وتقديم الموت لأنفسنا؟".

اختنق صوتها.. كانت الجمل تصل إلى فمها وتتوقف.. تقابلت نظراتها مع نظرات فرحات الذي كان يقف قريباً منها ويستمع إلى خطابها.. كان فمها قد جفّ. كان الشباب المبللون قد طرحوا أنفسهم بين قطع الحديد والخشب يستمعون إليها. في الوقت الذي كانت فيه أمل تنظر إليهم كانت تفكر بالذي ستفعله بعد قليل.. ماذا كان سيصير حالهم بعد فترة قصيرة؟ من كان سيموت ومن سيبقى على قيد الحياة؟ أحس بفرحٍ ربما كانت تحس به.. ولكنه لم يتدخل. كانت لحظة صعبة، إذا لم يقف إلى جانبها سوف تتلاشى الثقة من نفوس الشباب بالنسبة لأمل. شُدَّ جسد أمل. وقالت:

- "أنا جاهزة للموت عند الضرورة في مثل هذا اليوم الصعب. وأطلب منكم أن تكونوا معي. الذي يريد الذهاب معي ليتقدم خطوة إلى الأمام والذي يريد الذهاب في حال سبيله ليذهب. اختاروا بأنفسكم."

بدأ الشباب بالتقدم اثنان اثنان ثلاثة ـ ثلاثة نحو الأمام.. وبعضهم بقي وكأنه لم يقرر. ولكن لم يكن أحد ينتظر أن يحوّل الشباب خلال يوم واحد إلى محاربين. في الوقت الذي كانوا يعيشون فيه حياتهم الطبيعية حتى الأمس.

- "نحن موجودون باختيارنا. ولا نتراجع قيد أنملة عنها. وكل من يريد أن يقول شيئاً، فإن عندنا الجواب القاسي."

كان صوتها يرتفع باضطراد. والسناسر الذين كانوا يستمعون إليها كانوا ينفعلون. وكأن نبضات قلوبهم قد بدأت بالتسارع.

- "بمقدور الأمريكيين خداع العالم كله.. ولكنهم لن يقدروا على خداعنا أبداً نحن كشعب تركي نريد أن نحافظ على قيمنا الراسخة لتبقى رؤوسنا مرفوعة على الدوام."

بدأ السناسر الذين تقدموا نحو الأمام بالصراخ. وكانت وجوههم مزروعة بالفرح والغرور.. وآلاف الأشخاص الذين مدُّوا رؤوسهم من النوافذ كانوا يصفقون لهم.

٣ حزيران ٢٠٠٧

عربة الكونترول الأرضية. مكان مجهول

كانت ثمة مشاهد مختلفة تظهر على كل الأجهزة الموجودة داخل عربة الكونترول الأرضية لـ TV الموجودة في نقطة غير معروفة. كان الصمت يسيطر داخلها. كانت ثمة أصوات /إلكتروماناتيكية/ قد ملأت الجو فقط، كان المعنيون في أمر الأجهزة التلفازية المتعددة الموجودة داخل العربة.

يتعقبون الصور الظاهرة عبر الشاشات ويختارون منها الصور التي تعجبهم ويرسلونها عبر الأقمار الاصطناعية إلى مركز القيادة في العراق ومنها إلى الـ /CENTCOM/.

كان المعني الرئيسي بالأمر يزداد فضوله عن تصور الموجودين في المركز وطريقة تفكيرهم لأنه كان يتعقب هذه السلسلة من الصور... كانت إحدى الطائرات التجسسية الصغيرة من طراز /هواك/.. دون طيار تظهر على الشاشة. وبين وقت وآخر كانت الكاميرا تأخذ وضعية /زوم/ حيث كانت الصور تظهر بشكل كامل.. كانت المشاهد المأخوذة عن طريق كاميرة تلك الطائرة تظهر الناس المجتمعين في /ساحة التقسيم/. أكبر مساحة مشهورة في إستانبول/.

كانوا يأتون إلى الساحة عبر الجهات الأربع.

أشكال وألوان من البشر. صغيرهم وكبيرهم.. يسارهم ويمينهم الداعون إلى السلام والمطالبون بالحرب.. والقوميون المتطرفون. حتى مشجعو النوادي الثلاثة الكبيرة بأعلامهم /وفورماتهم/ كانت المباريات الأخيرة ومن الأسبوع الأخير للدوري التركي قد تم إبطالها وجميعهم كانوا يقدمون اعتراضهم وتنديدهم للأمريكيين عن طريق الإعلام. حتى أن بعضهم كان يحمل الأزهار من أجل السلام.

حتى لو لم تكن المشاهد واضحة وجلية بكل تفاصيلها إلاّ أن هذه المجموعة

يجب أن تكون منفعلة وأكثر حركة. اقتربت الصورة أكثر على الشاشة.

كان بعضهم يتراءى وهو يحمل السلاح.. داخل هذه المجموعة.

نقل المعني بالمشاهد هذه الصور الانفعالية إلى مركز القيادة في بغداد هذه المشاهد المرسلة المصورة عبر الفيديو.. هي التي خلقت نوعاً من الانفعال.

كان بمقدور المرء أن يسمعها عبر خطوط الاتصالات. لأنهم كانوا قد التقطوا صوراً لمجموعة من المقاومين الجديين وهم في حالة من الاجتماع العام حيث بدأت حركة سريعة في مركز القيادة في بغداد. حيث تم التدقيق والبحث إذا ما كانت هناك أية طائرة تطير في سماء تلك النقطة.

والشيء الأخر طارت ست طائرات من طراز /A18E / F/ من حاملات الطائرات التي كانت تبحر في بحر إيجة والمسماة /USS. NIMITZ/ وأعطيت لها الأوامر بقذف هدف في إستانبول. ثم أعطيت الأوامر لطائرتين. بتغيير هدفهما. حيث قامتا بمناورة قاسية واتجهتا نحو الهدف الجديد.

كان بعد الهدف تقريباً خمسين كيلو متراً. ولكن كان عليهم الذهاب إلى هناك.

كل هذه الأحداث حصلت خلال عشرين دقيقة... جهزت الطائرات إحداثيات الأهداف وجعلتها جاهزة للقذف وإرسال صواريخها من طراز SOW.

كانت كل طائرة سترمي صاروخين.. ومن أجل ذلك طُلبت الموافقة الأخيرة من المركز.. وحيث قام مركز القيادة باستشارة عربة الكونترول الأرضية.. وتم إعطاء الأوامر بقذف نقطة تجمع المقاومين.. وتم إرسال الصواريخ.

- المظاهرة الدامية-

كانت المظاهرة التي نظمتْها جماعة السناسر قد كبرت واتسعت.. واشترك فيها تقريباً من جميع المستويات السياسية والإيديولوجية.. كانوا يتحدثون بحرارة.

- "نحن الذين سننتصر أليس كذلك يا علي؟".

هذا السؤال طرحته الفتاة الشابة حبيبها.. كانت ثمة بياض غريب على وجهها.

- "نعم يا /إيلين/.. مجبورون على الانتصار.

- "هل نستطيع تصديق الذي يحصل لنا الآن؟ قبل عدة شهور كنا مع بعضنا بعضاً في المدرسة. وكنا نتفق على قضاء العطلة في /مرمريس/. أما الآن انظر إلى حالنا. نحمل الكلاشينكوف ونتحدث عن محاربة الجنود الذين سيأتون إلى هنا".

- "أعرف يا روحي.. وأنا أيضاً لا أستطيع تصديق الذي حصل.. أولئك الجنود درّبونا تدريباً جيداً وأظن أنني سأستطيع استعمال هذا السلاح.

- "أنا لا أظن يا علي.. ولست واثقة من نفسي على أنني سأستطيع استعماله".

- "إذا أردت اذهبي يا إيلين".

- "لا.. أريد البقاء هنا معك".

كانت أمل تحاول جاهدة كي لا تُضيع الشباب الذين ارتبطوا بها. قفزت من المكان المرتفع الذي كانت واقفة عليه.. كانت أمل تربي سنساراً في حديقة بيتها في ألمانيا.. واسم السناسر جاء من ذلك. حيث بدأت بالدوران داخل المجموعة. وكانت تعيش مشاعر لا تستطيع أن تُعرِّفها. كانت قد وجدت نفسها في شخصية لا تستطيع أن تتخيلها. ربما كان السرطان يُعضُّ أعماقها ويُحطمها. وربما كانت ميتاً يمشي. وربما هي اللحظة التي كانت تبحث عنها وتتصورها عندما كانت طفلة.. كي تجد نفسها امرأة ناضجة ومقتدرة.. نعم.. كانت لحظة مخيفة. ولكنها كانت مهمة وطنية لخلاص الشعب التركي من هذا النفق المظلم. كانت هي وحبيبها /فرحات/ قد خطوا الخطوة الأولى لرسم مستقبل الوطن.

كانا الآن معاً ومعهما المئات من الناس. كانوا يجهزون أنفسهم لحرب كبيرة. وإذا ما انتصروا في هذه المعركة.. سيكون معهم الآلاف وربما عشرات الآلاف. كان الشباب المسلحون يضربون بأيديهم على كتف معلمتهم أمل ويظهرون لها الحب والولاء. كانوا على مستوى عالٍ من المسؤولية وربما يتحولون إلى رمز للنضال والمقاومة.

كانت الصواريخ SOW قد تسللت من بين العمارات متجهة نحو الجموع الغفيرة. والجميع يراقبونها حيث قدمت لهم مشاهد لم ولن يروها أبداً.

حيث نزلت الصواريخ بسرعة مذهلة فوق الهدف.

كانت الانفجارات قوية بحيث أن اللهب الصاعد نحو الأعلى كان يُرى من ناحية الأناضول بأكمله.. كانت البنايات المتضررة سابقاً قد تناثرت نحو كل الجهات من شدة الانفجارات وقوتها.. الساحة التي كانت مليئة بمئات الشباب الأتراك.. قد تحولت إلى منطقة مكفهرة بدخان أسود فقط. بقيت المنطقة صامتة على مدى دقائق طويلة.. بعد فترة بدأ الناس وسيارات الإسعاف بالمجيء إلى المنطقة المنكوبة.

كانت الصراخات تهدر في كل مكان من أجل الذين سقطوا صرعى في تلك الساحة. كان بعض الناس يحاولون إخراج أجساد الشباب الذين صاروا رماداً من تلك المنطقة. وسيارات الإطفاء كانت ترش الحياة فوق الذين يساعدون الآخرين ويخرجون الأموات حتى يقدموا لهم بعض الراحة والبرودة.

لأن الحرارة الناتجة عن الانفجارات كانت قوية وشديدة. حتى إن بعض الأشخاص الذين كانوا يحاولون مساعدة الجرحى والموتى كان يغمى عليهم من الحرارة الشديدة.. والجميع كانوا يبقون متكومين على الأرض لأنه لا أحد يهتم بهم. كان الجنود والإطفائيون الذين يحاولون انتشال أجساد الموتى من بين الأنقاض حيث تحولت جثثهم إلى ما يشبه الفحم. لم يكن أحد في وضع يستطيع التعرف إلى الآخر. كان الدخول إلى هناك ما زال خطراً.. أما الأسلحة والرصاصات التي كانت موجودة فيها فإنها تنفجر بشكل عشوائي وتنطلق نحو كل الاتجاهات. ولم يكن أحد يعرف إذا كانت هذه الطلقات تصيب أحداً ما.

فرح الناس عندما رأوا أن بعض الأجساد المنتشلة تتحرك - حيث وضعوهم على سيارات الإسعاف وأرسلوهم إلى المشافي الأخرى.. سيارات الإسعاف كانت مملوءة.. أما الأطباء والممرضون فكانوا يعيشون نوعاً من الضغوطات النفسية الشديدة. لكثرة أعمالهم وتعرض المدينة لمزيد من التخريب. كانوا يحاولون مساعدة الجرحى بكل السبل والوسائل المتاحة لهم. ولكن الأكثرية منهم أي الجرحى. كانوا يلتقطون أنفاسهم الأخيرة هناك.

كان الأطباء يقدمون المساعدات لشخصين في إحدى الزوايا. شاب وفتاة يشدان على أيدي بعضهما بعضاً ولا يريدان ترك أيديهما أبداً - كان صدر الشاب مليئاً بالشظايا. كانت هذه القطع المعدنية قد دخلت إل أعماق جسده وخرّبت بعض أعضائه. عندما كان يريد التحدث فلا يقدر. وبسرعة زائدة كان أخذ الشهيق عنده يصعب. حاول الأطباء فتح ثقب تحت حنجرته بقطعة معدنية كي يستطيع التنفس. أما جسد الفتاة فكان ملوثاً بالدم من رأسها إلى أخمص قدميها. ولكن أعضاءها الداخلية. كانت تتراءى سليمة ولكن عندما لاحظ الأطباء ذلك، ضربوا بعضهم بسبب هذا الإهمال الذي وقعوا فيه. حيث رفعوا الفتاة ونقلوها إلى غرفة العمليات لإجراء اللازم.. في تلك اللحظة خرجت كلمتان من فمهما:

- "علي.. إيلين" في الوقت الذي كان فيه الأطباء قد يئسوا من حالتهما. كانا على وشك لفظ أنفاسهما الأخيرة. في تلك الأثناء حصلت ثمة حركة أخرى على الباب. كان ثمة جرحى وموتى يأتون بهم. وكأن موظفي المشفى قد غيرّوا أنفسهم أتوماتيكياً.. أسرعوا نحو تلك الجهة مباشرة. في هذه المرة. ثمة موقف عاجل بكل معنى الكلمة.

أتوا بالمرأة- قائدة السناسر جريحةً. لم يكن وضعها يتراءى حسناً.. بعد إجراء عدد من الاختبارات.. تبين للأطباء أنها فاقدة الوعي تماماً وأن أكثر عظام جسدها مهشم أو مكسور. وأن هناك نزفاً في أعضائها الداخلية.. حظها في الحياة كان معدوماً تقريباً.

ولكن عينيها كانتا تنظران بمعانٍ عميقة.

وكأنها داخل نهر قد تكوَّن من الأصوات المخنوقة. كانت قد سمعت بأنها ليست في وعيها. لم تكن تستطيع أن تجيبهم. كان يلف كل مكان في جسدها نوعٌ من انعدام المشاعر والأحاسيس. ربما كانت فاقدة الوعي علمياً. ولكنها لم تكن تعرف هذا الشيء المفتوح عندها. كانت تحس بالرطوبة التي تلف جسدها. وبالأحداث التي جرت قبل الانفجار. كانت تريد أن تضحك من أعماقها. ولكن هذا أيضاً كان مستحيلاً. قالت في نفسها فقط:

- "إذن لا شيء.. أنا مجرد هدف بسيط ومجرد خسارة بسيطة داخل هذه الحرب. وكل الذين كانوا معي لم يكونوا سوى قرابين نتقاسم أقدارنا مع بعضنا". وعندما كانت تفكر بالسرطان الذي يأكل جسدها وبألمانيا.. وجدت نفسها.. عندما كانت تصغي إلى أصوات النضاوي.. و.. نعم. كان ثمة ضوءاً غريباً يرشح من بعيد.. وربما هي سحابة ضخمة من الغبار... وكانت تستطيع رؤية الفرسان المتقدمين من خلف الستارة الضبابية.. على شكل ظلال وأخيلة. كانت ثمة ابتسامة سعيدة قد حطت على وجهها.. هذه العملية أذبلت من وجوه المرضات اللواتي كن يعرفن أن هذه الابتسامة تُقرب المرء من الموت. مدت أمل يديها للمرة الأخيرة نحو الفرسان الذين كانوا يقتربون منها. كانوا لا يريدون الذهاب إلى الأماكن البعيدة جداً. كانت تعرف بأنهم سيبقون قريبين من هذه الأماكن وسيداومون على الحرب. وكأن هذه الحرب ستدوم حتى اللانهاية.

كانت هذه الحرب ستدوم حتى لو لم تُعرف نتائجها مسبقاً.. سأل الفرسان وذهبوا واختفوا خلف السحب.

كانت الأصوات والحركات قد خفت داخل المشفى.. كانت اليد البادرة للحياة قد غطت وجه الحقيقة.. كانت الأحداث التي جرت قبل قليل قد بدأت تعشش على شكل أهداف في الأدمغة قبل أن تنتهي عملية النسيان رويداً رويداً..

كان قد تمَّ إخراج كل الموتى من بين الأنقاض ونقلوا إلى أماكن أخرى. وكانت ثمة سحابة خفيفة من الدخان قد بقيت في مكان انفجار القنابل. وهذه السحابة كانت ستتلاشى بعد قليل من تلقاء نفسها.

- مركز القيادة الرئيسة في بغداد-

كان الضباط الموجودون في المركز وضباط العمليات. قد بدؤوا يهنئون بعضهم بعضاً. بدأت المعلومات تنسكب على العالم عبر كثير من الأقنية الفضائية وأحدثت ضجة ضخمة.. كان المسؤولون في الجيش الأمريكي يحسبون هذه العملية نجاحاً كبيراً بالنسبة إليهم. لأنها تحطم نفسية المقاومين من أساسها. في الوقت الذي كانوا فيه يُجهزون أنفسهم وهم الأكثرية وإما إخراجهم من المعركة على شكل جرحى... كان الضباط الكبار الموجودون في مركز القيادة يقولون: إن هذه العملية هدية إلى الجنود الأمريكيين الذين كانوا يتوجهون نحو إستانبول. وبوساطة هذه العملية كانوا قد أخرجوا الآلاف من المقاومين خارج المعركة. وهذا يعني خلاص مئات الجنود الأمريكيين من الموت...

-CENTCOM-

كانت الصور القادمة عن طريق الأقمار الاصطناعية تظهر على الشاشات العملاقة المركزة على الجدران وتعرض في هذه الصور الثواني التي سبقت الهجوم وما بعده. كان كل شيء يبدو جلياً وواضحاً. آلاف البشر كانوا مجتمعين.. وهذا كان دليلاً ظاهراً على ضرب المقاومة، لأن المسلحين كانوا يظهرون بوضوح بين الناس والازدحام بشكل مكثف.

كانت العقوبة قد نُفذت بالذين جهزوا أنفسهم وتسلحوا لقتال الشباب الأمريكيين. وعندما يرسل العائلات أولادهم إلى العسكرية يجب ألا يخافوا. ومباشرة! كانت هذه الرسالة قد بدأت تعطى عن طريق وسائل الإعلام.وبشكل دائم إلى الرأي العام الداخلي في أمريكا وخارجها.. وكانت الوحدات الأمريكية وخاصة الفرقة ٨٢ للإنزال الجوي وفرقة المشاة الرابعة قد فرحت كثيراً لهذه الضربة، وبما أنهم كانوا يتذكرون المقاومة العراقية وعدد الجنود الذين قتلهم العراقيون أثناء الاحتلال العراقي. فإنهم يشعرون بكثير من السعادة. وبشّروا أخيرا ووجدوا في هذا الخبر. خبراً حسناً.. كانوا يثقون بأنفسهم بعد الآن ثقة مطلقة.. وقلّتْ إشارات الاستفهام في رؤوسهم.. أولئك البشر الذين قضوا نحبهم. كانوا لا يستطيعون إيذاءهم بعد الآن.

- إستانبول -

عندما وصل الخبر إلى حكمت بارس قرفص على الأرض مباشرة. وبقي مدة من الوقت صامتاً. من الذي كان يستطيع أن يجمع كل أولئك البشر في مكان واحد غير قلة الخبرة؟ يا ترى ألم يتعرفوا إلى عدوهم بعد؟

لأن الحرب كانت لا ترحم أبداً. الخطأ لا يسمح به أبداً مرة أخرى بقي صادقاً مع مبادئه وثوابته. لا معنى للحزن الآن. كان عليه ضخ المنطقة بعناصر جديدة ومن أماكن أخرى. ربما كان لن يفعل شيئاً من أجل الدفاع عن تلك المنطقة. لأن العدو

الذي سيدخل إلى هناك سيجد نفسه محاصراً من كل الجهات.. وأي قائد لا يعمل على وضع جنوده في داخل الخطر.

في الاجتماعات التي عقدوها. كانوا يرون أن منطقة /بيشيل كوي/ ومطار أتاتورك.. ستكون من الأهداف الأولى للعدو.ولا مجال لأية شبهة في تفكير العدو لأنه كان يريد السيطرة واحتلال هذه المناطق قبل كل شيء.

كان المطار مناسباً لاستعماله كنقطة مركز وأطرافه واسعة ومنبسطة. وبهذا الشكل يكون الدفاع عنه سهلاً..كان يُنتظر إنزال جوي على هذه المنطقة، ولكن قبل هذا الإنزال كانوا سيقذفونها من الجو بشكل كثيف. وهذه لا شبهة فيه أبداً.. كان /حكمت بارس/ لم يقرر بعد إذا كان سيدافع عن المطار وضواحيه. كان العدو سيحمل على هذه النقطة بقوات كبيرة جداً.. ومهما كانت القوات المدافعة كبيرة.. كانوا سيخسرونها.

بدلاً من ذلك كان عليهم زرع المنطقة بالألغام وإنزال الخسائر الكبيرة.

بالعدو عن طريق جيوب صغيرة... ضاربة هاربة. وعن طريق مدافع الهاون والصواريخ.. بهذا الشكل تكون الخسائر قليلة وخسائر العدو كبيرة جداً.

كان حكمت باشا قد ركّز قوة تتشكل من خمسمئة جندي من القوات الخاصة بين/ بيشك تاش/ وسيران تابه/. كانت هذه العناصر المختارة والمتدربة تدريباً جيداً ستشارك في الدفاع عن هذه المنطقة.. كانت قد أخذت أوامر مشددة بأنها ستحارب العدو وجهاً لوجه وبالسلاح الأبيض.

كانت الأراضي المتواجدة في شمال /سيران تابة/.. بما فيها من غابات وسهول.. في خطر محدق. هذه الأراضي مناسبة للقوات الأمريكية لعمليات القفز السريع بين المناطق. وإذا ما صار هجوم على هذه المنطقة، كان عليهم ردها مباشرة وبكل الإمكانيات. كانت الأخبار ترد إلى بنك المعلومات الأمريكية بالنسبة لهذه المناطق. وتنقل من هناك إلى الرئيس مباشرة. كانت إدارة القاعدة الأمريكية تعرف بأن المقاومة ستكون شديدة أثناء احتلالها لإستانبول.

ولكنها كان تخفي هذا الأمر سراً. وبدلاً من ذلك كانوا يتحدثون عن التفككات الحاصلة في الشعب التركي وحصول التمرد والعصيان. ويشيعون بأن المقاومة ستضرب في مهدها ويشيرون إلى ضرب المظاهرة.

٤ حزيران ٢٠٠٧ ـ الساعة ١٨,٠٠
الساحل الجنوبي لخليج ازميت ـ قريباً من بلدة قرة مرسل
قاعدة الفرقة ٨٢ للإنزال الجوي.

كانت البنايات التي بُنيت أو أُنشئت بعد الهزة الأرضية الشديدة تلمع داخل الظلام. كان رئيس الأركان الأمريكي قد قرر ضرب البنية التحتية لجميع مناطق تركية في اللحظة نفسها التي ستبدأ فيها الهجوم على إستانبول. عبر غارة جوية كثيفة ستطال جميع المناطق التركية. إذا ما قاومت إستانبول.. كانت هذه الغارات ستدوم دون توقف. أما إذا استسلمت ستتوقف. كانوا يفكرون بضرب المحطات الكهربائية والمناطق الاصطناعية كلها. على جانب مستودعات الحياة والغاز والطرق الرئيسة والجسور هذه الهجمة ستكون بمثابة رسالة موجهة لبعض المجموعات. إذا لم يبدأ العصيان والتمرد الداخلي الذي كان ينتظره أمريكا. سيكون الجميع أمام اختيار وتقاسم القدر نفسه.

إذا لم تبدأ المدينة في الجنوب الشرقي وتهاجم القوات التركية كانت ستكون هدفاً للطائرات الأمريكية. كانت هذه المعلومات ترسل إلى هناك بعدد كبير من الأقنية والاتصالات المباشرة وغير المباشرة.

ولكن لم تظهر أية حركة من هذا القبيل الذي كانت تنتظره أمريكا. كانت قوات /أرغانكون/ تتحرك وبشكل سريع وفي كل مكان من المنطقة على شكل مجموعات صغيرة.

كانت هذه المعلومات قد بدأ بالتحقق في قاعدة الفرقة ٨٢ للإنزال الجوي الحقيقة كانوا لا يعلمون شيئاً عن العملية الثانية. ولكنهم كانوا يعرفون تحركات المجموعات الداخلية. كان الجنرال /جوزيف ريد/ يعد من أكثر جنرالات الولايات المتحدة الأمريكية قساوة وسفكاً للدماء. بجسده العملاق ونظراته القاسية وشعره الأسود بالنسبة لعمره وبحاجبيه الرقيقين كان يوقظ في

الناظر إليه الخوف والرهبة كان يُعرَّف على أنه مظلي حقيقي وعنصر من عناصر الكوماندو الأشداء. وكان من في الجيش يعرف بأنه مظلي حقيقي وعنصر من عناصر الكوماندو الأشداء وكان من في الجيش يعرف بأنه يملك طاقة لا حدود لها لتدريب كل جندي في القفز بالمظلات.

كان جوزيف ريد يقف أمام طاولة مستديرة داخل الخيمة. يجيل بنظراته على خريطة إستانبول الموجودة فوق الطاولة. وفي الوقت الذي كان يفكر فيه اقترب من الطاولة قائد اللواء الأول والثاني وألقيا بنظرات إلى الأمكنة التي كان يشير إليها /ريد/ بنظرات دقيقة.

كان جوزيف ريد قد فكّر كثيراً بالمهمات التي أعطوها له. وبما أن وقت الحركة قد اقترب كان عليه أن يزن الأمور بأكملها من الأول.. كانت العملية خطرة جداً كان هو القائد الثاني الذي سيجرب الدخول إلى هذه العملية بعد عملية أنقرة الأولى التي تمت بالنسبة إليهم بسلام ونجاح. كان الموقف في إستانبول مختلفاً عن الوضع في أنقرة. كانت تنتظرهم مقاومة شديدة وقاتلة. كان يستطيع أن يُحس بهذا الشيء. كان يتذكر بأنه سيلقي جنوده إلى داخل النار وهو يعرف ذلك ولكنه كان يتذكر أيام تدريباته الأولية وهذا ما كان يدفعه إلى التفكير بعدة تكتيكات عسكرية وتجعله يجهز نفسه ذاتياً للدخول في هذه المعركة تحت أية خطورة. كان قادة الكتائب والسرايا واقفين على أرجلهم.. وقد كوّنوا حول الطاولة ما يشبه الإطار في مسافة معقولة منها. كان الضباط قد جهزوا أنفسهم وثيابهم بالجاهزية القتالية الكاملة. حتى بأدق تفاصيلها. كانُ ثمة جو دخاني يسيطر داخل الخيمة. كان الجميع ينظرون إلى وجه ريد ويحاولون قراءة الإفادات المزروعة على وجهه والشيء الذي يفكر فيه.

- "هذه المرة الأمر مختلف جداً.. جداً"

وضع يده فوق نقاط أخرى في الخريطة".

- "ستعمد المروحيات إلى الطيران منخفضةً وستذهب نحو جهتين. إحدى الأذرع ستلف من الجنوب وستسيطر على منطقة مطار أتاتورك.

وهنا سنبني قاعدة للتحرك.

- "هذا الأمر يعرفونه يا سيدي" هذا ما قاله قائد اللواء الأول هنري سافناه/ "ونحن أيضاً نخمن بأنهم يُخمنون هذا الأمر يا هنري "قال ذلك وابتسم وأضاف" قبل أن ننزل إلى هناك ستتحول تلك المنطقة إلى جهنم وأعتقد بأننا سننزل داخل النار واللهب. وسيعمد اللواء الأول والثاني من فوج رانجر ٧٥. بتنظيف المنطقة من أجلنا"

- " كل شيء يجب أن يتم سريعاً جداً. يجب أن نسيطر على المطار مباشرة ونبني خطاً دفاعاً قوياً. وبما أن الكلية الجوية قد قذفت سابقاً لا ضرورة لأن نفكر فيها ثانية أريد من الكتيبة التي ستسيطر على المطار أن تسيطر على الوضع بشكل جيد. وإذا ما دعت الضرورة ستحاربون بالسلاح الأبيض معهم.

لأننا بحاجة ماسة إلى تلك النقطة".

سأله أحد قادة الكتائب: " أليست إستانبول بالنسبة إلينا هدفاً كبيراً يا سيدي؟"

- "نعم.. الهدف هو إستانبول ولكن مهمتنا هناك محصورة في السيطرة على الأماكن التي نستطيع تسيير عملنا فيه. هذه الصورة نريد أن نعطيها بحركتنا هذه ومساعدتنا لفرقة المشاة الرابعة عندما تهجم على إستانبول".

التفت جوزيف ريد نحو الضباط الذين كانوا يحيطون به.. كانت ثمة نظرات قاسية وقاطعة على وجهه وقال:

- "من الأهداف الأخرى التي نريدها هي المنطقة التي تسمى /المسلخ/ فيها مركز قيادة الجيش التركي الثالث.. وهي مناسبة لتكون لنا قاعدة أخرى، وهي قريبة من مركز المدينة ومهمة بالنسبة إلينا كثيراً".

- "ولكي نسيطر على تلك المنطقة سننزل إلى شمال منطقة /سيران تابة/ ومن هناك سنتحرك ونسيطر على ذلك المركز. إذ حُلت هذه المناطق الثلاث دون مشاكل تذكر ستكون فرقة المشاة الرابعة قد وصلت والبقية ستكون مراقبة وتنظف تلك الأماكن من العناصر المدنية المقاومة".

- "ستبدأ مروحياتنا بالإقلاع اعتباراً من الساعة الخامسة من صباح الغد، وعندما نصل إلى هناك آمل أن تكون قوات رانجر تكون مشتبكة مع الأعداء انتبهوا جيداً إلى هذه النقطة ولا تبقوا بين النارين".

في الوقت الذي كان فيه الجنرال /جوزيف ريد/ يقول هذه الكلمات. كانت تُسمع أصوات الطائرات المتجهة نحو إستانبول. لو لم يكن الجو ضبابياً لكانوا قد شاهدوا من مكان تواجدهم ألسنة النيران المنبعثة من جراء الانفجارات ومن كل مكان في إستانبول.

ـ الساعات نفسها إستانبول ـ

كانت الأماكن المستهدفة بالقنابل معروفة وواضحة في إستانبول ولعدم وجود رياح قوية أو ضعيفة كان ثمة دخان كثيف قد غطى كل مكان.. لم يكن يرى في الشوارع سوى الجنود والمسلحين. لم تكن توجد أية صعوبة كي تخمّن أن المدينة تجهز نفسها للدفاع. كانت ثمة أحجار قد صُفت أو وُضعت هنا وهناك كي يستتر المرء نفسه خلفها.

كان الجنود والوحدات الخاصة والمسلحون المدنيون يدورون داخل المدينة على شكل دوريات مشتركة.

أما في الأحياء الخارجية لإستانبول فكان يسودها جوٌ مختلف كلياً. كان الناس متوترين كثيراً. وبما أن الفرقة الرابعة الميكانيكية الرابعة قد بدأت بالاقتراب من المدينة. فكانت الطائرات المنخفضة والعالية ومن جميع الأنواع قد بدأت تمطر الأحياء الخارجية بوابل من القنابل والصواريخ.

كان القوات الأمريكية تطبق ما أخذته من تجارب أثناء مرورها ضمن الأراضي التركية

كانت النواحي /غبزة وتوزلا وبلجيق كويو وكوزال تبة وسلطان بيلي وأورهالي كديو وبنزيك. كل هذه النواحي كانت تحت النيران الكثيفة. كانت الطائرات المدرعة من طراز A – 10 تطير بشكل منخفض (وهذه الطائرات مخصصة ومصنوعة خصيصاً لضرب الدبابات بشكل خاص) كانت هذه الطائرات تمطر كل مكان فيه حركة مقاومة أو بناء أو عربة بوابل نيران كثيفة من مدافعها ٣٠ مم. وكانت القوات الخاصة الأمريكية تقصف الأطراف الخارجية من تلك الأحياء بمدافعها من عيار ١٠٥ مم ومدافع /130 – C/ وتمنع من إقامة كل الخطوات الدفاعية بأي شيء كان. هذا الوضع لم يكن قد رآه أحد بعد.

كانت القوات الأمريكية لم تفكر بعد الآن بالخسائر البشرية بعد أن وصلت إلى هذه النقطة الحساسة جداً ـ المدنيون الذين كانوا تحت النار قد بدؤوا بالهروب نحو حوض / سد عمرلي/ آلاف البشر كانوا يجرون نحو تلك المنطقة وهم يحملون بعضاً من أغراضهم ومتاعهم اليومي.

كانت مقدمة الفرقة الرابعة للمشاة قد بدأت تتراءى على أطراف الأحياء السكنية. كانت الرصاصات الخطاطة تمزق الفضاء في الظلام بشكل ملفت للنظر كانت القوة الرئيسة للفرقة قد تجمعت إلى شمال بلدة /درينجة/ على بعد من صفر إلى أربعة كم.. كانت الوحدة العسكرية تنتظر وهي في جاهزيتها القتالية العالية.

في الوقت الذي تبدأ فيه الفرقة ٨٢ للإنزال الجوي بالهجوم.. فإن أيضاً فرق المشاة الرابعة سيهجمون ويخططون للوصول إلى منطقة /مال تبة وعمرانية/ خلال عدة ساعات. في ذلك الوقت تكون الضفة الشرقية من البوغاز قد احتلت تماماً. إذا ما استولت الفرقة ٨٢ للإنزال الجوي على أهدافها.. فإن الأمور بعد ذلك ستسير سيراً حسناً ودون مشاكل.

وربما تنتهي الحرب بسرعة على عكس كل التوقعات.

كانت السفينتان اللتان تنقلان وحدتي المشاة البحرية ١٥ و ٢٦.. قد وصّلتا إلى مدخل مرمرة. وبعد عدة دقائق كانتا ستجتازان مضيق جنق قلعة رسمياً. وعند الصباح ستكونان قد وصلتا إلى إستانبول.

كان هدف هذه الوحدات هو الغوص إلى /البوغاز/ وإقامة جسر للحركة بين الضفة الشرقية والغربية للاتصالات والتحركات.

كانت الكتيبتان التابعتان لفوج /رانجر/ ٧٥... وقد وصلتا إلى إستانبول منذ وقت طويل. وكانوا قد بدؤوا بالقيام بعدة عمليات داخل المدينة بوساطة المروحيات التي تطير منخفضةً. كان الناس الذين يسكنون ضواحي المطار قد بدؤوا بسماع أصوات لم يسمعوها من قبل.. بعد القذف الجوي الشديد عند ساعات المساء. كانوا قد بدؤوا سماع أصوات المروحيات.

وكانت هذه الأصوات قد قُطعت لفترة وجيزة. ولكن كانوا قد بدؤوا سماع

أصوات الرشاشات الثقيلة تتصادى في الأجواء. كانت قوات الجندرمة المتمركزة حول المطار قد وجدت نفسها. وجهاً لوجه. وبشكل مفاجئ أمام الوحدات الخاصة الأمريكية التابعة /لرانجر ٧٥/.. كان القتال يدور في بعض الأحيان بالسلاح الأبيض.. كان كل طرف يُحسُ الآخر.

كان هذا الوضع بالنسبة للمدنيين نوعاً من الضياع والاندهاش والاستغراب يا ترى هل بدأ الهجوم الذي كانوا يتحدثون عنه منذ أيام. ولكن كيف يكون هذا الأمر.. خلال لحظات يجدون الأمريكيين إلى جانبهم!!؟ كانوا قد بدؤوا بأخذ الاحتياطات لحماية أنفسهم في أقباء بيوتهم. حيث أطفؤوا الأنوار وغطوا نوافذ البنايات، وتم إخفاء الأسلحة الموجودة داخل المنازل تماماً. بدأ الناس بالانتظار دون أن يفارقوا عائلاتهم.

كان هذا انتظاراً غريباً. كان كل واحد ينتظر ولا يدري ما الذي سيقوم به. كانوا يريدون أن يفعلوا شيئاً ولكن عبثاً.. ولهذا السبب كانوا يشعرون بشيء من تأنيب الضمير وعدم الراحة. لم يكونوا يعرفون الحاصل حول المطار.. وعندما كانوا يقرؤون الجرائد التي كانت تصدر بصعوبة.. كانوا يحسون بدوار في رؤوسهم وتلخبطٍ في أفكارهم. قبل أيام كان رئيس تحرير إحدى الصحف الأكثر شهرة قد كتب مقالة.. وجدوا فيها بعض المنطق والتعقل. يا ترى هل كان عليهم التفكير بما يفكر فيه ذلك الصحفي؟.

"إن تركيا تمر في زمن صعب جداً. أعرف أن كل واحد منكم ينصهر تحت وابل من نار الانفعالات.. لم يكن أي واحد منكم قد فكرٌ أن يتقابل مع هذه الكابوس ولكنه حصل. إن تاريخ العالم مليء بمثل هذه المفاجآت وحياتكم التي تظنونها لن تتغير أبداً.. ها هي ذي قد تغيرت بين لحظة وضحاها. وهذا هو ما حصل الآن.

جيشنا الذي كنا نثق به.. اضمحل وانصهر وانهزم تحت سيطرة التكنولوجيا. وها هي الدبابات الأمريكية تعربد فوق ترابنا.. وإنهم سيهجمون على إستانبول خلال أيام قلائل.

تعالوا لنهدأ.. ونبحر في السكينة ولنحاول التفكير بالعقل والمنطق.. نحن

كأمة تركية مررنا بعدة تجارب صعبة وانتهينا منها حتى هذا الأيام.

في بعض الأحداث انبعثنا عبر رماد جثثنا.. وفي بعضٍ منها نزلنا إلى أسفل السافلين. وأنظر الآن إلى أطرافي فلا أجد شيئاً نستطيع القيام به.

كان بمقدوري أن أكتب لكم مقالة أدعوكم فيها إلى المقاومة.. أدعوكم إلى الموت. ولكن لن أقول هذه الكلام. وأعرف يقنياً بأنني سأجذب لنفسي المزيد من الحقد والكراهية.. نعم.. أنا أريد ألا يعارض أحد الاحتلال الأمريكي. وأن نجلس حول مائدة الحوار حتى نتفاهم.. هل من إنسان يريد أن يناقش هذا الأمر معي؟".

كان الذين قرؤوا الجريدة قد احتاروا كثيراً وانقلبت عقولهم رأساً على عقب.. في الأوقات العادية كانوا يفكرون بكل كتابة في مثل هذا النوع ويمضون.. ولكن.. الآن.. نعم الآن.. ليس وقتاً عادياً ولا طبيعياً.

كيف كان عليهم التفكير بالمنطق والعقل.. وقيمهم تداس تحت الأقدام وكرامتهم تهان وشرفهم كذلك؟.

كانت القنابل والرصاصات والدبابات والأجوبة.. لا تستطيع البقاء معاً. في الوقت الذي تكون فيه الدبابة أمام المنزل..كيف يطلب من صاحب ذلك البيت الإستانبولي أن يفكر بعقله ومنطقه؟.

يشعرون بأنهم محصورون من كل مكان ومن كل شيء... كانت إستانبول في حد ذاتها.. مثل مملكة تعيش في حال سبيلها. كان العالم ينتظر سقوط هذه المملكة عبر المحطات الأرضية والفضائيات. إذا ما سقطت مملكة إستانبول فهذا يعني أن باباً سيفتح لتغيير العالم بأكمله. ألم يحصل هذا سابقاً؟. ألم تكن إستانبول قد أغلقت عصراً وفتحت عصراً آخر.

ليس بالإمكان أن يدرك الإنسان العادي الشيء الذي سيحصل بعد الآن. كانت الحرب لعبة كبيرة. وعندما يتواجد مكان للاعبين آخرين فإن ؟الأبطال بمفردهم هم الذين يتحولون إلى أنوار مضيئة لهذه الحرب. مع إن الحرب بحد ذاتها كل شيء. الحرب لدى بعضهم تعني أسهل طريق للحياة الصعبة.

كانت الحرب تقترب من أشد نقاطها كثافة. وكلما تقدمت ساعات الليل كانت القوات الأمريكية تريد أن تضرب ضربتها القاضية وتكسر شوكة

المقاومة لدى الشعب التركي... كانت الخطوط والقرارات المأخوذة في الدقائق الأخيرة تتغير تباعاً.. وكان الانفعال في الحدود القصوى عند الجميع.. كانت الأخبار تتوارد وتصل إلى كل مكان على أن كتيبتي وحدة رانجر قد بدأتا الاشتباك مع القوات التركية حول مطار أتاتورك الدولي. وكان العالم قد انقلب رأساً على عقب عندما سمع هذه الأخبار. متى وصلت القوات الأمريكية قلب المدينة؟ كانت الأسئلة تتوارد داخل الأذهان خلف بعضها بعضاً.

وموظفو وزراء الخارجية الكبار في كل دولة يحاولون جاهدين جمع الأخبار والمعلومات عن تطورات الحرب.

ـ مكان غير معروف من إستانبول ـ

كانت الحرب قد بدأت تأخذ حد السخونة القصوى في إستانبول من جهة. ومن جهة أخرى. كانت هناك حرب أخرى داخل أروقة وزراء الخارجية في كل دولة وبين وحدات الاستخبارات الدولية المتنافسة لجمع المعلومات. وتقصي الحقائق. كانت التغييرات التي ستحصل في تركيا ستؤثر سلباً أو إيجاباً على كل مصالح الدول المجاورة والكبيرة. في الوقت الذي كان فيه الجيش الأمريكي يحاول الوصول إلى أهدافه بسرعة البرق. كانت دول العالم الأخرى تحاول التأثير على التطورات الحاصلة من خلال الحملات الدبلوماسية المكثفة.

كانت ثمة مقابلات مكثفة تجري بين الدول الكبيرة. وذلك من خلال الأيام المنصرمة وإلى الآن. كان بوتين الرئيس الروسي يحاول إقناع الدول الأخرى.

هذا لم يكن سهلاً أبداً وكأنهم قد توصلوا إلى نتيجة ما في المدة الأخيرة.

في الوقت الذي كان فيه /طيب أردوغان/ يأخذ المعلومات من رئيس الأركان /حكمت باشا/ في مركز القيادة السرية.. وإذ بهم يخبرونه بأن /بوتين/ يريد التحدث معه هاتفياً. كان في وضع يائس تقريباً وكأنه قطع الأمل الأخير من تحرك الدول الكبرى لتخليص تركيا من هذه الهجمة الظالمة.

قال بوتين باللغة التركية /إييٌ أخشملا رصايين باش بكن/.. أسعد الله مساءك يا سيادة رئيس الوزراء "ثم أكمل بالروسية/ أعرف أنكم كنتم تريدون أن نأخذ قراراً مشتركاً مع الدول الأخرى".

تحدث طيب أردوغان عن طريق مترجمه الروسي: "أنا أفهم ما تقوله تماماً..

ولكن الأحوال هنا سيئة جداً دولة تُدمر وشعب بأكمله يُحرق. أعتقد أن التقرير الذي أرسلته لكم قد قرأته وكما تعرف هلاكنا سيؤدي إلى هلاككم أيضاً".

- "نعم.. نعم.. نعرف هذا جيداً ولكن لا نستطيع أن نتحرك بمفردنا وأخيراً توصلنا مع فرنسا وألمانيا والصين إلى اتفاق كي نتصرف معاً. ولكن هناك شيء نريده منكم".

كان طيب أردوغان قد فرح بعض الشيء لأن ثمة بريقاً من الأمل قد ظهر أخيراً ولكنه كان يعرف أن الطلب الذي جاؤوا به ليس صغيراً ولا يستطيع هضمه وبلعه بسهولة.

" إن هذه الدول تريد مقابل دخولها في مواجهات خطرة نسبة متساوية بالمئة من معدن البور والتوريوم واليورانيوم من عندكم. يعني أن ألمانيا وروسيا وفرنسا والصين وتركيا ستأخذ حصصاً متساوية من هذه المعادن وستعمل معاً في استخراجها وكل شيء يخصها بها.

بصعوبة بالغة سيطر رئيس الوزراء على نفسه.. كاد على وشك أن يرسل صيحات من الفرح.. ولكن كان عليه أن يكون هادئاً في هذه اللحظات.

- "إذا كانوا يطلبون مني ذلك فمعنى ذلك أنهم فهموا أهمية هذا الشيء: وقرروا التحرك مباشرة/.. هكذا فكرَّ طيب أردوغان في نفسه.

والآن كانوا يقولون: /شو ما أخذنا كويس/.

قال بوتين وهو يفقد صبره: "نعم يا سيد أردوغان/.

استجمع أردوغان نفسه ونصب كمينه /بلوف/ وقال: "لا يا سيد بوتين لا نعطي نسباً كبيرةً بهذا الشكل. "عندما تغير وجه المترجم من الخوف أشار له بإكمال عمله وترجمته: "وأنتم تعرفون جيداً. حتى ولو وافقت الولايات المتحدة على الانسحاب ستتطلب نسبة كبيرة من هذه الشراكة. وفوق ذلك كله ستدخل إنجلترا في داخل هذه المعمعة. وهذا يعني إن نصيب تركيا سيتقلص كثيراً".

كان بوتين يستطيع تخمين كل ما قاله أردوغان حيث قال: "نعم إن الوضع ليس حسناً. ولكن أعتقد أنه ليس عندكم حظ آخر.. على الأقل ستتخلص دولتكم".

فكرَّ أردوغان لحظة وقال: "في كل وقت هناك اختيار ثانٍ يا سيادة الرئيس..

القسم الكبير من بلدي سوّي مع الأرض... وأنتم بقيتم مدة طويلة تنتظرون. نحن بحاجة إلى تلك المعادن.. وإذا ما أردتم وضع مستقبلنا ووطننا تحت هذا الخطر فالأفضل لنا مساومة الأمريكيين والاستسلام لهم تماماً".

نعم هذا كان /بلوفاً/ من نوع خاص.. كان لا يحق لهم الانتحار حتى لو كانوا دولة. ولا يجوز لهم الاستسلام هكذا. ولكن عند حدوث ذلك فالدول التي معهم. سيذهب مستقبلها من أيديهم أيضاً.

في الطرف الثاني من الخط الهاتفي جمد وجه بوتين القاسي لوهلة - ثم ابتسم ثانية وقال:

"أنت مساوم كبير يا سيد أردوغان وما هو تكليفكم ؟".

شعر رئيس الوزراء بالفرح وترك نفسه وقال:

- "ستعطى لكل من روسيا وألمانيا وفرنسا والصين وإنجلترا والولايات المتحدة خمسة بالمئة من هذه الشراكة. ولكن سيكون مقابل تعويض؛ حيث ستقوم هذه الدول أو ستشارك أو تساهم بإعمار تركيا. مثلاً نأخذ من روسيا غازاً لمدة عشر سنوات. وهذا لا يعني شيئاً أمام معدن البور في حال تطوره واستخدامه جيداً".

دامت فترة صمت قصيرة على طرف بوتين وأخيراً نطق بكلمة: /قبلنا/ كانت هذه أجمل كلمة يسمعها طيب أردوغان منذ وقت طويل.

وأضاف بوتين: "أعتقد أنكم تقومون بعمل /بلوف/ يا سيد أردوغان ولكني أوافق على أقتراحك. أعطني مهلة يوم أو يومين لإقناع بقية الدول.

وضع طيب أردوغان ظهره على الكرسي بكل راحة.. وكان المترجم يصدر نداءات صغيرة من شدة فرحه.. نظّف رئيس الوزراء حنجرته وقال: "طيب يا سيادة الرئيس.. ولكن استعجلوا.. وإذا ما سقطت إستانبول فلن تبقى لكم أية حظوظ. ولا تستطيع أية قوة إخراج الولايات المتحدة الأمريكية من هنا".

كان القسم الصعب من العمل وكأنه قد انتهى. وكان بمقدور السفراء حل بقية التفصيلات. طلب طيب أردوغان محادثة السفراء المعتمدين في تلك الدول وأعطى لهم التعليمات لإقامة هذا العمل المشترك بين الأطراف.. كانت ثمة أعمال كثيرة يجب القيام بها.. كانت تركيا تقاوم.. وكان العالم قد بدأ بالتفكير

للوقوف إلى جانب هذه المقاومة.

- من العالم -

كانت روسيا قد حركت ثلاث فرق دبابات بهدف إملاء الفراغ وبسبب قرب حدودها من تركيا. وكانت هذه الفرق الثلاث قد تحركت بسرعة إلى أرمينيا. وإلى جانب ذلك كانت القوات البحرية الروسية في حالة تيقظ واستنفار كامل في البحر الأسود. وكانت أرمينيا قد عبأت كل طاقتها وقوتها ووضعتها على الحدود التركية. كي تمنع الهاربين واللاجئين إلى داخل أراضيها وتدافع عن حدودها. أما الجيش القبرصي اليوناني فكان قد تجمّع في عدة نقاط من الحدود، وهو جاهز للانطلاق والعبور إلى الطرف الآخر. وكانت بعض المروحيات القبرصية اليونانية تجتاز الحدود بين وقت وآخر وتعود ثانية ولكن كثافة الطائرات الأمريكية.. منعت القبرصيين. لأن إحدى المروحيات الأمريكية كانت قد أسقطتْ إحدى المروحيات القبرصية من النوع الفرنسي عن طريق الخطأ.. بعد هذه الحادثة ابتعدت عن الحدود التركية ولم تقترب منها أبداً.

وكان الجيش اليوناني مستنفراً بكل معنى الكلمة. كانت الهجمات التي جرت على إستانبول قد خلقت ردود أفعال كبيرة داخل المجتمع اليوناني. الهجمات العشوائية على إستانبول قد أغضبت اليونانيين كثيراً.

كانت المظاهرات المنددة بأمريكا تدوم في عموم المدن اليونانية ومنذ أيام طويلة. وكانت تصريحات رئيس الوزراء اليوناني /بابا ندريس/ ضد أمريكا على وشك أن تقطع الحبال بين الاتحاد الأوروبي وأمريكا.

وبما إن الجيش الأمريكي والرئيس كانوا قد ركزوا نظراتهم نحو تركيا فقط. فكانوا لا يلقوا بالاً بكل هذه الصريحات والتنديدات وأغلقوا عيونهم في وجه العالم بكل معنى الكلمة.. كان أمامهم الآن عشرات الآلاف من الجيش التركي يقودهم حكمت باشا وإلى جانبهم قوات الأمن والشرطة والمقاومة المدنية.

القسم الرابع
مركز الدنيا

حرب إستانبول الكبيرة

٥ حزيران ٢٠٠٧

كان /ارسين/ ولداً قصيراً وبديناً. وعلى الرغم من أن عمره قد بلغ الثالثة والعشرين. فكان الذين يرونه يظنونه في الخامسة عشرة. وبما أنه كان مريضاً نفسياً. لم يخرج من البيت منذ أربع سنوات.. ومنذ أن بدأت الحرب. كانت حالته قد ساءت كثيراً. كانت عائلته تسكن في حي أو ناحية /يشيل كوي/ القريبة من مطار أتاتورك الدولي. كان منزلهم منزلاً قديماً مكوناً من ثلاثة طوابق.. كان بقاؤه في القبو /البودروم/ يخنقه أكثر. كان يشعر كأنه يعيش داخل كابوس لن يخرج منه أبداً.

كان يشعر بأن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ وذلك عندما كان ينظر في وجه أبيه وأمه ويرى علامات الخوف والرهبة كانت مشاهدة بياض وجهيهما تُصعِّب عليه كل شيء.

كانت أصوات الأسلحة والدفاع عن نفسيهما تصل حتى حدود القبو الذي يقبع في داخله. كانا يحاولان معرفة أي شيء عن طريق المذياع. ولكن من الاستحالة بمكان سمع خبر يحوي في مضمونه معناً معيناً.. لم يكونا يملكان الاحتياط من الطعام والشراب.. كانا يأكلان ما يجدانه. كان /أرسين/ يشعر بأن دماغه على وشك الانفجار. كان يفكر بأنه يمشي في طريق لا نهاية لها ودون أن يدري ماذا سيفعل.. هذا التفكير كان يزيد من حالته المرضية والنفسية من سيء إلى أسوأ. حتى الأدوية. كانت قد أصبحت لا تجدي نفعاً له.

كان يحس بأنهم يسحبونه إلى أعماق الظلمة مع مرور كل دقيقة وساعة. لم

يكن بمقدوره تحمل ذلك. إما كان سيفعل شيئاً أو يقضي على نفسه داخل نفق من الأنفاق.

تحرك أرسين بسرعة من جلسته المعتادة وهي وضع رأسه بين ساقيه. ووقف على رجليه.. كانت يداه ترتجفان. وجسده قد شُدَّ تماماً.

حاول أبوه وأمه أن يفهما الذي جرى له. كانت عيناه تنظران إلى نقاط لا معنى لها. جرى نحو الباب فجأة. أسرعت أمه وأمسكته من ذراعه. وصرخت في وجه:

- "توقف.. ماذا تفعل؟" فهم أرسين أنه لن يستطيع السيطرة على نفسه. دفع أمه إلى جهة. وفتح باب القبو.. وبدأ بالصعود من الدرج بسرعة. عندما خرج أمام باب البناية.. وقع على وجهه. الرياح الصباحية الباردة. وصدى صوت الرشاشات. وعندما نظر إلى المشهد الذي أمامه. حصلت ثمة أشياء غريبة.. وكأن السرطانات التي كانت تقرض دماغه. قد خرجت منه. كان الجو صافياً والرياح الخفيفة كانت تدغدغ أعماقه. مشّط بعينيه الأمكنة المعروضة داخل زاوية نظره.

كان يستطيع مشاهدة الأحزمة الضوئية المتفجرة من قلب الشمس وتتحول إلى ألوان برتقالية آنية تنعكس نحو الأطراف.

قال: "يا إلهي.." كانت الكلمات قد خرجت من فمه تلقائياً. كان يستطيع تخمين أماكن تواجد البشر. كان يستطيع رؤية آثار إطلاق نار كثيفة حول المطار. وقف أرسين ونظر نحو كل الجهات. ماذا أفعل والسماء جميلة بهذا القدر؟ الذين يطلقون النيران يجب أن يكونوا شجعان.

هكذا قال في نفسه. كانوا يصارعون الموت ويُعاندونه. ما معنى أن تأتي من بعيد.. بعيد جداً. وتدخل إلى بلد غريب وتحارب الذين يدافعون عنه.

كان هذا بالنسبة لأرسين نوعاً من الإعجاب الخاص. كان يعرف أن طريقة تفكيره هذه ليست سوى نوع من العبث وربما لو سمع أحد أو عرف ما يفكر به أرسين لكان قد عيَّبه ووبَّخه.. ولكن ليس من شخص يستطيع قراءة ما يدور في أعماقه. كانت ثمة طاقة كبيرة قد تجمعت في قلبه. وكان يحس بأنه مجبور على إخراجها من قلبه وأعماقه. التفت نحو الخلف... كان أبوه وأمه يراقبانه بدقة شديدة بعيون واثقة.

وكأنهما يقرأان ما كان يدور في رأس ولدهما.. بدأ أرسين بالجري نحو المطار. نحو المكان الذي كانت فيه النيران تلعلع بجنون. نحو المكان الذي تم فيه إنزال الكتيبة الثانية من وحدة /رانجر ٧٥/ حول المطار لتنظيف تلك المنطقة. والتي خسرت فيها ولأول مرة خسائر بشرية فادحة جداً.

لبس الجنرال /جوزيف ريد/ قائد الفرقة ٨٢ للإنزال الجوي.. ثيابه القتالية لم يكن الآن أي فرق بينه وبين آلاف العسكر الذين تحت إمرته.

كان مسدسه معلقاً تحت أبطه. وبندقية من طراز M – 16 بمنظارها الليلي قد وضعها على ظهره. كان يرش بنظراته المرعبة إلى الجنود.

- "جهزوا المروحيات. القوات الجاهزة إلى المروحيات..يجب أن نستفيد من الظلام قدر الإمكان".

نقل ضابط الأمر هذا الأمر عن طريق اللاسلكي إلى جميع الوحدات. مع نقل الخبر مباشرة بدأت حركة كبيرة في الخارج. كانت أصوات مراوح الطائرات تهدر بقوة.. بحيث لا يستطيع أي إنسان سماع أي صوت آخر. خرج جوزيف ريد إلى خارج الخيمة ونظر نحو كل الأطراف للإقلاع.. راقب القائد بذوق صعود العناصر إلى المروحيات بأحمالهم الثقيلة. وبعد أن غادر الجميع المكان.. صعد هو الآخر إلى مروحيته الخاصة من طراز /MH - 53/. ليشترك مع الجنود الآخرين في الهجوم على إستانبول. هكذا كان يفعل جوزف ريد من واقع احترافه للجندية والمعركة. يجب أن يكون مع الجنود حتى يوقظ عندهم الهمة والعزيمة. في الوقت الذي كان فيه الجنود يمرون قرب خيمة القيادة ويرون قائدهم بالثياب القتالية. كانوا يجرون نحو المروحيات بهمة أكبر وانفعال شديد. كان هذا هو السلاح الأهم في مثل هذه الحرب.. الجندي الذي يذهب إلى القتال بقلبه.

كان جوزيف ريد يريد أن يتأكد بأن كل جنوده قد صعدوا إلى المروحيات. كان أكثر من مئة وأربع خمسين طائرة مروحية قد اصطفت على مدرج طويل تقدر بمئات الأمتار.. ومراوحها تهدر وتهدر. ستكون هذه الهجمة مروحية كبيرة عصرية فريدة من نوعها حتى الآن. لم يكونوا في هذه المرة في مهمة مساعدة لوحدة أخرى. كانوا يشتركون بهذا الهجوم بقوة تجبر الأعداء على الاستسلام.

كانوا سيجربون طريقة القوات الخفيفة التي طبقوها وتدربوا عليها في السنوات الماضية. كان أكثر من ٣٨٥٠ جندياً بأجهزتهم الثقيلة ينتظرون بدء الهجوم وهم داخل المروحيات.. عندما نظر ريد نحوهم أحس بأن شعر جسده قد تحوّل إلى أشواك من هول المنظر. بعد قليل ربما كانوا سيدخلون في أكبر معركة في التاريخ الأمريكي لحرب المدن. وكانت عيون الجميع مركزة إليه كي يعطي لهم الأمر بالانطلاق.

كان الظلام سيقدم لهم الفائدة والمصلحة الكبيرة. كانت المروحيات ستعود ثانية من مهمتها بعد إنزال اللواء الأول إلى المطار وإلى المساحة الفارغة في شمال غابات /سيران تبة/ كي تنقل عناصر اللواء الثاني إلى الأماكن المطلوبة. تذكر جوزيف ريد الوعد الذي قطعه لوالده العميد المتقاعد عندما التحق بالجيش: كان قد وعد أن يجعل من كنيته /ريد/ من الأسماء اللامعة في تاريخ الحروب. كان الوقت قد جاء الآن لإيفاء ذلك الوعد. أسرع الجنرال جرياً وذهب إلى آخر نقطة بين المدرج.

كان يريد أن يبدأ بها شخصياً. عندما وصل إلى تلك النقطة إلى المروحيات المصطفة على مئات الأمتار. كان العميد /هنري سافناه/ قائد اللواء الأول موجوداً في المروحية الأولى. كان ينظر إلى جوزيف ضاحكاً.. قابله جوزيف بمنطق الضحك نفسه. ثم رفع يده وطلب من المروحية الإقلاع. في الوقت الذي كانت فيه طاقة كبيرة قادمة من الأعماق لتدفع بالمروحية نحو الأعلى. بدأ جوزيف بالجري وهو يحلم بتجهيزات يُقدّر وزنها بعشرين كيلو غراماً على الظهر. كان يرفع يده طالباً الإقلاع وهو يمر أمام كل مروحية.. كان وجه السماء يتراءى وكأنه مملوء بمخلوقات غريبة الأطوار والأجنحة.. وبعد أن تحركت آخر مروحية ذهب ريد إلى مروحيته الخاصة من طراز /MH - 537/ كان العميد المتقادم /هنري دوبوا/ قائد اللواء الثاني يقف قرب باب المروحية حيث قال الجنرال:

- "لتكن على اتصال مباشر يا سيدي. سأحاول إدارة اللواء حسب الأوامر التي ستعطونها لنا".

- "انظر يا دوبو.. إذا صار لنا أي شيء فالقيادة ستكون معك.. هل فهمت؟".

لم يكن ثمة وقت يُضيعه جوزيف وكانت هذه المحادثة بعيدة عن المشاعر والأحاسيس قطعياً.

- " سمعاً وطاعة يا سيدي واتمنى أن تجري الأمور كما نريدها".

نظر جوزيف بنظراته السحابية إلى /دوبوا/ وقال:

- "وأنا أيضاً أتمنى ذلك".
- " هاي بيل كيف تحس نفسك يا صديقي؟".
- " ليقهر الله هذه اللحظة. كان ثمة حجرٌ كبيرٌ موضوعٌ فوق معدتي".
- " هل سننجح؟".
- " أظن ذلك يا ابني".
- "ليقهرهم الله.. لا أريد الموت هنا".
- "لقد مات منا الكثيرون.. الكثيرون".

لم تكن قد مرت سوى ثلاث دقائق لتحليق المروحيات.. كانت الطائرات التي تطير فوق بحر /مرمرة/ قد غطت مساحة واسعة من السماء. وكان الجنود يستطيعون رؤية بعضهم بعضاً من الأبواب المفتوحة. كانوا يطيرون على ارتفاع خمسةٍ وعشرين متراً فقط عن سطح البحر. كان في كل مروحية ثلاثون جندياً يجلسون خلف بعضهم وراء الباب الخارجي والجانبي. كان موقفاً صعباً. غير مريح بالنسبة لهم. والحقيقة.. الراحة أو عدمها آخر شيء كانوا يفكرون بها في تلك اللحظة.

كان /جيفير بيش/ أصغر ولد لأحد الفلاحين الذين كانوا يعيشون في مقاطعة /إداهولو/.. كان جيفري في الثانية والعشرين من عمره.. الحقيقة لم يكن يعرف إلى أين كان يذهب. وكان واثقاً بأن أكثرية الجنود الذين معه مثله لا يعرفون شيئاً. وكان صديقه الذي لازمه منذ دخوله على الجيش ولم يتركه أبداً كان هو الابن الوحيد لأحد السماسرة في /البورصة/ وهو من نيويورك ويدعى / بيل فوللر/. عندما سأله والده عن سبب اختياره العمل في الجيش لم يكن قد أجابه بجواب حتى شخصياً هو لم يقتنع به. ولكنه كان يتذكر أشياء وكأنه قد ذكر بأن المال لا يستطيع أن يشتري كل شيء من هذا القبيل. ولكن كانت ثقتهما

بأنفسهما كاملة. وبتدريباتهما ومواقفهما كذلك. كانا وجدا في حياة العسكرية أشياء كثيرة لم يصادفوها في حياتهما المدنية. كانا يحسان بأنهما جزء حقيقي من طاقم كامل.. والشيء السيء في هذا الأمر هو تراجع الأشياء الإيجابية في بعض الأحيان نحو الخلف.

وكانت هذه اللحظات من اللحظات المطلوبة منهما. عندما بدأا مهمتهما مع الفرقة ٨٢ للإنزال الجوي.. كانوا قد شرحوا لهم مهماتهم وعملها.. هم دائماً كانا في المقدمة.. أينما ذهبا وأينما حلا. وكان جنرالات الأركان الكبار قد وضعوا أحدث التكنولوجيا في هذه الفرقة. كي يتم إنزالهما إلى أعماق الأراضي المعادية وخلف الخطوط الدفاعية.

كانت المروحيات التي تنقل الجنود ـ مهمتها العودة ثانية إلى مركز القيادة بعد إنزال الجنود.. وتحميل التجهيزات العسكرية والعربات المدرعة من طراز /هومغا/ وبطاريات المدفعيات للواء الأول. حتى يشنوا بها هجومهم المتوقع ونقل عناصر اللواء الثاني إلى مواقعها القتالية التالية. وكان على طائرات /130 - C/ النقل الكبيرة مساعدة المروحيات في النقل والتنزيل.

- "جيفيري.. ماذا سيحصل يا ترى؟".

"كان بيل فوللر قد عانق سلاحه بقوة. ومع مرور الدقائق كان ثمة إحساسٌ غريبٌ يملأ أعماقه.

- "كفى ذلك ابني بيل.. قهرك الله... كفى.. روح من رأسي.. لا تسأل أسئلة لا أعرف أجوبتها. ماذا سيحصل يعني؟ طبعاً لن نذهب إلى هناك كي نلعب مع الأتراك مباراة بكرة القدم".

- "الحرب ستمضي صعبة وقاسية ولك ابني.. حقيقة ستكون هذه الحرب قوية وقاسية".

- "اقطع الثرثرة يا بيل وافعل المطلوب منك. حتى الآن غلبناهم.. وليس هناك من سبب كيلا نغلبهم ثانية. إذا كانت الفرقة /١٠١/ قد نجحت في ذلك.. نحن أيضاً نستطيع أن ننجح".

- "أريد أن أصدقك يا جيفري".

التفت /حيفير بيش/ نحو الخلف وأرسل إلى صديقه نظرات غاضبة كان على بيل فوللر أن يسكت. ولكن إحدى ساقيه كانت ترتجف على الدوام من الغضب والعصبية. مرت المروحية من جنوب الجزر التي كانت تبعد عدة كيلو مترات عن /يشيل كوي/. كان هدفهم المباشر هو المطار الموجود في /يشيل كوي/ كانت الأخبار قد وصلت إليهم بأن عناصر /رانجر ٧٥/ قد نظفت المنطقة. وبما أنهم كانوا قادمين من جهة البحر فكانوا آمنين إلى حدٍ ما.. ولكن مع هذا كانت الخطورة قائمة.

ولكن إذا ما حولوا تلك المنطقة إلى ما يشبه القاعدة. فالتقدم بعد ذلك سيسهل كثيراً.

عندما كانوا يطيرون فوق الجزر والبحر كانت نيران المدافع قد بدأت تتراءى وكأن حشرات الليل المضيئة قد ملأت سطح بحر /مرمرة/.

وعندما بدأت المروحيات تتجه نحو الشمال... لم يكن البر بعيداً منهم كثيراً.

كانت الغارات الجوية قد بدأت ثانية.. كانوا يستطيعون رؤية آثار طائرات /الجيت/.. في السماء العالية.. كانت القوات الجوية قد بدأت عملها في مساعدتهم في الهجوم على إستانبول.

كان جيفري قد وضع يديه المرتجفتين بين ساقيه كيلا يظهر على أحد رجفانها وكان يُحس بأن المحفظة التي كان يحملها على ظهره قد زاد وزنها من العرق الذي كان يبلل ظهره. نظر نحو كل الجهات.. لم تكن وضع الذين في الداخل يختلف كثيراً عن وضعه.. كان بعض الجنود يستمعون إلى موسيقى الروك الصاخبة عبر الأجهزة التي ثبتوها على آذانهم.. وبعضهم كان يدعو. وبعضهم الآخر كان واقفاً.. جامداً في أماكنه مثل /الروبوت/ لا تصدر عنه أية ردة فعل.. كان الجميع تقريباً يفكرون بالذي سيحصل لهم بعد وقت قصير. هذا الشيء واضح من العلامات المرسومة على وجوههم.

كان الخوف هو العامل الأول واللامجهول والحادثة التي ستتحقق بعد قليل والعامل الذي سيمنع عنهم الخوف واللهفة واللامبالاة: عندما شاهدوا الرصاصات تتطاير في السماء مثل شرارات النيران الصغيرة.

كانوا قد فهموا أنهم قد اقتربوا كثيراً من كل شيء. كانوا يستطيعون رؤية المعارك التي تُدار في الساحة التي اتجهت المروحيات نحوها. كانوا يقتربون من /ميشيل كوي/ والمكان الذي سينزلون فيه ليس آمناً بكل معنى الكلمة. كانوا ينزلون في قلب مدينة ضخمة جداً وهذا الشيء كم يكون فيه من الأمان يا ترى؟ وبالأصل كانوا قد بدؤوا رؤية الرصاصات وهي تتجه نحوهم. كانت قد أصابت المروحية ولكنها لم تؤثر عليها.

كان الرئيس قد فتح الأزرار وبدأ بالاستماع إلى أصوات جنوده الموجودين في تركيا. بدقة كبيرة. تلك الأصوات التي كانت تصل إليه عن طريق الخطوط الموجودة داخل الدبابات. كان بمقدوره الاستماع إلى أية محادثة مختارة من أجله وذلك بالانتقال عبر الأزرار إلى القناة التي يريدها.

وكأنه يراقب المعركة التي كانت قد وصلت إلى آخر مراحلها وكأنه في داخلها تماماً. وكان رئيس الأركان /هوارد ستريك/ مثل الرئيس يحاول الاستماع إلى بعض المحادثات ولكن عبر أنظمة مختلفة وكثيرة.

كان بمقدوره وفي لحظة واحدة تعقيب وحدتين أو ثلاث ويتابع تقدمها ويستطيع رؤية الأهداف واتجاهها عبر شاشة الحاسوب.

- "هوارد.. الجنود هنا يصرخون على الدوام.. وشخصياً لم أستطع أن أتعلم كيفية عمل هذا النظام وقيادته.. رجاءً هل تخبرني بالذي يجري الآن هناك؟".

ضرب الرئيس بقوة على المقبض الذي في يده. ودار بالكرسي الدوّار دورة كاملة.. التفت إليه هوارد ستريك وعلى وجهه علامات الغضب وقال:

- "إن الجنرال /جوزيف ريد/ بدأ العملية باكراً على مسؤوليته الشخصية ودون أن يخبرنا بذلك يا سيادة الرئيس.. ربما تكون هذه الحركة منْ أهم الحركات في تاريخنا الحربي".

كان ثمة تباين في كلماته. وكأنه يريد سكوت الرئيس. كانوا قد طوّروا في التكنولوجيا بحيث كانوا يراقبون في أماكنهم وهم يتحدثون عن سدادة الأسلحة لفرقة المشاة الرابعة. ربما كل هذه التكنولوجيا المتطورة ليست جيدة على الدوام. وخاصة إذا كان يجلس قربك رئيس يحب الكلام أكثر من أي شيء آخر.

- "نستطيع أن نقول إن كتيبة رانجر قد سيطرت على المطار. تقريباً. وتصلنا أخبار جيدة. ولكن الأطراف بشكل عام خطرة جداً. لقد مات أكثر من خمسين من جماعة رانجر، وجُرِحَ كثيرون جداً.. ستبدأ المروحيات بعد دقائق بالهبوط على المطار.. وستعود حالاً بعد تفريغ حمولتها. سيتجه بعضٌ منها نحو الشمال كي تُعد النقطة الثانية. يجب أن نكون سريعين جداً.وإلاً سنخسر كل جماعة رانجر".

- "هل الجنود في خطر؟" كان الرئيس قد سأل سؤالاً منطقياً ولأول مرة.

- "لا يشاهد أية حركة للمدرعات. ولكن الخطر كبير هناك مقاومةٌ شديدة جداً. إذا دامت هذه الحرب لفترة طويلة فإن احتمال النصر قليلٌ عندما تقوم القوات الجوية بقذف المواقع التي تشير إليها القوات الخاصة، معهم أوامر بضرب كل شيء يتحرك في الطرقات".

- "هذا جيد.. أمان يا إلهي. لا أصدق ذلك. إن الأمور تسير بشكل جيد جداً جداً".

نظر هوارد بنظرات غاضبة إلى الرئيس وقال في نفسه: "إذا كان هذا الرجل المجنون يقول: إن الأمور تسير على ما يرام. فستظهر مشكلة ما بالتأكيد. أقول له: لو دامت الحرب لفترة طويلة لن ننتصر. وما زال يردد: الأمور تسير على ما يرام.

- "سيدي الرئيس: الآن وصلتنا بعض المعلومات عن الوحدات البرية. القوات التي تحركت من منطقة /درينجة/ تقابلها مقاومة عنيفة جداً إلى جنوب حوض سد /عمرلي/".

عندما سمع الرئيس كلمة المقاومة اهتز كل جسده فجأة. وكأن شيئاً غير عادي قد وصل إلى أذنيه. العملية التي كانت تجري على شكل حسن.. كانت تدخل المرء في احتمالات كبيرة.

- "من أي نوع هذه المقاومة يا هوارد؟ لا أعتقد أن الدبابات ستخرج أمامنا. لأنك قد ذكرت لي بأن كل دباباتهم قد سوِّيتْ مع الأرض".

- "هذا صحيح يا سيادة الرئيس.. هذه ليست مقاومة مدرعاتية".

فكرٌ بعض الشيء. وقرأ التقرير الذي وصله بدقة: "أعتقد أن المقاومة تجري عن طريق الصواريخ المضادة للدبابات والمحملة على السيارات الصغيرة: يقولون:

إنهم قد ضربوا لنا دبابات كثيرة."

ثم أدار زراً في المقبض الذي في يده وبدأ الاستماع إلى قائد فرقة المشاة الميكانيكية الرابعة الجنرال /هارولد فلين/ عندما فعل ذلك كان الجنرال يعرف ذلك. لم يستطع هارولد فلين السيطرة على نفسه عندما شعر بأن رئيس الأركان ينصت إليه وهو داخل عربته حيث بادره بالتحية والسلام.

- "سلام هودي. أظن أن خبر المقاومة قد وصل إلى عندكم ولكن لا يوجد شيء مهم. . هي حركة شجاعة من طرفهم ولكن مدرعاتنا حلت المشكلة.. وتم حرق عربات كثيرة منهم .

في اللحظة نفسها دخل الرئيس على الخط نفسه. "أنا أثق بك يا هارولد. الفرقة ٨٢ بدأت، يجب أن تتقابلوا معهم مباشرة".

- "سلام يا سيادة الرئيس. ونحن أيضاً بدأنا حركتنا نحو الأمام قبل قليل. ولهذا السبب لا تستغربوا إذا وصلتكم أخبار عن المقاومة.

- هذا طبيعي جداً.. الأتراك يدافعون عن أرضهم ولا تستطيع أن تتهمهم من أجل ذلك. ولكن هم الذين يتحملون نتيجة أفعالهم يا سيادة الرئيس".

- "هارولد". كان صوت الرئيس آمراً.

نعم يا سيدي أجابه هارولد بنبرة صوت.. وكأنه يقول له فهمت ما تقصده.

- "لا يهمني بالذي يفعله الأتراك.. أنا أتخيل في رأسي تقابل الفرقة ٨٢ والفرقة المشاة الميكانيكية الرابعة في مكان واحد.

- لو تخبروني مباشرة يكون خيراً" وأنهى كلماته بقهقهةٍ. كان يُفكر بأنه قد مزح مزحة جميلة.

- "إلى جانب الخطط التي صنعتها يا سيدي يجب أن أُفكر بحياة جنودي.

انقطع الخط بشكل غريب. كانت ثمة علامات استغراب في وجه الرئيس. وبدأ ضرب المفاتيح وكأن في الأمر عطلاً.. كي يزيح عن نفسه بعض الكآبة والقلق. تدخل هوارد ستريك مباشرة:

- "أعتقد أن ثمة عطلاً قد حصل في الأقمار الاصطناعية يا سيدي الرئيس".

(كانت عينا أرسين قد فتحتا مثل/ حجر الحظ)

عندما شاهد العربات العملاقة فوق سطح البحر شعر بأن صابونة ركبتيه قد حلت من الخوف. لم يكن يعلم المدة التي سار فيها. ولكنه كان قد وصل إلى الطريق الساحلي. بين /أتاكوي/ والمدرسة الفنية العسكرية. كانت الرصاصات تتطاير حوله. والمعارك قد انتشرت بين منطقة /أتاكوي/ و /شيرين آفلر/. كانت كتائب رانجر قد ردت الوحدات التركية المدافعة عن المطار إلى مسافة بعيدة.

كانت بعض الحرائق تتراءى في بعض العمارات العالية. أما المطار فقد هدأت فيه الحركة وساده السكون. وكانت تتراءى بعض النقاط الدفاعية الصغيرة التي أقيمت بعجالة. كانت المروحيات التي شاهدها /أرسين/ قد بدأت تقترب من البر وهي تطير منخفضة فوق سطح البحر كأنها تلمس البحر من شدة انخفاضها. ربما ستنزل بعد دقيقة على المطار وستعمد على إقامة قاعدة قوية هناك. في تلك اللحظة تماماً سمع أرسين صوتاً.

وعندما التفت نحو الخلف شاهد بعض الرجال المسلحين يخرجون من بين الأعشاب الكائنة بين الطريق والبحر. وبعضٌ منهم كان متمدداً. كانوا يؤشرون له بأيديهم كي يذهب إلى مكان تواجدهم. وبعد أن نظر أرسين بلهفة نحو المروحيات للمرة الثانية.. ذهب إلى الجنود جرياً. ورمى بنفسه على الأرض مباشرة. كان الجنود يلبسون ألبسة خضراء غامقة وعلى رؤوسهم /برييات/ خضراء أيضاً. كلهم كانوا ضخام الأجساد. كانت القوات الخاصة للشرطة قد تمركزت في تلك المنطقة.. كانت أعدادهم غير معروفة.. وكانوا يتراؤون وكأنهم قد حوّلوا منطقة المطار إلى ما يشبه حديقة للأزهار. كان الجميع يحملون في أيديهم بنادق من طراز **M – 16**.

كانوا قد ملؤوا ظهورهم بالمخازن وثمة مسدسات كبيرة معلقة على أكمارهم.. وكان عدد منهم يحمل رشاشات أتوماتيكية من طراز /**FN**/. ذات الألف طلقة. وكان الإرهابيون يسمون هذه الرشاشات بـ /الفتاة المجنونة/.

عندما تمدد أرسين على الأرض اقترب منه رجل عرَّف نفسه على أنه /الكوميسير الأول/. وبدأ يضع فوق أرسين أعشاباً ليستره. كانت المروحيات ستمر من فوقهم بعد قليل وتنزل إلى المطار.. بالأصل لو أطلقوا النار عليها ربما

يسقطون عدداً منها. و لكن هذه تكون نهايتهم أيضاً. كانت كل المروحيات الناقلة معززة بجميع أنواع الأسلحة الثقيلة.

- "انظر يا بني ألا ترى ذلك الرجل الذي يحمل السلاح الكبير.. اذهب إليه مباشرة واحمل علبة السلاح التي بقربه.. هل فهمت؟"

كان من المستحيل أن يعمد /أرسين/ إلى معارضة كلمات هذا الشرطي الذي ينظر إليه نظرات مرعبة.. وله شارب كثيف وشعر مجعد.. كان ضغطه تقريباً قد وصل إلى الذروة. وكان يفكر بأنه سيموت في كل لحظة جراء أزمة قلبية حادة. كان عليه الاشتراك في المعارك وهو يحمل مثل هذه الأفكار.

لم يكن حتى للخيال مكان في تصوره على أنه سيقوم بذلك. ولكنه حصل حقيقة. كانت أطرافه مملوءة بالرجال المسلحين. وكانت ثمة طاقة مرعبة تحل فيهم.

- "تكرم يا أخي" لم يستطع أن ينطق سوى بهاتين الكلمتين.. كان يرتجف مثل أوراق الشجر.. ابتسم الشرطي.. ودحرجه على الأرض. حتى أوصله إلى جانب الشرطي الآخر الذي كان يحمل الرشاش الثقيل.

وقد أنزل صفعة على رقبة أرسين وقال له: "تعال لهون ولك" كانت ثمة علبة كبيرة موجودة قربه.. كانت مملوءة بمخازن الرشاش.

- "عندما أصرخ لك.. أعطني.. تعطيني مباشرة.. هل فهمت؟ ولكي تكون سريعاً. ستحمل على يديك مخزناً على الدوام.. عملية احتياط ليس إلا."

- "تكرم يا أخي." لم يكن أي شيء يقوله أكثر من هذا.

عندما بدأت أصوات هدير محركات المروحيات العملاقة الناقلة قد ملأت أذنيهم.. جمد الجميع في مكانه وبدؤوا الانتظار. كان أرسين لا يتنفس.. يجب أن تكون نبضات قلبه قد زادت عن المئة والخمسين.

في لحظة واحدة صار الظلام أكثر حلكة عندما اقتربت المروحيات من الأرض... لم يظل أي شيء فيه.. كل شيء تبعثر نحو الهواء... حيث تعكرت الأجواء بالأدخنة والغبار.. لم تكن العين ترى العين التي أمامها مباشرة وكأن آذان الجميع قد صارت صمّاء. شعر أرسين بأنه وحيد تائه. لم تكن الأصوات تنقطع لحظة

واحدة. للحظة واحدة رفع رأسه ونظر نحو السماء من بين أصابعه. كأنهم داخل إعصار قوي. ثمة مخلوقات عملاقة كانت تمر من فوقهم. كان يستطيع رؤية أرجل الجنود المهتزة. حتى أنه استطاع رؤية السبطانات الخارجة من النوافذ. قال في نفسه: كم أنا قريب من الموت يا إلهي.. شعر فجأة أن سرعة نبضات قلبه قد خفّت بعض الشيء.

هذا غير ممكن أبداً. في الوقت الذي هو قريب من الموت.. لا.. مستحيل أن تعود النبضات إلى حالتها الطبيعية. ولكن كان قد حصل. كان جسده قد أعطى ردّ فعلٍ إيجابيٍ. وقلبه يخفق بكل حرية. لم يشعر به من قبل. حتى الخوف من الأزمة القلبية كان قد تلاشى. كان واثقاً من جسده.. الإنسان الذي بمقدوره أن يعطي أو يفتح صدره لهذه الأسلحة الضخمة. لا يمكن أن يتفاعل مع الخوف.

لم يستطع فهم الدقائق التي مرت بهذه السرعة. بعد فترة شعروا بأنه لا يمر شيء من فوق رؤوسهم.. ولكن نزول الغبار من السماء أخذ مدة من الوقت. قام الكوميسير على رجليه وأشار بيده للآخرين بالبقاء على الأرض. وجرى بسرعة إلى الطرف الثاني من الطريق. وبدأ يراقب عملية إنزال الجنود بمنظاره بعد أن ستر نفسه خلف جدارٍ قليل الارتفاع الذي يفصل الطريق عن الساحة. كانت عناصر الشرطة الخاصة قد جهزت أسلحتها أيضاً. نظر حامل الرشاش إلى أرسين وابتسم وقال: "لا تخف ولَك".

- "لا.. يا أخي".

عاد الكوميسير إلى مكانه القديم جرياً. ولكنه بقي واقفاً على رجليه في هذه المرة. وقال:

- "ما رأيكم لو نهاجمهم من هذه الجهة..؟"

كان أرسين لا يصدق أذنيه. كيف يستطيع التفكير بالهجوم على هذا العدو بعدد قليل من الرجال؟ للحظة واحدة لم يستطع أن يتمالك نفسه حيث قال: "هذا جنون ولك أخي.. كلكم تموتون.. عددكم لا يصل حتى الخمسين".

سكتت عناصر الشرطة الخاصة للحظة ونظرت نحو أرسين... فحصه /الكوميسير/ بعيون مشفقة وقال:

- "الولد على حق والله" ثم أشار بيده نحو المنطقة المشجرة التي تلي المنطقة العشبية: التفت أرسين أيضاً نحو تلك الجهة. لم يستطع أن يُصدق عينيه.. كانت مئات الأجساد قد بدأت بالحركة والظهور من بين الأشجار. كانوا كلهم من عناصر الشرطة الخاصة المدججين بالسلاح من رأسهم حتى أخمص قدمهم. عندها فقط فهم أرسين مكان وجوده. اهتز جسده من الهول. عندما عرف بأنه سيكون في الخطوط الأمامية لمعركة إستانبول المتوقعة. حيث اصفر جسده من الهلع.

كان الكوميسير قد فهم موقفه.

وقال له: "هل أنت معنا أم لا يا ابني؟"

كان ثمة جواب واحد يستطيع أن يقدمه: شعر بأن شعر جسده قد تحول إلى شوك من التوتر والخوف. وبأن كل مكان في جسده قد تعرق. كان يشعر بالدوار والغثيان. وإذا لم يقدر أن يتمالك نفسه لبقي في أرضه. في الوقت الذي كان ينظر فيه إلى وجه الكوميسير شعر بأن شيئاً غريباً قد بزغ من أعماقه وبدأ بالسيطرة على دماغه. نزل نحو الأسفل ببطء شديد. وإذا بطاقة حارة تلفُ قلبه. كان الخوف قد تحوَّل إلى دخان وطار عنه فجأة.. كان يشعر بأن أحاسيسه قد بدأت بترك جسده.. تلك الأحاسيس التي أسرته على مدى سنوات طويلة مملوءةٍ بالخوف.

أدار رأسه ونظر إلى حامل الرشاش. أسرع إليه وحمل العلبة المملوءة بالمخازن. ووقف إلى جانبه. كان أرسين أيضاً جاهزاً للقتال.. كان زمن الخوف والحكايات والأشخاص قد ولىَّ بعيداً. الآن يجب التفكير فقط بالحياة والبقاء فيها.

في هذه الأثناء لاحظوا أن مروحيات أخرى قد ظهرت فوق سطح البحر. وقف أحد العناصر على استقامة المروحية. التي كانت تطير في الساعة مئة كيلو متراً تقريباً. وهي من طراز /بلاك هوك/ كان يقف على رجليه برشاشه FN كقاعدة من حجر. كان الطيار لم يره. فكيف بالمسلح الذي إلى جانبه.. كان قد صار عددهم ثلاث مروحيات الآن.

عندما وصلت إلى مسافة مئة متر تقريباً.. بدأ الرشاش يراجع ألسنة نارية.

كانت واجهة المروحية الأولى قد تهشمت. ونزل رأس الطيارين نحو الجانب. كانا وكأنهما قد أغمي عليهما. في البداية ظهر دخان أبيض من المروحية.. ثم تلاه

دخان أغمق من البياض وتحول إلى دخان أسود.

دام سقوط المروحية خمس ثوانٍ فقط. أما الأخريان كانتا قد اتجهتا نحو الجانبين وكانت الرشاشات الأربعة الموجودة على أطرافها قد بدأت بإطلاق نيرانها.. كانت هذه النيران قد جلبت نهايتهم. حيث تم ضربهم من جباههم بوساطة القناصين الشرطة الذين كانوا متسترين. ثم سددوا على الطيارين الذين كانوا قد بدؤوا بتهريب الطيارتين، كانت المروحيتان قد بدأتا تخرجان دخاناً أبيضاً وهما تبتعدان من تلك المنطقة.

قال عناصر الشرطة في نفوسهم: "بكل الأحوال ستسقطان بعد قليل".

في هذه الأثناء كانت القوات القوات الأمريكية التي نزلت إلى المطار، بدأت بالاشتباك مع الشرطة الذين حاصروا المطار من كل الأطراف.

كان قسمٌ من مروحيات الفرقة ٨٢ للإنزال الجوي قد هبط في مكان يُعد نظيفاً إلى حدٍ ما. لأن جماعة /رانجر/ كانوا قد نظفوها ثم لاحظوا أن القوات الخاصة للشرطة قد حاصرتهم هناك. حيث بدؤوا بالاشتباك معهم. أما القسم الأخر من المروحيات فقد اتجهت بسرعة إلى الناحية الشمالية الشرقية من/سيران تبة/. هذه العملية كانت بحد ذاتها نوعاً من الجنون ليس إلاّ. كان الهبوط إلى المطار أكثر منطقية وتعقلاً من الهبوط إلى هناك. ولكن العملية بأكملها كانت تبتعد رويداً رويداً عن المنطق والعقل. لأن إقلاعها للمرة الثانية ربما لا يحدث لشدة المعارك القائمة في تلك الساحة.. كان ضباط الأركان الأمريكيون يرمون جنودهم إلى الخطر الزائد. كي يرفعوا جنودهم وعساكرهم إلى الحد الأعظم. كانت الطيور العملاقة تتجه نحو أهدافها. مارة من فوق الأحياء الشعبية على شكل كومات معدنية.

في الوقت الذي كان فيه الصباح المظلم. يُسلِّمُ نفسه ليوم غائم جزئياً. كان الجنود الأمريكيون الذين يمرون من فوق الأحياء الشعبية. قد شعروا وللمرة الأولى بالتأثير المباشر للغارات الجوية الأمريكية على هذه الأحياء. وبهذا الشكل الواضح. كان كل شيء في الأحياء.. المساكن والعربات وكل شيء. كان يتراءى محروقاً.. لم يكن أحد يدري كم هو عدد الذين ماتوا.. وكيف ماتوا؟ ولكن هذه

الأمكنة كانت لأناس يصارعون الحياة قبل هذه الحرب بعدد قليل من القروش.

كان الجنود الذين ينظرون عبر نوافذ الطائرات نحو الأسفل. يدعون ربهم كي لا تصاب طائراتهم بسوء وتسقط على الأرض. وخاصة إذا ما سقطوا فوق تلك الأحياء. وإذا بقي أحد منهم على قيد الحياة. ماذا كانت ستصير حاله. كانوا لا يريدون التفكير حتى في هذا الأمر. كانوا قد شاهدوا قبل قليل ماذا فعل الشعب بالجنود الأمريكيين الذين سقطت طائرتهم في منطقة شعبية مزدحمة. كان الطيارون يستعملون الأجهزة الخادعة للصواريخ عسى ولعل ترفع شيئاً من حظوظ بقائهم على قيد الحياة. حيث كانوا يرشون الشرارات الخادعة نحو كل الجهات.. والناس الذين يشاهدونها يغلقون أبوابهم ونوافذهم ويسحبون ستائرهم خوفاً من الغارات ومن هذه الشرارات النارية الخادعة. كان بمقدور الجنود مشاهدة الناس في الشوارع.. لأن الصباح كان على وشك أن يشرق على العالم.

عندما بدأت المروحية الأولى بالانخفاض بسرعة نحو الأرض.. تعقبتها الأخريات... حيث اقتربت أكثر من ستين مروحية من الغابات والأماكن الخضراء الأخرى. خلف بعضها بعضاً. حيث وقفت في وضعية /الهوفر/ لا ترتفع كثيراً عن الأرض. بحيث يستطيع الجنود النزول منها براحة تامة دون أن تلمس عجلاتها الأرض. وبعد إنزال دام عدة دقائق.. حلقت ثانية واتجهت ثانية فوق بحر /مرمرة/.. كان عليها الوصول إلى البحر ومن ثم إلى قواعدها في /أزميت/ خلال وقت قصير جداً. كان الطيارون قد بدؤوا بالرجفان من الانفعال الشديد.

كان هو الجنون بعينه.. لم يكونوا يصدقون بأنهم لم يصابوا وأنهم على قيد الحياة.. فكرتهم هذه لم تدم طويلاً. في الوقت الذي كانوا فيه بعيدين عن البحر وإذا بهم يتعرضون لوابل من النيران الكثيفة. كانت هذه النيران تصدر من الرشاشات الثقيلة ومن نقاط كثيرة. كانت النيران تقريباً قد أصابت كل المروحيات التي تطير على نسق واحد. إلا أنهم كانوا محظوظين لأن هذه النيران ما كانت تستطيع إنزالهم. أما الطيارون الذين كانوا يأتون من الخلف فقد انتشروا في السماء ليخلصوا أنفسهم من هذا المأزق الذي وقعوا فيه.. وكانت الرصاصات الخطاطة تصيب الجيوب الخارجية للمروحيات وتنطفئ هناك. بعد فترة غابت

المروحيات عن الأنظار وهي تطير بشكل متأرجح. أما الجنود الذين نزلوا داخل الغابة وضواحيها فقد شاهدوا سقوط إحدى مروحياتهم هناك. أما الأخريات فكانت قد نجحت في تخليص نفسها من النيران الكثيفة المتجهة نحوهم.

كان حكمت باشا موجوداً في قبو واسع من أحد البيوت المجهولة. يناقش مع ضباطه الأوامر والتعليمات والعمليات الحاصلة. وبما أن الجيش الأمريكي يملك المعلومات الكاملة عن تركيا وكل شيء فيها. كان هذا المقر قد أقيم بشكل مؤقت في مكان سري غير معروف. كانت هذه البناية لأحد أصدقاء الضباط. وحقيقة كان قبواً واسعاً جداً يتسع لكثير من الأجهزة. والأقنعة والأغراض. لم يكن أحد من الأعداء يعرف مكان هذه البناية حتى الآن. كان عليهم الابتعاد عن الأنظار بكل السبل والوسائل. ولكن كانت هذه المنطقة ستكشف أمام كثير من البشر بعد فترة وجيزة. حتى أن الخطورة تتحقق. عندما يدخل كثير من الناس إلى هذه البناية. كان عامل الحظ في بعض الأحيان مهماً جداً في الحرب: حيث يشكل نوعاً من /الآفنتاج/ لكثير من الأشياء.

- "استيقظت إستانبول هذا الصباح على الغارات الجوية.. وبناء على الأبناء التي وصلت لنا. أن الجنود الأمريكيين قد نزلوا إلى قلب إستانبول بعملية تعد الأكبر من نوعها حتى الآن. بوساطة المروحيات.

- "المعلومات الواردة تشير إلى أن المطار تحت سيطرتهم وأن قواتنا الدفاعية المرابطة هناك قد انسحبت نحو /آتاكوي/ و /شيرين أفلر/.. ولكن الهجمة التي قامت بها قواتنا الخاصة أنزلت بالعدو خسائر فادحة. إن ميزانية الحرب بالنسبة إليهم أيضاً بدأت تزداد باضطراد".

- "إن كل شيء يتحقق كما تصورناه. لو حاولنا إيقافهم قبل وصولهم إلى هنا.. لكانت خسائرنا كبيرة جداً.. وكنا نُضيِّع المزيد من قواتنا التي نحن بحاجة إليها الآن."

في الوقت الذي كان فيه حكمت باشا يتحدث.. كان يشير بيده إلى بعض النقاط في خريطة إستانبول التي كانت أمامه.

كان يتحدث ويُفكر. ومع الأسف الشديد كانت أمامه الآن خارطة إستانبول

فقط وليست خارطة تركيا بأكملها.. كان ارتباطهم مقطوعاً عن باقي المناطق في عموم البلاد. كان /بارس/ يتمنى أن يكون الضباط هناك يعملون سواسية مع الشعب. يديرون الأعمال ويضعون النقاط على الحروف في عموم المشاغل الحياتية. حتى الأخبار لم تكن تصلهم من أنقرة.. ومنذ وقت طويل.. كانت ثمة مسؤولية كبيرة قد وقعت على كاهله. كان عليه تشكيل وتنظيم مقاومة ضخمة جداً. كان مجبوراً على ذلك. إذا كانت المقاومة غير منظمة تبقى في حالة من التفكك والاضمحلال. ولا تستطيع التأثير أبداً. قال مؤنباً نفسه: "لماذا لم نفكّر بهذا الريسك وأخذنا الاحتياطات اللازمة قبل ذلك".

الشيء الوحيد الذي كان عليه القيام به هو تخليص المدينة من هذه الهجمة. كان ثمة صوت في أعماقه يقول له: إن العملية الأمريكية في إستانبول ستكون النقطة الراجعة. إذا استطاع توقيفهم هنا. كانت ثمة أشياء كثيرة ستتغير.. ولكن لم يكن يستطيع فعل أي شيء دون العودة إلى فكره وعقله.. ما هو وضع الجنود الأتراك الموجودين في قبرص ويقدر عددهم بستين ألف جندي؟ يجب أن يكونوا تحت الهجمات الجوية ومنذ وقت طويل. حتى من الناحية الإمدادية والإكمالية يجب أن يكونوا في وضع سيء جداً. وكان بمقدور القبارصة اليونانيين التقدم نحوهم في كل لحظة.. الشيء نفسه يحصل لبقية الحدود أيضاً.

قال في نفسه: "ليقهرهم الله... كان علينا أن نكون جاهزين لأية غارة مفاجئة بهذا الشكل".

- "أيها الزملاء نحن بعد الآن كأي عنصر من عناصر المقاومة. أنا أيضاً معكم في كل لحظة. لقد أخذنا أسلحتنا وسنذهب إلى القتال.. ليس لنا عمل آخر نقوم به. ليكن الله ساعدنا ومساعدنا"."

"ملأ الغرفة صوت: "آمين".

كان العميد /كمال تورك كان/ يقف على باب القبو.. فقال له حكمت بارس: "خذ رجالك كلهم يا كمال.. يقولون إنهم قد اجتمعوا في جوار /سيران تبة/ حاولوا بقدر المستطاع بسمرتهم في مكانهم ليبقوا محاصرين.. إذا ما انتشروا داخل المدينة... يريحون نفسياً ـ حيث يعطون للعالم رسالة. بأننا سيطرنا على المدينة.

وهذه تؤدي إلى قيام حركات أخرى".

كان /كمال تورك كان/ قد فهمم طلب قائده مباشر. كان عليهم القيام بمعركة جبهوية عادية مع القوات الأمريكية وليس قتال شوارع. فكّر في نفسه. أنه لا ضرورة للانتظار أكثر من هذا. كان الأمر قد جاءه من أكبر مرجع آمر. وعليه أن ينفذه على الفور. كان قد بدأ بتهنئة نفسه بالموت. وكان مجبوراً وعليه فعل هذا. لأن العدو لم يكن من الأعداء الصغار الذين يستسلمون بسهولة. إذا لم يجهز نفسه للموت فكيف يطلب من جنوده ذلك؟

كان الرئيس يدقق تفاصيل العمليات الواردة إليهم في غرفة الحركة على الدوام. كانت الفرقة الميكانيكية الرابعة للمشاة قد بدأت بالهجوم.. ولا يذكرون شيئاً عن الخسائر. كانت التقارير الواصلة تشير على أن الخطوط الدفاعية التي أقيمت بعجالة لا تستطيع المقاومة أمام الدبابات. كانوا قد اقتربوا كثيراً من الأماكن السكنية بجوار حوض سد عمرلي.. كانت الدبابات الأمريكية تضغط وبشكل كبير على الناس الذين كانوا يعيشون في تلك المناطق.

- "هوارد إن الأمور تسير على ما يرام بكل معنى الكلمة".

كان قد وجهّ هذه الكلمات إلى هوارد ستريك الذي كان مشغولاً مع بعض الضباط يملي عليهم الأمر. وكان الرئيس بالأصل منزعجاً منه لأنه لم ينفذ كل أوامره كما طلبها.. كان وجود الرئيس بينهم وتحركاته الصبيانية تخرب عليه أمنه وسكينته. كان قد تعلّم شيئاً وهو ألا يعطيه أي جواب. كان الرجل يلعب لعبة الحاسوب كالأطفال. ويتصرف تصرفات غير مرضية وهو يتحدث:

- "قهرهم الله..."

كان ستريك قد نظر إليه ليفهم سبب صراخه. ولكن وجه الرئيس كان ذابلاً.

- "انظر إلى هنا.. إحدى دبابات الفرقة الرابعة قد طارت في الجو.

وأظن أن سبب ذلك لغم أرضي".

بعد هذا نظر هوارد ستريك إلى شاشته وأكمل عمله.. من يدري كم سيأتي من أخبار الخسائر بعد الآن؟ كانت المعركة الواقعة في المطار هي التي يفكر بها كثيراً. في الوقت الذي كانوا يفكرون فيه بالسيطرة. كانت المعركة تدور

رحاها بشدة. وأعداد الخسائر حتى الآن كانت غير معروفة. كان الجنود قد طلبوا دعماً جوياً.. كانت مروحيات /الآباتشي/ المتحركة من أزميت إلى جانب طائرات /A- 10/.. تقذف القوات التركية في المطار. وبما أن الهجمات لم تكن مدعومة بالمدرعات فالنتيجة لن تكون إيجابية بالنسبة إليهم.. كانت هذه المعركة من أكبر وأشد المعارك التي كان تدور وجهاً لوجه. وبالسلاح الأبيض.

وكان عناصر اللواءين من الفرقة ٨٢ قد صعدوا إلى المروحيات العائدة ينتظرون التحرك. ولكن الأخبار لم تكن تصلهم من الوحدات التي نزلت إلى إستانبول.. كانت المعارك شديدة بحيث أن القوات الأمريكية لم تكن حتى تطلب الدعم والمساعدة من القاعدة.

كان قائد الفرقة ٨٢ الجنرال /جوزيف ريد/ يتعقب العمليات وهو داخل طائرته المروحية من طراز /MH - 531/ فوق بحر /مرمرة/. وكان معه في الطائرة بعضٌ من الضباط الإداريين.. وهم عميد وعقيد ونقيب ومعهم اثنا عشر عنصراً من الكوماندو. وكانت هذه القوة الصغيرة من مرتبات هذه الطائرة على الدوام.

أشار الجنرال بيده إلى جزيرة في الأسفل وتحدث مع العميد:

- "لنقيم فوق هذه الجزر قاعدة لطائرات الأباتشي".

كان ريد يتحدث صارخاً من كثرة الأصوات الموجودة داخل الطائرة. فوافقه العميد بهزة من رأسه. وطلب من النقيب أن يخبر القاعدة الموجودة في أزميت بهذا الخبر. كان بمقدورهم إرسال أحد الخبراء إلى تلك الجزر ومعه وحدة عسكرية صغيرة. لتعيين مكان.. تستطيع فيه المروحيات النزول براحة.

كانت الأخبار تصل تباعاً عبر اللاسلكي. كانت ثمة هجمة مضادة كبيرة قد شُنت على الجنود الموجودين على جوار/ سيران تبة/.. كانت أصوات الجنود الأمريكان تذكر بأيام الحرب الفيتنامية. كانت هذه الحرب قد خرجت من الحرب السياسية إلى حرب البقاء على قيد الحياة.

قال جوزيف ريد وهو ينظر بالمنظار إلى الهجوم القائم على المطار في نفسه: "لقد بدؤوا الحرب الحقيقية: وكان يستطيع رؤية المروحيات التي كانت تطير فوق

البحر ثم تهجم على أهدافها في البر. كان عليهم ألا يقتربوا كثيراً.

كان ثمة نيران أسلحة متنوعة تتوجه نحو الطائرات. ومن ثم بدأت الأخبار تصل من منطقة /سيران تبة/ وكان قائد أحد الكتائب.. يرسل إشارات استغاثة ونجدة.. بأنهم قد وقعوا بين فكي الكماشة وأن ثمة هجمات تشبه الهجمات الانتحارية... تضربهم. من الآن كان عدد الجنود الذين ماتوا قد وصل إلى اثني عشر جندياً.. وكانوا قد انسحبوا نحو الخلف مسافة مئة متر تقريباً من أول موقع نزلوا فيه.

غضب جوزيف ريد كثيراً بعد أن وصله هذا الخبر. في البداية لم يعرف ما الذي سيقوم به. كان عليه أن يقلب الموقف هناك رأساً على عقب لصالحهم.

كانت الطلبات قد انهالت لمساعدة القوات المحاصرة هناك. وذلك من القوات الجوية.. حيث كانت طائرات /أف ١٥٠/ قد بدأت تتجه نحو تلك المنطقة وطائرات أخرى من طراز /A 10/. كانت ثمة حربٌ غريبة تدور رحاها هناك. كأن العالم قد توقف كلياً ليشاهد حرب إستانبول.

بحركة آنية مفاجئة قال جوزيف ريد للعميد بضع كلمات. لم يصدق العميد الذي سمعه. ولكنه كان مجبراً بتنفيذ الأمر. ذهب إلى عند الطيار وهمس بأذنه بعض الكلمات. التفت الطيّار ونظر إلى قائده.. كانت الإفادة الموجودة على وجه ريد تشرح أشياء كثيرة.. تحركت المروحية وقامت بمناورة قاسية واتجهت نحو المطار.. كانوا يعطون التعليمات عن طريق اللاسلكي بأن الجنرال شخصياً سيقوم بتعقب الجنود ويرى بنفسه جو المعركة.

في الوقت الذي كانت فيه المروحية تنقض نحو المطار.. شاهدوا الرصاصات قد بدأت تتجه نحوهم. بعد عدة ثوانٍ سمعوا بأنها قد اصطدمت بخارج الطائرة المدرعة. في الوقت الذي كانت فيه المروحية تدور فوق المطار بعد أن خلصت نفسها من نيران الأسلحة. كان الجنود في الأسفل يلوحون بأيديهم لهم. حيث عمد الجنرال جوزيف ريد. برد التحية إلى جنوده عبر الرشاش الثقيل وذلك بإطلاقه النار نحو جنود الأتراك:

حيث زاحمت موجة من الانفعالات الشديدة صفوف جنود /٨٢/

وكثف إطلاق النار أكثر فأكثر.. كان جوزيف ريد يعرض نفسه في سماء

المطار وهو يلقي بنفسه إلى الخطر المحدق. كي يرفع معنويات جنوده. والحقيقة كانت هذه عملية إيجابية بالنسبة إليهم.

نظر الطيَّار بعينين شاكيتين إلى قائده حيث هزَّ ريد رأسه آمراً المتابعة..لم يكن الطيار قد أعجبه هذا الموقف.

غير مطلوب من المرء أن يكون بطلاً أكثر من اللازم عندما يتوجه نحو النيران. أما بقية العساكر داخل المروحية فكانوا قلقين جداً ولكنهم نظروا إلى قائدهم بنظرات لا معنى لها. كانوا يفكرون لماذا يفعل هذا الشيء. بدأ الطيار يطير منخفضاً.. واتجه بسرعة نحو /سيران تبة/ مع بزوغ الصباح كانت الغارات الجوية قد بدأت ثانية.

عندما وصلوا إلى جوار /سيران تبة/ اهتزت أجسادهم من هول المنظر الذي شاهدوه. كانت الحرائق قد بدأت في منطقة الغابات.. وساحة المعركة اتسعت كثيراً.. كانت الأفواج الأمريكية قد أُجبرت على إطالة خطوطها لمواجهة المقاومين الذين يهجمّون من كل جهة وهذه العملية كانت تؤدي إلى ضعف بعض النقاط. عندما نظر ريد من المروحية فهم الوضع تماماً وأن الأمور ليست على ما يرام. طلب من الطيار أن يدور عدة مرات فوق ساحة المعركة... في الوقت الذي كانت فيه المروحية تدور هناك بدأت النيران الكثيفة تتجه نحوها. في هذه المرة تدخل عناصر الكوماندو الموجودون داخل الطائرة. حيث بدؤوا بإطلاق النار على النقاط التي كانت تخرج منها النيران. حتى الجندي الذي كان يعمل بالرشاش الثقيل. كان قد بدأ بإطلاق النار بشكل جنوني.كان عساكر الـ ٨٢ وكأنهم في حالة من الحيرة والدهشة. كانوا يقولون في أنفسهم: "إن هذا المجنون هو قائدهم. بدأت ثمة حركة بين الجنود.. نزلت المروحية بسرعة نحو الأرض وحطت عليها. كانت عملية تشبه النزول والاصطدام. أسرع الجنود الذين نزلوا من المروحية ووجدوا لأنفسهم خنادق تقيهم من النيران. كانوا الآن آمنين لأنهم كانوا على سفح هضبة صغيرة.. بعد فترة وجيزة وجدوا العقيد قائد الكتيبة. كانت ثيابه مغطاة بالأوحال والدماء والشحار.

كان قد ساعد على نقل العساكر الجرحى. وهذا كان واضحاً من جملة

شخصيته. "يجب أن نخرج من هنا فوراً يا سيدي".

- "نعم يا سيادة العقيد ولكن بعد أن ننظف هؤلاء الذين أمامنا".

هزَّ العقيد رأسه وكأنه يقول: "يا إلهي". ثم دعا ضباطه وعمل خطأً جديداً: وساعدهم الجنرال أيضاً. طلب الجندي المتقدم وصعد مكانه على قمة الهضبة وألقى بنظره إلى الموقع بشكل عام. وضغط على إحداثيات الجهاز بنفسهْ وطلب مساعدة من القوات الجوية.

كان جوزيف ريد حزيناً لأنه أنزل جنوده في منطقة خطر ومغلقة بهذا الشكل. ولكن إذا استطاع إخراجهم من هنا. كانت المعركة ستتحول لصالحهم. حتى أن الأتراك كانوا قد فهموا هذا الأمر. بحيث أنهم كانوا يأتون بعساكر إضافية. ويشتركون في القتال.

بعد دقائق ظهرت الطائرات.. والقنابل بدأت تنفجر فوق الهضاب التي كانت أمامهم. وبعد أن حقق جوزيف ريد لفترة قصيرة وجد أن الفرقة ٨٢. لم تستعمل كامل قوتها. وبدأ شخصياً على إدارة المعركة. في الوقت الذي كانت فيه الغارات الجوية قائمة.. جاء الخبر عن طريق اللاسلكي من ريد بأن أرسلوا اللواء الثاني. كان يريد إنزال اللواء الثاني قريباً من المسلخ والأراضي المحيطة بها. بعد عدة دقائق من إعطائه الأمر كانت الطائرات العملاقة من طراز /47 -° CH/ وطائرات /بلاك هوك/ وطائرات /53 - CH/ ولكن كانت هذه الطائرات ستصل إلى تلك النقاط وهي متفرقة بعد أن تكبدت بخسائر عدة من جراء النيران الأرضية التي توجهت لها.

كان الرئيس قد صار في حالة بحيث أنه لا يستطيع أن يفهم الأخبار الواردة إليه. الشيء الوحيد الذي كان يعرفه ويفهمه. أنه ثمة معارك ضارية تدور رحاها في إستانبول.. وخاصة في مركزها لم يكن يريد النظر إلى الشاشة كثيراً. لأن أخبار الخسائر كانت ترد فيها.. ربما تكون هذه الخسائر عادية.. ولكن عندما كان يفكر كسياسي.. كيف سيخاطب شعبه.. هل سيخبرهم عن أحزانه وخسائره؟

- "هاي هوارد.. كيف هي الأحوال بالنسبة إليك؟"

- "بالنسبة إليَّ يا سيدي الرئيس الأمور ليست حسنة. الفرقة ٨٢ للإنزال الجوي

تحارب ببسالة مطلقة. إذا انتصروا هناك.. معناه أنهينا هذا العمل. والفرقة الرابعة للمشاة تسير سيراً حسناً ولكنها خسرت الكثير. وهذا بالأصل كنا نتوقعه".

- "هل تعرف يا هودي أقول في نفسي. يا ليتنا قذفنا المدينة لمدة أطول".

كان هو.. الزعيم الكبير الذي تنتظره أمريكا. وكان شخصياً يصدق ظنه بذلك. وربما الرؤوساء الآخرون قاموا بواجباتهم على أكمل وجه.. ولكنه شخصياً، كان سيدخل التاريخ عبر أبوابه الكبيرة لأنه أعطى لنفسه الشجاعة كي يقوم بأكبر المهمات وأهمها.

كان وجه حكمت بارس متوتراً. لم تكن الأخبار الواردة تعجبه أبداً.

كان عدد الشهداء من عناصر الشرطة الخاصة كبيراً في المعارك التي حصلت في المطار. ولكن الشرطة كانت قد مسحت وحدة أميركية ممتازة. دون أن يكون لهم علم بذلك. وبسبب الغارات الجوية المتتابعة. كانت لا تبقى مع بعضها أبداً. كانت قد توزعت إلى مجموعات صغيرة وحاربت بهذا الشكل وكان عددها سبعمئة عنصر. ولكنها تتضاءل باستمرار.

كان الكونترول بيد الأميركيين في المطار. ولكن ثمة دلائل وإشارات قد بدأت تظهر بأنهم سيفقدون السيطرة من أيديهم. كان العدو من الناحية اللوجستية في حالة مزرية.. كان لواء آخر قد وصل لمساعدتهم.. كان بعض منهم قد أنزل في /يشيل كوي/ لمساعدة الموجودين في المطار وضواحيه. أما القسم الأكبر منهم. فكانوا قد اتجهوا نحو الشمال إلى /سيران تبة/ لمساعدة الجنود المحاصرين هناك. في هذه المرة كانوا قد رسموا قوساً كبيراً... حتى وصلوا إلى الأماكن السكنية في تلك المنطقة.

كان بارس والجنود الذين معه قد اقتربوا كثيراً من أماكن تواجد الجنود الأمريكيين القادمين من الشوارع الموازية لشارع /بريروس/.. وبرصاصة راجعة أُصيب أحد الجنود الذين كانوا إلى جانبه.. وفي الوقت الذي بدأ فيه الطبيب. بتقديم العناية للجندي الجريح.. كان بارس وزملائه قد بدؤوا بالجري بسرعة متقدمين نحو مخرج أصوات الرصاصات التي كانت تصم آذانهم. وفي الوقت الذي كانوا يتقدمون. كانت المروحيات التي أنزلت قسماً من الجنود تبتعد عنهم.

كانت القوات الأمريكية قد أقامت عدداً من الحواجز بين /سيران تبة ولفنت/ بما فيها الطرق الرئيسة والفرعية.. بعد إقامة هذه الحواجز بفترة قصيرة كانت القوات التركية تضرب هذه النقاط وتمحوها عن سطح الأرض كان بارس على وشك أن يصاب بالجنون. كان عليه أن ينهي هذه العبثية خلال وقت قصير. كانت الفرقة الأميركية قد بدأت تستقر داخل المدينة مع مضي كل دقيقة وساعة. ليس من حقهم أن يروا هذه العملية صغيرة وتافهة. كانت أميركا قد استعملت عشر فرق كوماندو جبلية مكونة من عشرة آلاف جندي كي تسيطر على عموم أفغانستان. حتى لو لم تكن سيطرتهم كاملة بكل معنى الكلمة.

على الأقل كانوا قد شكلوا قوة تمنع استيلاء الطالبان على الحكم ثانية.. وهذا ما كانوا يريدون تطبيقه هنا.. ولكن الأمر كان مستحيلاً بالنسبة إليهم.

عندما دار الزاوية وجد نفسه مقابل ثلاثة جنود أمريكيين فجأة في تلك اللحظة فكّر بأنه سيموت. ولكن فجأة سمع صوت الرشاش من ناحية اليمين. كان الأمريكيون قد أصيبوا اقترب منه جندي شاب وقدّم له التحية العسكرية. فقال له حكمت باشا: "استرح أيها الجندي من أنت؟/.

"أنا اسمي /عمر آلتين آل/ يا سيدي. عندما بدأت المعركة جئت متطوعاً."

- "حلال عليك.. ابقَ معي على الدوام. ولا تتركني".

لم يكن أرسين يستطيع أن يعطي أي معنى للشرطي الذي كان متمدداً على الأرض.. الرجل الذي كان يحارب إلى جانبه كالأسد. وكأنه قد تحوّل إلى ولد صغير. كانت الدماء التي تنزف من رأسه قد شكلت بحيرة صغيرة... كانا بعيدين عن باقي الرجال كثيراً.. عندما جاءت الطائرات كان كل شيء قد تحول رأساً على عقب. كانوا قد قتلوا عدداً كبيراً من الجنود الأمريكيين. كان قد سمع أصواتهم وهم يتدحرجون على الأرض.والرصاصات تمزق أجسادهم.

كانت الطائرات قد صبّت عليهم نيراناً كثيفة.. بحيث أن أرسين لم يكن يصدق بأنه على قيد الحياة.. ولكن الشرطي الذي كان يحمل علبة سلاحه قد استشهد. كان لا يدري ماذا يفعل وهو جاثم في زاوية إحدى البنايات. كان يستطيع رؤية الجنود الأمريكيين. وهم يُمشطون المنطقة. انزعج كثيراً لأنهم كانوا

يتحركون بحرية تامة. كانوا يتصرفون وكأنهم أنهوا كل شيء وانتصروا في المعركة. كان أرسين قد تعلّم كيفية استعمال الرشاش من كثرة مشاهدته له وهو يرمي به. أدخل أحد المخازن بالرشاش. وتمدد على الأرض مثل الشرطي تماماً ـ حيث تناسب الرشاش مع جسده. وأخذ النيشان. كان يستطيع رؤية الجنود الأمريكيين من /مكان النيشان/. كانوا ثلاثة أو أربعة جنود مجتمعين حول كومة من التراب. لمس الزناد بيده وضغط عليه بقوة. في لحظة واحدة بدأ السلاح بإرسال الرصاصات واحدة إثر أخرى نحو الهدف. وكأنه يطلق النار من تلقاء ذاته. حيث بدأت الصرخات تعلو من مكان تواجد الجنود. لم يكن أرسين قد شاهد عدد المقتولين منهم. ولكن يجب أن يكون قد قتل أكثر من واحد. بعد مرور عدة ثوانٍ بدأت الرصاصات تنهمر حوله. قام من مكانه وغادر المكان مباشرة. كان قد ترك سلاحه هناك. فكّر بالعودة ثانية. ولكنه كان قد رأى تعقب الجنود له. كانوا يتقدمون وهم يرمون نيران أسلحتهم. كانت الرصاصات تمر من جانبيه وتصطدم بأسطح المنازل وجدرانها. للحظة واحدة جمدت دماؤه.. كان يقف أمامه جندي أميركي مخيف الطلعة. كان على وشك أن يطلق النار على أرسين. جمد في مكانه دون أن يصدر أي صوت. وأغمض عينيه.. نعم.. كان يُفكر بأنه قاب قوسين أو أدنى من الموت.. قال في نفسه: "مرحباً بك أيها الموت". ولكن الموت ما كان يأتيه والضربة المعدنية ما كانت تصيبه. عندما فتح عينيه وجد أن أطرافه محاصرة. من قبل أربعة جنود. كانوا يطلبون منه التمدد على الأرض.. فعل ما طلبوه منه مباشرة.. كان الغضب يحرق أعماقهم. أو هكذا كانوا يتراؤون،وضعوا أقدامهم على رأسه وشدوا يديه خلف ظهره.. كان يتألم كثيراً ولكنه لم يكن يخرج صوته. كان يظن بأنه لو صرخ متألماً لقتلوه مباشرة. كانوا ضخام الأجساد ومن المستحيل أن يستطيع التخلص من أيديهم. كانوا يصرخون على الدوام. رفعوا أرسين عن الأرض وبدؤوا بسحبه نحو مركزهم. عندما كان أرسين يمشي. رأى الجنود الذين أصابهم ـ كانوا ينتظرون مجيء الطبيب. شعر أرسين بجروح تنزف من أعماقه عندما شاهد الجنود يتلوون من الألم. أنزل أحد الجنود على رأسه لكمة قوية. وكان قد قال شيئاً ما ولكنه لم يفهمه.

لم يكن بارس يستطيع تقبل هذه المقاومة التي تشبه المقاومة العراقية.

نعم. حرب العصابات بعد الاحتلال تنزل الخسائر الفادحة بالعدو. ولكنها تؤدي في النهاية إلى انقسام الوطن.. كما هو الحاصل الآن في العراق. كانت كل الاختيارات تنتهي تباعاً في يديه. كان قد انتظر المقاومة من الشعب. ولكنه حتى الآن لم يحصل هذا. لم يكن عندهم وقت كافٍ حتى يقوموا بتدريبهم وإعدادهم. وكان بعض الرجال المدربين قد ماتوا أو أصيبوا بجروح. فقرروا العودة إلى مقر العملية. وحاولوا نقل أكبر نسبة من الجرحى بقدر استطاعتهم. ولكن ليس بإمكانهم حمل الجميع. كان بعضهم سيترك للعدو. على الأقل كانوا يتداوون. دخلوا بين الأزقة بسرعة واتجهوا نحو المنزل /المقر/ كان الجو قد صار خطراً جداً.. كان الجنود الأمريكيون يهاجمون الناس بشراسة أكبر. وكانوا قد بدؤوا بالخروج إلى الطرقات بعربيات مدرعة خفيفة.

كان هوارد ستريك يرى بأن الأمور تسوء من سيء إلى أسوأ.. كانوا قد سيطروا على المطار وانتصروا في المعارك الشديدة الأولى. ولكن بقاء المطار في أيديهم كان يتراءى صعباً للغاية. كان قد مات أكثر من ألف جندي أميركي.

كان عليهم بعد الآن أن يدعموا النقاط التي استولوا عليها. وإظهار حركات لها تأثيرات سياسية كبيرة. وكان عليهم الانتقال إلى المرحلة الثانية وإذا ما وُضعتْ المرحلة الثانية قيد التنفيذ فمقاومة إستانبول بعد ذلك كانت لا تجدي شيئاً.. وإذا ما حركت تركيا الديناميكية والطاقات التي تملكها. فلا تستطيع أية قوة فعل أي شيء مقابل ذلك.

حيث تقوم أحجار /الدومينو/ بتهديم بعضها بعضاً. ويعم المنطقة توترٌ شديدٌ.. ولا يخرج من كل هذه التوترات رابح سوى أميركا.. ويجب أن تكون هي الرابحة على الدوام. ولكي يكونوا الرابحين الأول والأخير كان عليهم استعمال كروتهم بشكل ممتاز.

- "أنت رائع يا هوارد".

- "أدامك الله يا سيدي. ولكن الأمور لا تتراءى حسنة أبداً. إما يبدأ الانفصاليون بالعمل وإما سنخسر. وكما أردت قمنا باحتلال إستانبول".

- "ماذا ؟ هي تسمي هذا.. احتلالاً؟ لا تخرف.. نحن في الداخل فقط".

"هذا ليس مهماً. عندنا مطار نستطيع أن نريه للعالم. ولدينا مقر في قلب المدينة.. وهذان الشيئان يكفيان لنخطو بقية الخطوات".

"نعم اجمعوا كل المشاهد وأرسلوا الخبر إلى /CNN/ انا الذي سأقدم لهم هذه التصريحات.

كانت التصريحات قد هزت العالم هزّة أكبر من الزلزال العادي.

كان الناس في جميع أنحاء العالم قد استمعوا إلى التصريحات من التلفاز.. وكأنهم قد بلعوا لسانهم.. وبعد أن أنهى الرئيس تصريحاته. بدأت الشاشة تعرض المطار في بيشيل كوي والجنود الأمريكيون يعطون صوراً وهم يضحكون. وكانت طائرات /C - 130/.. تنزل وتقطع على المطار دون توقف وتأتي بعربات مدرعة. كانت عربيات /ستريكر/ المدرعة تتجمع في إحدى زوايا المطار. وبعد فترة قصيرة كان اللواء الأول من الفرقة ٨٢ سيتحول إلى وحدة مدرعة كاملة. عندها بإمكانهم الدخول إلى المدينة وإقامة عمليات بكل حرية.

هذه التصريحات كانت قد أنهت تردد الدول التي كانت روسيا تحاول إقناعها. حيث تم أخذ القرارات. وبدأت الأذرع الدبلوماسية بعمل مكثف. وكانت السرافيس السرية ترسل لحكومتها تقارير على الدوام. وكانت ثمة حركة عسكرية مهمة قد بدأت تظهر في روسيا. كانت فرق الدبابات تتوجه بسرعة نحو الحدود التركية.

وفي نيويورك كان ممثلو الدول الأربعة قد عقدوا اجتماعاً سرياً مع ممثل الولايات المتحدة الأمريكية في مجلس الأمم المتحدة. حيث استمع الممثل /كلارك م. شانتون/ بحيرة إلى تهديدات الدول الأربع.

قال ممثل روسيا: "تحركت الآن الجيوش الأربعة المشتركة نحو الحدود التركية. إذا لم تنسحبوا وإذا قمتم بأية هجمة. فستجدون أمامكم جيوش أربعة دول دفعة واحدة".

كان رئيس الوزراء طيب اردوغان يُحسُ بأنه قوي ونشيط. مع أنه لم يكن قد نام أكثر من ساعات قليلة طيلة هذه الأيام الطويلة. كان بوتين قد أخبره بتحركهم. الآن قواتهم وصلت إلى الحدود الأرمينية وعند أي طلب منهم سيقومون

بتقديم المساعدة للأتراك. وكانت كل من الصين وفرنسا وألمانيا سيتحركون معاً. كان قد أجابه:

- "يكفي أن ينسحب الأمريكيون من أرضنا. نحن نحمي بلادنا ثانية".

عندما أخبره مستشاره بأن حكمت بارس على الهاتف. قام من مكانه فوراً وصرخ بأعلى صوته: "لقد نجحنا يا سيدي".

قال رجب طيب أردوغان ضاحكاً: "توقف يا باشا. لنلتقِ في /باغجلر/. لنعطِ هذا الخبر إلى شعبنا بوساطة التلفاز. هذا الخبر يعطي القوة للمقاومين".

كان العالم في حيرة تامة من توازن القوى العالمي الجديد. كانت التطورات تحصل بسرعة مذهلة. قال هوارد ستريك في نفسه:

- هذا هو المتوقع: هذه اللعبة التي كان يلعبها هذان الشخصان لم تكن لعبة شطرنج عادية. كانوا قد أخذوا بقية اللاعبين على الخفيف. كان الأتراك قد ركزوا أنفسهم جيداً في هذه المباراة.

كان رئيس FBI روبروت موللر ومستشار CIA بورتر كاوس ووزير الخارجية /كونداليزا رايس/ ووزير الدفاع رونالد رامسفلد: كانوا يعقدون اجتماعات فيما بينهم يناقشون التطورات الجديدة.. قالت /كونداليزا رايس/

- "مستحيل.. حقيقة نحن قوة ضاربة /وسوبر/ ولكن إذا اتحد العالم كله ضدنا. فهذه الحرب تؤدي إلى الانهيار والانهدام".

لاحظ هوارد ستريك للحظة أن الرئيس غير موجود في الغرفة. حيث سألهم:

- "وماذا يقول الرئيس عن هذا الوضع؟"

و حدّ رونالد رامسفيلد أصابعه وقال: "في هذه اللحظة الرئيس يستمع إلينا. نحن الذين سنعطي القرار. أنا والسيدة /رايس/ أخذنا قراراً من عضوين بارزين من المحكمة العليا اللذين تخلصا من الموت أثناء ضرب واشنطن.. إذا لم نستطع إقناع الرئيس على تقديم استقالته. كان هوارد ستريك قد احتار في أمره تماماً. كان الاسمان معروفين بالشدة كانا يطلبان السلام حيث قال:

- "يجب أن أعترف أمامكم حتى لو لم نجد أية قوة أخرى أمامنا. فنحن في موقف صعب أمام الأتراك".

٧ حزيران ٢٠٠٧ . الساعة ١٧,٠٠

- نيويورك-

في الوقت الذي كان فيه كوكهان يستمع إلى التصريحات المعجزة استند إلى عكازه وقام على رجليه. وكأن الجلوس في تلك اللحظة نوع من قلة الاحترام.

كانت وزيرة الخارجية الأمريكية تقول: بأن الرئيس الأمريكي قد استقال من منصبه. وعين مكانه رونالد رامسفلد الذي كان قد عُين بعد موت /ديك تشيني/ في اللحظة النووية، نائباً للرئيس.

لم يكن الخبر المهم والأساسي هذا: كانت الحرب قد انتهت. كان الجيش الأمريكي سينسحب من تركيا في أقرب فرصة ممكنة.

كان المعلقون يتحدثون عن اجتماعات ديبلوماسية مكثفة وأن الدول الكبيرة قد أنذرت الولايات المتحدة الأمريكية. وخاصة الروس كانوا قد وصلوا حتى الحدود التركية. وصرحوا بأنهم سيراقبون انسحاب الأمريكيين من تركيا.

للحظة واحدة انتبه المعلق على الخبر الذي وصل إليه.

- "في هذه اللحظة أيها المشاهدون الأعزاء يقيم رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان مؤتمراً صحفياً".

غطست عينا /كوكهان/ في عيون الواقفين.. رجب طيب أردوغان وحكمت بارس وبقية أعضاء الحكومة الذين بقوا أحياء.

انتظر طيب أردوغان استقرار الصحفيين وانقطاع الأصوات من الصالة.

بدأ حديثه: "كانت هذه مجادلة /معركة صعبة جداً.. معركة البقاء. لقد خاضت تركيا امتحاناً فريداً من نوعه: شعباً وجيشاً.. لقد خاضت حرباً.. ماذا حصل وماذا لم يحصل؟ سنقف بالتفصيل حول كل ما حصل مستقبلاً.. أما الشي الوحيد الذي سنقوله الآن: انتهت الحرب وجمهورية تركيا ما زالت واقفة على رجليها".

في الوقت الذي كان فيه خطاب طيب أردوغان يترجم إلى الإنجليزية دخل إلى الغرفة /جيرارد وارتشمان/. كان كوكهان يعرف هذا الشخص باسم /باي دادي/.

تذكر كوكهان لحظة تعارفهما الأولى.

في يوم الإغارة.. وعندما كان يحاول الهرب من الغارة مكسور الذراع ومجروح الساق.. كان قد وقف إلى جانبه وبسرعة ميكرو باص صغير أسود اللون.. وبعد أن تم فتح الباب الخلفي. كان قد نزل رجلان من السيارة وحملا كوكهان بسرعة ووضعاه داخل /الميكرو/ دامت العملية مدة ثلاث ثوانٍ فقط. كان كوكهان قد فهم أنهم من طرفه.

في الوقت الذي كان على وشك الموت من كثرة النزيف وإذا به يلاحظ وجه هذا الرجل وهو يبتسم له. وبالأصل كان قد أغمي عليه بعد ذلك. وعندما عاد إلى وعيه كان ذلك الرجل يجلس إلى جانب سريره.

كان جرحه قد عولج ولفت ذراعه المكسورة.

كان الرجل قد بدأ معه الكلام: "مرحباً.. انت لا تعرفني ولكن أنا أعرفك جيداً يا كوكهان. هل تريد أن أقول لك /جونسال/؟

لم يكن كوكهان قد قابله بالحديث.. من التعب ومن الوصايا التي أعطاها العم تيومان للولد الصغير لا ترد على الجمل التي لا تحوي أسئلة".

- "أكيد تريد أن تعرف عني شيئاً ـ تستطيع أن تقول لي: "باي دادي" حتى هذا الاسم لا يُفيد بأي شيء أليس كذلك؟ وإذا أردت الحقيقة أنا بترون عملك الأخير في /روتوردام/.

لمعت عينا كوكهان إذن هذا هو الرجل الذي دخل /السيستام/ ووجّهه. ضحك الرجل وقال: "استطيع أن أُخمّن بالذي تفكر فيه الآن. ولكن اسمح لي أن أُحيرك أكثر..".

جلب الرجل الكرسي الموجود في نهاية الغرفة ووضعه قرب السرير وجلس عليه وقال: "أنا لم أوجهك من أجل ذلك العمل فقط. أنا الذي أرشدتك إلى التقرير وفجرت سيارتك كي تعود إلى تركيا. أردت أن يعرف الأتراك كل المخططات

الأمريكية بشكل غير مباشر. ولكن لم ننجح في ذلك".

أخرج غليوناً وهمّ بإشعاله ونظر إلى كوكهان.. ثم أعاده إلى جيبه وكأنه يقول: "المهم" وأكمل". في تلك الأثناء كان عليَّ أن أعود إلى أمريكا.. وثم ضيعت إثرك. حتى عندما ظهرت صورتك على شاشة التلفاز.. والحقيقة كان وجودك خلف تلك القنبلة قد حيرني كثيراً. وفي وقت كنت أظن نفسي فاشلاً.. المهم لا أريد أن أزعجك أكثر من هذا. وعندما فهمت من عميلنا الموجود داخل الشرطة عن الإغارة من أجل القبض عليك. فكرت بأنني يجب أن أكون قريباً من هذه المناطق.. وهكذا عندما قفزت من النافذة - أنت رجل شجاع جداً- كنا موجودين هناك.. هذه هي كل الحكاية..

وهكذا كان باي دادي قد ساعد كوكهان في عودة صحته. كان /دادي/ قد دخل الغرفة عندما كان أردوغان يلقي تصريحه أو خطابه ولكنه لم يكن وحيداً. كان قد جاء مع فتاتين جميلتين تحملان مأكولات ومشروبات.

قال /باي دادي/: "لقد فكرت بالتهنئة لخبر جميل يا كوكهان".

ثم أخرج زجاجة مملوءة بعصير البرتقال وقال: "على مدى علاجك فإن الخمر ممنوعة عليك. ولهذا السبب سنشرب عصير البرتقال الذي هو مستودع للفيتامينات".

طبعاً كان كوكهان سعيداً. ولكن ثمة انكسار كان ينام في أعماقه في الوقت الذي كانوا فيه يتناولون الطعام. كانوا يراقبون التصريحات أيضاً. كانت ثمة أخبار كثيرة تدور في الأوساط العالمية.

كانت كل من فرنسا وألمانيا وروسيا والصين تؤكد بأنها ستساعد تركيا في إعادة بنائها وإعمارها. وكان الرئيس الأمريكي الجديد دونالد رامسفلد يقول: بأن أميركا ستحاسب نفسها. مع أنه كان هو أحد المعمارين الرئيسين في السياسة الأمريكية.

قال كوكهان: "الأمريكيون هكذا على الدوام. يرمون الذنب على أحدهم ويحاولون تخليص أنفسهم" قال ذلك وخرَّب الصمت الذي لازمه طويلاً.

ابتسم باي دادي وقال: "لا تقلق. في هذه المرة بقيت أنوفهم محشورة في التراب. وخاصة عندما أفنيت واشنطن. لقد أريتهم بوضوح بأنهم قد ذاقوا ما اقترفت

أيديهم. وربما هذا صار أفضل".

تمتم كوكهان: "هل تقول حصل خيرٌ.. ومئات الآلاف من البشر..."

هربت اللقمة الموجودة في فم /دادي/ إلى حنجرته فقال وهو يسعل. "أرجو المعذرة. ولكن أنا حاولت أن أمنع ذلك وأنت أيضاً".

كان يقول الصواب. هزَّ كوكهان يده قائلاً: "حط بالخرج.. هل تعرف ماذا حصل. وكيف قبلت أمريكا الانسحاب من تركيا؟ لم تكن للقنبلة أي تأثير عليهم."

أرسل باي دادي قهقهة وهو يقول: "شيء غريب.. خلاص تركيا كان من تحت رأس التقرير أيضاً. ولكن بشكل غير مباشر لم نستطع أن نمنع الحرب ولكن استطعنا إنهاءها. رئيس وزرائكم إنسان عاقل جداً.. أرسل التقرير إلى الدول الأخرى أيقظهم من الموقف الذي سيقعون فيه. عندما تحتل أميركا الأناضول بمفردها. واتحدوا جميعاً ليصير جزء من بعض الحرب ولكنهم تحركوا. ربما لو لم تقاوموا هذه الدولة الجبارة.. ربما لم يجدوا الشجاعة في أنفسهم. حتى لو لم يتم هذا الاتفاق كانت أمريكا سترضخ للأمر الواقع وتنسحب من تركيا".

كبرت فرحة في أعماق كوكهان. كان يحس بتأنيب الضمير وبالذنب لأنه لم يستطع أن يمنع الحرب عن بلاده ولم يستطع الذهاب إليه منذ بدء الحرب وإلى الآن. كان هذا الخبر قد أسعده كثيراً.. على الأقل صار فائدة لهذا التقرير الذي أوصله إلى هناك.

- "أراك فرحاً ولأول مرة ومنذ أيام طويلة. في الوقت الذي كان فيه شعبك يحترق من الهجمات.. ويحارب. وأنت هنا محصور بين الجدران الأربعة أليس صعباً؟ ما يكن لك أي فكر عندي لك هدية مهمة جداً."

شدَّ كوكهان على عينيه ونظر. أشار /دادي/ إلى أسفل الصحن الذي أكل منه الطعام. عندما رفع كوكهان الصحن لاحظ أن ظرفاً أصفر ملصوق بأسفله. وعندما فتحه وقعت بعض الصور على يديه.

صورة طويلة لرجل ذي نظرات ظالمة. وفي بعض الصور صورة مزرعة وفيلا.

قال دادي: هذا أدريان الثالث لينام.. هو لك.

قذف كوكهان الظرف فوق الطاولة وقال غاضباً: " هل تريد مقابل الذي قدمته لي."

لم يكن باي دادي قد تأثر بما قاله..ابتسم وهو يشعل غليونه ابتسامة ذات معنى وقال: "لقد فهمتني خطأ... هذا الرجل هو الوحيد الذي تريد البقاء معه على انفراد لفترة من الوقت"

كان كوكهان قد استغرب كثيراً نظر إلى الصورة مرة ثانية وقال: "من هذا أدريان الثالث لينام."

- "عائلة /لينام/ تثري منذ الحرب الأهلية الأمريكية. كان بتريك لينام قد سرق مال الجنوبيين وأراضيهم وبعد الحرب الأهلية مع عصابته وصار غنياً. بعد ذلك دخل بشغل الحديد والفولاذ.. ها.. وأكثرية المقابر الموجودة في أمريكا له".

سحب نفساً من غليونه قاطعاً حديثه.. قال كوكهان وهو يفقد صبره "إيه" طالباً منه إكمال حديثه.

"قلت لك شغل معدن.. ألم تفهمني؟ هذا الرجل هو صاحب شركة /اورينكرون/ والأهم من هذا، هو أول المخططين لاحتلال تركيا".

لم يكن هناك أية ضرورة ليتحدث أكثر.. أخذ كوكهان الصورة ونظر إليها مطولاً.

٨ حزيران ٢٠٠٧

- تركيا-

كانت الشمس قد أشرقت مختلفة في اليوم التالي للحرب فوق تركيا. كان الناس يشعرون ببعض الراحة بالرغم من تعرضهم للآلام والخسائر والنكبات. هذه الأراضي كانت قلب العالم وستظل على الدوام كذلك. ولكن يملكها الشعب. كان عليه اللعب بالنار والامتحان. وكل نسل كان عليه أن يعطي هذا الامتحان حتى تبقى الأرض عزيزة مكرَّمة.

كان حسن قد أخرج غنماته في ضحى ذلك اليوم وأخذها إلى المرعى في سهول /مالازغريت/ الخضراء. وقد أخذ معه المذياع الصغير الذي أرسله له عمه الذي يعمل في المملكة العربية السعودية.

كانت الإذاعة الأولى تبث الأخبار على الدوام. كان المعلقون يتحدثون عن أمريكا وقوتها وكيف نالت عقابها في تركيا. وأخذت الضربات المتتالية. كانت تركيا قد صدت تهديداً كبيراً كما فعلت في بداية القرن الماضي.

في الوقت الذي كان فيه حسن يستمع إلى المذياع. كانت ثمة طاقة كبيرة. تشد على شرايينه تريد الخروج. تذكر مدرسته التي تركها في منتصف العام. حيث وجد نفسه فجأة وهو ينسج الخيالات الجميلة. هو ابن بارٌ لوطن غلب دولة عظيمة وتعد زعيمة العالم. كان عليه أن ينهي دراسته ويكون إنساناً مهماً في وطنه. لو تحدث مع عمه.. هو الآخر يستطيع إقناع والده. حتى إنه يساعده ليدرس في المدينة. نظر حواليه. لأول مرة تذكر مكان هذه الأرض في التاريخ. كان /آلبسلان/ هو الذي انتصر في المعركة وأدخل الأتراك إلى هنا. كان الأتراك وما زالوا أسياد هذه الأراضي.

أكملت الشمس ارتفاعها فوق الأناضول مهد الحضارات. استقبل اليوم الجديد الجنود المتعبون والمجروحون الذين كانوا ينظفون قاعدة /أرهاج/ الجوية من

الأنقاض بمفاجأة سارة.. كان المدنيون قد استقلوا الباصات والشاحنات يأتون لمساعدة جيشهم في كل مكان من الصباح الباكر. ومع ألبسة توقي جنودهم من برودة الفجر والوسخ وأشياء أخرى.

نزل من السيارة الصغيرة الأولى العم أحمد وهو يحمل فأسه بيده وله لحية بيضاء جميلة. وقف أمام النقيب الذي كان ينظر إليهم باستغراب وقدّم له التحية العسكرية وهو يقول: "قل لنا يا ابن أخي من أين نبدأ؟"

كان الناس قد بدؤوا يومهم الجديد بفرح... يريدون تقديم أي شيء أي خدمة لوطنهم.

كان انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية قد قطع التوترات والفوضى القائمة في الجنوب الشرقي من البلاد. مثل السكين.. كان إلقاء القبض على العصاة والمتمردين يتم بتعاون الدولة مع رؤساء العشائر.

والإرهابيون كانوا يهربون إلى شمال العراق في الوقت الذي كانت فيه القوات تتعقب الفارين. كان بعض منهم يستسلم لقوات الأمن بفرح وسرور.

مرت الشمس من فوق لواء إسكندرون وأضنة وقونيا. هذه المدن كانت تضمد جراحها القانية.. كانت أنقرة قد تعرضت لأكبر الهجمات على الإطلاق ولكنها لم تعلن استسلامها. كانت وحدات الجيش والجندرمة القادمة من منطقة البحر الأسود. توزع الأرزاق والخبز على الناس. ويساعدونهم على رفع الأنقاض. وكل المكنات والسيارات الضخمة كانت تنظف أنقرة التي ستظل عاصمة أبدية رافعة راية النصر على الدوام.

أما في أزمير فكان الناس يذهبون إلى ساحل البحر لتناول الفطور الصباحي وكأنهم قد تواعدوا على ذلك. كانت الآلام قد قرّبت الناس من بعضهم.. وهم يتبادلون الابتسامة الصباحية.

أما إستنبول فكانت أكثر المدن إحساساً بالخلاص والحرية. كان الجنود الأتراك قد وضعوا أيديهم على كل الأسلحة والأجهزة التي تركها الجيش الأمريكي أثناء انسحابه. منها الدبابات والمروحيات.. كانوا ينقلونها إلى القواعد العسكرية.

وكانت الخدمات قد بدأت تسيل نحو الشعب بتعاون البلديات مع الولاة:

حيث كانوا قد بدؤوا بتعمير البنية التحتية المخربة وبالسرعة القصوى.

كان الوطن قد تحوّل إلى مستودع لمواد النباء.

١٣ حزيران ٢٠٠٧ . الساعة ٠٢,٣٠

شيكاغو هيفانغيت . عمارة لينام

كانت العمارة داخل مجموعة من الظلال. استيقظ أدريان الثالث لينام فجأة شدَّ على أُذنيه. لماذا كان قد استيقظ يا ترى؟ لا يوجد أي شيء على الإطلاق. ولكن كان ثمة شيء ناقص. وهو الأنين الخافت.. كانت ترتيبات الأمن التي تلف المنزل.. الأسلاك الكهربائية والحاسوبات. كانت هذه الأجهزة تخلق نوعاً من الأنين على الدوام. تماماً مثل نبض المنزل. هذا الذي كان ناقصاً.. كان هذا الرجل الذي يعيش داخل بيته على الدوام قد شعر بهذا النقص.

ولكن ثمة صوت آخر يخيفه الآن وقريباً منه... وصوت نفس قريب جداً منه.. كانت غرفة النوم مظلمة مدَّ يده وضغط على زر المصباح ولكن لم يحصل أي شيء.

تحرك الظلام من أمامه. جلس أحدهم على طرف السرير وهمس "سيد لينام".

كان /لينام/ خائفاً.. ولكن على الأقل كان هذا الصوت صوت إنسان.

فأجابه /نعم/ ولكن بصوت ممزوج بالمنطق على أمل بناء محادثة معه. ثم أضاف: "إذا كان طلبك مالاً. في الخزانة محفظة.. وفيها ثلاثة مليون دولار".

كلمة المال لم تكن ذات أثر على صاحب الصوت. حيث أجابه الظلام: "جئت كي آخذك معي".

ارتجف لينام فجأة وسأل بخوف: "إلى أين؟"

- "إلى جهنم" ثم كبس على فمه قطعة قماش تحتوي على مادة :كلوروفوروم/

١٤ حزيران ٢٠٠٧

مكان غير معروف في الولايات المتحدة الأمريكية

عاد أدريان الثالث لينام إلى وعيه.. مع آلام في رأسه من تأثير /الكلور فورم/. كان داخل غرفةٍ عادية قليلة الأغراض والموبيليا. وفي وسطها تماماً. كان جسده ملفوفاً بقطعة معدنية وربما من دبابة بخارية قديمة معطوبة. كان رأسه يخرج من ذلك الثقب المدور وساعداه كانت تخرجان من الثقبين الجانبيين.. كان يشبه الفرسان في العصور الوسطى. أما جسده ورجلاه فكان داخل الدبابة. والخلاص من هنا كان يعد من رابع المستحيلات. كان يستطيع رؤية الأقفال أمام الدبابة عبر المرآة الموضوعة أمامه.

وكأنه في حلم فوق الحقيقة. وأغرب جهة من هذا الحلم كان في المطبخ: الرجل الذي كان يحضر الطعام يجب أن يكون هو الغريب الذي خطفه.. كان الآن قد بدأ يتذكر رويداً رويداً. بعد أن وضع الرجل الطعام فوق النار. نظر إليه . شيء ما أخاف لينام من هذه النظرة. وكأن الرجل ينظر إلى شيء ما وليس لإنسان.

أحضر الغريب من الغرفة المجاورة كاميرا فيها أرجل ووضعها أمامه.. وشغلها لفترة كي يرى إن كانت تعمل أم لا.

هذا الوجه لم يكن غريباً على /لينام/. كان يتذكره بعض الشيء ولكنه ينسى ثانية.

بقيا صامتين لفترة طويلة. عندما نضج الطعام ملأ الغريب صحناً إلى آخره وأتى به إليه عنده. قرر لينام أن يذهب مع الغريب حتى النهاية.

وبعد أن تناول عدة ملاعق.. قال: "هل تريد فدية؟"

هزّ الرجل رأسه بشكل سلبي. ثم قال وكأنه تذكر: "أخذت المال الذي في الخزينة . أشكرك.. سأستفيد منه كثيراً أنا لم أخطفك من أجل فدية".

- "طيب ولماذا؟"

- "كما قلت لك.. كي آخذك إلى جهنم.. ستموت".
- "حسنٌ.. ولماذا؟"
- "لو قلت /أورينكرون/ أو العاصفة المعدنية..؟"

فجأة تذكر أدريان الثالث لينام هذا الوجه. كان قد ضعف بعض الشيء. وترك شاربه. ومع هذا عرفه قال: "أنت ذلك الإرهابي".

ثم تكلم وكأنه يبصق: "لقد قتلت آلاف البشر الأبرياء بتلك القنبلة".

أدار الرجل الملعقة داخل الطبق للحظة واحدة. ثم تركها في طرف الصحن.

ثم ضرب وجه لينام بلكمة قوية وقال: "إذن أنا إرهابي ها؟ الرجل الذي يخطط من أجل إفناء شعبي يحاسبني ها..؟" كان قد غضب كثيراً.. جعل من يده لكمة وشدها.. ذكرٌ /لينام/ في نفسه: إن الرجل على وشك أن يضيع نفسه ويقتله.

قال: "لا.. لا.. موتك لن يكون سهلاً هكذا.. سأقص لك حكاية."

ومن جهة كان يطعمه بقوة.

"يقولون: إذا قام أحدهم بذنب عظيم في وسط آسيا.. يحضرون له موتاً ليكون له وللناس جميعاً عبرة. يأتون بجذع فارغ من وسطه. ويدخلون الرجل إلى داخل الجذع بحيث يبقى رأسه في الخارج. وبعد أن يغلقوا الثقوب كلها.. يبدؤون بإطعام المذنب وشربه.."

كان لينام يلاحظ أن هذه الحكاية تطابق حالته. حاول دفع الملعقة الداخلة إلى فمه برأسه. وعندما سحبه الرجل من شعره بقوة قال له صارخاً "اسمعني جيداً. إذا لم تتناول طعامك. سأُلقمك رويداً رويداً.. هل فهمت؟"

كان يشير بيده إلى ذراعي /لينام/ في الخارج.. "لا تأمل أن يسمع أحد صراخك. نحن في كوخ جبلي".

فهم لينام دون قوة ولا أي شيء أمام هذا الرجل. فأكل الطعام الممدود إلى فمه دون اعتراض.

قال كوكهان: "المهم.. لأكمل لك الحكاية.. يقال: كل ما أكل الرجل وشرب.. يمتلئ الجزع من الداخل بقاذوراته وبعد فترة يتعفن جسد المذنب داخل الجذع. من وسخه.. موت بطيء.. مملوء بالألم.. وفيه عبرة لمن اعتبر."

نبذة قصيرة عن حياة المؤلفين

١. بوراق تورنا BURAK TURNA

ولـد بـوراق تورنـا في إسـتانبول في ٢٠ كـانون الثـاني ١٩٧٥م أكمـل تعليمـه الابتدائي والإعدادي والثانوي في /يشيل كوي/. نـال الليسانس في إدارة الأعمـال. من جامعة /غرنة الأمريكية/ في جزيرة قبرص التركية.

عمل مترجماً في مجال وسائل الإعلام وترجم المجلات والكتب. وعمل محرراً اقتصادياً. ثم عمل في عدة مجالات.. ومـا زال يعمل في عدد واسع من الأشغال والأعمـال. بـدأ حياتـه الكتابيـة.. مباشـرة بالروايـة..دون المـرور بكتابـة القـصة واليوميات. ولكن مغامراته الخيالية دامت معه منذ معرفته بنفسه. والعاصفة المعدنيـة هـو العمـل الإبـداعي الأول للمؤلـف. إلى جانـب كتابـة الروايـة. يكتب النصوص الفلسفية والسيناريوهات بالتركية والإنجليزية.

وأنهى كتابة كتاب أسماه /النظام A: النظام المطلق. (مدخل في البنية التحتية لماكينة الزمن المنطقية والنظرية). ولكن هذا الكتاب لم ينشر بعد.

ويعمل الآن في رواية "الحرب العالمية الثالثة".

٢.أوركون أوجار ORKUN UGAR

ولد أوركون أوجار في ناحية /عولجك/ التابعة لولاية /قوجة علي/ في واحد حزيران من عام ١٩٦٩، وتخرج من كلية IU المعلوماتية. عمل لسنوات طويلة في الصحف والتلفازات. وعندما نال الجائزة الأولى التي نظمتها مجلة /NOSTONMO/ في عام ١٩٩٩. في القصة القصيرة... والقصة العلمية".

قرر أن يعمل في الكتابة والتأليف. في عام ٢٠٠٠ شكّل نادياً بعنوان "نادي القصص الخالدة /XASIORK/ في مجال الإنترنت.

وفي عام ٢٠٠٢ أصدر دار نشر بعنوان "دار نشر القصص الخالدة" بالاشتراك مع "سيبل أتاسوي" ويعمل الآن في كتابة روايته: "الدجّال"

نظر لينام نحو الكاميرا التي كانت أمامه وهو يحاول بلع اللقمة التي في فمه.. لاحظ وهو في حيرة من أمره.. أن أمعاءه قد بدأت تضايقه.

انتهت



14 حزيران 2007

مكان غير معروف في الولايات المتحدة الأمريكية.

عاد أدريان الثالث لينام إلى وعيه.. مع آلام في رأسه من تأثير /الكلور فورم/.

كان داخل غرفة عادية قليلة الأغراض والموبيليا وفي وسطها تماماً، كان جسده ملوفا بقطعة معدنية وربما من دبابة تجارية قديمة معطوبة. كان رأسه يخرج من ذلك الثقب المدور وساعداه كانت تخرجان من الثقبين الجانبين.. كان يشبه الفرسان في العصور الوسطى.. أما جسده ورجليه كانت داخل الدبابة. والخلاص من هنا كان يعد من رابع المستحيلات. كان يستطيع رؤية الأقفال أمام الدبابة عبر المرآة الموضوعة أمامه..

من الرواية

هكذا أنهى الكاتبان روايتهما كأنه حلم فوق الحقيقة على خطى جورج أورويل، أقبل عليها الجمهور بشكل منقطع النظير وبينما بدأت الرواية تترجم إلى ثلاثة عشر لغة خلال ستة أشهر ينشغل الكاتبان الآن بكتابة رواية (الحرب

نينوى

عالم المعرفة
العاصفة المعدنية
A 5 رواية
S.P350
134492